

الهيئة العامة للإستعلامات
كتب مترجمة (٧٨٧)

BEGIN

A Biography



Eric Silver

مفت نامف

بـيـجـين ..
سـيرة حـياته
تأليف : إريك سيلفر

إهداء ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قنري محمود حنفى
جمهورية مصر العربية

بيجين سيرة حياته

أريك سيجر

المحتويات

شكرو وعرفان

الفصل الاول	: وليد لصهيون
الفصل الثانى	: عند اقدام المعلم
الفصل الثالث	: هروب واعتقال
الفصل الرابع	: الانتقال الى « الجولاج »
الفصل الخامس	: الاتجاه شرقا نحو المقاومة السرية
الفصل السادس	: انتهاء الهدنة
الفصل السابع	: مأساة الاخطاء
الفصل الثامن	: النفس بالنفس
الفصل التاسع	: الخروج من عش « الدبليز »
الفصل العاشر	: كما حدث في دير يلجين
الفصل الحادى عشر	: تمرد على السفينة « التالينا »
الفصل الثانى عشر	: اختيار جانب المعارضة
الفصل الثالث عشر	: الخروج من التيه
الفصل الرابع عشر	: التدريب على الحكم
الفصل الخامس عشر	: وحدة ام اخفاق
الفصل السادس عشر	: زلازل جنيف
الفصل السابع عشر	: تجربة ثقة رهينة
الفصل الثامن عشر	: السلام وفق شروطنا
الفصل التاسع عشر	: معسكر اعتقال فلخر
الفصل العشرون	: منح جائزة قبل الاوان
الفصل الحادى والعشرون	: مشرق تسيّد
الفصل الثانى والعشرون	: خيبر الحرب
الفصل الثالث والعشرون	: لا استطيع الاستمرار
الفصل الرابع والعشرون	: البيت الذى شيده مناخم

شكر وعرفان

يسعدنى أن أعرب عن امتننى لأسرة منلحم بيجين ، ورفاقه فى السلاح ، وزملائه ، والعلمين معه ، ومستشاريه لمشاركتهم لى بذكرياتهم ومعلوماتهم عن هذه الشخصية المعقدة . وأخص بالذكر شقيقته « راشيل هالبرين » التى ساعدت كثيرا فى الكشف عن خلفيته فى السنين الأولى من حياته .

ولقد قدمت لى كل من « سوزان هفيس رولف » و « إسرائيل ميداد » مساعدة قيمة فى البحث فى المصادر العبرية ، وقد تكرما مشكورين بهراجمة المخطوط قبل الطباعة وتصحيح أى انحراف من جانبى عن الحقيقة . كما قدم « نرومان روز » ، من الجامعة العبرية ، و « ديفيد لاندو » من صحيفة الجيروسالم بوست اقتراحات بناءة فى تعديل نصوص الكتاب .

وقد قام كل من « شارون بارنيت » و « رالف بلانديل » بترجمة المقالات من الصحف والمطبوعات العبرية الأخرى . بينما قدمت كل من « استرغالينشيا » و « باربرا بيرنو » بتفريغ شرائط التسجيل ونسخ المخطوط على الآلة الكتبية على التوالى .

وانتهز هذه الفرصة لأشكر المديرين والعلمين بسجلات دولة إسرائيل ، ومعهد جلوبوتسكى ، وإدارة الملفات بصحيفة الجيروسالم بوست ، ومجموعة كويسيل من تصالكت الصحف العبرية بمركز أوكسفورد للدراسات العبرية العليا ، والمركز الصحفى للحكومة الإسرائيلية .

وأخيرا أقدم شكرى الى رئيس تحرير صحيفة « الجارديان » لمنحه إياى اجازة حتى أستطيع انجاز هذا الكتاب ، والى عميد وأعضاء كلية سانت كاترين بجامعة أوكسفورد لكرم استضافتهم لى أثناء المراحل الأولى من اعداد هذا الكتاب .

« أريك سيقتر »

الفصل الاول وليد لصهيون

ان مناحم بيجين هو اكثر الرجال ثباتا على المبدأ .. سواء من حيث العقيدة او الاهداف او الايمان بأساطيره الخاصة . ولعل رغم من أنه أمضى الجزء الأكبر من حياته في اسرائيل ، فان جذور نزعته القومية اليهودية العنيدة الثابتة ترجع الى مستقر راسه في « بريست - ليتوفيسك » حيث ولد في ١٦ أغسطس ١٩١٣ ، كان الطفل الثالث والآخر لكل من « زئيف دوف » ، و « هلسيا بيجين » . ولطالما قدم الرجل الذي أصبح فيما بعد رئيسا للوزراء فخرى الولاء والاحترام لفلاديمير زئيف جلوبوتينسكى بمفاته « معلمه واستاذ » ، بيد ان معظم فكرياته عن النفس ، فضلا عن معظم اشاراته الى مشاعر الكبرياء والاعمال البطولية التى ظل يستشهد بها حتى بعد نصف قرن من الزمان ، يمكن اسنلدها الى « زئيف دوف » معلم بيجين ومثله الأعلى . أما « جلوبوتينسكى » فقد اضاف الى ما سبق اطارا ايديولوجيا وتنظييا ، وادى فكره المستتر الى اشارة حب الاستطلاع فى بيجين واصبح بالنسبة له نموذجا يقتدى به فى أسلوبه الخطبى ، وبطلا محبودا .

وكلت مدينة « بريست - ليتوفيسك » ، التى تعرف ايضا باسم « بريست » ، واحدة من مدن الحدود الموجودة فى أوروبا الشرقية والتى لم يكن من المعروف بالضغط ما هى الدولة التى تتبعها . فقد كانت فى العصور الوسطى تقع فى صميم دوقية « ليتوانيا » . وخضعت ابلن القرن العشرين لحكم روسيا وبولندا والمانيا . واليوم تعتبر المدينة عاصمة لاقليم « بريست » بجمهورية بيلوروسيا السوفيتية الاشتراكية . وقد نزحت اول جماعة يهودية الى المدينة واستقرت بها خلال القرن الرابع عشر وقلبت بدور قىلاى فى نميتها وتطويرها لتصبح مركزا للتجارة والمواصلات . وعلى الرغم من ان اليهود مروا بفترات مختلفة تظللها حصولهم على امتيازات وتعزشهم للاضطهاد ، الا انهم برزوا كمستوردين ومصدرين وملاك للاراضى ومقاولين ورجال علم ودين .

وكانوا يتصفون بالايمان العميق ولكن ايمانهم كان ذا صبغة دنيوية وكانت « بريست » معقلا لجماعة المتناجم الذين كانوا يرفضون التطرف وعندما طرد جميع اليهود الذين رفضوا التحول عن دينهم من ليتوانيا لم يشذ عن القاعدة سوى تاجر واحد فقط اعتنق المسيحية . وقد سمح لبقى اليهود بالعودة الى المدينة بعد ثمانى سنوات من ذلك التاريخ ،

عندما أعاد الدوق النظر في الموضوع . وأصبح اليهود ، عندما ولد « مناحم بيجين » ، يشكلون ٧٠٪ من سكان المدينة . ويبلغ عددهم عام ١٩٣٩ عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، حوالي ٣٠ ألف نسمة . وقد وجد بمدينة « بريست » عندما تم تحريرها من قبضة النازية ، ما يقل عن ١٠ فقط من اليهود . وتفيد دائرة المعارف اليهودية بأن « عدد السكان اليهود (بالمدينة) بلغ عام ١٩٧٠ حوالي ألفي نسمة . ولا يوجد بها معبد حيث تم تحويل آخرها في عام ١٩٥٩ الى دار لعرض الأفلام » .

وكانت مدينة « بريست » ، التي عاش « مناحم بيجين » شبابه فيها ، مدينة يهودية مزدهرة بالفعل — حتى لو أخذنا في الاعتبار اللون اوردى الذي قد تضفيه انذاكرة خلال خريف العمر على الذكريات الخاصة بمرحلة الشباب — فهو يذكر أن المدينة : « كانت مليئة بالمعابد والمعاهد الدينية . وكانت هناك مدارس يهودية تستخدم فيها اللغة العبرية للتعليم . وكانت توجد بها حركات شبابية عظيمة تضم آلاف الاعضاء . وكنا نخرج في عيد « لاج باعوم » (عيد لليهود — ١٨ آيار) الى الشوارع في استعراضات تضم آلاف الأشخاص الذين يحملون الاعلام الزرقاء والبيضاء والذين يتناخرون يهوديتهم . وكانت الحياة الثقافية لليهود غنية ، بما تذخر به من مصف ومسارح ، فقد كانت لنا حياتنا المستقلة » .

ويمكن القول بأن مناحم بيجين « كان منذ ولادته صهيونيا بمعنى الكلمة وكانت الحكمة التي اشرفت على ولادته هي جدة « اربل شارون » ، الذي أصبح فيما بعد جنرالاً اسرائيلياً ووزيراً للدفاع . وقد بعث الصهيونيون المحليون بكعكة على هيئة باقة من الورد في مناسبة الاحتفال بختانه بعد ثمانية أيام من مولده . وكان « زئيف دوف بيجين » و « ثيودور شينرمان » جد شارون من بين الرواد الأوائل للحركة الصهيونية في « بريست » عندما كانت تلك الحركة ما زالت في مرحلة النضال من أجل اثبات الذات ، وقد قام « زئيف دوف » و « شينرمان » بكسر باب المعبد الرئيسي في بريست بالفأس ، بعد وفاة « ثيودور هيرتزل » مؤسس الصهيونية السياسية في عام ١٩٠٤ ، عندما رفض الحاكم « حايميك سولوفيشك » السماح لهما بغلمة الصلاة على روحه ، وأخذاً منهما مفتاح المعبد . لقد كان الحاكم يعتبر « هيرتزل » مغرطاً في العلمانية أكثر مما يجب ، ولكن الصهيونيين نجحوا في إقامة القداس حتى بالرغم من أن ثلاثة اشخاص فقط هم الذين حضروه .

ولقد كان « زئيف دوف » مصابياً ، ولم يتعد مرحلة التعليم الاساسى وهي مرحلة الدراسة الاولى في إحدى المدارس الدينية التتلميدية الخاصة بأطفال اليهود ، والتي التحق بها في سن الثالثة وتركها بعد أربعة عشر عاماً وهو يحمل دبلوم الدراسات الدينية . وقد أمضى حياته ملتزماً بالصهيودية

ولكن دون تطرف . وتذكر ابنته «راشيل هالبرين» انه كان يرتدى «التيفلين» (وهى اربطة جلدية شماعية يرتديها اليهود المتدينون كل صباح حول سواعدهم وجباجهم ، ولكنه كان يفعل ذلك عادة داخل المنزل أكثر مما كان يفعله في المبد . ولم يكن يتلو كل صلوات الصبح والعصر والمساء . ولم يكن يرتدى قبعة داخل المنزل الا عند مواركته للطعام . وكانت لحينه مشنبة كما كان يطلب من اطفاله ان يغسلوا أسنانهم أثناء صيام « يوم كيبر » — على عكس التقليد الارثوذكسى المتشد — ولكن على شرط ان يحترسوا من ابتلاع الماء . فكان يقول لهم « انكم اليوم ستكلمون الرب » ، ولذلك يجب ان يكون نمكم نظيفا . وعندما اضطرت « راشيل » ، التى تكبر « مناحم » بخمسة أعوام ، الى التوقيع يوم السبت على بعض الاوراق الخاصة بجامعة وأرسو ، قال لها والدها انه يمكنها ان تعمل ذلك دون ان يكون فى ذلك اعتداء على السبت « مؤكدا لها ان المعرفة تعتبر بمثابة مسألة حياة او موت ، ولذلك فعليك ان توقعى » .

ولقد اطلع — زئيف دوف — لأول مرة على الحضارة الاوربية بمد مخادته للمدرسة الدينية بوقت وجيز ليعمل فى تجارة الاخشاب مع والده . فقد لمس كاتب حسابات المالى الجنسية يعمل مع والده ما لديه من قدرات ، وشجعه على الهرب للدراسة فى برلين . ولكن سرعان ما ادركه والده واعاداه اليها وقتما بتزويجه على غير ارادته . ولم يدم زواجه أكثر من عام انتهى بطلاق « زئيف دوف » زوجته على الرغم من انه رزق منها بابنة . ومضى خمسة وعشرون عاما تقريبا قبل ان يفكر فى الزواج مرة ثانية . وكانت عروسه « هاسيا كروموفسكى » هى ابنة أسرة « ريلقية » بولندية . وكان قد بلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاما بينما كانت هى فى العشرين من عمرها . ولم تكن تتكلم الا باللغة الييدية ، (وهى لهجة المانية قديمة تتخللها كلمات عبرية وسلافية) ، ولكن ذلك لم يحد من تعاطيها للمعرفة ، وتقول ابنتها « راشيل » لقد قرأت أعمال جميع الكتاب العالمين العظام « بالييدية » ، وكانت تتمتع بفضول عيبى وفكاهة حاد وشخصية قوية . وكانت تواتة طوال الوقت للمعرفة ولا شئ غير المعرفة (٤). وكثيرا ما كانت تجلر الاخشاب تقود « زئيف دوف » للمسفر الى الخارج ، ويصفه خاصة الى برلين . وتؤكد مسز « هالبرين » : « انه كان من أكثر المحبين للالمان » . وتقول : « اننى أذكر عندما كنت فى السادسة من عمري ، فى بداية الحرب العالمية الأولى انه كان يصطحبنى فى نزاهات سرياً على الاقدام ويقول لى « الا تعلمين ان الالمان قادمون ، ان لهم حضارة مختلفة عن الحضارة الروسية » . وكان يتحدث اللغة الييدية والعبرية والروسية فضلا عن الالمانية . وعندما تعلم ابناؤه اللاتينية فى مرحلة الدراسة الثانوية التقطها منهم . وكان « زئيف دوف » ، مثل اصغر ابنائه ، يحب التشديق بعبارات لاتينية أمام البسطاء . فقد ردد مثلا فى احدى المناسبات عندما طلب منه بعض

اليهود السذج أن يقوِّط في خلاف ما عبارة باللاتينية معناها « أن القلون تلس ، ولكنه القاتون » ، الامر الذى أصاب اليهود بالذعر .

وكان « زئيف دوف » في يهوديته ، يؤمن بمذهب الفعلية . (وهو مذهب يؤكد على ضرورة اتخاذ الإجراءات الفعالة أو العنيفة لتحقيق الأغراض السليمة) وكان يرى أن العقيدة اليهودية والقومية اليهودية شيء واحد . وقد غرس في أبنائه الشعور بالفخر إزاء انتمايتهم لليهودية . وكانوا أثناء تعليمهم الجامعي يذكرون دائما أن لغتهم الأصلية هي العبرية ، عندما يطلب منهم تحديد لغتهم . وكان أكبر أبناء « بيجين » يرفض التحديث البولندية التي كان يحتقرها بصفتها لغة معادية للسامية (ويرفض « مناحم » أيضا حتى يومنا هذا استخدام تلك اللغة ، بالرغم من أنه تلقى تعليمه في مدرسة ثلثوية بولندية ثم في جامعة وارسو) .

وكان « زئيف دوف » يردد دائما على أسماعهم ، ويغرس في عقولهم « المفزى الحقيقي » من قضية « بيليس » التي دار حولها « حملة تشهير دموية » والتي وقعت بمدينة « كييف » ، أبان خريف عام ١٩١٢ ، أي علم مولد « مناحم » كان « مينديل بيليس » ، وهو يهودى روسى يبلغ من العمر ٢٧ عاما ، قد قدم للمحاكمة بتهمة قتل ولد مسيحى يبلغ من العمر اثني عشر عاما . تنفيذاً لبعض الطقوس الدينية . وتمت تبرئة « بيليس » بعد أن أمضى عشرين في السجن فضلا عن شهر استغرقته المحاكمة ، بيد أن حملة التشهير استمرت تفنذ الحملات المعادية للسامية في جميع أنحاء أوروبا .

وتقول مسز هالبرين : « أن والدنا كان يردد علينا مقالته محلى « بيليس » ليوكله أثناء المحاكمة : إذا حكم عليك بالسجن لمدة ٢٥ عاما في سيبيريا ، مع الأشغال الشاقة ، فعليك الذهاب بشجاعة . فلن يهود أسبانيا ذهبوا الى حيث أعدموا حرقا وهم يفتشون « أشهدك يا اسرائيل » (وهى ترميز دينية تتضمن أركان الدين اليهودى) . وعندئذ قتل 'الحلفون' : « لقد شاهدنا الله اليهود » . وكان والدنا يروى لنا هذه القصة بتوكيد شديد .

وثمة محاكمة أخرى كان زئيف دوف « يشير إليها مرارا . وهى محاكمة الكابتين « الفريد درايفوس » ، اليهودى الفرنسى الذى أدين بالباطل بتهمة الخيانة في سنة ١٨٩٤ . وكان والد بيجين يحمل عصا يعلوها مقبض من الفضة في شكل رأس « أميل زولا » الذى ناصر « درايفوس » وتحت نص من كتاب زولا : « انى اثم » . وكان « زئيف دوف » يسير بصحبة أحد الاجبار في أحد الايام عندما حاول عسكري بولندى برتبة رقيب ، أن يخلق ذنن الحير — الامر الذى كان يعتبر بمثابة « رياضة » محببة منتشرة بين المعادين للسامية — ويقول « مناحم بيجين » في هذا الصدد :

« لم يتردد والدى فى أن يضربه بعصاه على يده . وكانت عملية ضرب اى رقيب بولندى فى تلك الايام تعتبر ايذانا بيده مذبحه . واعتقل الحبر ووالدى ، وسيقا الى النهر حيث هدهدها بالقلعها فيه ، وضربا حتى سالت دماؤهما . وعاد والدى الى المنزل فى حالة سيئة ، ولكنه كان سعيدا . وقال انه دافع عن شرف الشعب اليهودى وعن شرف الحبر . ولذلك فقد انطبع فى ذهنى منذ الطفولة شيئان هما : تعرض اليهود للاضطهاد ، وشجاعة اليهود » (٧) . لقد قسم مناحم بيجين أقصى ماعنده من اجلال وتقدير وعرفان لوالده عندما قال : « لم اعرف قط رجلا اكثر شجاعة منه . ولقد عملت طوال حياتى بين اشخاص يتميزون بالشجاعة ، وربما كان هذا قدرا مكتوبا . ومع ذلك فاننى لن انسى ابدا كيف قاتل والدى دفاعا عن الشرف اليهودى » .

وكثيرا ما عانت أسرة بيجين من العوز . وقد عمل « زئيف دوف » فى فترة ما بأحد البنوك ، ولكنه فقد وظيفته عندما كشف لصحيفة تصدر باللغة البيدية « عن فضيحة مالية » بيد ان الاسرة لم تشهد اياما عصيبة مثل تلك التى مرت بها ابلان الحرب العالمية الأولى وفى اعقابها فقد كلفت مدينة « بريست » تعتبر مدينة عسكرية ، وكان حكامها الروس يخشون غزو المانيا لها . ونفى « زئيف دوف » الذى كان يتباهى بميوله نحو المانيا ، الى سان بطرس يورج ثم الى وارسو ، تاركا وراءه زوجته وابناءه بدون عائل . وعندما تقدم الالمان نحو مدينة « بريست » قام الروس باجلاء جميع السكان عنها واحرقوها عن آخرها . واصطحبت « هاسيا بيجين » ابنتها وولديها للاقامة عند أحد الاعمام فى قرية « دوركيتشين » بالقرب من مينسك بروسيا البيضاء .

وكان المنزل صغيرا ، يكاد يشبه الكوخ . اقامت أسرة « بيجين » فى غرفة واحدة ، وكثيرا ما كانوا يضطرون الى توفير مكان بها لمبيت العمات والاعمام القادمين من المدينة . وكان « مناحم » لا يزال طفلا صغيرا آنذاك ، ولكن شقيقته « راشيل » تذكر احداث تلك الفترة بوضوح . فقد تعرضت القرية بعد اشهر قليلة لنفس مصير مدينة « بريست » حيث احرقت عن اخرها عند تقدم الجيش الالمانى نحوها واجبر الفلاحون المحليون على مفادرة القرية ، وتعرض اليهود للتهديد بالذبح على أيدي جنود الفرسان الروس .

وتقول راشيل عن تلك الفترة :

« لقد سمعنا بكاء القرويين . وقام انروس بطرد جميع المزارعين حتى لا يعملوا فى خدمة الالمان . والا يزودهم بالاغذية . واذكر حتى يومنا هذا صوت نحيب الفلاحين . وفجأة اقترب أحد جنود القوزاق من النافذة المغلقة والمسدل عليها الستائر . والخاصة بحجرتنا . وكان ارتفاع النافذة لا يزيد

من ارتفاع أرجل حصانه ولذلك فلم نستطع رؤيته ، ولكنه طرق بعنف على
انياب وقال صاخحا : « من يقيم هنا ؟ زيسى ؟ أم روسي » . وكانت كلمة
« زيسى » هي صفة يطلقها الرزس على اليهود تحقيرا لهم . وكان معنا ينكلم
باللهجة الروسية . فاقترب من النافذة ورد عليه قائلا : « روسي » ولا أعرف
كيف اسمته بلدييه ، لكن لولا ذلك لقضى القوزاق علينا » .

ثم تستطرد « راشيل » ..

« وفي إحدى الليالي ، صدرت إلينا التعليمات بالاتجاه الى الحسون
لأن القوزاق كانوا يشعلون النار في قريتنا . وشاهدت بعيني أحد جنود
القوزاق وهو يصب البترول ويشعل فيه النار . واتجهنا جميعا إلى حفـل
كبير ، وكان البعض قد بدأوا فعلا في حفر الخنادق — وكان كل اليهود
تقريبا موجودين هناك . وساد الصمت التام ، ولم يسمح لنا بالتفوه بكلمة
واحدة . كان الألمان قد اقتربوا بالفصل ، فقد كانت طلقات مدافعهم على مرمى
سبعنا . وعدنا في الصباح الى منزل عمنا . فوجدناه قد احترق تماما .
فأتجهنا الى منزل آخر . ووصل الألمان في الصباح البكر . كم كلت غرحة
اليهود كبيرة برؤية الألمان . لقد كنا جميعا نفتش الأرض ، وكنا اعدادا
غفيرة . وقبل وصول الألمان كنا مضطرين الى دفع اثلوات لجنود القوزاق
حتى لا يقضوا علينا . ولكن الألمان عاملوا اليهود معاملة رائئة » .

وبعد فترة قصيرة من ذلك الحين ، تمكن « زئيف » من شق طريقه الى
القرية التي يقيم فيها أخوه . وتم لم شمل اسرة « بيجين » في اعقاب تقسم
الألمان وعندما مرت الاسرة ، مرة اخرى ، بأوقات عصيبة ، انتقلت الى قرية
اخرى ثم الى مدينة كوبرين . وكان « زئيف دوف » يكسب عيشه عن طريق
نسخ الالتماسات باللغة الألمانية للإمبراطور . وتمتعيد مسز « هالبرين »
ذكرياتها عن تلك الايام العصيبة التي مرت بها الاسرة ، فتقول :

« لقد كنا ننضور جوعا ، ونتمنى كسرة عيش » وكنا نحن الخمسة
نقيم جميعا في غرفة واحدة . وكان الألمان — الذين كانت تربطنا بهم علاقات
ودية للغاية — يصطحبون أمي كل شهر ويرفقتها الصغير « مناحم » في عربة
يجرها الخيل الى القرية حيث كانت تقوم هي وعمي بقطع الاشجار ،
واحضار الاخشاب لنا للتدفئة . وكان والدي يبقى مع الاطفال . وكنت قد
أصبحت فتاة كبيرة ، فتوليت رعايتهم . وكنا نحتفل بعودة أمي بعد غيابها
الذي كان يمتد لبضعة أيام . اذ كان كل شيء معدا لذلك : لقد كان لدينا
الخشب والبطاطس للطهي ، ويرجع الفضل لامي في استمرارنا على قيد
الحياة ابان تلك الحرب . لقد كانت ذات طبيعة رومانسية ، ولكنها كانت في
الوقت ذاته قوية وتتمتع بشخصية في غلبة القوة » .

وبعيت « بريست » تخضع للحكم الألماني بعد الحرب ، ولكن لم يسمح للسكان بالعودة حتى عام ١٩١٩ . وكان « زئيف دوف » واحداً من أول اليهود انتماءين ، تاركا أسرته في « كوبرين » . ومرة أخرى عاد الى نسيخ الاتهامات باللاتينية كوسيلة لكسب الميث . وكثرت « راشيل » وياتى الاطفال يرتقبون زيارته الأسبوعية لهم في عطلة السبت بفارغ الصبر .

كما تقول ممر « هالبرين » عن تلك الايام

« كان والدى يمتلك قبة سوداء عليّة ، من النوع الذى يرتدى في المناسبات الرسمية . وفي احدى المرات ، خرج مناحم الصغير من المنزل ورأى احدى قريبتنا تجلس على الدرجات ، ومسحة من الحزن تملو وجهها . فسألها : « لماذا انت حزينة ياعمة ؟ اليس معك نقود ؟ نحن ايضا لم يكن لدينا نقود ، الا أن ابى اصبحت لديه الآن قبة عالية مليئة بالنقود » . فقد كانت اوى تحتفظ بالنقود في القبة . لقد كانت ظروفا قبل ذلك صعبة جدا ، وقد اعتادت اوى أن تضع الولدين بعد ظهر كل خميس في السرير حتى تستطيع أن تغسل ملابسها ، ثم تقوم يوم الجمعة بكيا ليرتديها بعد الظهر ويخرجوا بها قائلين انها اصبحت يمتلكان بدلا جديدة لقد كانت اوى قوية جدا ، ولكنها قالت لى انها بكت في احدى المرات وكان ذلك عندما قلم جار غنى بشراء كعكة من المخبز ، ولم يكن في وسعنا شراء الكعك ، واتجه أخى الصغير اليه وقال : « أرجو أن تسمح لى بشمها ؟ وعنفذ لم تملك اوى منع نفسها من البكاء » .

وتحسنّت الاحوال عندما انضمت أسرة « ييجين » الى « زئيف دوف » في « بريست » وعين الأب في منصب سكرتير علم الرابطة اليهودية الامر الذى ضمن له دخلا ثلثنا وان لم يكن كبيرا . وعندما بدأ الاطفال الثلاثة يشبون ، ساهموا في زيادة دخل الأسرة عن طريق اعطاء دروس خصوصية . لقد كان ذلك في وقت ملئ باعادة التشييد والبناء والمؤسسات وشغل « زئيف دوف » في وقت ما منصب رئيس مجالس ادارة سبع منظمات مختلفة في وقت واحد . ولكن عندما عاد البولنديون ليحلوا محل الألمان في حكم المدينة ، انتهوا جميع اليهود بانهم شيوعيون خطرون . ولقد كان بعضهم كذلك بالفعل . وساعد « زئيف دوف » سبعة عشر عضوا من الحزب الشيوعى على التخفى كطلبة في المعاهد التطوعية وبعثهم الى بلدة « فيلنا » الأكثر امانا نسبيا . وظل شبرعيو « بريست » لسنوات طويلة بعد ذلك يطفنون سجلهم كلها شاهدوه يتمشى أثناء عطلة السبت ، كرمز على تقديرهم له .

وقد حقق « مناحم » الشاب تفوقا في العلوم الانسانية اثناء دراسته الثانوية في مدرسة بولندية . وتمسك خلال تلك المرحلة أيضا بيهوديته ، فكان يرغب باصرار الكتابة في أيام السبت . وقد رد مدرس اللغة اللاتينية على

ذلك بأن أعطاه تقديرا بمرتبة ضعيف . وقال « مناحم بيجين » في حديث أدلى به لشاب اسرائيلي ، بعد أربعة عقود من ذلك التاريخ : « لقد قلت للمدرس ان هذه هي معتقداتي ولن أغرها ، ولن اكتب في عطلة السبت تحت أى ظرف من الظروف . وبعد فترة هذا ومنحى الدرجات المرتفعة التي اعتنت الحصول عليها . »

وظل « مناحم بيجين » أرثوذكسيا في معتقداته ، وان لم يبق ملتزما بمعتقداته المتزمتة . فكان يصر مثلا أثناء رحلاته كرئيس وزراء على تناول الطعام الشرعى اليهودي ، بينما اشترك في السر في جنازة أنور السادات التي جاءت يوم السبت . كما انه لم يعد يذهب الى المعبد كل يوم او حتى كل سبت . وهو لا يخفى انه كان يستمع الى الاذاعة أيام السبت (سواء اذاعة صوت اسرائيل او اذاعة بي . بي . سي العالية) ومن المعروف انه علم بمذبحة بيروت في سبتمبر ١٩٨٢ من خلال الاذاعة . وكان التزامه الديني ينطوى على بعض التظاهر ، لا دراكه انه يمثل الحركة التي ينتهى اليها فضلا عن اسرائيل . فقد صام بمناسبة يوم الغفران ، أثناء اعتقال البوليس السرى السوفيتى له . كما انه عندما كان زعيما للمعارضة سنة ١٩٥٢ ، وصل الى جوهانسبرج في وقت متأخر من يوم الجمعة ، نظرا لمعطل اصاب الطائرة التي اقلته . واصيب خمسة آلاف صهيونى من مؤيديه الذين حضروا لاستقباله بالفرح عندما امتنع عن استخدام السيارة الليموزين التي تنتظره ، وامضى الليلة في فندق المطار .

وعانى « مناحم » أثناء دراسته بجامعة وارسو ، من هجمات المعادين للسامية له كما عانى من فقره النسبى ، وقد أرسلت الحكومة البولندية له ، بعد توليه رئاسة الوزراء ، « اليوما » يحتوى على المستندات الخاصة به والتي كانت محفوظة في سجلات الجامعة . وحيث انه لم تكن هناك علاقات دبلوماسية قائمة بين بولندا الشيوعية واسرائيل الصهيونية ، فان الهدية وصلته بلا مقدمات من خلال السفارة البولندية في لندن ومجلس نواب اليهود البريطانيين وقدم « بيجين » جزيل شكره الى البولنديين ، ولكن بالانجليزية . وكانت هناك من بين الخطبات والصور الموضوعة داخل ثلاثة وعشرين مطروفا ، مكتبة تحتوى على التقرير الذى تقدم به طالب الحقوق لعدم استطاعته دفع المصروفات الدراسية في موعدها ، وتفيد بأن اسرته لاتستطيع اعلائه وأنه مضطر لأن يعمل أثناء دراسته ، ووافقت السلطات على طلبه بدفع المصروفات على اقساط .

ويمكن القول ان « زئيف دوف بيجين » كان يتصف دائما بالتهور في رفضه الخضوع للسلطات الحاكمة ، ايا كانت تلك السلطات . ومن حسن حظه انه نجى سنة ١٩١٤ من السجن أو الموت على ايدى الروس نتيجة لوالاته المريحة للالمان . وتعتقد ابنته أن السبب الوحيد لصح الروس عنه هو انه

كان ينبغي الشطرنج مع الضباط (وهي هواية أخرى ورثها ابنه عنه) . فمثلا ،
 كان قد التمس في سنة ١٩٢١ ، بصفته مسئولاً يهودياً ، من « جوزيف بيلسا
 دسكى » المدير البولندي ، أن يصرف تموين طواريء للطائفة اليهودية .
 ورد عليه بيلسا دسكى قائلًا انه سيرسل الطعام الى اليهود ، في حالة واحدة
 فقط وهي قيام زئيف دوف ، باقتناء اسماء وعناوين اليهود المتلاعبين بالاسعار .
 ورعى « بيجين » الطلب في وجه المرئشال قائلًا له « ان اليهود ليسوا بمخبرين ،
 وانه يستطيع ان يطلب من بوليسه السرى اداء أعماله القذرة . وعندما وصل
 النازيون الى « بريست » سنة ١٩٣٩ ، امر مرة أخرى على حقه في التكلم
 نيابة عن اليهود . وسرعان ما ادرك « زئيف دوف » — الذي كان قد بلغ العقد
 الثامن من عمره — ان هؤلاء الالمان كانوا نمطا مختلفا عن أولئك الذين أعجب
 بهم اباان شبليه .

ولم ينج من الحرب ، من بين افراد أسرة « بيجين » ، سوى مناخم
 وزوجته « اليزا » ، وشقيقته راشيل وزوجها المحلي ، « ياهوشوا »
 وهلك والداه وشقيقه « هيرتزل » الذي كان من علماء انرياضيات النابضين .
 وكذلك هلك طفل « راشيل » الصغير الذي تركته في رعاية أمها . ومن
 المعروف ان « هيرتزل » الذي كان يكبر بيجين بثلاث سنوات ، قد تعرض
 في سبتمبر ١٩٤٩ لحيلة قاسية لعبها الالمان ضده . اذ انه كان واحدا
 من مجموعة من الشباب اليهود الذين أجبروا على الوقوف صفا واحدا
 ووجهه الى الحائط في ساحة المسون . وقد وصف « هيرتزل » « لديفيد
 جوتان » ، أحد زملاء « مناخم » في قيادة منظمة « بيطار » — وهي
 جماعة الشبيبة في حركة جابوتينسكى — تفاصيل الواقعة وروى له كيف
 احاط الجنود بهم وهم يحملون مدافعهم الرشاشة ، ولكن عندما صدرت
 اليهم الاوامر باطلاق النار ، اطلقوا الرصاص في الهواء . وعندما سئل
 « هيرتزل » عما كان يراوده اثناء ترقبه الموت ، رد قائلًا « انه ركز
 تفكيره في حل مسألة جبر . ولم يتمكن من حلها حتى انقضت فترة
 الانتظار .

وتتضارب الروايات عن نهاية « زئيف دوف » ويفضل مناخم الرواية
 الأكثر درامية :

« لقد قيل لنا انه غرق في نهر باج مع خمسة آلاف يهودي آخرين
 حيث أخذوا الى النهر وفتحت عليهم نيران المدافع الرشاشة من كلا
 الجانبين . وقال الناجون « ان النهر صبغ فعلا باللون الأحمر من الدماء
 المرافة . وكان والدى ، بصفتهسكرتير الطائفة اليهودية ، أول الهالكين .
 وقيل لنا ان اليهود بدأوا — ببعدرة منه — ينشدون نشيد « هيتلر »

(وهو التشيد القومي الصهيوني) وكذلك أنشدوا « انى مؤمن » . وهكذا مات والدى » .

وتستعيد راشيل هالبرين هذه الرواية على انها من الاساطير الشعبية :

« ان ما اعرفه ، وهو ما ذكره لى اصغائى فى بريمنك ، ان الالمى اصدروا قتلونا يحرم على اليهود دفن موتاهم . وذهب والدى لدفن أحد اليهود فى المدائن . واقترب منه أحد الالمى وسأله عما يفعل . فقال بالالمانية انه يدفن أحد الموتى ، فقتله الجندى على الفور . وانا لا اعرف شيئا عن باقى اسرتى . لقد هلكوا مع جميع اليهود الاخرين . ولكننى اعرف كل التفاصيل بشأن أبى . وانا اعرف اسم اليهودى المتوفى وانه قد دفن بالفعل .

ومهما كانت الحقيقة ، فان الروايتين كلتيهما تنطويان على نمط من البطولة تتفق وشخصية « زئيف دوف » ، فهو لم يكن من نوع الرجال الذين يساقون فى هدوء الى غرفة الغاز . ويرى « بيجين » ان الدرس الذى خرج به اليهود من تجربة « الهلوكست » — أو الإبادة الجماعية بالحرق — يتلخص فى التحذير الذى وجهه « جيلوتنسكى » الى يهود أوروبا : « اذا لم تضعوا حدا لشتنكم فان الشتات — او الدياسبورا — ستضع حدا لوجودكم » . وقال « بيجين » ، بصفته رئيسا للوزراء ، ان « الهلوكست » كان المحرك الرئيسى وراء كل ما عمله هو وجيله .

« كانت المحنة الحقيقية لحياتنا كيهود هي عدم قدرتنا على الدفاع عن انفسنا ، على مدى قرون عديدة ، وابلان جيلنا بصفة أسلسية . ولا يجب ان يتكرر هذا مرة أخرى أبدا . ولذلك فقد قررنا ان نحمل السلاح وان نقاتل من أجل التحرير ، حتى يكون لدينا دولة وجيش — أى تكون لدينا وسيلة للدفاع القومى . ان هذا هو الدافع الاول لجميع تصرفاتنا . وان نضمن امن الدولة اليهودية وان نضمن حرية وحصانة حدودها . وهو المحرك الثلقى لسلوكنا ، سواء كان ذلك عندما كنا فى المعارضة أو الان ونحن فى الحكم » .

ولا يوجد فرد واحد من صهيونية ما بعد الحرب ، يفكر فى مناقشة هذه النظرية . والامر الذى ينحصر فيه اعتراض البعض هو أسلوب « بيجين » فى تطبيقها ، وتشبيه جميع اعداء اسرائيل بالنازيين ، واعادة « الهلوكست » الى الازهان ككبرير لحرمان عرب فلسطين من تحقيق طموحاتهم الوطنية ، وارهاب الساسة الاجانب والضغط عليهم . لقد خاطر « بيجين » فى بعض الاحيان بالتقليل من شأن المأساة اليهودية ، الامر الذى اعطى منتقدى

اسرائيل ذريعة لانتهاك المحظور والتنف بفكرة « الحل النهائي » في وجهه :
لقد ختمت مذبحه ٦ ملايين يهودى اوروبى على قلب « بيجين » بكراهية
ابدية لكل ما هو المانى . ولقد تلوم ، بصفته زعيما للمعارضة خلال الخمسينيات
والستينيات ، بمرارة واحيانا بعنف ، فكرة اجراء اى اتصال بين اسرائيل
والمانيا الاتحادية ، حتى تحت حكم « كوتراد ادينلور » ، المناهض للنازية .
وقد حافظ ، اثناء توليه رئاسة الوزراء ، على العلاقات الطيبة مع المساسة
والدبلوماسيين الالمان ، في اضييق الحدود ، وقلد حملة ثارية ، لا داعى لها ،
ضد المستشار هلموت شميت ، كما رفض الادلاء بأحاديث للصحفيين
الالمان او التحدث بلغتهم . وتعتبر مشاعر العداء هذه ازاء الالمان
امرا شاعرا بين اليهود البولنديين الذين نجوا من الحرب ، ولكن لا يسع
المرء الا ان يتساءل : هل كانت مشاعر « بيجين » ستصبح بمثل هذا العنف
لو ان « زئيف دوف » لم يطلق كل تلك الامل على المانيا ؟ هل كان الابن يقوم
بتخليد الشعور المؤلم بالاجباط الذى أصيب به والده ؟

بيد ان اخته ، التى كانت فى سن تمكنها من تذكر الجنود الالمان الذين
كفوا يغيبون اللاجئين اليهود فى الريف ابلان حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ ، تسيطر
عليها مشاعر متضاربة . فهى تعترف انها لا تستطيع حتى يومنا هذا ان
تشعر بالكراهية ، التى « من المفروض ان تسيطر على اى يهودى ازاء
الالمان » . فانا اذكر الالمان الاخرين . لقد كانوا يمنحون كل الاطفال
الحلوى والبسكويت . لقد كفوا نوعا مختلفا من الالمان ، وكان الزمن
مختلفا .

الفصل الثاني

عند اقدم المعلم

كل من المفروض ان تصبح حركة الشيلب التي اسمها « جلوبونسكى » والمعروفة باسم « بيطار » والتي يسيطر عليها التيار الصهيوني الذين يدين بالقوة ، هي الحركة التي من الطبيعي ان تستهوى « مناحم بيجين » في بريست - ليتوفسك . فبعد ان انتهى مناحم من دراسته الابتدائية في مدرسة مزارعي اليهودية ، التحق بمدرسة ثلوية بولندية ثم بجامعة وارسو حيث حصل على ليسانس في القانون وان لم يعمل اطلاقا في هذا المجال . وكان « بيجين » الصغير الحجم يقود اى معركة تقع في المدرسة او الجامعة ضد زملائه في الفصل الذين كانوا يمارسون العداء للسلبية ، بأسلوبهم الخاص ، والذي كثيرا ما كان يتسم بالقسوة . بل بلغ بهم الحال انهم حاولوا في احدى المناسبات تطليخ شفتيه بدهن الخنزير .

يقول « مناحم بيجين » عن تلك الذكريات :

« عندما كنا نتعرض للهجوم ، كنا ندافع عن انفسنا . ولم يحدث مطلقا ان خضعنا لهم ولذنا بالفرار . وكنا نمود الى البيت ملطخين بدماء ومضروبين ، ولكن يسيطر علينا الشعور باننا حافظنا على كرامتنا . وسرعان ما ادركنا ان هؤلاء البلطجية يتصرفون بأسلوب مهذب اذا ما رددنا على ضرباتهم بالمثل . »

ومع ذلك فلن مما يدعو الى الدهشة ان أبناء « بيجين » الثلاثة - مناحم وشقيقه هيرتزل وشقيقته راشيل - انضموا الى منظمة « هاشومر هتزار » التي اصبحت فيما بعد حركة الشيلب التابعة لحزب « المسيلم » اليسارى . وكان « زئيف دوف بيجين » أحد الكبار الذين تبنا تلك الحركة . ولكن عندما انخرفت حركة هاشومر عن اهدافها كمنظمة كشيوعية ، واتجهت نحو الماركسية انسحب أبناء بيجين منها . وقتل زئيف دوف لابنته : « يجب عليكم ان تناضلوا اولا من اجل حريتك الشخصية ، وبكمكم ان تدافعوا عن حرية العالم بعد ان تصبحوا احرارا . »

وقد ظل مناحم عضوا في منظمة هاشومر لمدة ثلاث سنوات . وذلك منذ ان كان في سن العاشرة حتى الثلاثة عشرة . ثم انضم الى « حركة بيطار » عندما بلغ الخامسة عشرة . ويقول بيجين : « لقد انتهرت بالصهيونية الشاملة لمنظمة « بيطار » ، وبهدفها الاسمى الخاص باتمية دولة يهودية معاصرة على ارض اسرائيل التاريخية . ولقد كانت حركة

« بيطزر » تعبر عن كل المبادئ التي تعلمتها من قراءاتي ومن استماعي للآخرين والتي آمنت بصدقها ، ولم يراودني أدنى شك في أن هذه هي الحركة التي أريد أن أخدم الشعب اليهودي من خلالها طوال حياتي .

وبعد علمين من التحاقه بتلك المنظمة ، أي في عام ١٩٢٠ ، استمع بيجين لأول مرة إلى خطاب « لجلوبوتنسكي » ، وقد تأثر به تماما . ويقول « بيجين » :

ان « جلوبوتنسكي » كان له أكبر تأثير على حياتي . ولقد أخذت بأرائه ، وتلقيت عنه تعاليم الصهيونية . لقد تأثرت حياتي كلها به . ولقد تأثر عملي أثناء انضمامي إلى المنظمات السرية وكذلك عملي في المجال السياسي : فقد أخذت عنه إرادة النضال من أجل تحرير الوطن وكذلك التحليل المنطقي للحقائق فيما يتعلق بالأمور السياسية .

بل ان « بيجين » ذهب إلى أبعد من هذا . لقد كان « جلوبوتنسكي » يحظى لديه بما يرقى إلى مرتبة التقديس ، وكان زعيما دوليا ، ومع ذلك كان أقرب ما يكون إلى صورة الخطيب الصهيوني النشيط والقادم من الاقاليم . ويذكر بيجين :

« ان زئيف جلوبوتنسكي » كان يتمتع بنمط الفكر الشامل الذي لا يظهر إلا مرة واحدة على مدى أجيال . لقد كان بمثابة أرسطو أو ليوناردو دافينشي أو مايونيدس معاصر (وهو فيلسوف يهودي أسبق قديم) وبمعنى آخر ان هؤلاء كفوا يتفوقون في عدة مجالات وليس في مجال واحد فقط . لقد كان جلوبوتنسكي خطيبا وكاتبا وفيلسوبا وكان رجل سياسة وجنديا باررا كما كان ضليعا في اللغات . ولقد تنوق في كل هذه المجالات ، ولكنه لم يكن بالنسبة لنا — نحن تلاميذه — مجرد معلم بل انه كان أيضا رمزا لأمنا .

لقد اعترف حتى ألد أعداء « جلوبوتنسكي » السيليسين — وكانوا كثيرين — بجاذبيته الجماهيرية . وكذلك الحال فيما يتعلق باصالته الفكرية وغازاة كتاباته . بيد أن من المبالغة ان نقارن مستوى عبقريته وعبقرية ليوناردو دافينشي . كان كسيلس يتمتع بالقدرة على كسب تأييد لأرائه حتى أولئك الذين ينتمون إلى أحزاب صهيونية أخرى . ومع ذلك فلم يحقق أثناء حياته سوى أهداف قليلة . كان ينقصه الصبر الذي يمكنه من كسب الطغفاء ، كما كانت تنقصه أيضا القدرة على التوصل إلى الطول الوسطى . وكان « جلوبوتنسكي » يرى ان التدرج بمثابة الكفر ... فكان يريد قيام دولة يهودية ، على ان يكون ذلك في الحال ، بل انه كان يرغب التفاوض على أقل من ذلك ، حتى لو كان ذلك على سبيل التكتيك .

ان حركة التصحيح التي اسمها جلوبوتسكى والتي تعتبر اصل حزب حيروت الذي تزعمه ييجين فيها بعد ، تميل الى تصويره في صورة الليبرالى الطيب على النمط الاوروبى القديم وعلى النحو الشائع ابلن القرن التاسع عشر ، والذي يسمو فوق مستوى اعضاء جماعة « ارجون زفاى ليوى » الذين يتصفون بالفظاظة ، اى في صورة المفكر المذهب . ولقد حظيت وجهه النظر هذه ، على عكس المتوقع ، بتأييد المستعمرين البريطانيين الذين كانوا قد سجنوه في بلدىء الامر ثم قابوا بنفيه من (الارض الموعودة) . وقد قبله « هارولد بيللى » مساعد « ايرنست بيفين » لشنون الشرق الاوسط ابلن احطك ايلم الانفصال الصهيونى — قبل جلوبوتسكى — في لندن علم ١٩٤٠ . وذلك قبل بضعة اشهر من وفاة زعيم حركة التصحيح . يقول بيللى :

لقد تمت بزيارته في المكتب المتواضع للمنظمة الصهيونية الجديدة : واذكر انى شعرت بنفور بصفة خلسة ازاء اتباعه من البريطانيين . لما جلوبوتسكى نفسه فقد ترك في نفسى ، على العكس من ذلك ، انطباعا بأنه توة يجب أن يأخذها المرء في الحسبان . فوجهت له الدعوة للحضور الى اوكنفورد ليلقى كلمة في اعضاء منظمة « تشالام هالوس » الموجودة هناك . ولقد تأثروا بلا ادنى شك بطلاقته ، بصرف النظر عن رأيهم في آرائه . وقد بدا لى انه من نوع الجيل الثورى الذى كان موجودا علم ١٨٤٨ — او انه كان شخصية تشبه الى حد بعيد « ميتزين » لكن في عصر متأخر .

ولو ان « جلوبوتسكى » سمح تلك المقارنة لاستساغها كثيرا خاصة وانه كان من المعجبين بالخمين بيطاليا وبنهضتها القومية . بيد ان صفه الليبرالى لا تنطبق عليه تماما . فقد كانت فلسفته تنطوى على جانب مظلم . الدم والنار والحديد والتسلط ، والاضطباط والتهمك بالرسيميت . واستقلال الجباهير ، رالمتميز العنصرى بصفته جوهر الامة .

وقد كتب « جابوتسكى » في أحد مقالاته الاولى تحت عنوان : « ان الانسلن عدو للانسلن » يقول :

« اننا نبني احيانا آمالا براءة حول الاكذوبة التى تقول بأن شعبا معينيا قد عانى الكثير ولذا فانه سينعاطف مع الالم شعب آخر ويشعر بها . وان ضميره لن يسمح له بأن يبغى الشعب الاضعف بما ابتلى به من قبل . . ولكن الواقع يؤكد ان هذه مجرد كلمات منمقة جوفاء . . والكتلب المقدس فقط هو الذى يقول لنا « ان الحاق الظلم بالغريب يعتبر اثما فانكم ترفون شعور الغربة حيث اتم كنتم غرباء في ارض مصر . . ان مثل هذه المنز لانسنية اطفولية لا محل لها في الاخلاقيات المعاصرة » .

وبالمثل ، يمكن القول ان الليبرالية المعاصرة لا تتسع لثل هذه الواقعية الصارخة ، حتى وان كان « جلوبوتسكى » يصدر حكمه بناء على العالم الذى يراه حوله . وما قولنا فى تأكيد « ليست هناك تمية فى العالم اعلى من الامة والوطن » ، او قوله « ان اسمى ما يمكن ان يحققه جمهور من البشر الاحرار هو ان يستطيعوا العمل معا فى دقة وتلسق مطلق مثل الآلة » ، وأنه « بدون الطغوس والشكليات لا توجد حرية » ، ما قولنا فى هذه الافكار ؟ ربما كانت نظرة « جلوبوتسكى » المتشائمة ازاء الجنس البشرى لها ما يبررها (وقد استطاع ان يتكهن من خلالها بوقوع الهلوكوست) ولكنها على اى الحال تعتبر ابعد ما يكون عن الليبرالية . وهذا ينطبق بالمثل على موقفه من العرب الفلسطينيين ، حتى على الرغم من انه لم يسع الى طردهم .

لقد كتب سنة ١٩٢٣ يقول :

« من المستحيل ان نتصور امكانية التوصل الى اتفاق تلتقى بيننا وبين عرب ارض اسرائيل .. سواء كان ذلك الآن او فى المستقبل المنظور .. ان كل امة سواء كانت متحضرة او بدائية تؤمن بأن ارضها هى وطنها القومى ، الذى تريد ان تبقى مهيمنة عليه الى الابد . ولا يمكن ان تفكر مثل هذه الامة او تقبل بوجود سيد جديد او حتى بوجود شريك لها .. وكل قوم يقاثلون المستوطنين طالما كان هناك بارقة امل فى التخلص من خطر الاستيطان الاجنبى . وهكذا يفعلون ، وهكذا سيفعل العرب المقيمون فى « ارض اسرائيل » ، طالما كانت لديهم بارقة امل فى ان يتمكنوا من منع تحويل فلسطين الى « دولة اسرائيل » لقد كان « جلوبوتسكى » اكثر صراحة من معظم الصهاينة المعاصرين له . لقد أعلن صراحة عن مضمون افعالهم وسياساتهم ولكنه رد على المقاومة العربية بواسطة اقامة « جدار حديدى من الحراب اليهودية » لاجبار الفلسطينيين على الاعتراف بالاحتوم . وكان يرى ان « الاسلوب الوحيد للتوصل الى اتفاق فى المستقبل هو التخلّى تملها عن اى محاولة حلّية للاتفاق » . وقد قام مناخم « بيجين » فى حديث اولى به بعد ان اصبح رئيسا للوزراء ، بصقل هذا المفهوم ، فقال « ان المقصود بالجدار الحديدى انه لا يمكن تحقيق الصهيونية ما لم يتم بيننا وبين العرب حاجز من القوة . وسيحاول العرب منع هذا حتى لو ادى الامر الى اراقة الدماء . ولابد من وجود قوة دفاعية لمنع اراقة الدماء . لقد أعلن « جلوبوتسكى » ايمانه بمنهج العدالة ، ولكننا اكتشفنا انه لا بد من الدفاع عن العدالة ، بيد انها كانت عدالة فى ادنى مستوياتها فى دولة يهودية متطرفة لا تترك بارقة امل فى ان يتمتع العرب بالسيادة على اى من ضفتى نهر الاردن .

وعندما اشترك بيجين فى معسكر صيف اقلته منظمة « بيطار » بالقرب من نيويورك ، بعد انقضاء اكثر من اربعة عقود على وفاة جلوبوتسكى ، كان

من الواضح انه ظل على اخلاعه لاستلذه ، وتكريسه لمذاهبه ، وتخليده لاسلوبه الخطيبي ، ابتداء من استخدام نبرات سوته لاثارة الشفقة وانتهاء بخفضها كختم كلامه . وكان يتمسك بما وصفه كطب سرية حياة « جلوبوتسكى » - والذي كان يقيم معه في منزله - « بتقديسه للاتيكيت » ممثلا في الانحساء وتقبيل يد السيدات وارقاء البذلة وربطة العنق والحذاء اللامع ، وذلك في وسط بلد الرواد الذين يرتدون القمصان المفتوحة عند الرقبة وينتملون الصنادل . بل انه استحضر روح غارييلدى ، البطل الذى كان « جلوبوتسكى » يبجله ، بالقاء محاضرة على جماعة من اعضاء البرلمان الايطالى الزائرين لاسرائيل ، عن زعيم حركة تحرير وطنهم . وقلم « بيجين » ، عندما تخلى عن المعارضة لاول مرة لينضم الى حكومة الوحدة الوطنية على ابواب حرب سنة ١٩٦٧ ، بزيارة مقبرة « جلوبوتسكى » على جبل هيرتزل بالقدس . وكان مثل جلوبوتسكى مستعدا قبول عرب فلسطين ، على شرط الا يتجاوزوا حدود مكائتهم ، وان كان قد اعترف بان الضفة الشرقية للاردن لم تعد هدفا عمليا بالنسبة للدولة الصهيونية (لم ترفع جماعة « البيطر » خريطة جلوبوتسكى التى تضم « كلنا الضفتين » من شعارها الا في عام ١٩٨٠) . وربما لم يكن بيجين يتنعم ببريق جلوبوتسكى وقدرته الاصيلية على اشغال الحواس ، بيد انه كان اكثر مهارة منه في فن الممارسات السياسية العملية . وقد استطاع التلميذ أن يغير مسار الصهيونية ويعدله لحمة اسرائيل الحديثة ، وتحويلها الى مجتمع كان « الاستاذ » سيتعرف عليه بلاشك كمجتمع اخلاعه .

ولم يكن « جلوبوتسكى » بفكرىك السهل على الاطلاق . وكثيرا ما كانت الشخصيات الصهيونية الاخرى البارزة يجدونه متفطرسا . ولم يكن يرحمهم سواء في كلماتهم المنطوقة او المطبوعة . وكان متسلطا وقادرا على اثارة السخط ، ولكن بحلول عام ١٩٢٠ لم يكن هناك من يستطيع النيل من مكانته في قيادة الحركة . وقد اكد الدور الذى لعبه كمؤسس للفيلق اليهودى في الحرب العالمية الاولى وكاحد قادته ، انه رجل افعال تماما كما انه رجل افكار ، وكرانه للدفاع اليهودى عن النفس فضلا عن كونه واعظا بارزا ، ان الامر الذى قاد « جلوبوتسكى » لدخول متاهة الصهيونية هو مطلبه بالقامة دولة يهودية الامر الذى كرس من اجله كل جهوده ، فقد كان ذا فلسفة (وحداثية) مما كان يستحوذ على اعجاب الشلب « بيجين » . وقد كان الاخرون مستعدين لتقديم تنازلات ، على الاقل بالنسبة لمواقفهم الدبلوماسية ومهاجمهم قصيرة الاجل ، وان لم يكن بالنسبة لاهدافهم بعيدة المدى . وكان « جلوبوتسكى » يرى ان مثل هذه التنازلات لا تنطوى على الخيانة فحسب بل على سوء التقدير ايضا . فقد كان يؤمن بان قوة اليهود تكمن في قوة قضيتهم المعنوية ، ومن ثم فلا يجب عليهم تببيعها ابدا ، خاصة وان احدا لن ينخدع بذلك على اى الحالات .

وجاءت الخطوة الاولى في يناير ١٩٢٢ عندما استقال « جابوتنسكى » من اللجنة التنفيذية العليا للحركة الصهيونية احتجاجا على ما اعتبره عدم مقاومة « حليم وايزمان » لعملية « انكلاش » التمهيد البريطاني التمثيل في وعد بلفور لعام ١٩١٧ . ولقد أسر لبعضهم بعد حديث دار والزعيم الصهيونى ان (وايزمان يعتقد ان منهجى هو منهج الميخائى العنيد ، بينما انا اشعر ان اسلوبه هو بمثابة التخلي عن الحق او التخلي غير المتعمد عن المبادئ) .

واسفرت تلك الخطوة عن تأسيس « حركة التصحيح » ملتزمة صراحة بمقاومة دولة يهودية تتمتع بأغلبية يهودية على ضفتى نهر الاردن لكليهما، تملك جيشا يهوديا للدفاع عنها . وظلت « حركة التصحيح » جزءا لا يتجزأ من الحركة الصهيونية الى ان انعقد المؤتمر الصهيونى السابع عشر في يوليو ١٩٢١ ببازل ، حيث جلوس « وايزمان » كل الحدود — ليس فقط من وجهة نظر « جابوتنسكى » وحده — بقوله ان فكرة الدولة لم تكن مطلقا هدفا في حد ذاته بل مجرد وسيلة الى غاية . وقد كلف هذا « وايزمان » زعامته للحركة الصهيونية ، غير ان « جابوتنسكى » لم ينجح في ان يستصدر بيانا واضحا ينضمون برهنا سياسيا محددا . وعندما لم يعتن المؤتمر حتى بطرح القرار الذى تقدمت به حركة « التصحيح » للاقتراع ، اعطى « جابوتنسكى » مقعدا وصاح قائلًا « ان هذا لم يعد يشكل مؤتمرا صهيونيا » ومزق بطاقة عضويته .

وخرج « التصحيحيون » ، ولكنهم لم يكونوا قد أصبحوا بعد منبوذين . ولكن بعد ثلاث سنوات من خروجهم وقعت الصدمة التى ظل « مناحم بيجين » يحاول ، حتى بعد مرور نصف قرن من الزمان ، تطهير الحركة من آثارها ، ففي ١٦ يونيه ١٩٢٢ ، تناول حاييم آرلوسوروف رئيس الادارة السياسية بالوكالة اليهودية ، والنجم الصاعد في الحركة العمالية الصهيونية طعمام العشاء وزوجته « سيما » بأحد فنادق تل ابيب . وقاما بعد ذلك بالسير على شاطئ البحر . ولاحظت مسز « آرلوسوروف » أن رجلين يتعقبانها . وقد شهدت فيما بعد ان أحدهما كان اشقر طويل القامة يميل للضخلة ويتميل في مشيته مثل البطلة . أما الآخر فكان قصيرا ونحيفا وله ملامح شرقية . وقللت ان الرجلين تصديا لهما . وقام الرجل الضخم بانارة مصباح في وجه « آرلوسوروف » وسأله عن الساعة . فطلب منه « آرلوسوروف » بالك عن مضايقتها . فمسح الرجل الضخيل مسدسا وأطلق عليه النار فاصابه في بطنه وتوفي « آرلوسوروف » في المستشفى بعد خمس ساعات . وذكرت « سيما » ان الرجل الذى هاجبها كان يتكلم العبرية بدون اى لهجة اجنبية .

وقام البوليس البريطانى بنشر اوصاف الرجلين في جميع أنحاء فلسطين الخاضعة للانتداب البريطانى . وابتدت التحريات الى انهام « افرام ستافسكى »

عضو منظمة « بریت هابريونيم » الدموية المتطرفة التي تعمل على هدى حركة « جليوتنسكى » الدموية بفلسطين . وكلفت منظمة « بریت هابريونيم » قد ادانت « آرلوسوروف » كمتواطىء مع الاعداء لمحاولته ايجاد منفذ للميهود الألمان - الذين بدأوا يتعرضون لتهديد النازية الصاعدة - يستطيعون من خلال هذا المنفذ تصفية ممتلكاتهم والهجرة الى فلسطين دون التضحية بكل شئ . وكلفت الفكرة التي تتفق عنها ذهنه هي أن يقوموا بشراء سلع البنية ويصدرونها ، ثم يحصلون ثمنها من البلد الآخر . وقد عاد « آرلوسوروف » الى تل أبيب في ١٤ يونيو ، بعد قليله بعدة رحلات ذهبيا وايابا بين برلين ولندن . وفي الوقت ذاته ، كان « جليوتنسكى » و « التصحيحيون » يشنون حملة على نطاق عالمي تدعو اليهود لقطعة السلع الالمانية . وقد نشرت مجلة « بریت هابريونيم » ، يوم الجريمة ، مقالا تنهم فيه « آرلوسوروف » بالتحالف مع « هنتر » و « ستلين » . وقل المقل انه باع شرف شعبه .

واعقل « ستافسكى » بعد ثلاثة أيام من وقوع الجريمة . وتعرفت « سيبا آرلوسوروف » على صورته ، بصفته الرجل الذي كان يتجول في مشيته والذي اضاء المصباح في وجه « آرلوسوروف » ، وانتهت عضوا متطرفا آخر في « حركة التصحيح » وهو « زفي روزنبلات » ، بجذب الزناد . كما اتهم « ابا اهيلير » ، فيلسوف جماعة « بریت هابريونيم » ، بالتواطؤ ، ولم يكن تعرف بمز « آرلوسوروف » على « روزنبلات » قاطعا بنفس درجة تعرفها على « ستافسكى » . وبعد انتهاء اجراءات الاتهام امام قاضي المحكمة الجزئية ، احيلت القضية الى محكمة الجنائيات العليا ، امام اربعة قضاة : اثنان بريطانيان، وواحد يهودي ، والرابع عربي . وقد تمت تبرئة « اهيلير » في منتصف المحكمة . وصدر حكم بتبرئة « روزنبلات » على اساس عدم وجود شهود آخرين يؤيدون ادلة « سيبا » . وادين « ستافسكى » وحكم عليه بالاعدام ، فلستائف الحكم امام محكمة اعلى ، قضت بنقض الحكم واطلقت سراحه . فبموجب القانون التركي الذي كان معمولا به في فلسطين حتى عام ١٩٣٧ ، لم تكن شهادة شاهد واحد كافية لصدور حكم بالادانة . وقد جادل الصهاينة من اعضاء « حركة العمل » ، بأن « ستافسكى » ادين بحكم الحقائق وتمت تبرئته بموجب نقطة قانونية . ابا « التصحيحيون » فقد عبروا عن اغتباطهم لسيادة القانون . فلحكم بالبراءة امر لا يمكن الرجوع فيه . وظل الطرفان على مدى عقود عديدة تالية يقدمون الادلة والادلة المضادة في معركة حامية تصم الأذان .. واعترف اثنان من العرب اختفيا بعد ذلك ، وترددت وجهات نظر وجهات نظر مضادة ، من فوق منبر بلرزة ، وعلى لسان شخصيات علية وهى على فراش الموت . واعتبرت حركة « العمل » ان « التصحيحيين » هم الذين قتلوا « آرلوسوروف » ، اما « التصحيحيون » فقد اعتبروا أن الطرف الآخر قد اثار اليهودى ضد اليهودى في حملة تشهير دموية .

وقد فتحت قضية « آرلوسوروف » جرحا داهيا ظل ينزف في أوروبا وغلسطين ، حتى بعد أن طوى النسيان أحداثها الأصلية بدة طويلة . ولقد أصيب « منلهم بيجين » بذعر حقيقي أزاء نشر كتاب جديد ، بقلم الصحفي الإسرائيلي « شلبتاي تيتش » ، يعرض فيه وجهة نظر غير متعاطفة ، لدرجة أنه قام في مارس ١٩٨٢ بتشكيل لجنة تحقيق لتقصي الحقائق . وقال رئيس الوزراء لزملائه في المجلس :

« إن القول بأن تسعة وأربعين علما قد مرت على تلك الأحداث . وأصبح من الصعب إعادة التحقيق فيها الآن ، يعتبر من سبيل عدم الإدراك وتضليلا للجمهور ، وتشويهها للحقيقة ، واستمرارا لترويج حملة التشهير الدموية ضد حركة صهيونية عظيمة وضد أفراد أبرياء ، واستمرارا لظلم لم يسبق له مثيل في التاريخ اليهودي فيها عدا ظلم غير اليهود لهم » .

وإمر « بيجين » ، الذي أكد شعوره بمسئوليته التاريخية ، نشر المحاضر الكاملة للمنقشة التي دارت داخل مجلس الوزراء . وتناول بيجين المسألة وهر « يرتجف من الرهبة » . وتأجلت جلسات لجنة الاستماع لمدة علم آخر نتيجة لحرب لبنان . وجدير بالذكر أنه لم يتبق على قيد الحياة من الشخصيات التي لها صلة مباشرة بقضية القتل سوى « زفي روزنبلات » . فقد قتل « ستافسكي » على ظهر السفينة « التالينا » ، التي كانت جماعة « أرجون زغاي نيومي » تنقل الأسلحة عليها ، وذلك عندما قصفتها الجيش الإسرائيلي من فوق نفس شاطئ تل أبيب الذي شهد الحادث .

وكان « بيجين » البالغ من العمر عشرين علما ، قد دافع بذاته ، وبصفته من العناصر النشطة في جماعة « بيطار » ، عن « جابوتنسكي » عندما تعرض لهجوم من بعض اليهود الذين قاموا بالقاء الحجارة عليه . وقد سئلت إبه في « بريست — ليتوفسك » ، أثناء وجودها في أحد محال البقالة : « لماذا يخطط ابنك ، وهو الولد الطيب ، بأولئك القنطة ؟ » وكان « ستافسكي » صديق طفولة وجار « لبيجين » ، الذي أخذ مسألة براعته كقضية مملعة . وقد قام « بيجين » بواوساة والدته « هاسيلبيجين » ، بقوله « لا تبتأسي ، فأنت تعلمين أن « أبراشا » لم يقتل أحدا . ولا بد للحقيقة أن تظهر » واصطحب « بيجين » والدة « ستافسكي » لقلبة « جابوتنسكي » .

وقد كتب في عام ١٩٨٢ يقول : « ملألت صرخاتها ورجواتها من « جابوتنسكي » لاتقاوذ ولها ، ترن في أذني حتى اليوم . وقد قبل « جابوتنسكي » يدها ، وانهمرت الدموع من عيني الأم . ولن تمنحني أبدا تلك الدموع من ذاكرتي » .

وقد تعرضت الاقلية من حركة التصحيح في فلسطين لنفس عملية الرفض الحادة التي تعرضت لها في أوروبا — وإن كانت قد أسفرت عن عواقب

أكثر تأثيراً على الحياة اليومية . فقد خسر مثلاً « يعقوب مريدور » وظيفته ومنزله نتيجة لذلك وكان (مريدور) الذى أصبح فيما بعد يشغل منصب نائب « بيجين » فى القيادة العليا لجماعة « أوجون » - يعمل آنذاك عاملاً فى منطقة تل أبيب - وقد وصف تلك التجربة أمام مجلس الوزراء عام ١٩٨٢ ، عندما كان يشغل منصب وزير التنسيق الاقتصادى بقوله :

جاءنى صاحب الدار الذى كان عضواً عاملاً فى نقابة عمال الطباعة فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى للجرمة وقال لى مؤكداً بلا أدنى شك ، أنها جريمة سياسية . ولم يكن قد مر سوى ساعات قليلة على وقوعها . ومع ذلك بدا الجو الغام يسوده شعور بقرب وقوع مذبحة ميليسية . . وأمرنى صاحب البيت بعد انقضاء يوم بترك غرفتى وبدأت بعد ذلك أواجه متاعب فى العثور على عمل .

وقد واجهت أسرة « ارييل شارون » المقيمة فى « كفار ملال » - وهى مزرعة تعاونية لصغار الملاك تتبع حركة العمل - وقتاً عصيباً مماثلاً بعد أن احتج والديه على وصف « التصحيحين » بالقطرة . فقال لهم مجلس الوزراء .

« أسفر الحادث عن وقوع صراع استمر عشرين عاماً . وقد أخرجونى وأنا صبى من المدرسة المحلية . فلم استطع تلقى تعليمى هناك . وظللنا طوال عشرين عاماً ، حتى بعد حرب الاستقلال ، محرومين من الحصول على الرعاية الطبية عن طريق الصندوق المحلى للمرض . . ولم نستطع تسويق منتجاتنا من خلال منفذ المزرعة التعاونية . . ولا زلت أذكر والدى وهما يتناوبان الحراسة بجوار الطريق لحماية إنتاجنا من محاولة أعضاء المزرعة التعاونية الآخرين أفساده . لقد زرعنا وانتجا . وشب الأطفال وسارت الأمور على ما يرام فى النهاية . . ولكن تم كل ذلك فى خضم من الصراع المستمر يسوده كراهية لا تنتهى » .

وقد ضاعف « ديفيد بن جوريون » ، وغيره من زعماء حركة العمل الصهيونية من اتساع الجراح عندما عقدوا مقارنة بين « جلوبوتنسكى » وهتلر « ووصفوا أعضاء » حركة التصحيح باليهود النازيين . وكان « بيجين » واثقاً من أن هذا الشقاق ساهم كثيراً فى اتساع نطاق « آرلوسوروف » . وكان يؤكد أنه لولا موجة الكراهية التى أثارها قضية « آرلوسوروف » ، لتفكك جناح الحركة الصهيونية من تجميع جهودهما فى سبيل العمل من أجل تهريب المهاجرين من أوروبا الى فلسطين بالطرق غير المشروعة ، ولربما أمكن انقاذ عشرات الآلاف من اليهود .

وقد التى الفتى « بيجين » أول خطب عام له عندما كان فى الثالثة عشرة من عمره ، من فوق منصة بالحديقة العامة فى « بريست - ليتوفسك

وكانت المناسبة هي احدى الاحتفالات الصهيونية التي ينظمها والده كل عام احتفالاً بعيد « لاج باغومار » (عيد ١٨ أيار) . ولم يكن الخطيب واحداً من خطب « بيجين » الناجحة ، ولكنه سرعان ما أصبح واحداً من الخطباء المعتادين في الاجتماعات السنوية التي تقام احياء لذكرى « هيرتزل » . وقد استمع « اهرن زفي برومبيز » ، الذي كان يرأس الفرع البولندي لجماعة « بيطار » الى « بيجين » - الذي كان في الثامنة عشرة آنذاك - وهو يلقي احدى خطبه في عام ١٩٣١ . ويقول « برومبيز » : « لقد كان رائعا وادركت لحظتها أن شابا يتمتع بمواهب نادرة يقف أمامنا » . ان شهادة « برومبيز » هذه تتسم بشهامة خاصة ، فبعد ثماني سنوات من ذلك التاريخ ، نعى برومبيز جانباً ليفسح المجال لزييه . وقد وصل « بيجين » الى قيادة منظمة « بيطار » في حي « بريست » بينما كان لا يزال في مرحلة الدراسة الثانوية . وعندما التحق بجامعة وارسو ، لدراسة القانون ، اختاره برومبيز « لعضوية اللجنة العليا للبيطار » . وقال عنه « برومبيز » حينذاك ، انه : منضبط ، ومحبوب من زملائه ، ويتمتع بالطموح » .

وقد سيطرت على جماعة « البيطار » ، مثلها في ذلك مثل « حركة التصحيح » التي انبثقت الجماعة عنها . آراء « جابوتنسكي » وأسلوبه وشخصيته . وقد تبناه « بيجين » في أنحاء أوروبا مستمعا الى خطبه ، دارسا أسلوبه ، مستوحيا لمبادئه . وكانت الحركة الشبابية لا تخفى ميولها العسكرية . فكان أعضاؤه يتدربون ويرتدون زياً عسكرياً . ويقول « ديفيد جرون » ، وهو أحد معاصري « بيجين » : « لقد غرس « جابوتنسكي » فينا ضرورة أن نتعلم كيف نطلق النار » . وكان « بيجين » ، بصفته المسئول الأعلى عن تنظيم « بيطار » في بولندا ، يجوب أنحاء البلاد ، ويلقي الخطب ، مداةنا وساعيا لاجتذاب أعضاء جدد . وبلغ عدد أعضاء الحركة ، بطول عام ١٩٣٩ الى ٧٠ ألف عضو موزعين على ٧٠٠ فرع .

ويؤكد يزرائيل ايلداد وهو أحد المعاصرين « لبيجين » في جماعة « بيطار » ، والذي أصبح فيما بعد فيلسوف « عصاة شتيرن » والنقاد اليميني العريق لبيجين :

« ان كلماته مهما بدت في اليوم ، فانها لم تكن مجرد كلمات خطابية جوفاء بالنسبة ليهود بولندا . لقد كانت تعبيرا دقيقا عن مشاعر الشعب اليهودي . ولم يكن أحد يتسائل آنذاك عن تكاليف اقامة دولة يهودية . انها كانت من وجهة نظرهم مسألة عادية خاصة بجمهورية تملك الملايين . وعندما كان المرء يتكلم عن الجندي اليهودي . فانما كان يعبر عن مثل عليا . فاليهودي كان يلتحق كجندي في الجيش البولندي ، في الوقت الذي كان يكره فيه بولندا ولكن عندما كان « بيجين » ينطق بتعبير « جندي يهودي » كان الناس

يشعرون بالفخر ، فقد كانوا يرغبون في ذلك من أعماق قلوبهم . وكانت جماعة « الارجون » قد بدأت تمارس نشاطها في فلسطين . وفي بولندا عندما كان المرء يتحدث عن الانتقام وعن انتهاء المذابح ، كان الشعور بالفخر يسيطر على الأولاد اليهود . وكان الشباب مستعدا للمعاناة والتضحية من أجل المثل العليا ، فانشباب لا يتمتع بالصبر وقد اتاحت لهم منظمة « بيطار » و « الارجون » فرصة انتهاج الطريق الثوري . لقد فتحتا الطريق أمام مئات الألوف الذين لم يكن أمامهم سبيل آخر .

وإلى نجاح « بيجين » في تنظيم الشباب البولندي داخل « البيطار » إلى قيام « جابوتنسكي » بإيفاده إلى تشيكوسلوفاكيا ، حيث كانت الحركة سفيرة وضعيفة . وبدأ « بيجين » يعمل من أسفل إلى أعلا ووفقا لأقوال « بروبيز » كان يكفي بتناول وجبة واحدة في اليوم ، وكان ينام أحيانا فوق المقاعد الخشبية بالحديقة العامة . لقد كلن يعمل في اخلاص ، دون أن بكل أو يشكو . ويقول « بروبيز » متذكرا : « لقد أصيب في إحدى المرات أثناء وجوده في وارسو بالتهاب رئوي . ونقلته زوجته التي كانت تعرضه إلى إحدى دور النظافة في « أوتوك » حتى يسترد صحته . وعندما اتجهت لزيارته بعد يومين ، وجدته قد خرج وعاد إلى العمل على الرغم من ضعفه الشديد . فالعمل كان يعنيه أكثر من أي اهتمامات شخصية أخرى .

وإثناء أحد جولات « بيجين » ، دعا الدكتور « ليون ارنولد » المحامي والعضو البارز في « حركة التصحيح » في بلدة « دروبيز » البولندية الصغيرة ، إلى العشاء في منزل حماء « زفي ارنولد » وهناك التقى بيجين بـ « زفي ارنولد » ، التوأمين ، « اليزا » و « ليا » والبالغتين من العمر آنذاك سبعة عشر عاما . وقد عمل « بيجين » لمضعة أشهر وقبل عودته إلى وارسو لتولى رئاسة حركة « بيطار » البولندية ، ككاتب لدى حماء « زفي ارنولد » . وتقبل « بيجين » و « اليزا » في المعبد اليهودي الكبير « بدروبيز » حيث ارتدى كل من العريس والعروس الزي العسكري لحركة « بيطار » ذا اللون البنّي ، وأن كلن قد ارتديا بعد ذلك الملابس المدنية في الحفل الذي أقيم لوداعهما في رحلة شهر الصل ، حيث ارتدت « اليزا » معطفها أبيضاً يصل إلى الركبة وقبعة ملفنة للانتظار ، بينما ظهر « مناحم » المسأل إلى النخافة والذي كان يلبس نظارة طبية على عينيه ، في البطو واق من المطر لونه شاحب يخفى تحتسه تفاصيل جسمه . وكثت العروس في التسعة عشرة من عمرها بينما كان العريس في الخامسة والعشرين . وجاء « جابوتنسكي » من باريس بالقطار لحضور حفل الزواج . ولقد استطاع « مناحم » اتمام هذا الزواج الذي دام حتى وفاة « اليزا » . بعد ثلاث وأربعين سنة من ذلك التاريخ ، تخطى كل الأزمت الناجمة عن الفراق ، والتقى ،

والمخاطر ، والمشاكل السياسية الاسرائيلية . وقد شاركت « اليزا » زوجها في تمسكه بعمققاته وعناده ، ولكنها كانت راضية بالبقاء في الظل الى جواره ولم تكن ، الا في النادر ، لتغفر لاحد يثير غضبه او يخونه . وقد رزقا بثلاثة أبناء ، ولد وابنتين ، جميعهم من مواليد اسرائيل . وقد هلكت الاخت التوام لاليزا في الهلوكوست ، تليها مثل معظم افراد أسرة « مناحم » .

وعلى الرغم من أن « بيجين » كلن سعيدا بالجلوس عند اقدام « جابوتنسكى » ، فانه لم يكن مجرد واحد من متلقيه . بل ان التلميذ اصطدم و « المعلم » في مناسبتين مشهورتين . فقد احتج « بيجين » اثناء انعقاد المؤتمر العالمى السادس « لحركة التصحيح » في يناير ١٩٣٥ بمدينة كراكو ، على محاولات « جابوتنسكى » ذاته .

وقال « بيجين » : « ربما تكون قد نسيت أن « بن جوريون » نعتك في احدى المناسبات بـ « فلاديمير هنتر » ، ولكننا لم ننس » .

ورد عليه جابوتنسكى بحدة قائلا : « انا لن انسى ابدا رجلا من امثال « بن جوريون » و « بن زفي » و «ياهو جلومب » لقد ارتدوا في يوم من الايام الى الزى العسكرى للفيلق (اليهودى) ، وانا واثق من أنهم لن يترددوا لو دعت القضية اليهودية الى ذلك ، في ارتدائه مرة اخرى وان يقتلوا تحت لوائه . ولو حدث ائتلاف ، فلننا سنترفع عن اثاره الخلافات التافهة . فنحن جميعا قد اظهرنا تمسكنا القوي بوطنيتنا الصهيونية » .

وقد جاء التحدى الثانى ، والاكثر خطورة ، اثناء المؤتمر العالمى الثالث « البيطار » ، الذى انعقد بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين فى وارسو . فقد تعرضت الحركة آنذاك لشقاق هام بين أعضاء جماعة « أرجون زفاى لبومى » ذات الميول العسكرية والموجودين فى فلسطين ، والذين كفوا يضغطون من اجل انتهاج سياسة انتقام ايجابية ضد الهجمات العربية على اليهود ، وبين « جابوتنسكى » الذى كلن يعترض بشدة على مثل هذا الارهاب المضاد . وكانت جماعة « أرجون » تواقا الى شن حرب ضد البريطانيين ، أما « جابوتنسكى » فكان لايزال يؤمن بوجود قوى بريطانية من نوع آخر يمكن اقناعها باعتبار القضية اليهودية جزءا من المصلحة الحقيقية للامبراطورية . وكان جماعة « أرجون » قد قامت بتنظيم خلايا خاصة بها داخل حركة الشباب اليهودى البولندية (البيطار البولندى) ، وفتحت مكتبا سياسيا فى سويسرا . واقتلت الجماعة معسكرات للتدريب العسكرى فى بولندا بالتعاون مع الجيش البولندى ، الذى اغترته فكرة ترحيل مئات الآلاف من اليهود بالسفن للقتال فى فلسطين ، وبذلك يتم حل المشكلة اليهودية فى بولندا (حيث كانت الطائفة اليهودية التى تضم ٣.٥٠٠.٠٠٠ يهودى ، تشكل فى اواخر الثلاثينيات ١١٪ من السكان وربما

كانت هذه احدى المرات النادرة الى اهم فيها « جليوتسكى » بالتفكير بقدر اهتمامه بالبدا . فقد كان يريد الاحتفاظ بالنشاط المشروع لكل من حركة « البيطار » و « التصحيح » بعيدا عن العمليات السرية لجماعة « الارجون » ، وذلك على الرغم من انه كان الزعيم المسمى لكل من الجناحين « السيلسي » والعسكري للحركة . وحلول « بيجين » ، الذي كان ينحاز الى العنصر الثوري النشطة وان كان يريد تجنب الدخول في معركة بانه يجب الجمع بينهما معا تحت سقف واحد . فلا بد لجماعة « الارجون » من ان تعمل من خلال « منظمة بيطار » .

وعندما طرحت المسألة للمناقشة بمؤتمر وارسو الذي انعقد خلال شهر سبتمبر ١٩٣٩ ، انتظر « بيجين » حتى حضر « جليوتسكى » قبل ان يلقي كلمته . وقال ان الحركة الوطنية الاسرائيلية بدأت من خلال الصهيونية لعملية سُم الصهيونية السيلسية . وانهم يقفون الان على مشرف الصهيونية العسكرية التي ستندمج في نهاية الامر والصهيونية السيلسية . وذكر ان المسألة يمكن مقارنتها بما حدث بين « كافور » و « غارييلدى » . فما كان « كافور » لينجح في تحرير ايطاليا بدون « غارييلدى » . ولقد قاطع « جليوتسكى » « بيجين » مرارا ، مذكرا اياه بان اليهود يفتقرون في وطنهم الى القوة العسكرية البشرية . ورد عليه « بيجين » بقوله انه يجب عليهم الوقوف فورا في وجهه المخطط البريطانية الرامية الى ايجاد دولة فلسطينية تتمتع بأغلبية عربية وذلك بصرف النظر عن الاعداد والنتائج . واعلن : « حتى لو سقطنا فانه يمكننا اننا قاتلنا » . وأكد انه لا بد لمنظمة « بيطار » ، وذلك ليصبح « رمزا لمناسا » وممركتنا » (ولقد كانت مثل هذه الایماء هبة جدا بالنسبة له) . وطالب بيجين بتغيير عبارة « سائحذ سلاحى من اجل الدفاع عن بلدى » وان احمه الا في سبيل الدفاع » ، بعبارة « سائحذ سلاحى من اجل الدفاع عن بلدى » . ومن اجل الاستيلاء على وطنى » . وجلال بانهم كانوا يتوقون دائما الى القرة ، هذه القوة اصبحت موجودة الآن . واضاف : هناك ملايين الاشخاص ليس لديهم شيء يخسرونه . ومهمتنا تقتصر في استخدام القوة الكلية فيهم » . ونبت الموافقة على التعديل بعد تردد من جانب جليوتسكى « ولكن ليس قبل ان يوجه الزعيم هجوما مضادا ساحقا ضد السيلسي الشاب المبتدىء » ، حيث قال :

« ان ثمة انواعا كثيرة من الاصوات . . ونحن نتحمل ضجيج المكينات والمركبات وما الى ذلك . ولكن لا يمكن ان نتحمل صرير الابواب لانه لا يعود علينا باى فائدة . والخطب الرنانة والتصفيق تشبهان صرير الابواب ليس لها فائدة او منطق . ولا يوجد في « البيطار » مكان لمثل هذه الفثرة . وأحيانا تكون هذه الاصوات مسلية ، ولكن يجب علينا ان نحترها . وتعتبر الكلمات التي قالها مستر « بيجين » من هذا النمط الأخير ، ويجب علينا ان نكبت مثل هذه الاصوات بكل قسوة » .

لقد وضع « جلوبوتنسكى » كل ثقته في الضمير الحى للعالم ، نظرا لعدم ثقته الكافية في استعداداته العسكرية . وأراد أن تقوم الدول الغربية بتوفير جنة في فلسطين لآلاف اليهود المهددين في أوروبا . وسخر « بيجين » من هذا التفكير لاستاذة القديم . وقد رد عليه « بيجين » بكل حدة ، خلال نفس الشهر الذى كان « نفيل تشلبيرلين » يتفاوض فيه مع « هنتر » في ميونيخ من أجل التوصل الى « سلام » (وهى) يسود عصرنا . حيث أعلن العضو البارز في منظمة « بيطار » والبالغ من العمر خمسة وعشرين عاما : « لقد ملت ضمير العالم ، ولم تعد لعصبة الأمم أى قيمة . وشريكنا البريطانى يقودنا الى المذبحة ويلقى في السجن بأفضل أفراد أمتنا » . ورد عليه « جلوبوتنسكى » بقوله انه اذا كان هذا هو ما يشعر به « بيجين » ، فمن الأفضل له أن يغرق نفسه في نهر الفستولا .

ويؤكد « يوحنا باخر » — وهو محلم بحركة « التصحيح » ، عاش في الجيل الوسط بين جيلى « جلوبوتنسكى » و « بيجين » — انه بالرغم من شعور الغضب الذى انتلب الزعيم ، غلبه « سعد واغبط » لمواجهة « الصبيان » له . وثمة روايات متناقضة حول رأى « جلوبوتنسكى » في « بيجين » . فقد قيل مثلا ، انه اختاره خليفة له . ولكن من جهة أخرى ، تردد انه كان يحقر ترمت « بيجين » والذى يشبه ترمت أبناء الاقليات ، وكذلك تقواه المفرطة (لقد كان « جلوبوتنسكى » بعيدا تماما عن هذا الجانب من التقاليد اليهودية حتى انه كتب في وصيته يقول : « أريد أن يدفع جثتى أو يحرق — فالأمر سيان بالنسبة لى — حيثما يلحق بى الموت ») . ولم يزعم « بيجين » فى أى وقت وجود علاقة وثيقة بينهما . فقد كان يدرك تماما مدى الاختلاف بينهما فى السن والمكانة . وكان من الواضح ان « جلوبوتنسكى » كان يقدر « بيجين » كشخص قادر على التنظيم وكرموس موهوب ، ولكن لم يكن هناك أى دليل على انه يحاول صقله ليصبح خليفة له .

وانتهى مؤتمر وارسو بتنصار الشيباب . وتم تجنب الشقاق بين جماعتى « البيطار » و « الأرجون » وفى أبريل سنة ١٩٣٩ ، تم تنصيب « مناحم بيجين » رئيسا « لمنظمة بيطار » البولندية ، التى كانت بمثابة محطة توليد الطاقة بالنسبة للحركة الدولية ، وذلك بدلا من « بروبيز » ، الذى ترك منصبه فى هدوء تام . وقد أعلن الأتراك الشبان بلا رحمة ان « بروبيز » ممتاز بالنسبة للشئون الثقافية والمؤتمرات ، ولكن ليس بالنسبة لخوض المعارك وتولى الشئون السياسية (وقد أسس فيها بعد « مهرجان اسرائيل » ، الذى ظل يشرف عليه حتى وفاته عام ١٩٧٨) . واحتفل « بيجين » بترقيته بان تزعم مظاهرة ضد فرض قيود على الهجرة اليهودية . واتاح البوليس البولندى له أول فرصة لتجربة حياة السجن . وأطلق سراحه بعد ثلاثة أسابيع ، وهو حليق الرأس . ولكن كتبت وارسو والعالم بأسره مشغولا حينذاك بأمر أخرى أكثر أهمية .

الفصل الثالث

هروب واعتقال

لم تكن المسألة التي تواجه يهود أوروبا إبان صيف علم ١٩٣٩ ، هي هل ستقع الحرب بقدر ما كانت متى ستقع . وكان الاهتمام الأول للحركة الصهيونية بجناليها هو عملية انتقال أكبر عدد ممكن من يهود ألمانيا في أعقاب قرارات نورمبرج ، وإن لم يكن قرار الحل النهائي قد صدر بعد . ولم تصد تنبؤات « جلبوتسكى » بقرب وقوع الهلاك تبدو ومحولة لاثرة الذعر . ولم يعد النداء الذي وجهه الى كل يهودى لأن ينجو بنفسه طالما كانت هناك فرصة ، يقع على آذان صماء . ولكن كانت المحاولات قد بدأت تقام والحدود تغلق .

وقبل يومين اثنين من غزو « هتلر » لبولندا ، عاد « ملاحم بيجين » الى وارسو بعد أن رافق قافلة تضم ألفا من المهاجرين « غير المشروعين » تبعية لمنظمة « بيطار » ، حتى حدود رومانيا . وكان يسيطر عليه شعور بالاحباط ، حيث أن رومانيا كانت تسمح ، حتى تلك اللحظة ، بمرور اليهود المتجهين الى فلسطين عبر أراضيها ، ولكن بعد التوقيع في موسكو على اتفاقية مولوتوف - ريبنتروب في ٢٣ أغسطس لم يعد في وسع الرومانيين تحمل المخاطر نيابة عن الغير . وتشتت جماعة المهاجرين من أعضاء « البيطار » ، وعادوا الى ديارهم . ولقى معظمهم حتفه في معسكرات الموت أو بين صفوف رجال المقاومة البولندية .

وعندما دخل الجيش الألماني بولندا في أول سبتمبر من ذلك العام ، كان رد الفعل التلقائي « لبيجين » منيعنا من مشاعره كمواطن بولندى وكيهودى في الوقت ذاته . ويسترجع يسرائيل ايلداد أحداث تلك الفترة قائلا « دعا بيجين » قيادة منظمة « بيطار » للاجتماع ، وطلب منا تحصين وارسو وخبر الضادق . وقال لنا ان علينا أداء واجبنا كمواطنين بولنديين ، وأن نلتزم بالقوانين . وجاء الى مكتب البيطار في اليوم التالي ، الشاعر يوزف جرينبرج من « حركة التصحيح » . واندحس للشهد الذي رآه أمامه ، فصاح قائلا « ماذا تفعلون ؟ ان الروس قادمون . ويوجد لدى جماعة ارجون جوازات سفر فخذوها واذهبوا » . وذهب « بيجين » و « ديفيد جوتان » لمقابلة جنرال بولندى وعرضا عليهم تشكيل كتيبة يهودية لتقاتل مع الجيش البولندى ضد الألمان ، غير أن رده لم يكن مشجعا . وعندئذ فقط بدأ « بيجين » وغيره من قادة « بيطار » ينادرون « وارسو » في جماعات صغيرة . وكانت قنابل الألمان قد بدأت تنسقط على العاصمة .

ورحل «بيجين» وزوجته «اليزا» بصحبة «ناتان يلين - مور» وزوجته «غريدا»، اللذين كان قد تم زواجهما في «سبتمبر بواسطة الحاخام الأكبر شلومو دانيد كاهانا»، آخر حاخامات وارسو. «وقد شهد «بيجين» وزوجته على عقد الزواج حيث كان «يلين - مور» واحدا من زملاء «بيجين» في اللجنة العليا لمنظمة البيطار. وقد أصبح «ناتان يلين - مور» غيبا بعد واحدا من الثالوث الذي تلاك العيلة الارهابية التي شتمتها «عصابة شقيرن» ضد الانتداب البريطاني. وعندما اتحكم اخلاق المسيدة، اخذوا يروحون جيئة وذهابا سواء بواعتلة التطار أو العربات التي يعبرها الخيل، أو على الاقدام، ويختبئون لدى الموالين لحركة «البيطار»، وهم يحاشون القاذفات الألمانية ويتجنبون الدبابات السوفيتية القادمة. وساعدت القسوس والشائعات، واحتشمت الأسر اللاجئة على جانبي الطرق واكملت بهم القطار، وبها القصف يسجل أول احتابات بين المدنيين، الذين أصبحوا يبدون في حالة من الانكسار يرنى لها. وكتب «بيجين» يقول غيبا بعد: «كنا نقلم ونحن نسير. كنا ننام أثناء سيرنا على أقدامنا». واحتجز الروس «بيجين» لفترة وجيزة عندما اتهمته امرأة يهودية بأنه مدين لها بمبلغ من المال كانت قد دفعته له ليساعدها على الهرب عن طريق رومانيا. وسعد الدين. واشترى حريته.

ورفض الرفاق الأربعة الذين أصبحوا يعانون من الاعياء الشديد الإلحاح عليهم بالبقاء في مكان واحد، حتى يمكن لأعضاء منظمة «البيطار» رعايتهم، وإن كانوا قد شعروا بامتنان لتمكنهم من الاحتفال بعيد رأس السنة اليهودية مع بعض الأصدقاء. واستطاعوا أن يصلوا في النهاية، وبعد أن أضوا سبعة أسابيع على الطريق، إلى مدينة «فيلنا» التي كانت مركزا هامسا للتعليم والمشروعات اليهودية. وكان الروس قد استولوا على الجزء الشرقي من الأراضي البولندية وأعلنوا «فيلنا» عاصمة لاقليم «ليتوانيا الحرة». احتشمت قيادة منظمة «البيطار» البولندية بكامل هيئتها في «فيلنا». وسرعان ما انضم اليهم الآلاف من اعضائها. وأخبرهم «بيجين» أن «ليتوانيا» ستوفر لهم سبيل الخروج إلى فلسطين. واستأجرت المنظمة منزلا، وبمشت بأفرادها للبحث عن مراكب لنقلهم عبر بحر البلطيق. ويعترف بعضهم عند استرجاعهم للماضي، بأنهم كانوا سذجاً، فقد كان من المستحيل أن تقوم حرية «لتوانيا» ولكن كانت «فيلنا» تعتبر آنذاك رمزا للأمل.

ولقد تعرضت صداقية قادة منظمة «البيطار» للاختبار عندما وصلتهم رسالة من «شيمشون جويتزمان»، رئيس حركة الشباب في فلسطين، يطلبهم فيها أولا بأن «أفراهم شقيرن»، قائد أكثر أطلحة جماعة «أرجون زفاي ليومي» عنفا قد قرر «العمل بمفرده». ومن ثم، ومنذ تلك اللحظة،

أصبحت هناك قوتان سريتان تملآن من أجل تحقيق « الحق اليهودي » جماعة « أرجون زغاي ليهوي » أو « المنظمة العسكرية الوطنية » ، التي أصبحت تعرف باسمها المختصر « إيتزيل » المكون من الحروف الأولى لاسم المنظمة العبرية () ، وعصابة شتيرن « المحاربون من أجل تحرير إسرائيل » ، « لوهامي حيروت إسرائيل » (بالصبرية ، واختصارا « ليهي ») . والأمر الثاني الذي أبلغهم به في رسالته ، وهو الأمر الأهم بالنسبة « لبيجين » ورفاقه في فيلنا هو أن « كثيرين هنا (في فلسطين) يعتقدون أنه لا يجب على القبطان أن يفادر السفينة طالما هلت طافية » . وفهم « بيجين » - بحساسيته المفرطة إزاء مسألة الكرامة ، تلبها مثل حسلية « جلوبوتنسكي » - أن المقصود بهذه العبارة هو انتهاءه ورفاقه بالتخلي عن عشرات الآلاف من أعضاء منظمة « بيطار » الذين كانوا لا يزالون موجودين في بولندا .

ويسترجع يسرائيل الداد هذه الواقعة فيقول : « لقد استدعانا « بيجين » وقال لنا انه ربما كان (جونيترمان) على حق ، والله يريد أن يعود الى وارسو . ولكننا قررنا في النهاية عدم العودة . وكانت حجة عدم العودة هي أن جبهتنا أصبحت موجودة الآن في فلسطين ، التي هي وطننا الأم . ولم يعد هناك ما نفعله في بولندا . وقد أصبح من المستحيل العمل هنا من أجل ترحيل مزيد من أعضاء « البيطار » الى فلسطين . ولذلك فقد استدعياهم الى « فيلنا » لأخراجهم عن طريقها .

وكان « ديفيد جوتان » واثقا من أن بقاءهم في « فيلنا » كان أفضل ، كما كان يرى أن تفكير « جونيترمان » خاطئ ، ويقول :

« أولا ، كنا نعتقد أن الانتقال اليها اثما كان مؤقتا . وكنا على ثقة من أن الجيش البولندي بمساعدة البريطانيين والفرنسيين سينتصر . وكنت حجتا هي أن « ليتوانيا » ليست سوى دولة يمكن تدبير الخروج منها . وكنا هناك على صلة بالعالم الحر . وأرسلنا برقيات الى الولايات المتحدة - الى منظمة بروييز وغيرها من المنظمات - للضغط من أجل منحنا تأشيرات وتملحج حجرة لأكبر عدد ممكن من أعضاء « البيطار » . وكنا في حاجة الى تواجدنا في مكان يمكن للبريطانيين أن يرسلوا اليه تصريحات للهجرة المشروعة .

وكنا قد قمنا بأنفسنا ، كذلك ، بتزوير عدة تصريحات . فان الحصول على تأشيرة خروج من « ليتوانيا » كان يستدعي ، على الأقل ، تقديم خطاب يفيد بأن لديك تصريح بالاتجاه الى مكان آخر . ولذلك فقد قمنا بتزوير مثل هذه الخطابات . كما أن القنصلية الهولندية في « فيلنا » كانت تمنع تأشيرات للذهاب الى « كوراكلو » . وعندما أغلقت القنصلية ، قمنا بتزوير التأشيرات . وكان اليابانيون أيضا يمنعون تأشيرات خروج .

وقد سكت الروس عن كل هذه الأنشطة لانهم كانوا يحتاجون الى العملة الأجنبية ، وكانت اللجنة المشتركة (لجنة التوزيع الأمريكية اليهودية المشتركة) تزودنا بالمال اللازم . وكنا في حاجة الى قاعدة ، وكانت « فيلنا » قاعدة مناسبة يمكننا العمل من داخلها . وكذلك كنا نجرى اتصالات مع الصيادين « الليتوانيين » في ميناء « بالاتجا » ، وقد منحناهم النقود لاتنا كنا نعتقد انهم يستطيعون نقل الأشخاص بزوارقهم الى السويد .

والذي حدث ، أن الحرب لم تنته بسرعة ، كما ثبت أن قرار البقاء في « فيلنا » ، كان غاية في الأهمية . فان منظمة « البيطار » كانت تمثل الحركة الصهيونية البولندية الجساعية الوحيدة التي بقيت لتواجه « الحل النهائي » بدون قيادة . ويذكر المؤرخ الاسرائيلي « يهودا بوار » ، الذي كان من أوائل مؤرخي « الهلوكوست » ، أن هذه الحقيقة هي السبب الأساسي وراء ما يصفه « بعقدة الهلوكوست » التي يعاني منها « بيجين » ، أو شعوره بالذنب لانه بقي على قيد الحياة . وقد كتب « بوار » يقول : « ان عدد اكبر من الناجين ممن يمرون بتجارب مماثلة ، يعانون من شعور عميق بالذنب . بيد أن مثل هذا الاحساس بالذنب ليس له أي مبرر من وجهة النظر المنطقية . ويقدم لنا نظرية البروفيسور « بوار » تفسيراً مقبولا لتسلط « الهلوكوست » على تفكير « بيجين » ، والذي أدى به الى ارسال خطب أثناء حصار الجيش الاسرائيلي لبيروت في اغسطس عام ١٩٨٢ ، الى الرئيس « رونالد ريغان » ، جاء فيه « اني أشعر هذه الأيام وكأنني رئيس وزراء يملك سلطة توجيه جيش باسل يقف في مواجهة « برلين » حيث يختبئ « هنتر » وحاشيته في مخبأ عميق تحت سطح الأرض وسط المدنيين الأبرياء .

وقد ذكر باحث آخر في دراسة له عن « الهلوكوست » ، وهو زئيف مانكوفيتز « ان هذه المقارنة التشبيهية تعتبر مضللة وخطيرة . فكتب يقول :

« ان حرب النازي ضد اليهود لم يكن لها أساس واقعي » . وقد نبعت من كراهية بلا سبب وخوف من « اليهود » ، بصفتهم قوة شيطانية تعمل من أجل فرض سيطرتها على العالم . والحقيقة الرهيبة هي أن الشعب اليهودي كان ضحية للهلوسسة . بيد أن الشعب الفلسطيني ، هو الشعب الحقيقي ، وتطلعاتهم القومية حقيقية واقعة ، كما أن لهم أهمية رمزية حقيقية في العالم العربي ، وبالمثل فان التعاطف والاعتراف السياسي الذي كسبه هذا الشعب في أنحاء العالم يعتبر حقيقة ملموسة .

وكما عرفنا فان « بيجين » دافع في عام ١٩٣٩ عن فكرة الرجوع الى وارسو . ومع ذلك « اسرائيل الداد » يعتبر واحداً من الذين يشكون في

انه كان يعنى ما يقول فعلا . فان « بيجين » كان يملك آنذاك ، نفس القوة والمكانة اللتين كانتا تمكنانه فى مناصبات أخرى من فرض رأيه على زملائه هذا ، اذا كان هو يرغب فى ذلك .

ويتول الداد : « أنا لا أعرف حتى الآن ما اذا كان جادا فيما يقوله ؛ انه كان مجرد إمهاة ، مجرد مشهد تمثيلى . فلطالما شاهدناه يفعل ذلك حتى يومنا هذا . وأنا لا أعرف ما اذا كان يريد فعلا العودة الى وارسو » .

هذا وقد وجد قادة حركة « بيطار » البولندية وقتنا كلفيا فى ربيع سنة ١٩٤٠ ، بالرغم من مشاغلهم العملية ، لملقشة مسألة اوسع نطاقا كانت تهزق حركة « التصحيح » : هل يوقفون مؤقتا النضال ضد الحكم البريطانى فى فلسطين طالما ظلت بريطانيا تثن حريا ضد القازى ؟ أم هل يؤيدون سلسلة « بن جوريون » التى تدعو الى الاشتراك فى الحرب وكان « الكتاب الابيض » الذى يفرض قيودا على الهجرة اليهودية ، لم يصدر ، مع محاربة « الكتاب الابيض » وكان الحرب غير قائمة ؟ وقد اصدر « جلوبوتسكى » اوابره الى « الارجون » بوقف النضال . ورضخ « دافيد رازنيل » ، قائد قوات « الارجون » فى فلسطين للامر . وولغا لاقوال « الداد » ، فان « بيجين » ادان عملية وقف القتال باعتبار انها بمثابة خيانة للقضية اليهودية . وكان يعارض وقف القتال .

وقاد « الداد » حملة فى مجلة « بيطار » التى كان يراس تحريرها فى « فيلنا » ، من اجل « الحيد العدائى » ، ما لم يمنح البريطانيون اليهود جيشا خاصا بهم تحت راية نجمة داوود . ويتفق موقف بيجين هذا والموقف الذى اتخذته فى المؤتمر انعام لمنظمة « بيطار » ، ولكنه عندما أعلن الحزب ضد الانتداب البريطانى بعد اربعة اعوام من ذلك التاريخ ترك انطباعا بأن دوانع اتخاذ هذا القرار كانت أكثر من مجرد استجابة لمساة يهود أوروبا عام ١٩٤٤

وقامت جماعة البيطار فى أحد أيام صيف عام ١٩٤٠ بتنظيم اجتماع فى الجامعة البولندية « فيلنا » — والتى كانت تشتهر بأنها مستوفا للمدء ضد السامية — للاحتفال بثلاث مناسبات : احياء ذكرى وفاة « تيودور هرتزل » ابو الصهيونية السياسية ، ووفاء « حليم ناخمان بيليك » شاعر الاحياء العبرى ، والذكرى الخامسة عشرة لانشاء الجامعة العبرية فى القدس . وكان من المقرر أن يلقى بيجين كلمة فى تكريم هرتزل . ولكن حدث فى منتصف الاجتماع ، الذى حضره آلاف الطلبة اليهود ، أن مرت ورقة الى المنصة . وجاء فى الذكرى : « لقد دخلت الدبلات الروسية المدينة » . وشحب وجه الاستاذ الذى كان يتكلم عن الجامعة العبرية رائترح أن يرحلوا جميعا بأسرع ما يمكن . ووقف « بيجين » مطلقا : « ستواصل عقد

الاجتماع حتى نهائيه وسنختبه بالنشيد القومي « هاتيكنا » . وهب الحاضرون وانطلقوا يرددون النشيد القومي الصهيوني . ويقول « اسرائيل المداد » : « لن انسى ابدا تلك المرة التي رددنا فيها « الهاتيكنا » . لقد ظننا جميعا ان هذه هي آخر مرة سننشد فيها « الهاتيكنا » بأوروبا .

وادرك قادة « البيطار » انذاك ان الوقت بدأ ينفد . فان الكرملين لم يكن بصديق للصهيونية ، التي كان يحتقرها بصفتها « انحراف قومي » عن الطريق الثوري . كما ان « ستالين » كان لا زال الحليف المطلق لهتلر . ولكن لم يكن لدى « بيجين » ورفاقه ما يردون به سوى ان يواصلوا ما كانوا يقومون به ، ويستمرروا في البحث عن مقلد لتهريب اتباعهم عبرها . وكثفت « منظمة بيطار » تحتفظ بسجل لبطاقات عضوية أفرادها الموجودين « بفيلنا » . وعندما وصل الروس قام أحد الشبان — ممن تولوا فيها بعد منصباً رفيعاً بدولة اسرائيل بسحب بطاقته حتى لا يتكشف امره . ففصله بيجين من البيطار على الفور .

وتلقت اعضاء حركة التصحيح في ذلك السيف لكمة مزدوجة فلم يكذبهم اسبوع على دخول الحملات السوفيتية الى ليتوانيا ، مما انتهى استغلالها الهش ، حتى توفي « فلاديمير زيف جلوبوتسكي » في الولايات المتحدة . وخاطر « بيجين » بحريته حيث اتجه الى « كوفنو » لالتقاء مريثة بالمعبد اليهودي الرئيسي هناك ثم توفي بعد شهر من رحيل « جلوبوتسكي » ، أحد الاحبار البارزين في « فيلنا » واشترك خمسة عشر من اعضاء البيطار في جنازة الجبر التي اشترك فيها الآلاف من اعضاء الطائفة « الحليدية المتطرفة » . وانسلخوا من الجنازة واتجهوا الى قبر شلب من المنظمة مات نتيجة للبرد القارس واصلته بغرغرينا أثناء محاولته الوصول الى فلسطين . واقام « بيجين » صلاة الجناز عليه والتي كلفة قصيرة ثم رددوا جميعا نشيد « البيطار » ، بما يتضمنه من اعلان الايمان بأن اسرائيل سوف تقوم من بين النسيك والرماد . غير ان « بيجين » تكثر بوقاة معلبه بدرجة اكبر مما حاول ان يبديه .

وقد لفتت تصرفاته التي تتطوى على التحدي انظار البوليس السري السوفيتي اليه . وتم استدعاء عضو بالبيطار الى مقر القيادة وسئل عما اذا كان يعرف « بيجين » وعندما رد بالإيجاب قل له الضابط : « لقد اتى كلمة رائمة بالمقابر اليس كذلك ؟ » وكان « ديفيد جوتان » من اهالي « فيلنا » وقد درس بجامعتها . وفي أحد الايام ابلفه أحد معارفه القدامى بأنه وزملاءه ضمن القائمة التي وضعها الروس بأسماء المطلوب القبض عليهم . وقام البوليس السري السوفيتي بزيارة منزل والديه ، بيد ان « جوتان » كان قد ذهب على سبيل الاحتياط ، الى مكان آخر لينام فيه . وبذلك أخذ زملاءه

« البيطار » حذرهم ، وانتقلوا من « فيلنا » الى قرية « يافيلنيوس » القريبة ، حيث قبلوا بتأجير غرف متفرقة في بيوت الفلاحين .

وتلقى « بيجين » قبل مغادرتهم المدينة بمباشرة استدعاء للحضور الى الغرفة رقم ٢٢ في مبنى مجلس مدينة « فيلنا » بشأن موضوع « الطلب الذي تقدمتم به » وادى هذا الى تحذيره بدلا من ايقاعه في اللخ . فلم يستجب لهذه « الدعوة المهذبة » ، ولم يكن ذلك فقط الا لانه لم يقدم باى طلبات . وقد اختار « بيجين » الا يختبئ او يحاول الهرب . وفي كتاب « الليالى البيضاء » ، الذى يعتبر من اول الكتب الادبية عن الحياة في مصسكرات الاعتقال الشاقة « الجولاج » والذى نشر في عام ١٩٥٧ ، قال «بيجين» : « كان هناك سبب بسيط وراء الجزء الاول من قرارى . فقد قلت لنفسى ، اذا كتبت الحكومة السوفيتية ترغيب في اعتقالى ، فليتنعم عملاؤها انفسهم ويحضروا الى منزلى ، فهذه هى مهمتهم ، ولذا اختنى وكفن الارض ابتلعنى » ؟

واضاف يقول بخبث : « اما السبب وراء الجزء الثانى من قرارى فلم يكن بمثل هذه البساطة ، ولا اريد ان اخوض فيه » . ولم يكشف « بيجين » عن هذا السبب الاخر الا بعد مرور عشرين عاما اخرى .

« لقد اظلمت الدنيا في نظرى بعد وفاة جلوبوتسكى . لم يكن « جلوبوتسكى » بالنسبة لنا مجرد رئيس او زعيم ، بل كان اكثر من ذلك ، فقد كان محل آمالنا ، وكنا نتطلع اليه ليخرجنا من العبودية .. لقد ضاع الامل ذاته ، لقد رحل عنا ولم يعد هناك أمل . ولذلك فقد كتبت بهذا نفسيا لان اعتقل بواسطة السوفييت لاتنا اذا لم نستطع ، كما قلت اثناء تجميعنا حول قبر احد اعضاء « البيطار » ، ان نقاتل من اجل بلدنا فليس اقل من ان نعمانى من اجله . وبصراحة دلة ، لقد كتبت لحظة يأس متفاهى . لم يكن أملنا بصيص من الضوء . ولذلك فقد كتبت في حالة نفسية تجعلنى افضل الذهاب الى السجن . ولم اتكلم في هذا حتى مع زوجتى . لقد قدم لى رفائى النعيم .. ولكننى رفضته » .

وعلى اى الحالات فقد انتقل زعماء منظمة « بيطار » الى « يافيلنيوس » ، حيث استأجر « بيجين » و « اليزا » بعض الغرف في منزل احدى الارامل . وقسمهم مسكنهم كل من « الداد » (الذى كان يعرف آنذاك باسم « يسرائيل شيب ») وزوجته « باتيا » ، وشخصان آخران ، احدهما زوج شقيقة مسز « بيجين » . وكان عملاء البوليس السرى السوفيتي يتتبعونهم كظلم . بل ان « بيجين » كان يلهو بهم . فدعا « اليزا » للذهاب معه بالقطار الى « فيلنا » وقام بتعيين فريق من اعضاء البيطار لتتبع العملاء وكان العملاء يقتنون اثر « بيجين » وزوجته اينما ذهبوا — وكان جواسيس بيجين يقومون بدورهم بانتقاء اثر العملاء . لقد كان الجميع يعلمون انها لعبة

لن تستمر طويلا . وسحر بيجين في كتابه « الليلى البيضاء » من رجسبال البوليس السرى السوفيتى لانتقارهم الى المهارة التى يتميز بها المحترفون . غلقد كثفوا مكشوفين تماما . ولكن ربما كان الامر ببساطة لا يسبب لهم اى شعور بالقلق . غلو أن قيادة « بيطار » غادرت « ليتوانيا » غالى غير رجعة ، اما اذا ظلوا بها غان رجال البوليس السرى سيمستطيعون عندما يريدون ، أن يلتوا القبض عليهم .

وتحرك البوليس السرى فى ٢٠ سبتمبر ، اى بعد عشرة ايلم من لعبة القط والفار . وشمر « بيجين » بالارتياح عندما سمع الطرق على الباب ، فقد عرف اخرا اين يقف . ودخل ثلاثة رجال ، وقطعوا على « بيجين » و « الداد » ، مباراة الشطرنج التى كلنا يلعبانها . وسال قائد القوة عن السبب فى تجاهل « بيجين » للاستدعاء الذى ارسل اليه بالحضور الى مبنى مجلس المدينة . ورد عليه « بيجين » قفلا : انه لم يكن لديه شأن والبلدية . واتهم اذا كانوا يريدون الاتصال به فاتهم يعرفون اين يجدونه . وطلب منهم « بيجين » بلهجة الرسمية الشيبية بلهجة الحاميين ، أن يكسبوا عن شخصياتهم . وبرز قائدهم بطلقة شخصية تفيد بأنه من رجال المضابرات « اللتوانية » . وسالهم « بيجين » عما اذا كان معهم امر كتابى بالقبض عليه ، ونفوا ذلك ولكنهم قالوا انهم جاءوا على اى الحالات لاعتقله . وصمم « بيجين » ، متشبها « بجابوتسكى » ، على الا يجبره احد على التعجل ، وعلى أن يحتفظ بوقاره . وطلب من « اليزا » تقديم الشاى « لضيوفهم » وبدا يستعد للرحيل .

يذكر « الداد » هذه المناسبة فيقول :

لقد ادى « بيجين » ، ما اصفه بمثابة مقطوعة موسيقية . فقم بتلميع حذائه وارتداء حلة وربطة عنق ، وكان فى منتهى التهذيب . وفى النهاية طلبوا منه الذهاب فقال لهم : « انا هنا فى بيتى ، ففضلوا انتم اولا . والتفت الى قفلا : « اننا سنواصل مباراة الشطرنج » . وتلقت فيها بعد رسالة يخطرني فيها باننى فى وضع الفوز ولذلك فانه ينسحب . ولم يكن هذا صحيحا ، فاننا لم تكن قد قمنا بتحريك القطع سوى خمس او ست مرات . وقد سمحوا له بان ياخذ معه التوراة وكتاب آخر فقط . ويكت زوجتى . اما زوجته فلم تبك .. لقد كانت فى غلبة القوة والتماسك » .

وبينما كان « بيجين » خارجا تحت الحراسة ، شاهد « ديفيد جوتان » وتبدلا نظرات تتم عن وقوع المحتوم وكنتها يتولان : « حسنا ، لقد حدث المتوقع » وكان زملاء قائد منظمة « بيطار » واقفين من انه يواجه فترة سجن طويلة غير محدودة ، بالرغم من تأكيداتانه بأنه سيعود سريعا . ومع ذلك فقد وجدوا صعوبة كبيرة فى اقتناع « اليزا بيجين » بالذهاب معهم الى فلسطين

بواسطة لوراق هجرة مزورة . ويقول « جوتان » انها كلفت تصليب بالهستريا .

« اوضحت لها ان السوفييت ان يحتفظوا « بناحم » في « فيننا » وانهم سيرسلوه الى سيبيريا او اى مكان آخر مشابه . وان الحدود ستغلق في القريب العاجل . واكملت ان السبيل الوحيد للضغط من أجل الافراج عنه هو عن طريق اجراء اتصالات بالعالم الحر ، وبصفة خاصة بالولايات المتحدة . ولا يسعنا عمل ذلك الا من فلسطين او استنبول » .

وفي النهاية امكن اقتناع « اليزا » بالرحيل . قسافرت برفقة « اسرائيل » و « باتيا » ، الى حيفا عن طريق « اوديسا » وتركيا . وكانت جماعتهم ضمن ٤٠٠٠ يهودى سمح لهم الروس بمغادرة « ليتوانيا » عبر « اوديسا » و فلاديفوسك ، ودفعت اللجنة المشتركة ، ألفى دولار عن كل فرد سافر عبر « اوديسا » وأربعة الاف دولار عن المجموعة التي سافرت عبر « فلاديفوسك » . واتجهت المجموعة الاولى الى فلسطين بينما سافرت المجموعة الثانية الى الولايات المتحدة .

وامكن ابلاغ « بيجين » ، فى زنزائه الكريمة الرائحة بسجن « لاكيشكي » نيا فرار زوجته وذلك من خلال احلى الالغاز التي تقوم على التلاعب بالكلمات والتي يحتاج حلها الى جهد ذهنى مضم ولكن بمجرد ان تعرف الحل فانه يبدو لك فى غاية السهولة . فقد ارسل له بعض الاصحاء نفاذة تحوى على بعض الملابس الشتوية الثقيلة . وعندما حل بيجين المرافقة وجد بداخلها منديلا مطرزا عليه بطريقة بدائية « اولى » . ولاول رحلة ، لم يفهم لماذا كتب اسم التديل الذى يطلقه على زوجته بتلك الطريقة بدلا من هكذا : « آلا » . ولكن فى النهاية استطاع أحد زملائه اليهود بالسجن أن يحل له اللغز . فان كلمة « آلا » هى تانيث للكلمة العبرية « أوليه » التي تعنى حرفيا « من يذهب الى أعلى » ولكنها ترمز ايضا الى « المهاجر الى فلسطين » . وقد تالكت صحة هذا الحل للغز فى مايو عام ١٩٤١ عندما سمح لاقارب المسجونين بزيارتهم . وطلب « بيجين » السماح لزوجته بزيارته ، على احتمال ألا تكون قد رحلت بعد . وحضرت بدلا منها فتاة من جماعة « بيطار » بفيلنا ، تدعى « بولا دايتشيز » وقالت له ان العمة « آلا » موجودة مع العم « شيمشون » . وفهم « بيجين » المغزى المقصود فورا . فان العم « شيمشون » هو « شيمشون جونيكرمان » ، زعيم « بيطار » فلسطين . ثم استطردت « بولا » تقول : ان والديه فى صحة طيبة وكذلك اخوته الموجودون مع العمة « آلا » . وحيث ان « بيجين » لم يكن لديه سوى اخ واحد فقد أدرك انها تعنى ان رفاقه قد نجحوا أيضا فى الفرار . وطلب « بيجين » من « بولا » ان تكتب خطايا الى العمة « آلا » وتبلغها فيه أنه فخور بهم جميعا ، « وقولي لها انى فى صحة طيبة واننى سأعود اليهم » .

وقد اهاد « بيجهن » الى الازهران اللّخز المبني على التلاعب بلفظي «آلا»
و «أولا» بمد أن طواه النسيان بمدة طويلة وذلك عندما اهدى نسخة من كتابه
الليالي البيضاء الى « دافيد جوتلن » بعبارة تقول : الى « ديفيد الذي لولا
ما أصبحت «آلا» هي أولا — أي ما أصبحت زوجته « آلا » مهاجرة
الى فلسطين •

ولكن شاعت الاقمار ان يمر عليه عامان عصيبان قبل ان يتمكن من الوفاء
بوعده ويعود اليهم مرة أخرى •

الفصل الرابع

«انتقال إلى «الجولاج»

سألم «مناحم بيجين» نفسه بعد أن أمضى تسعة أشهر مسجوناً في مقر رئاسة البوليس السري السوفييتي بفيلنا ويسجن «لوكيشكي» الباريد ، لماذا ينتهي أمر الكثيرين ممن يحتجزهم البوليس السري السوفييتي بالاعتراف ؟ وقد بحث «آرثر كوستلر» هذا اللغز ذاته في روايته عن عمليات التصفية الجسدية التي مارسها الكرملين ، والتي نشرت تحت عنوان «الظلام وقت الظهيرة» . ولكن جواب «كوستلر» على ذلك التساؤل هو أن قدامى البلاشفة ظلوا على ولائهم للثورة مهما ساورتهم المخاوف من تطرف ستالين واسرافه . وقد أدركوا أن المرء الذي تنتابه الشكوك والريبة في سلامة الطريق الذي يسلكه الحزب إنما يعرض الثورة للخطر وذلك لأنه «يستحق» أصابعه برصاصة في مؤخرة رأسه . ولم يكن «روباشوف» بطل كوستلر ، ضحية للبوليس السري فحسب بل كان ضحية أيضاً لمنطقه الشيوعي .

وخطأ «بيجين» بسؤاله خطوة أخرى : لماذا يسلك المسجونون السياسيون الآخرون الذين يخلصون لمثل عليا أخرى غير الشيوعية ، نفس الطريق إلى العدم ؟ وتوصل تفكيره إلى أن السبب في هذا يكمن في «حائط الشك» الذي يقيمه البوليس السري السوفييتي حول فريسته ، وهو الحائط الذي لا يحرمه فقط من حريته بل أيضاً من جمهورية ، فيقول :

إذا ما أدرك المناضل أن خدماته لم تعد ذات قيمة ، وإن أحداً لن يستمع لكلماته أو يعرف بالموقف الذي اتخذته ، كما أن أحداً لن يتلقف تضحيت من بين يده ويتعلم منه كيف يضحي ، فإن الخيط الذي يربط بينه وبين مثله العليا سينقطع في الغالب . وعندئذ سوف ينجح تماماً إدراكه الداخلي برسائله وسوف تتسائل نفسه المعذبة : من الذي سيعرف ؟ من الذي سيتبعني ؟ من الذي سيجعل مكاني ؟

ما أهمية معاناتي وما الهدف من العذاب الذي أقاسيه ؟

وأضاف «بيجين» إلى ما سبق عاملاً إضافياً توصل إليه من تجربته الذاتية ، وهو الحيلة المعتادة التي يمارسها المحققون : حرمان المسجون من النوم ، وهو جزء لا يتجزأ من أي عملية استجواب يجريها السوفييت . لقد كان البوليس السري يعمل أسامها خلال الليل ، ويتم إعادة السجناء إلى

زنازاتهم قبل موعد الاستيقاظ مباشرة . وبمجرد ان يغلبهم النعاس ، يحين وقت الاستيقاظ . وكان النوم مطورا اثناء النهار . وكانت الاوامر الصادرة الى الحراس تنص على مراقبة السجناء بدقة وتهديد كل من يفتو اثناء النهار بالسجن الانفرادى اذا تكرر منه ذلك ويقول « بييجين » عن هذه التجربة :

« يأتى الليل حاملا فى طياته ظلام الاستجواب الجديد .. المرة تلو المرة .. والليلة تلو الليلة ، طوال الاسابيع والاشهر ، طوال الزمن اللانهائى . يبدأ الضياع يتكاثف داخل رأس المسجون الذى يجرى استجوابه .. ويكاد الاجهاد يزهق روحه ، وتهتز ساقاه تحته ، ولا تصبح لديه سوى أمنية وحيدة مطلقة وهى : أن ينام ، كم يتمنى أن ينام ولو لفترة وجيزة ، أن يستلقى ولا يقوم أن يستريح وينسى . وأن ينام ، أن يموت ، أن ينلم ... العدم . ان كل من جرب هذه الرغبة الجامحة يعلم أن الجوع والعطش لا يمكن مقارنتهما بها . لقد التقيت بسجناء وقموا على الوثائق التى أمروا بالتوقيع عليها ، بهدف واحد فقط وهو أن ينالوا ما وعدهم المحققون به - النوم بلا ازعاج » .

وقد عانى « بييجين » ، وفقا لاقواله ، من هذين النوعين من غسيل المخ « فقد وضع فى عزلة تامة الا من جيرانه المباشرين ، والبرقيات التى كانت ترسل بأسلوب النقط والشرط عبر جدران ومواسير السجن . ونادرا ما كانت تتاح له فرصة للنوم . وبدون محلكة صدر ضده حكم بالسجن لمدة ثمانى سنوات بصفته « عنصرا خطيرا على المجتمع » . لقد تار ضابط البوليس السرى انسوفيتى وأعلن غاضبا : « محلكة . أمخوه منصفه يمارس من فوقها مهارته الخطابية » ومع ذلك فان « بييجين » لم ينهار . وعندما اعترف فى نهاية الامر ، فانه فعل ذلك وفقا لشروطه الخاصة . فقد رفض التوقيع على مستند يقول : « اعترف بانى مذنب بتولى رئاسة منظمة « بيطار البولندية » واستطاع بعد ليلة متواصلة من المناقشات اللانهائية ان يقنع المحقق بالفناء الفقرة التى تشير الى الاعتراف بالذنب . واقتصر اقرار الاعتراف على تسجيل حقيقة بسيطة ومحددة بوضوح : « انى اعترف باننى كنت رئيسا لمنظمة بيطار البولندية » . لقد استطاع « بييجين » ان ينهك المحقق من خلال المناقشات المضنية ، تماما كما فعل مع كل من تباحث معهم فيما بعد . وصرخ المحقق صائحا وهم يقودون « مصدر عذابه » الى زنازته : « اغرب عن وجهى ، فانا لا أريد ان تقع عيناي عليك مرة اخرى ابدا ! » .

كيف استطاع بييجين ان يصمد ؟ ان كتاب « الليالى البيضاء » لا يجيب مباشرة على السؤال ، ولكن يمكن للمرء ان يستشف الاجابة من بين طياته لو انه قرأه بامعان . لقد تعامل « بييجين » مع تجربة الاستجواب ، بل ومع تجربة السجن بأسرها وكأنها مباراة ذهنية أو مباراة شطرنج قاتلة . لقد كان يفكر : كيف يعمل النظام ؟ ما الذى يحاول المحقق الوصول اليه ؟ لقد

ساعدته هذه التساؤلات التي كان يوجهها الى نفسه مثلما يحاول غيره ان يحل المسائل الرياضية ، على الاحتفاظ بعقله ، وبمعاييره ، واحترامه لذاته .. لقد حافظ على نفسه من ان ينتلب الى حيوان .

وحاول المحقق بما لديه من خبرة اعزام طويلة في السياسة الصهيونية . ولكن كان « بيجين » عنيدا ومتزمتا ومتكبرا . وعلى الرغم من انه كان يعلم ان الانتصار على المحقق لا قيمة له فقد رفض أن يسر له بلوغ الهدف . ورفض تلميذ « جابوتنسكي » الموافقة على أن الصهيونية ليست الا انحرافا قوميا برجوازيا ، وان زعيمه ، الذي كان قد توفى مؤخرا ، كان أداة للامبريالية البريطانية . وكان صمود « بيجين » وروح المقاومة التي يتمتع بها أمرا غريزيا فكان يناقش ويوجه المحقق ، بالرغم من ان هذا الأخير كان تلميذا بليدا ، وربما جعله يدفع ثمن جرأته وواقاحته غالبا . لقد كان يتصرف تصرفا بطوليا غير علني ومجرد من أى فرض سوى البطولة ذاتها ، فلما كما فعل « زئيف دوف بيجين » عندما لكم الرقيب البولندي الذي حاول اجتياز ذقن الجبر . لقد كان ينفذ مفهوم العزة والكرامة التي غرسها « جابوتنسكي » في نفوس تلاميذه من فتيان وفتيات البيطار . لقد كان الطرفان يتجادلان ، وهما يشعران بأن ثمة شيء يجبرهما على ذلك . وكتب « بيجين » يقول : « كنت اشعر أحيانا انه قد نسي دوره كمحقق تماما كما نسيت انا دوري كشخص يجري التحقيق معه » .

ولكن كان التمرين اللبلى عنى المجادلة يساعده أيضا على ان يستمر طامعا فوق السطح . وقال : « لقد كانت التحقيقات بالنسبة لي عبارة عن مناظرة بين عقيدتي ضد عقيدته ، فكان لدى ما أقاتل من أجل الدفاع عنه حتى داخل حجرة التحقيق كما كتب يقول عن عملية تحدى لاحقة : « أنا أناضل ، ونذا فانا موجود » . ولم يتخل « بيجين » أبدا ، في الوقت ذاته ، عن الأمل في إطلاق مشروطة الى زوجته « اليزا » . وكان السبب في ذلك يرجع جزئيا الى ان « بيجين » رضخ رغما عنه في النهاية لمحاولات المحقق في أن يجعله يتأمله . فقد وعده بفتح فترة لاعادة تعليمه . وتساءل بيجين « هل سأعيش حتى نهاية فترة اعادة التعليم ؟ هل سأكملها وأعود ؟ » يقول « ميرون شيسكين » ، رفيقه في السجن والزعيم السابق لحركة التصحيح ، في بولندا ، ان « بيجين » لم يفقد الأمل إطلاقا في انه سيخرج كان كلانا يعرف أنه أينما ذهبا فائتا سنذهب في النهاية الى اسرائيل . لم تكن المسألة عقيدة دينية ، انها كانت شعورا راسخا في نفوسنا . وكان « بيجين » يدرك أن نتائج الحرب الدائرة خارج جدران السجن ، مشكوك فيها ، وان اصداءه في الغرب يبذلون الجهود من أجله . لقد كانت اللزثرة العلية بين رفئاق « بيجين » في الزنزانة تؤكد ان « هتلر » سيوجه مدافعهم في القريب العاجل نحو حليف « المصلحة »

السوفيتي . وترتبط السجنة البولندية تلك اللحظة في ابتهاج ، بينما ترتبها اليهود في غمور . ولكن المستقبل لم يكن مغنونا على الاطلاق . ولذلك كان الامر كان جديرا ببقاء المرء على قيد الحياة وحنينا بأن يعمل المرء على كسب الوقت .

ولم يكن الوقوف وراء القضبان مسألة جديدة بالنسبة « لناهم بيجين » فلقد دخل السجن البولندي قبل ذلك بعامين لظواهره امام السفارة البريطانية في وارسو . ولذلك فانه لم يصن بصنمة عندما احتجز في مقر البوليس السري السوفيتي أو وراء قضبان سجن « لوكيشكي » ، الذي نقل اليه بعد فترة وجيزة . وكان الظلام والفروق الكبيرة في درجات الحرارة والبرودة ، والرائحة النتنة لجدران العذورات الموجودة في الزنزانة المكتظة ، والممرير الصلب ، ووجبت الطعام غير المشبعة ، والمسجل الفظ الذي يقوم بتنفيذ الاوامر الخبيثة الصادرة اليه ، والحزلة عن الاسرة والصدق — كفت كل هذه امور قد تعود عليها .

« لقد وجدت في قمص « الادمين » كل الاشياء المعتادة — مرتبة تش ، ورف ، ومنضدة عارية ، وكروسي بلا ظهر وغير متماسك ، واثق عميق صغير ، وبالطبع الجردل . وعلبة يعتبر سجن « ميلنا » شبيه « بسجن وارسو » ، ولا شك ان كل السجون الأخرى التي يقينها الاتسان لسجن اخيه الاتسان ، لا تختلف عنها في شيء . فلا يوجد جديد تحت الشمس . وربما كان من الافضل الا يكون المرء سجيناً مستجداً . »

وقد اكتشف ان الفرق الوحيد بين السجن السوفيتي وغيره من السجون هو ان سجين البوليس السري السوفيتي كان يسأل نفسه « هل من المقدر لي ان اخرج ؟ » بدلا من ان يسألها : « متى سأخرج من هنا ؟ » وجاء اول التقاء لبيجين بالواقع ، عندما طادر حراسه الكلب الوحيد ، باستثناء القهقرة الذي سمح له بالحضاره معه من « بلفينوس » . وكان الكلب هو مسرة حياة دزرائيلي بقلم اندريه بوروا ، والذي كان قد بدأ قراءته بالانجليزية . وكعقاب له على تعامله مع السجن وكأنه مكتبة علبة يمضي وقته به في القراءة اجبر على الجلوس لمدة ستين ساعة في مواجهة حائط خال ، وركبته تضغطان على الحائط وعيناه تركزان على نقطة واحدة بلا حراك . لقد كان اسلوبا حلقا في التفتيب ، استطاع « بيجين » تحمله باسترجاعه لكل الاوقات الهائلة البارزة في حياته . ولقد كان ارتياحه بالغسا عند السماح له بالارتقاء على حاشيته ، حتى انه كان ان يصلب بالهذيل .

وظل على مدى ثلاثة أشهر يشترك رجلين آخرين زنزانه واخذه . كان أحدهما ضابطا ايطاليا بالجيش البولندي ، في منتصف القبر واعزب مولما بالنظام بدرجة شايقت حتى « بيجين » نفسه ، والاخر كان ثريزا

شلباً أصبح فيها بعد جنديا برتبة مساعد غريف ، كما أصبح أقاء وجوده بالسجن تلميذا « لبيجين » . وقد أثار هذا الشلب دهشة الرططين الأكبر منه منا فتلما عاد الى الكتيتة . وكان زجلاه البولنديان بالزئانة لا يكادان يخفيان شعورهما بالعداء للسائبة والمتامل في نفسيهما ، ومع ذلك فقد حزن « بيجين » على لراقه لها . وفي هذا الهند يقول بيجين :

« كانت توجد حواجز تفصل بيننا ، بل أننا كنا نتعارك ، ولكننا تبكنا من التعرف على بعضنا البعض ، وتعلمنا كيف نتفاهم ونتسلح . وكنا قد أصبحنا بالفعل بمثابة مجتمع صغير ، له غرفه وتقاليد . ولم أدرس هنا التدريس الا قليلا ، ولكنني تعلمت كثيرا . ولقد مرت هنا بتجربة الاستجواب كما اتخذت هنا قرارا مؤلما .

وقد تم وضع « بيجين » خلال فترة انتظار انتهاء المحاكمة وصدر الحكم في زئانة جماعية تضم ستة عشر سريرا لينلم عليها حوالى ستين سجينا . وكانوا ينامون على الأرض . وكان رفاته في هذه المرة يتكونون من لص يهودى ، وضابط بولندى برتبة كولونيل يبلغ من العمر ٧٨ عاما ، ويعقب بأثر رجعى لأنه كان قد حارب في صفوف جيش القيصر . وكان معظم المسجونين الذين اتهاروا تحت ضغوط الارحام والجوع ، هم من أولئك الأشخاص الأقوياء البنية ، الذين اغتاصوا على الحياة في الامكن المفتوحة . اما المفكرون « الضعفاء والضعفاء البنية » ، كما وصفهم « بيجين » في كتابته وهو يشعر ببعض الرضا عن النفس ، فانهم لم يمرضوا او يشتكوا ، لقد بدا كان ارواحهم كانت بمثابة الدعابة التى تستدعهم ، وتقوم بهمة الدرع الذى يحنى أجسادهم . ولقد اشتركت المجوعتان في اعلان الاضراب عن الطعام احتجاجا على عدم احداث أى تغيير في نوعية طعامهم الذى كان يتالف باستمرار من نوع من الحساء الخفيف غير الشهى المخلوع من الحبوب ويعرف باسم « ككسا » . ويصف « بيجين » هذا الحساء في اكتلب فيقول : « ان رائحته كانت تركم أتوفنا فعلا لقد كان حساء « الككسا » كريها بالنسبة لنا ولم نعد نتحمل تناوله مرة أخرى » . وانتصر المضربون بعد بضعة أيام . ولأول مرة منذ شهرين متواصلين قدم لهم حساء مصنوع من اوراق الكرنب الفلسدة بدلا من « الككسا » الكريهة ، وكانت تلك هى الفترة التى علم فيها « بيجين » ، من خلال « تليفراف » السجن ، بوجود « ميرون شيسكين » في الزئانة المجاورة وأبرق اليه زعيم « حركة التصحيح » ببولندا ، والذي يكبره بثلثي عشر عاما ، برسالة — عن طريق النقر على الحائط — يستفسر فيها عن صحة « جلوبوتسكى » . وشفر « بيجين » بجرح وأسى لعدم معرفة « شيسكين » بنبا زفا « جلوبوتسكى » ، ولكنه ابلغه به بعد فترة وجيزة . وذهل « شيسكين » ووضع شعبته على رأسه وتلا صلاة الجلالة . ولقد ردد زجلاؤه في الزئانة كلمة « آمين » في نهاية الصلاة بالرغم من ان أحدا منهم لم يكن يهوديا .

وأثناء فترة عيد الفصح اليهودى ، اشترك « بيجين » و « شيسكين »
فى زنزانة واحدة . ويقول « شيسكين » متذكرا :

« كنا نأخذ جرايتنا اليومية من الخبز ونغمسه فى القهوة ثم نضعه
على النافذة ليجف ، وبذلك كنا نحصل على خبز « المقرأ » (أو الخبز
اليهودى غير المختمر) وكنا نتلو صلاتنا : « ان هذا هو خبز بلاتنا ، نحن
اليوم عبيد ولكننا سنكون فى العالم القادم رجال أحرار ، ونحن اليوم موجودين
هنا ، ولعلنا نكون فى العالم القادم بالقدس » . وكنا نغنى بعد ذلك نشيد
الحركة الصهيونية : وكنا نسمع اصوات ترد علينا من أماكن مختلفة
بالسجن . ان المسجونين اليهود يرددون النشيد ، حتى بالرغم من حظر
المظاهرات » .

وقد نجا الزعيمان الصهيونيان من العقاب بصورة او باخرى . ولكن
الحظ تخطى عن « بيجين » عندما سمعه احدىالحراس اليهود يروى « نكتة » ،
وظن انه هو المقصود بها ، فاشتكى الى مدير السجن ، الذى سارع
بالحكم على « بيجين » بقضاء سبعة ايام فى الحبس الانفرادى . وقد قبل
الحكم من وجهة نظر فلسفية ، فاعتبره دورة دراسية جديدة فى الاساليب
التي يتبعها البوليس السرى السوفيتى وفى فن ولغة الحبس .

« لقد انقضت الايام السبعة ولياليها . لقد أدى الحبس الانفرادى
الى اسابته بضعف شديد ، ولكنه تعلم منه الكثير . لقد تعلم من الحر
الخانق أثناء النهار ومن البرد القارس فى الليل ، ومن القذارة والرائحة
الخائفة الخاصة بالفنفس الخالى من النوافذ ، ومن عدم وجود أى غطاء ، ومن
الرطوبة والارض القذرة المصنوعة من الاسمنت التى كنت افترشها للنوم
والتي كانت مرتعا للفئران — لقد تعلم من كل هذه الاشياء ان ثمة امكان
اسوا حالا من زنزانة السجن ، تها كما تعلم فيها بعد ان ثمة امكان اسوا
من زنزانة الحبس الانفرادى » .

وقد استطاع « بيجين » ان يتحمل اسبوع الحبس الانفرادى الذى
لم يتناول خلاله سوى الخبز والماء ، ولكنه لم ينس ابدا خيانة الحارس
اليهودى الذى كان يعمل فى خدمة البوليس السرى . وقد ضم « بيجين » هذا
الموظف المجهول الى قائمة « الابلاسة » التى يحتفظ بها فى ذاكرته وتضم
ايضا المحقق اليهودى ذا الكلام المعسول الذى حطه باللغة البديعة على ان
يعترف « بالحقيقة » ، وكذلك المترجم الصهيونى الركيك الذى كان يتعبد
عند ضريح لينين ، وسامو « بيجين » على النصوص التوراتية الخاصة
بهيرتزل ، ثم الحلاق اليهودى الذى كان يعمل بالسجن والذى كان يؤدى
الاعمال القذرة نيابة عن « سيده » بتهيته « للزئلقن » برواياته الساخرة عن
الحياة فى معسكرات الاشغال الشاقة ، وكان هناك آخرون فى حياة « بيجين »
من امثال أولئك المرتدين . ولم يتساهل « بيجين » معهم ابدا حتى عندما أصبح

رئيسا للوزراء يمكن يستخدم تعبير « ذلك اليهودى المتكبر » ، بلهجة استنكرية في وصف أى يهودى يحاول خطب ود العدو الفلسطينى أو يحاول تلقينه درسا في واجبه القومى . وكان هذا الاسلوب امهلا احيانا في الرد عليهم من مناقشة المسائل التى كانوا يثيرونها .

وعلى الرغم من ان فترة التسعة اشهر التى امضاها « بيجين » في سجن « فيلنا » كانت فترة عصيبة ، الا ان الايام انبتت انها لم تكن سوى تهديد لنزوله في « المكان الاسوأ من زنزانة الحبس الانفرادى » أو « اربخيل جولاج » الذى وصفه « الكسندر زولشفنتسن — في رواية بهذا الاسم — بالجحيم السوفيتى » الذى يتلف لرجل والنساء الموصوفين لمسيب أو آخر ، باتهم اعداء الثورة ، فيطوهم النسيان ويتحولون الى ما يشبه الحفريات المتحجرة . . وبالرغم من ان اقامة « بيجين » هناك لم تدم اكثرا من ثلاثة اشهر فانها تركت في نفسه عداا ابديا للروس والشيوعية ، وحامسا للحرب الباردة ظل راسخا في نفسه حتى ما بعد « الولاغ » بكافة اشكاله .

وبدأت رحلة العذاب بحركة تمرد كل من يمكن اعتبارها في ظروف اخرى مجرد محاولة بسيطة للترويح عن النفس ، حيث رفض المسجونون الذين كانوا ينتظرون نظمهم ان يتناولوا طعامهم من البصقات . وكان سجن «لوكشكى» مكتظا بدرجة انه لم يكن يحتوى عددا كلفيا من الاطباقي لكل المسجونين . ولكن المسجونين كانوا يرون ان البصقات صنعت خصيصا لعملية البصق ، حتى لو لم تستعمل في ذلك القوضى وصمد المسجونين لمدة يومين . وكما حدث من قبل بالنسبة للاضراب عن الطعام ، انتصر المسجونون ولكن بشئ باهظ : فقد حساوا على عدد قليل من الاطباقي والفنلجين كلفوا يضطرون الى تداولهما من يد الى اخرى ، ومن ثم الى آخر ، ومازالت بقايا الحساء او القهوه عالقة بها . وكتب بيجين يقول في ابتهاج ولكنا تناولنا طعامنا ، ولم نتناوله من البصقات .

وكان : « بيجين » واحدا من الفئ سجين تم ترحيلهم في اوائل شهر يونيو سنة ١٩٤١ من « فيلنا » الى الشمال . وكانت وجهتهم التى لم يكونوا قد عرفوها بعد ، هي معسكر « بيتشور » للاشغال الشاقة على نهر « بيتشورا » ، الذى يتدفق عبر منطقة التندرا الشمالية ليصب في بحر « بارتنس » المتجمد الذى يقع جنوب الدائرة القطبية الشمالية مباشرة . وكانت الرحلة التى بلغ طولها ١٥٠٠ ميل اثنى ما يكون بالكابوس حيث تم حشرهم في القططارات والبواخر النهرية التى استقلوها في اعداد اكبر مما لو كانوا ماشية . فقد كانت كل عربة من عربات قطار السجن مصممة بحيث تسم اربعين شخصا أو ثمانية خيول ، وجندى حراسة . بيد ان الروس تمكنوا بشكل ما من حشر ما يقرب

من سجين سجيناً في كل منها . وكانت كل عربة مزودة بفتحة ماسورة متجهة نحو القصبان تسبب تخلف كمرحاض ، وطايلين من الاسرة الخشبية المثبتة في الجدران . فاذا اختار المرء النوم في الطابق الاعلى فانه يعاني من الحشر اما اذا اختار الطابق الاسفل فانه قد يتعرض للاختناق . وكان الهواء يدخل من نافذتين صغيرتين في اعلا العربة . ولم يكن يتم فتح الباب الا ثلاث مرات في اليوم : مران لاصفاء علب المسجونين ومرة لاطعامهم وجبة واحدة لا تتنوع عبارة عن خبز وسبك ملح . وكان البساق الوحيد الذي يدخل جوفهم هو ماء لم يسبق عليه ، يشربونه من جرل . وقد شاهد « بيجين » الحراس في احدى المرات وهم يملأون الجرل من بركة راكدة يغطيها وول لزج اخضر اللون . ومع ذلك فقد حربه .

واستغرقت رحلة القطار ستة اسابيع تقريبا تخللتها وقفات كانت تستمر عدة ايام لاسباب غير معروفة . وعلم المسجونون وهم في الطريق ان المانيا قد اعلنت الحرب على الاتحاد السوفيتي . وابتهج البولنديون واللتوانيون فان عدويهما سيشتكان مع بعضهما البعض . ولم يكن « بيجين » يدري ان الحرب الجديدة نحو الشرق والمنفرة بالشر ستؤدي قريبا الى منحه حريته . وكان الخط الحديدي محطها بعد مدينة كوتلاس : « لقد اهتزت بنا العربات وكأننا في سفينة تهتز في وسط عاصفة هوجاء واصيب بكسر منا بوار « قطار » وقيء مستمر وانهكت قوانا واستغرقنا في النعاس . ولم يهد احد منا يتقوه بكلمة واحدة » .

وغير المسجوناء القطار عند محطة صغيرة اسماها « كوشا » ثم سلخوا على الاقدام لمدة خمس ساعات عبر حقول موحلة حتى وصلوا الى معسكر الترحيلات . وقام جنود منججون بالسلاح وكلاب متوحشة بجراستهم . وصاح احد الضباط ان اي شخص يخرج من الصف سيتمرض لاطلاق النار عليه . وتجاوب « بيجين » ، أثناء المسيرة اطراف الحديث مع احد الجنود الذي اكد له في قهوة : « لا احد يخرج من هنا حيا » . وشق المسجونون طريقهم من معسكر الترحيلات عبر اراضي المستنقعات حتى ضفاف نهر « بيتشورا » ، حيث تم شحنهم على قطارة سفينة نارية مع شحنة من القصبان الجديدة . وتعرف « بيجين » من حديث اجراء مع حارس آخر ، على بعض ما ينتظره من بؤس . وقال له الحارس وهو يشير بياهم الى اللساقة التي يحملها « بيجين » ، وتضمن حاجياته المتواضعة « ستري ، انهم سيأخذونها منك » . ولم يفصح عن يقصد بكلمة « هم » .

وقد تم نقل « ميرون شيسكين » و « ديفيد كبرول » وهو صديق آخر لبيجين من التصحيحين : على نفس القطار المتجه نحو الشمال ، ولكن في

مريت مختلفة . وعند وصولهم الى معسكر « بيتشور » ، قام « كربول » ، الذي يتصف بسعة العيلة ، برأسوة أحد الضباط لوضع ثلاثتهم معا في مستشفى المعسكر . وقد كلّفهم ذلك ثلاثة قمصان من لفافتهم الثينة . لقد أصبحوا في منطقة « الليلى البيضاء » حيث تكاد الشمس القطبية لا تغيب أبدا ، ويستمر الشتاء تسعة اشهر في السنة ، وكان على المرضى ان يركضوا مسافة ميل تقريبا وهم نصف حرايا في درجة حرارة تقل عن الصفر حتى يصلوا الى مبنى الحمام . وقيل لبيجين : « ستعتاد على هذا ، والا فانك ستموت » . وقد خفى « بيجين » في اول ليلة له بمبنى المستشفى ، من ان يهلك ، وذلك عندما كاد يلتهمه جيش من البق الاصر ومن ذلك يقول :

« لقد ظلت اعداد هذا العدو الرهيب الحسم على امتصاص دمي ، تتزايد باطراد . وحاولت اللجوء الى استخدام تكتيكات مختلفة لتضليله ، فغيرت وضعى في السرير ، ولكن لم تفلح هذه المنورة . فان العدو أمسك بى ورفض التخلي عنى . ولم تغض لى عين في تلك الليلة . وقد حدث نفس الشيء لجميع المستجدين الآخرين ، لما الخضمون فقد نالوا مثل الملائكة . لقد استطاعوا ان يعتلخوا عليه » .

ويعد ان امضى « بيجين » اسبوعا في المستشفى ، بدأ تكليفه بالعمل في بناء الخط الحديدى المتد من « كوتلاس - غاركوتا » ، « بأمر من الحزب والحكومة » . وكان زلاؤه في العمل خليطا متباينا من الافراد ، فكثروا يتكونون من روس وبولنديين ، ولتوانيين ، ولتقانيين واستوانيين ، ورومانيين ، ويهود . وكان من بين الفئة الاخيرة مساعد رئيس تحرير مخضوب عليه بصحيفة برافدا ، يشكو من مرض في القلب وحرارة مرتفعة ترفض النزول عن ٣٨ درجة ولكن سرعان ما أدرك « بيجين » ان التمييز الهام الوحيد هو ذلك القائم بين المسجونين السيلبيين والمجرمين . وكان للمجرمين البد العليا حيث كانوا يتباهون بقوتهم الجسمانية ويرهبون المفكرين الحقراء . وعندما قام أحد المجرمين بسرقة معظم حلجيتة اثناء نومه ، أدرك بيجين قصد الحرامس . انهم فعلا « أخذوها كلها » ، ولكن بالتعصيط !

وكان السجناء يقومون بنقل قضبان حديدية الى مسافة ربع ميل من مركب ترسو عند نهر منشورا ، عبر جسر خشبى ضيق ثم عبر الحقول حتى حرية سكة حديد منتظرة . وكثروا يعملون بمصاحبة فرقة موسيقى نحاسية تعرف الانكليد التى تشدو بمطبة الاتجار السوفيتية . وكانت القضبان التى يحملها المسجونون - واحد على كل كف - تسلخ الجلد ، وتسبب آلاما مبرحة . وما ساعد على مضاعفة الالم ، طول الناموس التى كانت تحوم طوال ساعات النهار الممتدة وعلى مدى أربع عشرة ساعة يوميا . ويشكو « بيجين » فى مذكراته قائلا : « ان الناموس يزن ويلدغ ، ثم يشرب

ويزن .. ليس هناك أى مهرب منه . وكلفت الظروف التى يعمل المسجونون فى ظلها أسوأ من الظروف فى السجن ، بالرغم من أنهم كانوا يعملون فى الهواء الطلق . لقد كان البرد قارسا بدرجة لا تحتمل . وكان الرجال يتقاتلون من أجل كسب مكان بالقرب من المواقد ، وقد لاقى اثنان من الفتيان اليهود كلنا يشاركان « شيسكين » فى كوخه ، حتهما نتيجة للتجدد من البرد . وكان العمل مضنيا بينما كانت الجبرية اليومية أقل من أن تقيم الود . وقال بيجين فى مذكراته « لقد شأحت على ضفاف « البيتشورا » حيوانات تسير على قدمين » . وكسرا للملأ ، كان يتم تبديل ورديل مجموعات العمل كل عشرة أيام من فترة النهار إلى الليل . ونتيجة لهذا النظام لم تنح لهم أية فرصة ليوم من الراحة الأسبوعية .

وفى صباح أحد الأيام ، بينما كان « بيجين » فى طريقه إلى العمل ، سأل أحد الحراس : « هل أنت بولندى ؟ فآخذ « بيجين » بدقته المهدودة يشرح له أنه يهودى وإن كان مواطنا بولنديا ، ولم يكن الحارس مهتما بمثل هذه الفروق الدقيقة ، فلن لديه أخبارا يريد نقلها إليه . فقد سمع فى الإذاعة أن السلطات أصدرت عفوا عن جميع المسجونين البولنديين ، وانفقت الحكومتان البولندية والموسوفيتية على إطلاق سراحهم حتى ينفضوا إلى القتال الدائر ضد الألمان . وتأكدت الشائعة ، عندما قرأ قائد المعسكر نص القرار فى « البرافدا » ولكن ذلك لم يكن سببا كافيا ، من وجهة نظر « العالم » البيروقراطى الموجود فى « الجولاج » ، للإفراج عن البولنديين ولم يكن قائد المعسكر قد تلقى بعد تعليمات بذلك . وعلى هذا فنجب عليهم أن يعملوا ، حتى حصوله على تلك التعليمات ، من أجل تحقيق ما أصبح بمثابة « هدف مشترك » لقمهر العدو الألمانى . وواصل « بيجين » وزملاؤه ، لمدة أيام أخرى ، أداء أعمال السخرة فى معسكر « بيتشورا » للاشغال الشاقة ، وهم يحملون القضبان ويتضورون جوعا ويحكون جلودهم .

وبدلا من وصول الأمر بالإفراج عن البولنديين ، تلقى قائد المعسكر أمرا بإرسال مجموعة من الرجال إلى معسكر آخر على النهر نحو الشمال ، حيث يمكن استغلالهم فى أعمال أكثر فائدة . واختار المسجونون البولنديون « بيجين » للاعتراض نيابة عنهم . فما فائدة إرسالهم إلى معسكر الشمال لو كان سيفرج عنهم قريبا ؟ ولكن لم يكن القائد يملك من الأمر شيئا . وكان أقصى ما يستطيع أن يقدمه لهم هو أن يمددهم « إذا وصل الأمر بالإفراج عنكم فانتا ستأخذكم حتى من على السفينة لنرسلكم إلى الجهة التى من المفروض أن تذهبوا إليها » .

وكان « بيجين » واحدا من ثمانية رجل حشروا على ظهر ناقلة بضائع ، أبحرت لمدة ثلاثة أسابيع على نهر « بيتشورا » ولم يكن فوقها مكن للوقوف أو التحرك أو حتى للجلوس ، بل كان على الشحنة الأدمية أن تنام ليلا

ونهارا فوق سراير خشبية ترتفع الى ثلاثة طوابق على جانبي جدران العنبر الذي تنفوح منه رائحة كريهة خائفة . وكتاتوا يشربون من مياه النهر الباردة الأمر الذي أدى الى اصابة معظمهم بالاسهال . ولم يكف المرحاضان البدائيان لاستيعاب هذا الضغط عليهما . وتعرض المسجونون كذلك لهجوم جيوش القمل . واخذ المجرمون يتهاكمون على المسجونين السيلسيين ويجمعون الحشرات ويلقونها على وجوههم . ورجا مساعد رئيس تحرير البرافدا المفضوب عليه والذي كان واتقا من أن المجرمين يهدفون قتله - رجاء « بيجين » أن يساعده على ترديد نشيد « الهاتيكفا » الذي يتذكر أجزاء منه منذ أيام شبابه في « أوتيسا » .

وكانت محنة « بيجين » والبولنديين قد اقتربت من نهايتها ، وإن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لليهودى الروسى من « البرافدا » فقد وفى قائد المعسكر بوعده فعندما وصل أمر الانزاج أخيرا بلغه إلى ناقلة البضائع ، وأصبح من المقرر إطلاق سراحهم قبل حلول أسوأ فترة فى شتاء الشمال القارس . وتردد صوت أحد الحراس داخل العنبر هاتقا : « بيجين » ثم بدا يردد الاسماء ، الاسم تلو الآخر ، وفقا للترتيب الابجدي . ورد كل واحد منهم على النداء بترديده اسمه واسم أبيه ، وعلى رأسهم « مناحم وولفوفيتش » . وأعلن الحارس : على الذين ناديت اسمهم ان يجمعوا حاجياتهم ، فقد صدرت الأوامر بالانزاج عن البولنديين . مستصبحون أحرارا . وسيطرت الفيرة على أحد المجرمين من غير البولنديين ، فأشار الى « بيجين » وقال محتجا : « انه من « الزيد » (أى يهودى حقير) وليس بولنديا . وتجاهله « مناحم وولفوفيتش » ، فهذا لم يكن الوقت المناسب للحساسيات .

الفصل الخامس

الاتجاه شرقا نحو المقاومة السرية

أخلى سبيل المسجونين البولنديين حتى يقتلوا الألمان ولكن دون أن يوجههم أحد الى مكان مكتب التجنيد الذى يشرف عليه الجنرال « فلاديسلاف أنديرز » ، وتركوا ليتوصلوا الى المكتب بمفردهم . فقد أتلهم الروس فى سفينة الى معسكر ترحيلات ، ومن هناك منحوا أوراق الإفراج عنهم من « الجولاج » بلا أى تعقيدات . ومنح كل واحد من البولنديين مبلغا من المال وأطلق سراحه . وقد حصل « ميرون شيكسين » على مبلغ يكتفيه للقيام برحلة تستغرق ثلاثة أيام بالقطار الى « كويشيف » ، حيث حاول اقناع البولنديين بتشكيل كتيبة يهودية على نمط فيلق « جلوبومسكى » الذى اشترك فى الحرب العالمية الاولى ، ولكنهم قللوا بدلا من ذلك بتعيينه ضابط اتصال يهودى برتبة ميجور بمكتب « أنديرز » .

ولسبب غير مفهوم ، لم يتم الإفراج عن « ديفيد كروول » صديق « بيجين » الاخر من « حركة التصحيح » ، والذى كان قد اسندت اليه مسئولية الاشراف على مجموعة العمل ، وذلك على الرغم من انه جاء معهم الى معسكر الترحيلات . وظل « بيجين » يعتقد لسنوات طويلة بعد ذلك انه استشهد فى الشمال الناقى . ولكن فى اوائل الثمانينيات جاء يهودى روسى الى اسرائيل قادما من منطقة جبال الاورال ، ليقول : ان « كروول » « حى يرزق » ، ويبلغ تحياته الى بيجين و « شيكسين » وأبلغهم انه « يطلب منهما ارسال شال من النوع الذى يستخدمه اليهود فى الصلاة . غير ان الزائر أبلغهما بعد ذلك وقبل أن يتمكن من تلبية طلبه ، ان « كروول » توفى فى حادث طريق .

ولم تكف النقود التى حصل عليها « بيجين » ، لسد احتياجاته مدة طويلة . فشق طريقا عبر برارى آسيا الوسطى السوفيتية بواسطة القطار ، الذى كان يركبه بدون تذكرة ، وينام على الارض الوعرة ، ويأكل كلما كتلت تسنح له الفرصة وسط هذا « القطيع المشرذم » من المسجونين السابقين الذين كانوا يتجهون على غير معنى نحو الجنوب ابان الأشهر الأخيرة من عام ١٩٤١ . لقد تعلم سر البقاء اثناء حياته فى المعسكرات : « أنك تستطيع العودة على كل شئ » . وكان واضحا ان الجيش البولندى لا يهتم باليهود الذين كانوا قد أصبحوا مثل خيال المائة ، مهما كان ما اثبتوه من قدرة على التحمل . ورفض طلب « بيجين » ، فواصل طريقه يحذره الأمل فى العثور على اخته

« راشيل » وزوجها الذي كان قد تم ترحيله قبل اعتقال « بيجين » في « نيلنا » .

وسمى « بيجين » في إحدى الليالي ، وهو ينمى عند محطة سكة حديدية ، واحدة من « المتشردات » وهى تحكى عن مناجم الفسلس فى « الأورال » ، ونكرت المرأة ، التى كانت تنتظر بهل « بيجين » أن تسمح لها الفرصة لركوب القطار بلا مقابل ، اسم « هالبرين » . وسألها « بيجين » دون أن يسمح لآماله بالتنطيق علها ، عما إذا كان « هالبرين » هذا الذى نكرته هو محلم من وارسو ، وعما إذا كان اسم زوجته — بالصدفة هو « راشيل » . وشاء الحظ أن ترد على تساؤلاته بالإيجاب . واستطاع « بيجين » بمساعدة تلك المرأة ، أن يصل إلى أخته وزوجها واجتمع شملهم مرة أخرى فيها . وصفه بكوخ « حثير مبنى من الطين فى بلدة أوزبيكية صغيرة ، هى بلدة « دزيراك » الواقعة فيما بين « طشقند » و « سمرقند » ولم يتم وجودهم معا مدة طويلة . فقد سمع « بيجين » أن الروس قد بدأوا مرة أخرى يلغون القبض على المزعاه السيلسيين اليهود ولما كان ماضيه معروفا حتى فى أوزبكستان ، فقد انتقل إلى مدينة « مارجيلان » حيث كانت ترابط الفرقة التاسعة البولندية ثم علم من أخته بعد أسابيع قليلة أن « اشخاصا لا تعرفهم » قد جاءوا إلى كوخها واستفسروا عن مكانه .

كان « بيجين » قد قابل فى « مارجيلان » الميجور « شيسكين » واثنين آخرين من أعضاء حركة « البيطار » ، الذين قدموا له الطعام والمأوى . وبموجب اقتراح من « شيسكين » ، قاموا باستدعاء « يوهانان بادر » محللى حركة « التصحيح » الذى كان يعيش فى المنفى بروسيا . لقد كانت شبكة اتصالات « البيطار » ما زالت تعمل بكفاءة ! واستطاع « بادر » قطع مسافة ١٢٠٠ ميل سيرا على الأقدام ، والوصول إلى مكان الاجتماع بالرغم من نفشى وباء التيفود الذى قتل عشرات الآلاف من الناس وقد وجد « بادر » أن « بيجين » ، بفضل مضيفيه من أعضاء البيطار ، كان بحالة أفضل مما كان يتوقع . واستفسر « بيجين » ، الذى كان يرتدى « جاكته » من الجلد وحذاء برقبة عالية ، عن كيفية الوصول إلى فلسطين والقيام بثورة ضد البريطانيين . ويسود « بادر » بذاكرته إلى الورا ، فيقول « كان كلانا يوافق على أن المهمة الأساسية فى « ارتزاسرائيل » أى أرض اسرائيل التاريخية) هى محاربة الحكومة البريطانية . ومرة أخرى بدأ واضحا أن « بيجين » لم يحد عن هدفه نتيجة لوجود بريطانيا فى حالة حرب مع النازى . بيد أن بادر أوضح أنه ليس هناك سبيل للحصول من السوفييت على تصريح خروج وأنه من الأفضل أن ينضم إلى الجيش البولندى . وقال « بيجين » ، مثبلا بعد مرور عقد من الزمان ، تام خلاله بالثورة : « لا اظن أنه قدم لاحد ، على مدى حياته كمحلم ، نصيحة أفضل من هذه » .

غير أن « بيجين » كان محجبا عن تعرض نفسه للكشف الطبي على الرغم من أنه كان يدرك حكمة هذا الأمر . فقد تعرض من قبل للرفض لأسباب صحية ، وشعر أنه جرح في كبريائه . بيد أن صديقيه الأكبر سنا « بادر » و « شيسكين » اقنعا بأن يحاول مرة أخرى . وأعثن الطبيب في هذه المرة أيضا عدم لياقته . وقال أن قلبه مريض ونظره ضعيف ، فكيف يكون جنديا لائقا ببولندا الأم ؟ ولم يرض شيسكين بترك الأمور عند ذلك . فتفاوض سرا والميجور « لنيك » رئيس أركان قلعة للفرقة . وأجرى الضابط البولندي اختبارا شخصيا لبيجين ، ثم أرسل مذكرة الى طبيب الجيش تتضمن تعليمات اليه بالجزاة ليلقة الجندي المستجد للخدمة ولم يكن الطبيب قد نسي حادثة « بيجين » القلبية في نظراته ولكنه تفاخى عن شكوكه . فأعلن صراحة « القلب والرئة في حالة ممتازة » . وحتى لو كنت تصير النظر ، فلك ستتعلم في الجيش كيف تصيب الهدف جيدا . وكان التحاق « بيجين » بالجيش البولندي ، بمثابة نقطة تحول في حياته . فقد أدت به الى فلسطين وإلى قيادة منظمة « أرجون زغاي ليومي » . ولكن المسألة إبان عام ١٩٤٢ ، لم تزد عن كونها مقامرة . فلم يكن لدى زعماء « حركة التصحيح » الموجودين آنذاك في « مارجيلان » أي تأكيد بأن جيش الجنرال « اندروز » سوف يرسل الى « الأرض الموعودة » . ويقول « بادر » : « لم تكن المسألة تزيد عن مجرد اعتقاد شائع ، ولم تكن أية قرارات قد صدرت بعد » . ولكن المخاطرة أتت اكملها .

وكانت تجربة « بيجين » البولندية في هذه المرة ، كسابقتها ، غير مشجعة اطلاقا . فقد تلقى تدريبه المبني في جو يسوده العداء للسلمية والاهانت والاذلال . وكان عزاؤه أن هذا الوضع لن يستمر طويلا . فأرسلت وحدته جنوبا عن طريق ميناء « كرازوفودسك » الى ايران والعراق ثم شرق الاردن . وكانت الضفة الغربية للاردن قد أصبحت فعلا في نظر « بيجين » هي « أرض اسرائيل » ... أرض الاجداد .

وكتب في مذكراته فيما بعد يقول : « توقفت القنقلة العسكرية لتستريح . وغادرت العربة وسرت الى مسافة قريبة عبر الحشائش واستنشقت الهواء من هواء وطني القوي » .

عين « بيجين » في مايو ١٩٤٢ كاتبا في القدس ، حيث عمل في مكتب الميجور المسئول عن المدينة . وقد ظل بيجين جنديا عاديا الى أن أصبح رئيسا لوزراء اسرائيل عندما قامت الحكومة البولندية في المنفى بمنحه رتبة بريجالير جنرال بائر رجمي . والتقى « بيجين » وزوجته « اليزا » مرة أخرى في القدس حيث انتقل للإقامة بالحجرة التي تستأجرها بالدور الأرضي

في المنزل رقم ٢٥ شارع الفلبي بضاحية « زحلفيا » الظليلة والمفضلة لدى أسفذة الجامعة والمحليين والأطباء اليهود من الطبقة المتوسطة ، وحيث تسعد الاحداث باللغات الالمانية والعبرية والانجليزية على السواء . وقد ولد اول ابنائهما « بنيامين » في شهر مارس ١٩٤٣ .

وانفسم « بيجين » لغوره في الشئون السياسية « لحركة التصحيح » ، ولكنه ، على خلاف الجنود اليهود الآخرين ، رفض ترك الجيش البولندي ، وقال بيجين لشريكه القديم في لعبة انشطرنج ، « يسرائيل الداد » ، والذي أصبح عضوا نشطا في « عصابة شتيرن » : « لقد وعدت وعهد شرف ، وانسمت بينا . . ولن اترك الخدمة » . بيد انه عين رئيسا لحركة « البيطر » في فلسطين ، « وهو ما زال في زيه العسكري . ولكنه سرعان ما استقال من هذا المنصب عندما علمت المباحث الجنائية البريطانية والمخابرات ، وبدلوا يتحررون الامر . ومع ذلك ، كانت تجري استشارته فيما يتعلق بمشاكل « منظمة أرجون زفاي ليموي » ، وكان يزور مسكرات التدريب التابعة للمنظمة سرا . وبدأ الحديث يتردد فعلا عن توليه قيادة المقاومة السرية على الرغم من افتقاره الى الخبرة العسكرية .

كانت « الارجون » قد وصلت الى درجة متقدمة من التدهور عندما وصل « بيجين » الى فلسطين . فقد ضاع منها الهدف بوقاة « جلوبوشسكى » ، وما تلا ذلك من انشغاق « انراهام » شتيرن عن الجماعة ، وفقدان قلدها الشاب الملم « دافيد رازيفيل » ، الذي قتل في مايو ١٩٤١ ، أثناء قبليه بمهمة سرية في العراق بتكليف من البريطانيين .

وقد شهد « ايثان ليفني » ، الذي أصبح عام ١٩٤٣ ، رئيسا لعمليات منظمة أرجون ، بأن « المنظمة كانت في غلبة القوة عندما وقع الخلاف » .

« كان الجيش البولندي يزودنا رسميا بالاسلحة التي يبيعها لنا افراد شعبنا في بولندا . وكان في استطاعة الارجون استدعاء أربعة ألوية ، أي حوالي أربعة آلاف عضو للقتال . وكنا نملك عدة آلاف من البنادق ، وعدة مئات من المسدسات ، وعشرات من المدافع شبه الآلية التي قمنا بتجهيزها من فنلندا ، وبضعة عشرات من المدافع الآلية البولندية الثقيلة ، كما كنا نملك قنابل نقوم بتصنيعها بأنفسنا . وكانت تلك الاسلحة تعتبر حديثة آنذاك .

« وعندما وقع الخلاف ، اختفت معظم هذه الاسلحة ، وانضم حوالي ثمانمائة رجل من بين أربعة آلاف رجل الى « شتيرن » . وبقى في صفوف « منظمة أرجون » اقل من ألف رجل . لما الباقون فقد تطلوا عن مواقعهم متذرعين بأنه لم يعد في وسعهم الاختيار بين الجماعتين الوجوديتين — وربما

كانوا صليحيين في زعمهم هذا . وكلفت المساة الكبرى هي ان احدا لم يكشف من مكن مخبأ الاسلحة . ولم يعد لدى « الارجون » بعد وقوع الشقاق سوى عدد ضئيل من الافراد النظميين المتفرغين لا يزيدون عن الخمسة تقريبا . لها المباتون فقد واصلوا العمل في وظائفهم . وكان يتم استدعائهم للتدريب ولاداء مهام خلسة . وانضم ما يقرب من نصف عدد رجالنا — اى خمسمائة رجل — الى الجيش البريطانى في الفترة بين عامى ٤٢ — ١٩٤٣ تلبا كما فعل كثير من المنشعبين .

هذا وقد خلف « يعقوب مريدور » « يسرائيل » ، حيث رقى من الصف الثانى من قيادة « الارجون » بعد الشقاق الذى وقع مع « شتيرن » . ويؤكد « ليفنى » انه كان محبوبا : « وكان يترك انطبعا طيبا لدى المحيطين به ، وكان يبدو فى صورة « الصبرا » الحقيقى (من ولد فى اسرائيل) ، الذى تمتد جذوره عميقا فى الارض ، ويميدا تلبا عن صورة القادمين من الشتات . وكما نعتبر « مريدور » ، آنذاك ، افضل الخيارات لملنا . ولكنه اصاب كل مواليد (فلسطين) والقادمين الجدد من اوربا بخيبة الامل . فقد وجدده « ليفنى » مغرطا فى الخيال :

« لقد اثبتت الايام ان مريدور ، لم يكن رجلا عمليا وكان يختار الذين يحفون معه من بين رفاته ، ولكنه لم يكن موفقا دائما فى اختياره . وقسمت المؤامرات ، فى منتصف عام ١٩٤٣ ، داخل القيادة العليا . . ولم يستطع « مريدور » ان يجمعهم حوله . لقد كان دائما ودودا ، ولكن من بين القلة المتروجة بيننا . وقد حاول ان يتصرف كئنه يرأس جماعة من الزملاء الذين يتسلون فى الكهانة . وربما كان قد توصل الى استنتاج ذاتى بانه لا يتمتع بالقوة والجاذبية الشخصية اللائقة بقدر اعلى » .

وسدق « دافيد جوتان » ، رفيق « بيجين » من « فيلنا » على هذا بقوله :

« لم يكن مريدور ، يتمتع بشخصية قوية لائقة بالموقف . لقد كان صادقا ، ويتمتع بخبرة عسكرية واسعة ، كما كان محبوبا . ولكن الظروف كلفت تستدعى فى ذلك الحين وجود شخص يتمتع بزعامة شعبية . ولم يكن « مريدور » طموحا ، لقد كان شجاعا اثناء العمليات ولكنه فى الواقع مغرطا فى التواضع .

وتحولت الانتظار ، بصورة متزايدة ، نحو « بيجين » ، ولكن كان لابد أولا من اخراجه من الجيش البولندى . ولما كان من الصعب اقتسامه

بترك الجيش تلقائيا ، كما كان من الصعب تسريحه من الجيش بأسلوب حريف ، فإن السبيل الوحيد الباقى كان العمل على أن يمنحه البولنديون اجازة طويلة الاجل ، مع احتمال مدها . واستندت هذه المهمة الى «ليك كاهان» المحامى البالغ من العمر ٤٠ عاما ، الذى قدم من وارسو . وقد وصل «كاهان» الذى كان من التصحيحيين فى وارسو ، الى فلسطين قبل بضعة اشهر من وصول «بيجين» . وكان مسئولاً خلال الثلاثينيات عن الاتصال بالانتظام البولندى للحكم والذى كان يعرف كثيرين من أعضائه منذ أن كان فى المدرسة والجامعة ، كما كان وسيطا فى الحصول على جوازات السفر وتأثيرات الخروج لأعضاء «منظمة بيطار» ، فضلا عن أنه كان قد تلقى تدريسا عسكريا ، وكان من حقه ارتداء زى «الوحدة الخاصة» فى سلاح طلبة الكلية العسكرية . وقد تعرض هو أيضا الى الترحيل للعمل فى معتقلات الشمال الروسية ، قبل أن يفرج عنه لينضم الى الجيش البولندى . وتمكن «كاهان» عندما كان يخدم فى العراق ، ومن خلال معارفه السابقين ، قبل الحرب من أن يحصل على تسريح من الجيش لأسباب صحية . واتجه الى فلسطين مستخدما تسريح اجازة . اما بالنسبة لحظة الاتصال التى كانت ستؤدى الى خروج «بيجين» من الجيش وانضماله للمقاومة السرية ، فقد كانت مزورة .

فقد كان «كاهان» يزور بانتظام الادارة الاعلامية البولندية بالقدس ، حيث قبل «تريزا لييكووسكى» ، التى كانت من الارستقراطية البولندية وأحدى قريبات رئيس بولندا ، الجنرال «فلافيسلاف سيكورسكى» . وكانت «تريزا» مهتمة بالمسألة اليهودية ، فتولى «كاهان» تعريفها بالمسيحية .

وتبنى «كاهان» فكرة استقلالها فى القيام بحملة دعائية بولندية - يهودية مشتركة فى الولايات المتحدة ، يروج فيها لجهود «هيلل كوك» وغيره من «التصحيحيين» هناك . واقترح كاهان ان يقوم البولنديون ، كجزء من هذه الخطة بتسريح بعض الجنود اليهود وبرزلهم للقيام بجولة فى أمريكا . وفى ذلك الوقت ، عاد «ارياه بن - اليعازر» ، الذى كان أحد مندوبى الارجون فى الولايات المتحدة ، الى فلسطين ، حاملا معه «البوما» يضمن صورا تبين كيف قلم «التصحيحيون» بتجنيد نجوم المسرح والسينما فى حملتهم من أجل انقاذ اليهود من أوروبا التى تخضع للهيمنة النازية . وربما كانت الصور تبالغ بعض الشيء فى تقدير تأثير هؤلاء المندوبين ، بيد أنهم حازوا ، أعجاب البولنديين ، فطلبوا تزويدهم بتقنية بأسماء الجنود اليهود الذين يمكن إرسالهم الى الولايات المتحدة . وكان اسم «بيجين» من بينها ، ولكن بدا أن المؤامرة قد دفتت فى الرمال عندما رفضها البريطانيون .

الا ان الخطة يمكن انقلها عندما نقلت قيادة الاركلن العلية البولندية من العراق الى «ريحوعوت»، الواقعة بين القدس وتل أبيب. وأجرى «كاهان» بعض الاتصالات مع كبار الضباط ممن كان يعرفهم في وارسو . ولم يحصل على رد فوري ، ولكنه تلقى في يوم خائف الحرارة من أيام خريف عام ١٩٤٣ ، دعوة لتناول الغذاء مع أحد الجنرالات (وهو الجنرال نفسه الذي دبر له مسألة تسريحه من الجيش) . وقال له الجنرال : « لقد صدقت اليوم على منح كل رجالك اجازة طويلة الأجل » . وكان « بيجين » من بينهم ، حيث حصل على اجازة لمدة عام ، على شرط أن تبدأ المجموعة مباشرة في أداء مهمتها بالولايات المتحدة ولقد اعترف كاهان فيما بعد قائلا : اننا لم تكن ننوي اطلاقا ، ارسال « بيجين » الى هناك . وعلى أى الحالات فان البريطانيين لم يسمحوا لهم بالسفر ، ولم يكثر البولنديون باستدعائهم مرة أخرى . ويقول « مريك كاهان » « لقد كان الضباط البولنديون متعلمين مع منظمة « الارجون » .

ولم يكن طريق الوصول الى قيادة الارجون مهيدا تماما . فعلى الرغم من ان مريدور لم يكن يمانع في أن يعمل تحت قيادة بيجين ككتف له ، فان غيره من كبار الضباط كانوا يرون ضرورة اسناد هذا المنصب الى رجل عسكري واعترضوا على « بيجين » ، لانه واقع حديثا على البلاد وليس لديه خبرة في تخطيط العملية او كفاءة ميداني . بل أن بعض القادة الاقليميين الذين شعروا بالاحباط نتيجة لعدم تحقيق طموحاتهم ، « تركوا » بعد أن استولى « البطار » البولندي التي كانت أكبر مصدر لتزويد الارجون « بالقوة البشرية » وخاصة بالنسبة للمستويات العليا . ولو كان « ارياه بن اليعازر » لم يغادر فلسطين ويسافر الى أمريكا عام ١٩٣٩ ، لاصبح منافسا قويا لبيجين حيث انه كان رجلا يجمع بين القدرة على الخيال والقدرة على العمل . بيد ان « بن - اليعازر » كان يشعر بأنه ابتعد عن المسرح اكثر من المطلوب وان عمله في الخارج جعله ملغتا للانظار اكثر مما ينبغي . ولذلك فقد تلقى بكل ثقله وراء ترشيح « بيجين » . وكان « بن - اليعازر » قد عاد أساسا للبحث عن العلة في عدم فعالية « الارجون » ، وكان تشخيصه هو افتقار المنظمة للزعامة . يقول « ايتان ليفني » في هذا الصدد: لقد كان هو الذي اقنع مريدور بضرورة الانسحاب ولقد استطاع ان يفعل ذلك بأسلوب ناعم مثل الحرير . كان « بن - اليعازر » الشخصية السياسية الوحيدة الاخرى التي كان « بيجين » يتعامل معها على أساس الندية كما كان يشاوره بشأن استراتيجيته الخاصة بالثورة .

واقفقت الاغلبية العظمى من قادة الارجون مع « بن - اليعازر » على حاجتهم الى قائد يستطيع اشعال جذوة النار القندية للمنظمة واحياء ثقته بنفسها. ووفقا لاقوال « ديفيد نيف » العضو المخضرم في « الارجون » ، والمؤرخ الرسمي

لها فان « المسألة لم تعد ، بحلول نهاية عام ١٩٤٣ ، مجرد مسألة تخطيط عمليات عسكرية ، لكنها كانت مسألة اتخاذ موقف . لقد حان الوقت لان يتولى الحركة رجل سياسة بدلا من قائد عسكري محترف ، فان كل القرارات اصبحت تحتاج الى حساسية سياسية » . وكانت هذه المواصفات تنطبق تماما على « بيجين » ، فهو يحظى بالاعجاب ، وكلفت سمعته الثورية تسيقه في كل مكان ، كما انه كان يملك الادراك السياسى اللازم . أمّا المعرفة العسكرية ، فهو يستطيع الحصول عليها من غيره .

الفصل السادس

انتهاء الهدنة

قال « ايتان ليفني » ، رئيس عمليات منظمة « ارجون زفاي ليومي » ،
نناحم بيجين « في نهاية عام ١٩٤٣ : » ان القرار الذي ستتوصل اليه سيتم
تنفيذه . فانتى ورجالى على أهبة الاستعداد « وبذلك أصبح « بيجين » هو
القائد الاعلى الجديد » لمنظمة الارجون « الذى أعلن من أول فبراير عام
١٩٤٤ ، التمرد على الحكم البريطانى ، دون أن يعوقه عن ذلك ادراكه أن
« ليفنى » ما كان يستطيع أن يدفع الى الميدان بأكثر من ستمائة مقاتل مدرب
وكان « بيجين قد كتب مسودة النداء المدوى الذى وجهه الى يهود فلسطين .
بينما كان لا يزال نفرا فى الجيش البولندى ، أى قبل عدة اشهر من ذلك
التاريخ . والان حان الوقت لطبعه فى منشورات ورفعه على اللافتات . ولم
يكن الحلفاء قد أنزلوا بعد قواتهم على ساحل نورماندى ، وكانت بريطانيا
لا تزال مشتبكة فى المعركة مع العدو المشترك ، ألمانيا النازية ، ولكن كانت
الهدنة بين اليهود والبريطانيين قد انتهت فى نظر « بيجين » الذى أعلن :
« ان كل فرد يهودى بوطننا القومى سيقاقل » . وكما رأينا من قبل ، فان
« بيجين » لم يكن لديه ، على أية حال ، فائض من الصبر ليضيفه على تلك
الهدنة . وقد أدى ما علمه عن المذابح التى تعرض لها يهود أوروبا ، وما
شاهده فى فلسطين من تطبيق عنيد للقيود فرضها « الكتاب الابيض » ،
الذى صدر عام ١٩٣٩ ، على الهجرة اليهودية ، ومن تصد قاس للمراكب
المحملة باللاجئين - أدى كل هذا الى تقوية حدة مشاعره الفطرية التى كانت
قد دفعته الى معارضة « جابوتنسكى » منذ ستة أعوام . لقد أن الأوان
للنضال و « لتحطيم الأبواب من الداخل » .

وأعلن :

« لقد مرت أربعة أعوام على بداية الحرب ، وتبخرت كل الآمال التى
نذرت بها صدورنا وكثنا لم تكن . ان أحدا لم يمنحنا مكانة دولية ، ولم يتم
انشاء جيش يهودى ، ولم تفتح الأبواب المغلقة بهذا البلد . لقد أحكم النظام
البريطانى خيافته المخزية للشعب اليهودى ، ولذلك لم يعد هناك أى أساس
معنوى لبقائه فى أرض اسرائيل التاريخية .

« اننا نعلن بلا أدنى خوف انتهاء الهدنة بين الشعب اليهودى والادارة
البريطانية فى أرض اسرائيل ، والتى تسلم اخواننا لهتلر ، ان شعبنا يعلن

الحرب على هذا النظام - الحرب حتى النهاية . وتنهصر مطالبنا فيما يلي : نقل السلطة نمورا داخل أرض اسرائيل للتاريخية الى حكومة انتقالية يهودية .

لقد وصم « بيجين » البريطانيين بالتواطؤ مع هتلر . فان ما يعرفه كان كانيا لاقتناعه بأنهم كانوا يسلطون ، على الأقل ، المعدلين للسياسة في سلبتهم وعدم اكترانهم بصير اليهود . وقد أدرك « بيجين » هذا على الرغم من عدم تمتعه بموهبة النظر الى الماضي من خلال منظور تحليلي والتي يملكها المؤرخون . ولم يكن يرى أمامه حلا بدلا للقتال . ومع ذلك أعلن « بيجين » ان قتال « الارجون » سيكون نضالا سياسيا بالاساليب العسكرية . فان « بيجين » رجل السياسة ، كان يفرض قيوده الخاصة : فمظنة « الارجون » ، على خلاف « عصابة شتيرن » ، لم تكن تقايل الامبراطورية البريطانية ، بل كانت حربها موجهة ضد الادارة في فلسطين ، وليست ضد الحكومة والامة البريطانية . وكان « بيجين » يصير ابلان مفاوضات علم ١٩٤٤ التي دارت من أجل توحيد الجماعتين النشقتين ، على ضرورة كف أعضاء « عصابة شتيرن » عن استخدام تعبيرات مثل « الحكم الأجنبي » و « الاستعمار البريطاني » في دعايتهم . وعندما تسلسل زعيما « عصابة شتيرن » ، « نلتان يلين - مور » و « اسحاق شامير » عم يستخدمان من عبارات بدلا من ذلك ، اقترح « بيجين » استخدام تعبير « الحكم الظالم » .

ولم يكن اصرار « بيجين » المعتاد على ضرورة الدقة اللفظية ، والذي كثيرا ما كان يثير الغيظ ، يهدف الى مجرد الالتزام بعلم معاني الكلمات . فكان يرى أن مسئولية تنفيذ السياسة البريطانية المناهضة للصهيونية تقع أساسا على عاتق الادارة الفلسطينية . ولذلك فان الواجب يحتم توحيد القتال ضد الادارة في القدس بدلا من الحكومة في لندن التي يجب اقناعها بأن سياسة تلك الادارة تتسم بالافلاس ، وبالتالي فانها مستجبرها على تغيير سياستها الجارية بأخرى أكثر تعاطفا تجاه قضية اليهود . وعند ذلك ستعترف لندن بأن اليهود هم القوة الفاصلة وستضع ثقتها فيهم وتعتمد عليهم بدلا من العرب . وغنى عن القول ، أن أعضاء « عصابة شتيرن » لم يثأروا بمنطق « بيجين » .

وقد كتب « يلين - مور » يقول :

« حاولت أن اشرح له ان التصور بأكثانية الفصل بين الادارة المحلية وحكومة لندن ، ليس الا وهما . وانه غير قائم على أساس من الواقع . ويجب علينا أثناء حرب التحرير ، ضرب الجهاز العصبي للحكم البريطاني في لندن . ان « أرض اسرائيل » ليست لها أهمية بالنسبة للامبراطورية البريطانية سوى انها قاعدة عسكرية لفرض الحكم البريطاني على دول المنطقة ، وكمحطة على الطريق الى المستعمرات والممتلكات التي تقع نحو الشرق .

وتمسك « بيجين » بموقفه مؤكدا أهمية التفريق بين التعبيرين ، وذلك في الاجتماع السري الذي استغرق خمس ساعات مع « موشيه سنيه » ، الذي كان آنذاك نائبا لقائد قوات « الهاجاناه » الدفاعية ، والذي كان يعرف منذ أن كان طالبا في وارسو . وقال « سنيه » ، أثناء نقاشهما الذي امتد طوال إحدى ليالي شهر أكتوبر ١٩٤٤ ، « لقد قمت بإعلان الحرب على إنجلترا » فصيح له « بيجين » معلوماته قائلا : « ليس على إنجلترا ، إنما على الحكم الظالم ، فإن إنجلترا ليست عدوا لنا ، إن هذا هو ما يقوله أعضاء « شتيرن » أنهم يشنون حربا ضد العدو الإنجليزي » .

ولما كتبت بريطانيا ، على هذا الأسس ، ليست العدو وكلفت قواتها تحارب النازيين ، فقد فرض « بيجين » على رجاله الالتزام بضبط النفس : فعليهم أن يمتنعوا تماما عن مهاجمة أي أهداف عسكرية حتى تضع الحرب في أوروبا أوزارها ، وبالمثل ، لم يكن للارجون أية مصلحة في اغتيال أفراد الجنود أو الضباط أو رجال الشرطة البريطانيين . وبدلا من ذلك فقد جعل « بيجين » هدفه هو النيل من مكانة بريطانيا ، وكان يقول إن كل هجوم يعتبر من وجهة النظر السياسية انجرا ، حتى لو لم يكن ناجحا عسكريا :

« لقد تعلمنا من التاريخ ومن المشاهدة أن نجاحنا في تدمير مكانة الحكومة في « أرض إسرائيل » ، سيؤدي تلقائيا إلى انتهاء حكمها . وبدء تلك اللحظة فصاعدا لم تكف عن مهاجمة نقطة الضعف هذه . وظللنا طوال سنوات نبردنا نوجه الضربات إلى مكانة الحكومة البريطانية ، عمدا ، ومن غير هواة وباستمرار » .

« فلن مجرد وجود مقاومة سرية لا تتأثر بالاضطهاد أو بالشنق أو التعذيب أو الترحيل ، وأن هذه المسائل لا تؤدي إلى قهرها أو اضطرارها ، لابد وأن يؤدي في نهاية الأمر إلى تقويض مكانة أي نظام حكم استعماري يبنى وجوده على تصور غير واقعي لقدراته الشاملة . ويعتبر كل هجوم توجهه المقاومة ويفشل النظام في منع وقوعه ، بمثابة ضربة موجبة إلى مكانته . وحتى لو لم ينجح الهجوم فإنه يترك ندبة في تلك المكانة ، وتبدأ تلك الندبة تتسع لتصبح شراخا يمتد مع كل هجوم لاحق » .

ولكن « بيجين » في حديثه مع « سنيه » أن الهدف هو إجبار بريطانيا على إعادة تقويم سياستها ، واضطرابها إلى الجلوس إلى مائدة المفاوضات حيث لم يكن في وسعها المخاطرة بتعرض نفسها للاذلال في نظر الدول العربية .

« إن هذا الشيء لن يستطيع البريطانيون ابتلاعه ، ولن يستطيعوا تجاهله » . أنهم يسكتون اليوم على هذا ولكن عندما تتصاعد موجة نشاطنا ،

فلن يستطيعوا ابتلاعهم . وسوف تأتي اللحظة التي سيفطرون عندها الى التفاوض معنا : ان ما نقوم به سيؤثر على القرارات السياسية » .

وكان « بيجين » يؤدي « معزوفته » ايضا لهم متفرجين امريكيين . وقال ان الولايات المتحدة تريد مد نفوذها الى الشرق الاوسط وأكد ان اى انهك لقوة بريطانيا في المنطقة سيكون اضافة لصالح الامريكيين . وفي الوقت ذاته ، فان استمرار الاضطراب في الشرق الاوسط من شأنه ازعاج الامريكيين بينما هم يحاربون اليابانيين . ولذلك فقد كانت لديهم مصلحة في التسوية . واعرب « بيجين » لـ « سفيه » عن توقعه ان يستيقظ الراى العام الامريكى ، ويجبر بريطانيا على تغيير اتجاهها .

وبدا « بيجين » يمارس نشاطه في فلسطين باندفاع كبير نحو تحقيق امانه بالتأثير في كل من العرب وزملائه اليهود على السواء . لقد كن يؤمن بأن الصهيونية ظلت طوال ٢٥ عاما في خطأ جسيم ، حيث كانت تتعامل مع العرب على انهم اعداء ، تاركة للبريطانيين فرصة التحكم من وراء الستار . وحاولت « جماعة ارجون » ان تبين في عملياتها وفي المنشورات ، التي قامت بتوزيعها في المدن والقرى العربية ، ان المعركة الدائرة انما هي معركة بين اليهود والبريطانيين . وعرضوا على العرب ، تمشيا مع مفاهيم « جابوتنسكى » المتمتع بالملوأة والحكم الذاتى ، طالبا انهم يقبلون ان يعيشوا كاتلية في دولة يهودية . اما اذا لم يرضوا بذلك ، فان اليهود سيثبتون لهم انهم يعرفون كيف يمارسون فن القتال . ولقد كان هذا اسلوبا تكتيكيا اكثر من كونه تفكيرا فلسفيا . ففي عام ١٩٢٨ لم يتردد « الارجون » ، تحت قيادة « رزائيل » في الانتقام بوحشية من المدنيين العرب كرد على الهجمات العربية ضد اليهود ، ولم تتردد ، وهي تخضع لقيادة « بيجين » اعتبارا من عام ١٩٤٧ ، في مواصلة العمليات الانتقامية ضدهم .

ولقد صدم « بيجين » ، عندما كان واندا حديثا نسبيا من اوروبا ، ازاء استكانة واستسلام « اليشوف » - اى طائفة يهود فلسطين . وتساءل في مناقشته مع « سفيه » : بماذا ضحى « اليشوف » ؟ انهم لم يساهموا الا بالقليل في حملة جمع الاموال ، والتنمية واعمال الاغاثة ، وكانوا يكتبون باغلاق حوائثهم لبضعة ساعات قليلة في مناسبات الحداد ، ولكن كانت المقاهى مفتوحة وكان اليهود منشغلين بتحقيق الارباح » . واوضح ان « منظمة الارجون » تحاول ان تثبت لهم ان واجبهم يحتم عليهم القتال ، وان هناك شبليا في سن صغيرة مستعدون لان يضخوا بلرواحهم . وادعى « بيجين » بأن اليهود يستعدونه ، على الرغم من كراهيتهم لحظر التجول وما الى ذلك

من أساليب العقوبات الجماعية « أننا نذكرى مشاعرهم ونعدهم للحرب .
وينون الاعداد المسبق ، فان « اليشوف » لن يهبوا للكفاح في اليوم المحدد .
اننا نعددهم لهذا اليوم » .

وفكر « بيجين » « لسنيه » ، الذي جاء بصفته الممثل الشخصي « لديفيد
ين جوربون » ، ان التناقض بين الجامعات العسكرية المختلفة يخدم هدفا
مفيدا من حيث توزيع الادوار : « فالشيرنيون » يقومون بتنفيذ استراتيجية
مبنية على الارهاب الفسردى ، بينما يقوم « الأرجونيون » بتنفيذ عمليات
عسكرية متفرقة في حين تستعد قوات « الهاجفاه » للدخول بثقلها في المعركة
النهائية . الا ان هذه كلفت نظرية افتراضية ربما كلفت لها جانبيتها في وقت
من الاوقات ، غير ان عام ١٩٤٤ لم يكن من تلك الاوقات . ورد عليه
« سنيه » بحدّة : « لو ان تقسيم الادوار هذا ينبع من مفهوم سياسى موحد ،
فربما اثر ، اما وهو ينبع من ثلاث وجهات نظر مختلفة ، فانه لن يسممر
عن ثمر طيبة » .

وحدات « الأرجون » عملياتها الهادفة الى تقويض المكنة البريطانية ،
قيامها في مساء ١٢ فبراير بالقاء القنابل على مكاتب الهجرة في القدس وتل
أبيب وحيفا . لقد كان عملا رزيا ولم يسفر عن اضرار تذكر أو أى ضحايا
(باستثناء خفير عربى أصيب بصدمة بعد أن استدرج بعيدا عن موقع حراسته
بواسطة اثنين من المحبين الهلبيين ، وفقا يتطارحان المفرام داخل بوابة مبنى
مجاور) . وكلفت الرسالة التى نقلها « بيجين » عن طريق هذا العمل هى ان
منظمة « الأرجون » لن تسكت على ما تمارسه الادارة الحاكمة من صد لليهود
عن « الأرض الموعودة » بينما هم يساقون الى حتفهم في أوروبا . وبعد اسبوعين
من هذه الغارات تبعها رجسال « الأرجون » بلقاء القنابل على مكاتب
« الضرائب على الدخل » في ثلاث مدن رئيسية ، و بهجوم شنه في ٢٢ مارس
على مقر قيادة المباحث البريطانية . ومها كلفت نوايا « بيجين » فانه اراق
في هذه العملية الأخيرة الدماء لأول مرة منذ ان تولى القيادة ، حيث قتل ستة
من رجال المباحث ، بينهم أحد المنتشرين ، واثنين من رجاله . واثار هذا الحادث
اهتمام البريطانيين والمجتمع اليهودى الفلسطينى « اليشوف » . وتكلم
ضابط مخابرات بريطانى عن مخاطر « الهجمات المفاجئة » التى يشنها القتل
المتعمسون ، الذين يستطيعون الانسحاب والاختباء داخل المدن المزدحمة :
« وقال آخر انه بالرغم من ايمان « الأرجون » بأن عليهم القيام بهمة مقدسة
وهى اخراج البريطانيين من فلسطين فان « هذا لا يعنى انهم غير مهتمين
بالوسائل الكفيلة بتحقيقها ، فهم يجمعون بين المهارة والخبت بالاضافة الى
الجرأة والشجاعة . وفرض حظر التجول واللقى القبض على المشبهين .
وأعيدت مرة أخرى عقوبة الاعدام ضد كل من يوجد في حوزته أسلحة أو ...
يقوم بوضع المتفجرات . وتعلمت جماعة « الأرجون » درساً لم تمره اهلها

وهو ان عمليات التخريب تعرض حياة الافراد للخطر مهما بلغت كفاءة المخربين او تلقوا تحذيرات بالترام الحرس ، وتصاعدت حدة الجراة والطبوح في الهجمات .. غاصبت في هجماتها التالية محطة اذاعة وسلك حديدية وحسوم الشرطة .

وكانت جماعة الارجون ، في ذلك الوقت ، بمقتطعيها البالغ عددهم ستمائة مقاتل ، اقرب الى كونها جماعة ثورية منها الى جيش هجوى . وتلقوا ما كان اعضاؤها العلليون يزيدون عن الفى شخص . وكانت متمسكة ومرة ، ويربط بين اعضائها مشاعر الولاء الشخصى والاتضابط الايديولوجى . وكانت عسكرى مستجد ، فلن « بيجين » تعلم بسرعة . ولكن منذ البداية يحسن تحديد الهدف . ولم يشترك خلال العام الاول في وضع التفاصيل التكتيكية ، ولكنه استطاع تدريجيا ان يصبح القائد العسكرى الاعلى داخل مقر القيادة ، وان لم يكن كذلك في الميدان . وكانت لديه ثقة متناهية في رؤساء عملياته المتعقبين ، سواء كان ذلك « ليفنى » او « اميهائى (اوجيدى) باجلين » وكان يوجه دائما الاسئلة المناسبة . ويقول « ليفنى » الذى كان يجتمع يوميا و « بيجين » .

« كان تواتا دائما الى معرفة التفاصيل ، ويفرقنى بوابل من الاسئلة . لقد كان « بيجين » يريد معرفة كل ما يجرى . فمثلا كل على ان اقوم بترشيح قائد كل عملية ، واسماء الذين يجب ترفيتهم ، وكذا نزع ، مع اتى ذو طبعة منطقية . وكنت اتقول له اسهل على ان اكرر نفس العمل من ان اقوم بشرحه له . اما هو فكان يؤمن دائما بالتفكير بصوت مرتفع والمشاركة في عملية التوصل الى القرار . ونتيجة لتمرسه على الانتقال من عملية الى عملية اخرى ترايد نعمه للمسائل العسكرية .

ثم يستطرد « ليفنى

« وكنت اقدم الاقتراحات ، ولكن كان « بيجين » واعضاء القيادة العليا الخملسية هم الذين يختارون الاهداف وكان « بيجين » يهتم بما اتقوله بالنسبة للمسائل الفنية ، ولكنى ما كنت لارى ، مثلا ، ان من الملائم ان يكون هدف العملية الثالثة هو الهجوم على مقر المباحث الجنائية البريطانية . لقد بدأنا تدريجيا من الصفر حتى كبرنا . وكان علينا ان نكتسب الخبرة ، فلم تكن قد تمنا بعمليات منذ اربع سنوفات ولكن « بيجين » كان يطلب في اجتماعات القيادة العليا ، التى كانت تتمعد كل اسبوع ، بتحديد اهداف تترك انطبعا ضخما في انحاء العالم . واحيانا كان يطلبنا بوقف العمليات ، ان الامر الذى كان يثير اعجابى ببيجين ، هو منطقته التحليلى وقدرته على التحليل

السياسي ، لقد ساعدني ذلك على الاقتناع بإمكانية نجاح حريتنا ، وبالفرض
المناحة لملئنا في المستقبل » .

وكانت « منظمة الأرجون » ، مثل كل المنظمات الثورية السرية ، تواجه
مشاكل داخلية متعلقة بالأمن والموارد ، ومشاكل خاصة بالخبايا والتمويل
والثمن . ووفقا لشهادة « بيجين » نفسه وزملائه ، فقه كان يتردد كثيرا
في إصدار حكم اعدام ضد الخونة الوشاة . وكانت هذه شخصية « بيجين » ،
الحامي مع وقف التنفيذ ، والرجل الرحيم الذي يؤمن بقضية حياة اليهود .
ووفقا لأقوال « ليفني » فلم يقدم رميا بـ«رصاصات» أثناء قيادة « بيجين »
نـ«رجون» ، سوى اثنين فقط من الخونة ، في حين صدر العفو عن عشرة
آخرين : « لقد كنت أؤيد صدور الحكم بالاعدام في إحدى القضايا ، ولكن
« بيجين » قال لي : « لقد درست المحللة ولن يقبل أي قاضى معنى الأدلة
التي تقدمها للحكم بالإدانة » ، ولقد أخذنا برأيه .

وقد أدى تردد « بيجين » إلى أزمات واحدة من أكثر وشاة الأرجون
حياته بدون عقاب . وكان هذا الشخص هو « يعقوب شيليفتس » ، عضو
« حركة التصحيح » القادم من « ميلنا » والذي كان يشترك في حملة جمع
البرص . وكانت له اتصالات قوية داخل « الأرجون » . وقام « شيليفتس »
في مارس ١٩٤٤ عندما كان « بيجين » لا زال يعيش في القدس وأسرته ، بشراء
هنية بمناسبة عيد الميلاد الأول « لبنيامين بيجين » . وحضرت الشرطة في
اليوم التالي لاعتقال قائد الأرجون ، الذي تصادف أن كان خارج المنزل .
وكانت زيارة الشرطة بمثابة إنذار فاختفى « بيجين » في « تل أبيب » . وكان
وأنقا من أن « شيليفتس » أحضر الهدية خصيصا من أجل معرفة مكان
سكن « بيجين » وقد قام فيما بعد بتقديم قائمة بأسماء قادة الأرجون — ومن
بينهم « بيجين » و « مريدور » و « بن — اليعازر » — إلى المباحث البريطانية .
وتم اعتقال « بن — اليعازر » بناء على ذلك البلاغ . ووقعت القائمة في يد
«رجون» . فلم تكن « منظمة الأرجون » هي الوحيدة التي تعاني من مشاكل
أمنية .

وعندما أوصى ضباط الأرجون بتنفيذ العدالة الثورية في «شيليفتس» أمر
«بيجين» منحه فرصة للدفاع عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة له . واستدعى
لـ«سور» أمام محكمة من ثلاثة أعضاء . وعندما رفض الحضور استدعى مرة
أخرى . ففر إلى مصر . ورأى زملاء « بيجين » أن هذا الفرار يعتبر دليلا كافيا
على إدانته ، بيد أن القائد لم يكن قد انتزع بعد .

ويقول « بيجين عن هذه الواقعة » :

« لقد قلت انه ربما يكون قد خاف من توجيه هذا الاتهام الفظيع اليه ، وربما كان هذا هو السبب في فراره الى مصر . وقلت ان من الضروري ان ترسل له أمرا بالعودة لمواجهة المحكمة . وكان يوجد آنذاك جنود في الجيش البريطاني من أعضاء الأرجون . واتجه اثنان منها لمقابلة « شيليفتس » في احد فنادق القاهرة ليطالباه نيابة عن بالعودة . فقم بتسليمهما الى الشرطة العسكرية .

وعندئذ فقط وافقت على ان يكون هذا دليلا كافيا على ادانته . وقام البريطانيون بإبعاده عبر المحيط الى الولايات المتحدة . وقد كنا نعرف هذا . ويقال انه مازال موجودا في أمريكا ، ولكننا لا نكرث بلمره » .

ولما كانت القيادة الرسمية للحركة الصهيونية قد حرمت « الأرجون » من الحصول على الأموال والمعدات ، فقد كان عليها ان تحاول الحصول عليهما من أى مكان . لقد كان لدى « ايتان ليفنى » في مستهل علم ١٩٤٤ ، ستون مسدسا صالحة للاستخدام ، وثلاثة مدافع شبه آلية مسروقة من معسكر بريطاني ، وعدد من البنادق وبضعة مئات من القنابل اليدوية ، وطلان من المتفجرات . ولم تكن هذه الأسلحة تكفى للقيام بثورة . وعلم أعضاء « الأرجون » من أجل الحصول على المزيد من الأسلحة عمليات السرقة والنهب والاعتصاب من اليهود الذين كانت المنظمة تتطلع الى قيادتهم في يوم ما . وأمكن في علم ١٩٤٥ الاستيلاء على ما قيمته ٢٨ ألف جنيه من الماس أثناء غارة على بعض الرسائل من الطرود البريدية ، كما استولوا على مبلغ مماثل تقريبا نتيجة لغارة على قطار يحمل أجور عمال السكة الحديدية . وقد قتل في تل أبيب اثنان من المرة حلولا التدخل لمنع عملية سطو قام بها رجال مسلحون من الأرجون على خزانة شبك تذاكر سينما « عدن » بالمدينة ويزعم « ليفنى » انهم كانوا يسرقون من البريطانيين كلما أمكنهم ذلك . ويقول « لقد صادفنا في احدى المرات أموال بنك يهودى . وكنت قد اقترحت هذه العملية على « بيجين » الذى طلب منى ان استكشف الشركة التى يؤمن فيها البنك . وعندما اكتشفت ان شركة التأمين هى « لويديز » اللندنية ، وافق « بيجين » على العملية . ومهما يكن من أمر ، فلان مخبرات « الهجلاه » حصلت على قائمة بأسماء « المساهمين » الذين يمولون « الأرجون » ، وكنت تتضمن ٦٤٠ فردا وشركة ومؤسسة يهودية في تل أبيب وحدها ، بما في ذلك عدد من أعضاء الهجلاه ذاتها الذين تعرضوا للارهاب حتى يدفعوا .

وكان السبب الاساسى الذى أدى الى فشل اتصالات « بيجين » المبكرة مع « عصابة شترن » و « الهجلاه » ، بصرف النظر عن الواجهة الايديولوجية هو : رفض قائد الأرجون المشاركة في السلطة او الاستسلام لرأى أحد آخر .

لا ينتهي إلى صفوئه . لقد كلن « صاحب فكر أحدى » ، عنيدا ، يتمتع بثقة متناهية في النفس . غلبت هناك شيء أو مخلوق من حقه أن يتصور أنه يستطيع الوقوف في سبيله ، حتى لو كان القيادة المحلية «حركة التصحيح» التي حرص « بيجين » طوال فترة التمرد الذي قادها ، على الفصل في أزدراء بينها وبين الأرجون . فان « التصحيحيين » كانوا مهذبين أكثر من اللازم ، ومازالوا يتمسكون بسياساتهم القلقة على التعاون مع بريطانيا في زمن الحرب .

ووفقا لأقوال « يلين — مور » ، فان « بيجين » قدم انذارا نهائيا إلى عصابة « شتيرين » ، معلنا أن عليهم ، كشرط لعودة الوحدة بينهما ، أن يعترفوا « جابلوتنسكى » كوجه للجيل . وكان « يلين مور » مثل « بيجين » قد تربى في ظل « جابلوتنسكى » ، ولكنه ، على خلاف « بيجين » ، تطور وبعد عنه ، ولم يعد « جابلوتنسكى » هو مرجعه الأولى ، ولقد أبدى « يلين — مور » بعد عدة عقود من ذلك الحين ، نفس الروح الاستقلالية المبدعة عندما نادى بالتعايش السلمي مع الفلسطينيين العرب ، بينما كلن « بيجين » لا يزال يردد الأقوال التي ادلى بها « جابلوتنسكى » أمام « لجنة بيل » في عام ١٩٢٧ . وكان « يلين — مور » و « شلمير » يشهران في عام ١٩٤٤ أنها لا يمكنهما السجود لروح « جابلوتنسكى » دون أن يخونا ذكرى زعيمهما ، افرام (أو ، ياثير) شتيرين . الذي قتل في فبراير ١٩٣٢ عندما أطلق بريطاني الرصاص عليه . وكان « شتيرين » قد تمرد على دعوة « جابلوتنسكى » ، عندما اشتملت الحرب في أوروبا ، بوقف إطلاق النار على البريطانيين . ولكن كما يقول « يلين — مور » ، « كلن وراء رفض « عصابة شتيرين » لشروط « بيجين » ، سبب عملي أهم من الأسباب المبدئية :

« اننا كنا سنضطر عند أى اختلاف في الراى يقوم بيننا — ولا بد لمثل هذه الخلافات أن تقوم — أن نلجأ دائما إلى تعاليم « جابلوتنسكى » للبحث عن حلول لمشاكل لم يكن لها وجود في عهده . وإذا وقع أى اختلاف في الراى في تفسير آرائه المدونة ، فمن الذى يحق له حسم المسألة ؟ وسألت « بيجين » مستوفضا : « كيف يكون الأمر إذا ظهرت خلافت في الراى بين المنظمين ؟ من الذى سيحكم بينهما ؟ ولم يتردد بيجين في القول بأسلوب اشبه بالاشتراط : في هذه الحال فان حق اتخاذ القرار يكون له . وعند ذلك وعلى الرغم من معرفتنا القليلة ببعضنا وتعاوننا معا على مر السنين ، فقد أصبت بالذهول . فقد كان « بيجين » واثقا كل الثقة من نفوذه المعنوى ، حتى أنه لم يشك للحظة في أنه وحده هو صاحب الحق ، بلا منازع في إصدار الأحكام » .

وقد اعترف « بيجين » في حوار و « موشيه سنيه » نقب قلند قوات « الهاجاناه » ، بأن « بن — جوريون » هو الزعيم المسلسى « لليشيوف » (يهود فلسطين) . وأعلن أن الأرجون لم تكن لديها الرغبة في الحكم ، وإنما

مستمر وراء راية بن جوريون بمجرد ان يعلن الحرب على الحكم البريطاني . ولكن حتى يحدث هذا ، فإن أى تفكير فى ان للهاجاناه حق الاعتراض على نشاط « الارجون » ، مرفوض ولا يمكن التوقف حتى يتم بحث احتمالات التعاون بينهما . وارف بيجين يقول لـ « سنيه » (أى سنيه) انما يتكلم معه لاجد ان « الارجون » تقتل ، ولو لم تكن المنظمة تقتل لما اصبح لها ذكر . واكد ان الرضوخ « لبن — جوريون » قبل الاوان المناسب انما سيعنى القبول بالنصفية التلقائية للمنظمة . ولم يتأثر « بيجين » بلحجج القفلة بأن القيادة الرسمية وحدها هى المنتدبة من قبل « اليبشوف » ، كما لم يتأثر بقول « سنيه » فى مجادلته ان « بن جوريون » اكثر علما بما يجرى فى المحيط الدبلوماسى الاوسع نطاقا ، ومن ثم فانه اقدر على اتخاذ القرارات الاصبوب بالنسبة للمصلحة اليهودية .

وقد تم لقاء الصديقين القديمين فى جو يسموده الشعور بأن ثمة ازمة وشيكة الوقوع . فقد لاحظت القيادة الرسمية ، سواء كانت مخطئة او على صواب فى ذلك ، دلائل تشير الى تحسن فى الموقف البريطانى من التطلعات الصهيونية . واطلع « سنيه بيجين » على التطبيقات التى ادلى بها « ونستون تشرشل » « لحليم وايزمان بلجراة تقسيم جيد » بمجرد انتهاء الحرب . كما تمت اخيرا الموافقة على انشاء كتية يهودية ملحقة بالجيش البريطانى ، وهو الامر الذى طالما أجرى الصهاينة اتصالات ومارسوا الضغوط من اجل تحقيقه . وكان القلق يسيطر على « بن — جوريون » وزملائه اذاء احتمال ان تتعرض هذه الامال للاجباط نتيجة للحملة الارهابية . كما كانوا يخشون فى الوقت ذاته من الا يتوقف تمرد المنشقين عند الاضرار بالبريطانيين ، على الرغم من عدم وجود ما يشير فى تصريحات « بيجين » حتى تلك اللحظة ، الى ما يؤكد مخاوفهم من حدوث ثورة كاسحة . بيد ان ردود « بيجين » لم تعمل على تبديد مثل هذه المخاوف . فقد أعرب قائده « الارجون » عن عدم ثقته فى انصاف الوعود التى يقدمها « تشرشل » وأعلن « بيجين » أنه لا يمكن وصف أى تقسيم خاصة اذا كان قاصرا على « ارض اسرائيل القريبة » بأنه « جيد » . وكان « سنيه » يشعر ، ربما أكثر من « بيجين » ، بتزايد حدة المطالبة بقيام « الهاجاناه » بوقف المنشقين عند حبلهم . وقد انتهى الاجتماع بينهما ، كما جاء فى تقريره بنجمة يائسة : قلت له : « لا أعرف اذا كان هناك يهودى آخر يريد تجنب وقوع قتال بين اليهود وبعضهم البعض ، اكثر مما أريد .. وعلى هذا ، فانا أقول لك اننى أخرج من هذا الحوار وأنا أشعر باكتئاب تام .. فالحلاسة كانت واضحة تماما : « انهم يريدون فرض طريقته على الجميع » .

وكلن « بن جوريون » قد ابلغ اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية، منذ وقت مبكر فى ابريل عام ١٩٤٤ بعدم وجود أى حل بديل « وعلينا أن

نقابل القوة بالقوة . ولا شك أن هذا القرار يعتبر كارثة ، ولكن وقوع كارثة محدودة كان أفضل من نجاح مجموعة صغيرة في فرض سيطرتها على « اليشوف » . وأصبح كلبوس القتال بين الأخوة حقيقة واثمة بحلول نهلية العلم . فقد عقد اجتماع آخر بين « بيجين » و « الياهو جولوم » ، رئيس « موشيه سفيه » الذى كان قد عاد لتوه من مهمة رسمية الى لندن . وخرج « جولوم » من الاجتماع وقد ازداد اقتناعا بمدى فداحة الضرر الذى يلحقه المنشقون بالمعاشى الدبلوماسية الصهيونية . وأعلن في مؤتمر صحفى : « اذا اضطررنا لاستخدام القوة ضد أولئك الذين يرتكبون هذه التصرفات الضارة المعتوهة ، فلنا أن نتردد في ذلك » . وأكد « جولوم » بعد اجتماعه المقيم مع « بيجين » أن على « اليشوف » أن يتخذوا كافة الإجراءات الكفيلة بوقف نشاط الأرجون .

ولقد سبق السيف العذل في ظرف اسبوع واحد ، اذ حدث في ٦ نوفمبر ١٩٤٤ ، أن قلم رجلا مسلحان من عصابة « شتيرن » في القاهرة باغتيال السورد « موين » ، الوزير في حكومة تشرشل لشئون الشرق الأوسط . ولم يكن « بيجين » وجاعته قد تلقيا أى إنذار مسبق بالعملية ، على الرغم من أن الجماعتين كلتاهما تيران بمرحلة اتصالات إيجيلية بينهما . ودفعت منظمة « أرجون » ، بدلا من « عصابة شتيرن » ثمن مقتل « لورد موين » . فقد اجتمعت اللجنة التنفيذية العليا للوكالة اليهودية فور انتشار النبأ وقررت دعوة « اليشوف » الى نبذ جميع أعضاء هذه العصابة المخربة والمهمرة ، وحرمانهم من المأوى والملاجى وعدم الاستسلام لارهابهم وتقديم كافة المساعدات اللازمة للسلطات من أجل وقف أعمال الارهاب وتصفية المنظمة المسئولة ، فإن بقاها في حيز الوجود يتوقف على هذا . وكتب « الياهو جولوم » يقول : « نـم يعد هناك مجال لمنقشة اساليب القضاء على وياه الجرائم الارهابية . وأصبحت الحاجة الى منع هذه الجرائم نورا تنصدر كل الاعترافات الاخرى ، وتستدعى اتخاذ كافة الإجراءات الكفيلة بمساعدة السلطات على وقف هذه الجرائم .

لقد تركت تلك الفترة التى أصبحت تعرف باسم « السيزون » (موسم الصيد) نذبة جديدة في نفسية « مناهم بيجين » . لقد كلن الامر يبدو وكان قليل وهليل قد بعثا من جديد في العصر الحديث . واذا لم يقتل الاخ اخاه ، فانه يترك وظيفته ويفصل أبناءه من مدارسهم . ووفقا لما جاء في سجل التاريخ الرسمى للهجئاته قام « المتطوعون » اليهود بلحتجاز عشرين رجلا لاستجوابهم كما تم التحرر عن واحد وتسمين آخرين بدون القبض عليهم . وسلمت أسماء ما يقرب من سبعائة شخص ومؤسسة ككت لها علاقة بالاعمال الارهابية والابتزاز الارهابى ، فضلا عن أسماء بعض المساهمين المتطوعين أو المرغمين على تمويل «الأرجون » الى المباحث الجنائية البريطانية ويقال أن ثلاثمائة منهم قد اعتقلوا بموجب هذه القوائم . وتفيد

تقديرات أخرى بأن عدد المقاتلين من « الأرجون » والمؤيدين لها الذين سلبوا
إني أنبوليس بلغ ألف شخص . وقد أمكن خلال « موسم الصيد » (أو السيوزون)
الذي استمر على مدى ٧ أشهر القبض على كل القيادات العليا تقريبا
 واحتجز رجال « الهلجقاء » أحد هذه القيادات وهو « إيلي تابين » رئيس
مخابرات « الأرجون » ووضعه في الحجز الانفرادي من شهر فبراير حتى
اغسطس عام ١٩٤٥ بمستوطنة « عين حروت » . وكان محتجوزه يريدون
انتزاع المعلومات منه . وكتاتوا مستعدين في سبيل ذلك لأن يضربوه ويملقوه
على الحائط وأن يلكوه في أسنانه حتى تتخلع ثم تركه مسلسلا في قذارته
ويوهوه باتهم سوف يعدمونه . وعنفنا انتهى « الموسم » في شهر يونيو ،
شعروا في بداية الأمر حرجا شديدا منهم من إطلاق سراحه فوراً .

وقد تمكن «بيجين» نفسه من مراوغة جماعة الطلردة . وقال « شيبون
افيدان » ، الذي قاد « موسم الصيد » : أجريت عدة محاولات للإيقاع ببيجين ،
ولكنها فشلت جميعا . وكنا كلما نبلغ المكان الذي تصلنا الأخبار بوجوده فيه
نجد أنه قد تركه . وكان من بين المكلفين ببحث عنه ، «ماتر باعيل» القائد الشاب
لاحدى وحدات الهلجقاء والذي أصبح فيما بعد العضو اليسارى بالبرلمان .
ووصلت أنباء إلى « باعيل » ورجله تفيد بأن « بيجين » سيتناول غداءه وهو
متخفى بأحد المطاعم في شارع الانبياء بالقدس يقول باعيل « صدرت الى الاوامر
بالقبض عليه واحضره الى «عين حروت» ، حيث أقام «الهلجقاء» سجنا
صغيرا . وانتظرنا عند المطعم أربعة أيام ولكنه لم يحضر . وكنا نتناول
الطعام في المطعم بظننا . فكان أربعة منا يدخلون بينما كان الخامس ينتظر
في الخارج مع سائق التاكسي » .

وقد سأل بيجين ، عنفا أصبح رئيسا للوزراء ١٩٧٧ زميله عضو
البرلمان ، عما اذا كانت هذه الرواية صحيحة ، فرد عليه « باعيل » بالإيجاب
وأكد له انه لو كان قد أمسك به ، لما أمكنه الإفلات منه .

« وماذا كن سيحدث لو حاولت المقاومة ؟

« كنا سنضربك .

« واذا كن هناك أشخاص مستعدون لجليتي

« كنا سنضربهم أيضا . اما اذا استسلمت ، كنا سنضعك في سيارة
التاكسي ومعك ثلاثة أشخاص يمسون بضراييك . وكنا سنضع نوعا من
الكمامة في فمك وتلقى بك في حقيبة السيارة ونغلقها عليك لو اننا شككنا في أنك
ستسبب لنا متاعب » .

واضاف « عيل » كدوع من المواساة ان مهمته كانت تقتضى على اى حال
تسليمه حيا — ولكن ليس للبريطانيين . وقلم رئيس الوزراء عندئذ واحتضنه .

ولم يكن الغموض في المسألة ينصب على السبب في فشل « باعيل » في القبض على « بيجين » ، بقدر ما كان في السبب الذي دعا الهلجته الى الاعتقاد بأنه سيحضر الى القدس . فان قلّد « الأرجون » ظل ، في الواقع ، مختبئاً تحت أسماء مختلفة من ربيع عام ١٩٤٤ حتى نهاية التمرد ، بمنطقه تل أبيب وكان أول ملجأ له هو فندق السافوي المتواضع الذي يقع بين شارع « الينبي » وشاطئ البحر ، وحيث نزل تحت اسم « مناحم بن — زئيف » . وقد قامت جماعة ارحلية فلسطينية جاءت عن طريق البحر بعد ثلاثين عاماً من نزول بيجين بالفندق ، بالاستيلاء عليه . وكانت حالة الفندق قد تدهورت كثيراً ودمر نصف المبنى المصنوع من الاسمنت عندما اقتحمته فرقة هجومية اسرائيلية وقتلت جميع الارباعين باستثناء واحد منهم فقط . وكان « بيجين » قد اختار ذلك الفندق لعدم حصوله على فرصة كافية من الوقت للبحث عن مكان أفضل ، وايضا عملاً بالبدء القتل بأن « أكثر الامكن ظلاماً هو ذلك الواقع مباشرة تحت المصباح » . وقد ترك « السافوي » بعد ان نجى بأعجوبة . فقد قاد مدير الفندق فرقة تفشيس بريطانية متخطياً بحذر الغرفة رقم ١٧ التي لم يكن يعرف شخصية « بيجين » الحقيقية ، ولكنه شعر أنه غادر الفندق بفرض قضاء اجلزة : « هذه هي كل الغرف عندي » .

وانتقل « بيجين » من الفندق بعد ذلك ، وبصحبه زوجته وابنه الى منزل بمنزل في القطاع الينبي في « بتاح تيكفا » . وكتب يقول عن تلك الفترة : ان الظروف هناك كانت صعبة ، وكان المنزل مهلاً . وكانت الرياح تعصف ليلاً ونهاراً من خلال نوافذه المغطاة . وفي المساء كان الطقس بارداً والظلام حالكا . فلم يكن هناك كهرباء او تدفئة مركزية . ولكن من دواعي سروره انه كان ينام على ملاءات تم شراؤها خصيصاً للمندوب السليمي البريطاني ، سير « هارولد ماك — ميتشل » الذي كان « الأرجون » قد وضعوا خطة في يوم ما لاختطافه . كان البيت الصغير غير مريح ، وبالإضافة الى ذلك كان معرضاً للمخاطر وكانت المقلات البولندية تبدو واضحة وضوح النهار في وسط الينبيين من ذوى البشرة السمراء ، ولم يمض وقت طويل قبل ان تبدأ التساؤلات تتردد حول الغريب الذي لا يخرج أبداً الى العمل .

وتولى « الأرجون » نقل « بيجين » وأسرته الى منطقة « حاسيدوف » ، وهي منطقة عمالية على اطراف « بتاح تيكفا » حيث انتحل مناحم لنفسه اسم « إسرائيل هالبرين » . وكثيراً ما كان المسكن يتعرض لانتقاط المياه ولم تكن الكهرباء قد ادخلت اليه بعد ، بيد أن « بيجين » ، الذي كان ما زال في مرحلة « الاختفاء المفتوح » كان يجد عزاء في الحثول وحدائق البرتقال وخضرة الحدائق والاشجار الكثيفة . وقدمت عائلة « هالبرين » نفسها على انها عائلة بولندية لاجئة . وعصرت « اليزا » سبب عدم

خروج زوجها الى العمل بأنه علكف على الدراسة ليتقدم الى الامتحان في القانون الفلسطيني . وفكرت ان اللجنة المشتركة وهي جمعية خيرية يهودية هي التي تتولى مساعدتهم حتى يتخرج . وكانت القيادة العليا للارجون تجتمع في المطبخ على ضوء مصباح الجاز او الشموع . وكانت العائلة تنزه سيرا على الاقدام في ايام السبت في حدائق البرتقال .

وتعرضت عائلة « بيجين » اثناء اقلتها في منطقة « حاسيدوف » لأول تجربة لها مع عمليات التفتيش الشامل التي يقوم بها الجيش البريطاني . ففي فجر يوم ٥ سبتمبر ١٩٤٤ تم تطويق بلدة « بناح تيكسا » ، التي كانت مشهورة بايواء الارهابيين ، وفرض فيها حظر التجول . وقرر « بيجين » وواحد من ضباط قيادته الذي امضى الليلة معه ان ليس هناك اى مغزى من غرارها للاختباء في الفلجة لان ذلك من شأنه ان يلفت نظر الجيران اليهما ، ان لم يكن نظر القوات ، ومن ثم يصبح القبض عليهما امرا محتوما . وقررا ان يتصرفا باعصاب هائلة ويتمسكا بمظهر البراءة فجلس القاتدان على سلم المنزل وهما يتفسرجلن على الدبابات والمدفعات البريطانية اثناء مرورها عند آخر الشارع . وأسرت جارتهم مسز « سيجل » في انزعاج لمسز « بيجين » قلقة : « ليس هناك ما يزعجك يا مسز « هالبرين » . اما انا فاني حوزتي احدى يطالطين الجيش بالمنزل » . وزال الخطر بطول الظهر . ورفع حظر التجول ، وقد تجاهل الجيش لسبب غير معروف حي « حاسيدوف » . ولكن عندما امتد التوتر الذي سبق « موسم الصيد » ، الى المنطقة بدا الحي اقل اهنأ وبدا الناس يتطلعون في فضول ، وحل وقت الانتقال الى تل ابيب .

واختفى « اسرائيل هالبرين » من الوجود ، وجاء « اسرائيل ساسونير » اليهودي الارثوذكسي المنحى الذي يرتدى طاقية سوداء ، للاتامة في شارع « ياهرشا بن نان » الواقع بين مذبج البلدية ومأوى كلاب البلدية . واضلعت الذئب عشر سنوات الى عمر « بيجين » . وكان قد فسر للجيران عدم حلاته لثقته خلال الشهر الاخير من اقلته في « بناح تيكسا » بأنه في حالة حداد . وكان اثناء وجوده في « تل ابيب » يذهب للصلاة بانتظام في المعبد المحلى ، مثل اليهود المتدينين وكان الجيران يرتابون في انه واحد من الطلبة « المستقيمون » في المعاهد الدينية ، والذين لا يزالون ابدا اى عمل ويعيشون من ريع مهور زوجاتهم . ورزق بيجين اثناء اقامته وعائلته في شوارع « يهوذا بن - نان » ، بثأى اطفاله . وكانت في هذه المرة طفلة اسمها « هاسيا » ، تيمنا باسم امه . وسجل المولودة باسم : « هلسيا ابشتاين » ، نسبة الى اسرائيل ابشتاين ، احبب اصققاء « بيجين » الغربيين ، والذى اضطر الى القيام بدور الاب السعيد وزار « اليزا » وابنتها في المستشفى .

وكاد البريطانيون يكتشفون مكان اختبأ « بيجين » فيها بين المذبح وماوى الكلاب ، مرتين : المرة الاولى عندما مسحوا شارع «يهوشا بن - نون» بالأتوار الكاشفة ، وجلبوا الشارع جيثة وذهبا بحثا عن مخبئىء الاسلحة . ورابط « بيجين » مترقبا فى منزله ، ولكن احدا لم يطرق بابه . وانتهت عملية التفتيش بحلول الفجر . كان هذا فى أواخر عام ١٩٤٥ ، اما المرة الثانية فاجأت بعد ذلك بعلم تقريبا عندما نصف فندق « الملك داوود » فى القدس .

وفى هذه المرة الاخيرة كان من الواضح ان الجيش يعرف جيسدا ما الذى يبحث عنه . واختبأ « بيجين » فى غرفة صغيرة سرية تحت سقف المنزل أعدها « يعقوب مريدور » خصيصا لمواجهة مثل هذه الطوارئ . وشعر « بيجين » ان التفتيش عنه أخذ يقترب . وعلم من الراديو الذى تركته « اليزا » مفتوحا عليا عن عمد حتى يسمعه ، ان حظر التجول سيستمر عدة ايام ، وان التفتيش سيمتد الى كل منزل وكل ركن . وعسكرت جماعة من الجنود فى حديقة منزل « بيجين » واصطحبوا « اليزا » مع طفلها لاستجوابها . وادعت انها لا تعرف الانجليزية . وقالت من خلال مترجم ان زوجها ذهب الى القدس . واعادها رجال الشرطة البريطانية الى منزلها . ولكن عاد رجال الجيش مرة اخرى لتفتيش المنزل ، حيث قلوبوا بفتح الدواليب والبحث تحت الأسرة ، والنظر على الجدران (بل انهم تقروا على المكان الذى يختبئ فيه « بيجين ») . وظل بيجين محشورا فى ملجئه الضيق لمدة ثلاثة ايام مضية بلياليها خلال حرارة شهر أغسطس . وقد أعادت هذه الفترة الى ذهنه تجربة الحبس الانفرادى التى مر بها فى « فيلنا » ويقول بيجين :

« كان هناك بعض نواحي التشابه بين التجريتين ، ففى سجن « لوكيشكى » كان الطقس حارا نهارا ، باردا ليلا . اما هنا فلن الحرارة كانت لطيفة ، وخالقة نهارا » . وكنت الارض هناك من العجالة اما هنا فكنت من الخشب . وكنت عظام المرء هناك تصرخ من الالم — ولم يكن الالم هنا اقل حدة . وكان المرء لا يجرؤ على التحرك اطلاقا . وهناك كانت الحاجة ماسة الى الطعام ، وهنا الى الماء . وفى هذا الصدد يقول :

لقد كانت هذه هى أسوأ محنة أمر بها : لقد عانيت من عدم وجود الماء . ومن عدم تناول الطعام فى « لوكيشكى » وفى غيره من الأماكن وقد تعلمت هنا لأول مرة معنى الحرمان من الماء وعانيت من الجوع والعطش — انهما تجربتان قاسيتان من الأفضل الا يتعرض المرء لهما . ولكن اذا كان لى خيار فى الامر لاخترت الجوع بلا تردد . فالعطش البتد رهيب ..

وبدأت أشعر بالدوار . وبدأ الجفاف يشمل جسمي . وما زاد من عذابه أن الجنود المرابطين في الحقيقة أخذوا يذهبون الى المنزل ، طالبين الحصول على شراب . ولكنهم انصرفوا في اليوم الرابع ، فعدت « اليزا » على المخيا بيد الكنسة . واحتفل بييجين بخروجه من سجنه الاختياري بأن اغرق رأسه في اناء مليء بالماء البارد ، المرة تلو الأخرى ، وهو يشرب . « لم أستطع أن أصبر ، فقد كنت أشعر بجفاف تلم . كلن كل ما احتاج اليه هو الماء .. »

اعترف فيما بعد الجنرال سير « افلين باركر » ، القائد الممام البريطاني أن أسلوب التطويق والتفتيش لم يسفر الا عن نتائج ضئيلة جدا ، وقال :

« عندما انظر الى الورا ، لم أجد اى أسلوب آخر كان يمكن استخدامه في معالجة المشكلة . وعندما ذهبنا الى تل أبيب كان « بييجين » موجودا هناك مختبئا داخل دولا ب . وكان يوجد مساعد عريف وثلاثة جنود يرابطون في حديقة بيته ، ولكنهم لم يفتشوا المكان بدقة . ان هذه هي واحدة من مشاكل حملات التفتيش ، اذ يجب عليك أن تعتمد على افراد من المرتب الدنيا ، فاذا أخطأوا يمكن أن تنهار العملية بأكملها . »

واقامت عائلة « بييجين » في المنزل الكائن بشارع « بهوشوا بن — نين » لمدة عامين تقريبا ، ولكنه بدأ هو الآخر يفقد عزله . وأظهر البريطانيون اهتماما متزايدا بالحي ، وكانت منظمة « الهاجاناه » قد علمت بمسألة لحيه « بييجين » . وأوصى رجال أمن « الارجون » بضرورة انتقاله مرة أخرى . وحلق « يسرائيل سلسوفر » ذقنه وجاء الدكتور « جونا كونيغشوفر » ليقوم في المسكن الذي يقع عند ملتقى شارعي « روزنبوم » و « يوسف الياهو » ، بالقرب من مسرح « حايما » في قلب تل أبيب . وقد استوحى « بييجين » هذا الاسم الذي يعطى انطباعا بأن صاحبه من اليهود الاثان المحترمين ، من بطاقة تحقيق شخصية عثر عليها في مكتبة عامة . ووضعت صورة « بييجين » على البطاقة ، وقد علا وجهه في هذه المرة شارب . وكان من المقرر أن يصبح هذا الانتال الذي تم في أوائل عام ١٩٣٧ ، آخر تنقلات « بييجين » ، ابلان فترة ممارسته للعمل السرى . وولد « لبييجين » اثناء وجود العائلة في المنزل الكائن بشارع « روزنبوم » ، ابنة ثانية هي « لياه » . وتم تسجيلها هي ايضا تحت اسم « ابشتاين » . ولم يتوان البريطانيون ابدا عن بحثهم عن « الراهلي الأكبر » . وعرضت جائزة قيمتها الفلن من الجنيهاات الاسترلينية لمن يساعد في القبض عليه (كانت الجائزة على رأس « نلن يلين — مور » من عصابة شترين لا تتعدى ألف جنيه استرليني فقط) ولكن لم يخنه احد .

لقد سبب « موسم الصيد » (١٩٤٤ - ١٩٤٥) لبيجين توترا شديدا مما اثر على قدرته على التقدير السليم وعلى التحكم في مقاليدته من الشباب . لقد سببت لهم مسألة اختطاف اليهود وخيانتهم ألسنا وشعورا بالخزي . وكانت مشاعرهم تدفعهم الى الرد على العدوان ببطله . وقد عكس مفسور لاذع كتبه « بيجين » في فبراير عام ١٩٤٥ ، تحت عنوان « سنملكك بالثل يا قاييل » مدى ما شعر به من مرارة :

« لقد استخدمت كل قوتك يقاييل ، ولكك لم تستظها عنديما كلن الملايين من اخوانك يمتوتون وعيونهم متجهة نحو « صهيون » - أرض « صهيون » المظلمة الابواب ، أرض « صهيون » التي تستعدها حكومة شريرة ، انك لم تبد قوتك عنه عندما تم ترحيل الناجين من القسلة ، ولمتكشف عنها لتطلم الابواب التي اوصدها « الكلب الابيض » في وجههم .

« لقد عمدت يا « قاييل » الى تعبئة ثروة الامة ولكك نم تنفقها من أجل الاغاثة ، ولمساعدة أسر الجنود ، ولا من أجل تنظيم الهجرة المجانية من دول الإبادة . انك تخلص أموال الشعب عشرات الآلاف من الجنيهات ، وتنفقها على الخبيرين والمختطفين وعصابات الواشين . لقد اخترت لنفسك حليفا ، يقاييل . ان حلفائك هم نظام الحكم الظالم القائم في الوطن والمباحث الجنائية البريطانية - النازية . انك تسلم اخوانك الى هؤلاء الطفء . . انك تسلمهم الى الايدي الملوطة بدماء ملايين المبعدين عن ابواب الوطن ليدخلوا أفسران « ميدانيك » . .

« انك تمارس يقاييل الخطف حيث تقتحم في ظلام الليل بيوت العبرانيين بواقع عشرة ضد واحد - وتوجه الضربات حتى تسيل السماء . . انك تقتلع من تعتبرهم « مشكوك فيهم » مستخدما الحيلة والخداع باسم الشرطة وبكل عسوة ، وتنقلهم الى جهات مجهولة ، لتعذبهم بسلايل لجستلو في القلب المظلم لحدائق البرتقال ، ثم تقوم في النهاية بتسليمهم الى حليفك ، المباحث الجنائية البريطانية - النازية ، ليمارس المزيد من التعذيب ضدهم وليقوم بنفيهم الى « اريتريا » . .

ومع هذا فلن « بيجين » اختار لنفسه الالتزام بضبط النفس . إذ انه كان واثقا من ان الوقت سيحين عنديما تضطر « الأرجون » و « الهاجاناه » الى القتال جنبا الى جنب . وكان يرى أن اشتعال حرب أهلية واسعة النطاق من شأنه تبديد كل احتمالات قيام مثل هذا التعاون ، بل ان من شأنه تبديد حتى احتمالات قيام دولة يهودية . ولم يكن من الملائم ان ينتهج المسرع في ثروة « موسم الصيد » سيلسة « فرغى الراي » . ويقتدر يعقوب (يول) أبرامى ، الذى خلف « ايلي تلغين » في منصب مدير الاستخبارات ، عدد معارضى وجهة

نظر بيجون تلك ، بنصف عدد أعضاء القيادة العليا . ولكن استطاع منطق « بيجين » أن يمسد في النهاية . بل أنه أصدر منذ وقت مبكر يرجع الى شهر نوفمبر من عام ١٩٤٤ تعليمات مشددة وواضحة الى اتباعه تتضمن :

« محظور عليكم رفع ايديكم او استخدام السلاح في وجه الشـيـبـالـ العـيراني ، لانهم اخواننا وغير مسؤولين عما يحدث ، كما انهم يخضعون لتوجيه خطيئـة للتـعـريض . ولكن سيأتي اليوم الذي س يدركون فيه خطاهم فيقفوا الى جانبنا في وجه القاصب الاجنبى . ان سلوككم هو سلوك الوطنيين الذين لا يحيدون عن هدفهم ، وهذا سيساعد على زيادة سرعة انتصاهم عن الذين يستغلونهم ويثرونهم ضحنا ، وعندهذ سيحظى المحرضون تملا بعكس ما كلفوا يسعون اليه . ولن تكون هناك حرب بين الاشقاء ، وسيأتي اليوم الذي سيهب فيه الشعب .. رغبا عن اولئك الذين يشمون العراقيين .. ليقف صفا واحدا ، وهذا هو المهم .. ان هذا هو السبيل الوحيد لاقتناذ يهود فلسطين من الحرب بين الاشقاء ، ولاقتناذ البلاد من الخراب ، وللحفاظ على ثناء رايتنا ونزاهة سلاحنا ، ولرفع اسرائيل عاليا في نظر الغرباء . وهذا ايضا — محظونى — هو الطريق الى النصر . »

ووافقت قيادة الارجون على مضمـن . وربما تكون معرفة زملاء « بيجين » ان قيلم حرب سائرة بين « الارجون » و « الهاجـتـاه » الاكثر عددا واعتادا سينتهى بلا أدنى شك بفـعـار منظمة الارجون — ربما تكون هذه المعرفة قد أثرت أيضا على استجالتهم الى الموافقة . بيد أن العامل الاساسى الذى حسم الموقف تمثل فى التفوذ الفريد الذى يتمتع به القائد . وكلفت النتيجة ان سمسـاد الانضباط ولم يرد أعضاء « الارجون » على أى محاولات استغـرازية . ويعترف « يعقوب أمـرامى » الذى كان قد اعترض على سياسة ضبط النفس ، « بأن الايام أثبتت فى النهاية ان « بيجين » كان على حق . فبعد مضي ثمانية اشهر من ذلك الحين ، انضمت قوات « الهاجـتـاه » الينا فى القتـال ضد البريطانيين . »

واسفرت حملة المطردة عن توجيه ضربة خطيرة للارجون ولكنها لم تكن قاضية . فقد عاد « الياهو جولوم » — المؤرخ الرسمى للهاجـتـاه — ونقض فيما بعد قوله السابق بأن « موسم الصيد » قد كسر شوكتهم نهائيا . وفى الواقع خان « الارجون » و « عصابة شـتـرن » ظلتا مشلولتى الحركة طوال السبعة اشهر الاخيرة من الحرب العالمية الثانية . وقد تحجب الشـتـرنـيون قسوة «موسم الصيد» بأن اوقفوا طغائيا عملياتهم بعد اغتيال اللورد «وين» . واعترف «يعقوب مريدور » ، الذى تم اعتقاله فى خريف عام ١٩٤٥ وترجـله الى شرق افريقيا قائلا باستثناء توزيع المفـسـورات فاننا لم نـقم بأية عمليات خطيرة . » ولكن

« ييجين » استطاع أن يراوغ « الصيادين » وسرعان ما وجدت « الأرجون » قادة جدد من الشباب ليحلوا محل أولئك الذين كادوا يقعون في الأسر .

وكسبت « الأرجون » في الوقت ذاته ، تصاطف الرأي العام اليهودي في فلسطين نحو تجنب الانتقام . ولم يستسغ أعضاء « الهاجاناه » كثيرا عملية المطاردة لدرجة أن التقارير الرسمية تعلن أن الذين شاركوا في « موسم الصيد » كانوا من المتطوعين الذين لبوا نداء القيادة الوطنية . وأكد « موشيه سنيه » فيما بعد أنها لم تكن بأي حال من الأحوال حملة نفذتها «قوات الهاجاناه» ويقول « سنيه » عن ذلك :

« لم نتخذ مطلقا أي مؤسسة تابعة للهاجاناه أي قرار بشأن حملة المطاردة ، كما لم يصدر أي قرار إلى أي مؤسسة للهاجاناه » بتنفيذ المطاردة لقد طرحت اللجنة التنفيذية العليا الموضوع على لجنة العمل الصهيونية حيث تم اتخاذ القرار ، ثم عرض الموضوع بعد ذلك على مجلس الهيستدروت الذي أصدر قرارا في هذا الشأن . ولم تأخذ « الهاجاناه » المسألة على عاتقها . بل كان هناك أفراد تم تجنيدهم على أسس شخصية لتنفيذ « المطاردة » . ولم يحدث مطلقا أن نقش مجلس الهاجاناه ، هذه المسألة أو تلقى أمرا في هذا الصدد أو أصدر أمرا بشأنه .

وقد أعرب « سنيه » عن أسفه إزاء التعاون مع البريطانيين ووصفه بأنه كان بمثابة « خطأ فادح » . ومع ذلك فقد قبله في جبينه . ويؤمن نقيب « إسرائيل جاليلي » ، أنه هو نفسه عارض تسليم المنشقين إلى المباحث البريطانية . وكانت المشكلة التي تواجهها « الهاجاناه » هي أنها لم تكن تملك الجهاز القضائي أو التحكيمي اللازم للتعامل معهم بنفسها . ووفقا لأقوال « جاليلي » فإن السبب الرئيسي الذي منع تعبئة « الهاجاناه » ، ككيان مستقل في هذه العملية هو أن مبادئها الأساسية تنص على أنها كيان عالمي فالهاجاناه لم تكن « الجيش الأحمر » لحركة العمل ، بل كانت قوات الدفاع عن يهود فلسطين . وكلفت المؤسسة المتحكمة في « الهاجاناه » بتتبع ولو من حيث المبدأ على الأقل ، فرسا متكافئة لكل من حركة العمل والأحزاب الصهيونية اليمينية وأحزاب الوسط . وكان موقف شركاء « حركة العمل » من « الأرجون » و « عصبة شتيرن » متكافئا على أحسن تقدير . ولم يكن « بن - جوريون » راقبا في أن يخسر هؤلاء الشركاء .

ولكن ، من الناحية العملية فإن الهاجاناه وقوتها الضاربة التي تعرف باسم « البالماخ » هما اللذان نفذتا حملة المطاردة . وقد اعترف أحد الأعضاء المعادين من تكلموا في انندوةالتي عقدت عام ١٩٦٦ حول هذه المسألة والتي تكلم أمامها أيضا « سنيه » أن الأوامر صدرت إليه ووحده في «ريحون صهيون»

من قائدته المبتلىة بتنفيذ عملية المطاردة ضد أحد أفراد الحركات السرية ثم ضربه • ولابد أن هذا هو نفس ما حدث في أماكن أخرى ، على الرغم من الفروق الدقيقة على السياسات الائتلافية الصهيونية .

وانتهى « موسم المطاردة » أو « الصيد » ، بانتهاء الحرب في أوروبا واقترب موعد الانتخابات البريطانية ، وأصبحت القيادة الرسمية بخيبة الأمل إزاء عدم إبداء تشرشل أى ميل إلى مكافأة اليهود على مساعداتهم • وتقول السجلات التاريخية للهاجفاء بمنتهى الوضوح والصراحة : « الإجراء الذى اتخذ ضد المنشقين كان من وجهة نظر أعضاء الهاجفاء ضرورة مبررة ومؤسفة • وظلت الكراهية التى سادت بين الأشقاء خلال تلك الأيام البائسة ، راسخة لفترة طويلة بعد ذلك فى صميم « اليشوف » • أما « مناخ ييجين » فهو لم يشف ولن ينسى أبدا •

الفصل السابع

مأساة الأخطاء

لقد كان عام ١٩٤٥ بالنسبة « لمناحم بييجن » هو العام الذى أثبت صحة توقعاته . فقد أحبط البريطانيون - فى ظل الحكومات المحافظة والعمالية على السواء - آمال رجال من أمثال « وايزمان » و « بن جوريون » ، ممن كانوا لايزالون يملكون فى إمكانية التوصل الى حل سلمي ويسدون آذانهم عن سماع ضجيج المطالبة بقلعة دولة يهودية فى فلسطين . وثبت أن شكوك « بييجن » كان لها أساس من الصحة تماما . ونتيجة لهذا ، تحققت نبوءة أخرى من نبوءاته ، تتعلق « بالهاجاناه » . وهذه النبوءة كانت قد أثارت أزمة الثقة الوحيدة التى تعرض لها أثناء توليه قيادة منظمة « ارجون زفاي ليومي » . فقد اقترحت « الهاجاناه » اقامة جبهة مشتركة مع منظمة « ارجون » و « عصابة شتيرن » أى شن حملة متحدة للمقاومة الايجابية ضد الحكم البريطانى .

وبدأت بريطانيا تتكيف بانتهاء الحرب فى أوروبا ، مع حقيقة انها لم تعد قوة عالمية مهيمنة . فاقصاها مجهد نتيجة للحرب التى استمرت ستة اعوام . وبمجرد أن فترت نشوة النصر ، بدأ عالم ١٩٤٥ مختلفا عن العالم فى سنة ١٩٣٩ ، وأن لم يكن أقل خطورة منه . ومهما يكن القرار الذى تتخذه بريطانيا بشأن ادعاءات اليهود والعرب المتناقضة بشأن فلسطين ، فإن القادة البريطانيين لا يمكن أن يتجاهلوا تأثير هذا القرار الذى يتخونه على علاقات بريطانيا مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والدول العربية والاسلامية ، أو مع مصادرها التقليدية للبترول فى الخليج والعراق . وكانت الرياح المعاكسة قد بدأت تهب ضد اتخاذ قرار بحل بسيط للمشكلة موال للصهيونية ، حتى قبل الانتخابات العامة فى يوليو . فلن تعطف « وينستون تشرشل » تجاه القضية اليهودية لم يكن راسخا فى احسن الاحوال . وادى اغتيال اللورد « موين » الى تصعيد هذا التعطف . ولذلك فلم يعترض عندما قدم وزير خارجيته « أنتوني ايدن » ، النصح لجلس الوزراء قائلا : « اذا خسرنا الصداقة العربية ، فلن الامريكيين والروس سيسارعون للاستفادة من أخطائنا » .

الا ان معظم الزعماء الصهيونيين ظلوا واثقين من أن الاحتمالات ستكون أفضل لو تولى العمال السلطة . فقد تعهد الحزب فى المؤتمر الذى عقده فى ديسمبر عام ١٩٤٤ « بيلاكبول » ، بأنه سوف يلقى القيود التى فرضها الكتاب

الأيض لملم ١٩٣٩ على الهجرة اليهودية التي غلظت كماً اتة سوف يؤيد إنشاء وطن قومي لليهود هناك . ولكن الخرب بدأ يتراجع عن تعهده خلال أسابيع قليلة من وصوله إلى الحكم . حيث كتبت وزارة المستعمرات ببلاغ « حاييم وايزمان » في ٢٥ أغسطس بأنه لن تحت أية زيادة في حصة الهجرة التي تفضل إلى ألف وخمسمائة مهاجر يهودي شهريا . ولقد كان هذا القرار ضربة ملاحية أصابت التقود الشخصي « لوانزلان » بصفته نصر إجراء حوار مع البريطانيين ، كما أصابت حركة العمل الصهيونية في فلسطين ، التي راهنت بالكثير على الملاحية الخاصة التي تربطها بخرب العمال البريطانيين . وجاءت نقطة التحول المباشرة في تلك العلاقات عندما وقع اختيار « كلينمنت آتلي » على « ايونست بيكن » ، الزعيم التغلبي الممالي ووزير العمل اتان الخرب ، ليكون وزير خارجيته بدلا من « هيو دالتون » ، ذو الميرل الصهيونية . ولكن ربما ما كانت السياسة البريطانية قد تغيرت لو كان الاختيار قد وقع على « دالتون » ، فبنا غدا أن وزارة الخارجية كانت ستجد صعوبة أكبر في اتناعه بالتخلي عن برنامج الخرب المتلن قبل الاتخليات .

وكان « دالتون » ، الذي أصبح وزيرا للخزانة ، مدافعا متحمسا عن القضية الصهيونية . ولم يكن « بيكن » حديث العهد بشئون السياسة الخارجية ، كما كان يسود الاعتقاد العام ، كما لم يكن رجلا يتصرف بدافع من عواطفه بدلا من عقله . فقد كان ضليعا في الأوضاع العالمية وكان قد درس جيدا وضع بريطانيا في العالم . وكان الصهيونيون يعتبرونه خلال الثلاثينات حليفا لهم . حشد جهوده أثناء اشتراكه في حكومة « تشرشل » الائتلافية من أجل تعبئة القوة العاملة لصالح المجهود الحربي . ويشك « هرولد بيللي » الذي كان مستشاره الأول في وزارة الخارجية لشئون الشرق الأوسط ، أن يكون لدى « بيكن » علم بقرار « بلاكيل » ويقول : لقد تم التخلي عن سياسة الحزب منذ البداية . وكنت أحيانا أتساءل عما اذا كان « بيكن » ، يدري شيئا عنها . أما عن وجهات نظر أولئك الزملاء الذين كانوا مهتمين بمثل هذا القرار ، من أمثال « دالتون » ، و « كريس » ، فان « بيكن » كان يرفضها بشدة لأنه كان يعرف أنها يخضعان لمحاولات قوية من جانب الصهاينة للتأثير عليهما .

ومر « بيكن » بمرحلة « امتصاص » من جانب وزارة الخارجية التي كتبت بمنحه فكرة موجزة عن الموضوع واقفته بأن الصهيونية متجفة بالقرب وضارة بالنسبة لبريطانيا ، وأن أقلية دولة يهودية عند « نقطة التواء » مواصلات بريطانيا مع الهند وأستراليا والشرق الأقصى أ قسلا عن مواصلاتها مع مصدر البترول الرئيسي الذي يقوى الامبراطورية من شأنه أن يعرضها جميعا للخطر وأخول وزير الخارجية أن يسلك طريقا وسطا يجمع بين ترضية العرب وعلم الغضاب الأمريكين . ولم يتدهش « متاحم بينج » لعدم تطابق « بيكن »

أزاء مأساة اليهود الأوروبيين الناجين من الحرب أو لمسلم استجابته لحجج الصهاينة الذين يحاولون التأثير عليه من وراء الستار . فلقد كان يتوقع كل هذا منذ البداية ويؤمن بأن على اليهود ، إذا كانوا يريدون الحصول على دولة الاستيلاء عليها بأنفسهم .

ومع هذا ، إذا أراد المرء أن يصدق شهادة « بيلي » وغيره ، وأن يعتقد أن « بينن » لم يكن يحمل مشاعر معادية للسلبية ، فأنه يصعب عليه أن يفهم مدى عدم احساس البريطانيين بالعتاة اليهودية . وقد شعر « بينن » ، و « واثلي » ، بلضيق أزاء الضغوط الأمريكية التي اعتبروها نتيجة لاثرة المشاعر في الداخل بدون وجه حق ضد الرئيس « هارلي ترومان » . وقد ضاعف من هذا الضيق أحلام « ترومان » عن المشاركة في الإعباء المالية والعسكرية الناجمة من فرض أى حل للمشكلة الفلسطينية . ولكن البريطانيون أيضا يشعرون بقلق أزاء تأثير اتخاذ قرار موال للصهيونية ، على تسعين مليون مسلم في الهند ، ولم يكن قد تحدد مصيرهم بعد ، وعلى الاطباع السوفييتية في تركيا واليونان وايران . فضلا عن هذا فإن العسكريين البريطانيين في فلسطين ذاتها ، كانوا يحطرون رؤسائهم من صحوة عربية جديدة . ويقول المناهضون عن سياسة « بينن » انها كانت تهدف مصلحة بريطانيا أكثر من مصلحة العرب . بيد أن هذا كله لا يفسر لنا السبب في اغماض زعماء حزب العمل اميتهم عن ادعاء الصهيونيين بأن يهود أوروبا جديرون بصفة خاصة بتعاطفهم معهم ، أن لم يكن وقوفهم بضيقهم معهم وأن فلسطين هي الملاذ الطبيعي للاجئين .

ويؤكد « بيلي » أن « بينن » كان يشعر بأنه يتعرض للضغوط الأمريكية من جهة ، كما يتعرض زملاءه في مجلس الوزراء لحلولات التأثير عليهم من جانب المنظمة الصهيونية في بريطانيا المظلمة من جهة أخرى . ولكن يرفض كل هذا بشدة .

ومما كان من حسن النوايا التي انطوت عليها سياسته ، فإن هذا الشعور بالاستياء الذي سيطر على وزير الخارجية دفعه للدلاء بتصريحات لم يكن لها تأثير طيب سواء بالنسبة للمصلحة البريطانية أو سمعته الشخصية . فقد كان ينظر الى العالم من منظور بريطاني ديمقراطي اشتراكي . فهو يرى أن بريطانيا دخلت الحرب من أجل تأمين أوروبا لمصلحة الديمقراطية . وأصبح اليهود يستطيعون العودة ، كغيرهم ، لاستئناف حياتهم العادية ، بعد أن تم القضاء على « هتلر » . ولم يكن يدرك مدى عمق الشعور بالعدمية الذي يسيطر على اليهود . فلقد كفوا ضحايا برنلج إبادة شاملة كاد أن ينجح حيث هلك ستة ملايين يهودي لا لى ذنب اقترفوه سوى أنهم يهود .

وقال « بينن » : صحيح أنهم تعرضوا لانقطع المذابح وعمليات الاضطهاد ولكن التجربة انتهت ونجا عدد منهم . ويجب الآن اغلقتهم ومساعدتهم

ومعاونتهم على العودة للاستقرار في المانيا ، والتغلب على المخاوف والتوترات الناجمة عن مثل هذه التجربة .

ثم قلم وزير الخارجية ، بعد ذلك ، باقتباس عبارة قالها « اتلى » دون ان تلفت نظر أحد . فقال ان اللاجئين اليهود في اوربوا ، يجب الا يحولوا « الضغط من اجل الوصول الى مقدمة الطلور » . وأعلن ان بريطانيا لم تعدهم بدولة يهودية في فلسطين وانما وعدتهم بوطن قسوى . واكد : « ان الفرصة لازالت ساحة لتحقيق هذا طالما كان هناك اعتراف بان عبء انتقال الشعب اليهودى لا يجب أن يقع على فلسطين وحدها . وكانت الاساءة الاخيرة التى ارتكبها وزير الخارجية هى مهاجمته امريكا أثناء انعقاد مؤتمر حزب العمال في « بورنموث » خلال شهر يونيو التالى ، بسبب مطالبتها فتح فلسطين أمام هجرة ١٠٠ ألف يهودى : « أرجو الا يساء فهمى في امريكا لو قلت انها تقدمت بهذا المطلب بنية صليبية تملأ . فأننا أعرف انهم لا يريدون في نيويورك وجود أعداد كبيرة من اليهود عندهم » . ولم يكن هناك اى لبس في فهم المغزى من كلامه .

لقد كتبت بريطانيا تواجه مهمة مستحيلة . فقد اتهمت وزارة الخارجية « اتلى » و « بين » بانتهاج سياسة تقوم على تطبيق مسألة فلسطين . بيد أن ديناليكيات الواقع جعلت ذلك أمرا مستحيلا . فإن اليهود الذين مضوا عندما انكشفت لهم نطاق « بيلسين » و « اوشفيتز » ، سيطرت عليهم حالة من اليأس القاتل . وألم عدم الاكتراث البريطانى بمأساتهم ، تضائل الأمل في أن يختار يهود فلسطين ويهود العالم ، انتهاج سياسة معتدلة . وفي الوقت ذاته بدا صوت العرب في فلسطين يرتفع بعد أن ظلوا في سبات لمدة خمسة أعوام . ويذا مديرو وزارة الخارجية يشعرون أن الأمور تزداد تعقيدا بصورة تفوق امكانياتهم على معالجتها .

كان « بن جوريون » ، الزعيم المنتخب « لليشوف » (يهود فلسطين) يشعر دائما بقدر أكبر من عدم الثقة في التوايا البريطانية من « حليم وايزمان » الرئيس المتقدم في العمر للحركة الصهيونية العالمية . وقد كتب « بن جوريون » سطرًا واحدًا في مذكراته بعد أن تجول في شوارع لندن المدمرة نتيجة للغارات ، ولكن كان يسودها في ذات الوقت الشعور بالانتهاج العلن حيث أن ذلك كان هو يوم ٨ مايو سنة ١٩٤٥ ، أى يوم النصر . سجل « بن جوريون » بذكراته في ذلك اليوم سطرًا واحدًا يقول : « يوم النصر — يوم حزين ، حزين » . فاللهود لم يكونوا قد كسبوا الحرب . لقد قتل منهم ستة ملايين ، ومازال أمامهم أن يدخلوا معركة للحصول على دولة — وينهية شهر سبتمبر أصبح « بن جوريون » واثقا من أن الوسائل الدبلوماسية قد وصلت الى طريق مسدود . فاستقل الطائرة من لندن واتجه الى باريس . وفي اول أكتوبر بعث من هناك

برقية مكتوبة بـ «رموز» ، إلى «موشيه سنيه» قائد الهاجاناه ، تأمره بتنظيم
تعدد مسلح ضد بريطانيا . وقد أصدر «بن جوريون» الأمر على مسئوليته
الشخصية ، دون أخطار «وايزمان» وكلفت معارضة «بن جوريون» لاستخدام
العنف بمثابة سياسة مرحلية منها مبدئية . ويقول كاتب سيرة «بن جوريون»
أن هذه البرقية تجاوزت كل ما كان قد أعلنه من قبل أمل زملائه في لندن :

« لم يحاول «بن جوريون» إيهام نفسه بأن النضال المسلح يمكن أن يؤدي
إلى إخراج بريطانيا من فلسطين ، وإنما كان يامل فقط في أن يؤدي إلى إثارة
موجة من التعاطف العميق بين الرأي العام العالمي تدفع بريطانيا إلى تغيير
سياستها . ولذلك فقد أعلن في مؤتمر صحفي عقده بباريس ، وهو يضع هذا
الهدف نصب عينيه أن «تصرفات الحكومة البريطانية تعتبر مواصلة لسياسة
جنرال العدائية» .

وكانت أول مشكلة واجهها «سنيه» في فلسطين هي كيفية الاتصال
«ببيجين» . فلن حملة المطاردة (أو السيزون) لم تكن قد انتهت تماماً إلا
بالكاد . كما أن الاتصال بينهما كان قد انقطع منذ حوالى عام . وقرر «سنيه»
أن يبدأ اتصالاته من خلال «عميلة شتيرن» . وتولى «نقاي يلين - مور»
الذي كان قد نجح في عملية «الشترنين» من إخطار حملة المطاردة بإتجاه
سلسلة تنطوي على مزيج من الرضوخ والتهديد - تولى مهمة تسليم الدعوة
لبيجين ، الذى إسيده كثيراً أن «بن جوريون» قد بدأ أخيراً يتكلم ويتصرف مثله
وأعرب قائد الأرجون عن إستعداداته للتملؤن - ولكن كالمعتاد ، بناءً على
شروطه هو . فقد رفض «بيجين» على الفور ، أثناء اجتماع سرى ضم كلا
من «سنيه» و «يسرائيل جاليلى» من الهاجاناه ، و «يلين - مور» من
«عميلة شتيرن» ، إقتراحاً بطل الجماعيتين المنشقيتين وانضمامهما إلى
«الهاجاناه» .

وقال «بيجين» : أننا نحتاج إلى قيام جبهة مشتركة في مواجهته
البريطانيين . وطالما التزمت «الهاجاناه» بالقتال ، فلن الجبهة المشتركة
ستكون قلقة . ولكن إذا تخلت «الهاجاناه» عن الحملة العسكرية ضد
البريطانيين ، فلننا سنواصلها .

وكان «بيجين» مدركاً مدى تعقيد موقف «الهاجاناه» . فلها كانت
بشبهة قوات الدفاع التابعة للوكالة اليهودية ، التى تعتبر قانوناً المثل المنتخب
«لليشوف» . فإذا مارس «الهاجاناه» أعمالاً غير مشروعة ، فلها
تعرض بذلك المكاة القانونية للإنظمة الأم للخطر وستضطر «الوكالة اليهودية»
إلى أن تختار ، في وقت ما ، بين الإلتفاف إلى العمل السرى أو إعادة تأكيد
شرعيتها عن طريق إجتراح «الهاجاناه» على الإلتزام بالقانون . أما بالنسبة
«بيجين» فإنه كان يرى أن قوة موقف الأرجون تكمن في أنها تعتبر أصلاً

منظمة جبل سري ولم يصدق لها ان ايدعت غير هذا مطلقا . ولقد اوضح منذ البداية ان « الارجون » ستواصل القتال حتى خروج البريطانيين من ارض اسرائيل ، مهما بلغ ايد الحرب .

واثر « منفيه » و « جليلي » منلق « بيجين » ، ولكتهما اصرا على ضرورة ان تصبح « الهاجاناه » الشريك الاكبر فيها لصبح يعرف بلقبهم « حركة المقاومة العبرانية » . ووفقا « لجليلي » ، تم التوصل الى تفاهم دون المسلس بكرامة الشريكين الاصغر :

« لم تكن القضية هي ان يعلننا صراحة » اننا نعترف بسلطة الهاجاناه . ولكن ان يكون من الواضح للجميع باننا نتمتع بحق الاعتراف (او الفيتو) . وبمعنى آخر الا يقوم اى احد باى عملية الا في حدود الموافقة الضمنية عليها . وكان الهدف هو منحهم من القيام بأعمال نعتبرها ضارة ، سواء كان ذلك من وجهة نظر التوقيت السياسى او من حيث الحطة العملية . ولقد كان من المهم بصفة خاصة منع تنفيذ العمليات الخطيرة التي قد تؤدي الى ان تسبب منظمة ما في تعثر منظمة اخرى » .

واعترف كل من « بيجين » و « شمول كاتز » المسئول الاول عن الإدعية في « الارجون » ، بتمتع « الهاجاناه » بسلطة الاعتراض ، غير ان المنتسقين تمسكوا بحقهم في حرية سرقة الاسلحة من البريطانيين و « مصادر » الاوال من امكن اخرى . وقد اظهر الهجوم الذى وقع على فندق « الملك داوود » في يوليو ١٩٤٦ مدي ضعف قبضة الشريك الاكبر . فكان « بيجين » ، اذا لم يقتنع بالمنطق وراء قرار اتخذه « الهاجاناه » يشمر بان له مطلق حرية التصرف وفقا لمعتقديه الشخصى . وكلفت المشكلة هي عدم وجود قدر كبير من الثقة المتبادلة بين الجماعات التي تشكل الجبهة المشتركة ، بالرغم مما كان لهذه الجبهة من تأثير بالغ فقد استمرت الشكوك القديية قائمة ، ولم يكن هناك احساس بدوام التعايش السلمى بين هذه الجماعات ، ناهيك عن التزاوج بينها . فلم ينس ، مثلا أعضاء « الهاجاناه » و « عصاية شتيرن » ، السنوات الاولى من فترة الاربعينيات عندما كانت منظمة « الارجون » ، وقبل عهد « بيجين » ، تتعاون مع البريطانيين ، فتشقى بالشتيرنيين . أما « الارجون » و « الشتيرنيون » فلم ينفوا يومس « المطردة » .

ويقول « جليلي » :

« لم يكن هناك ما يدعو للاعتياد على الارجون . . ولا تقيد « بيجين » شخصيا ، لاسمح الله ، فانه شخص يستطيع الاعتياد عليه . ولكنه كان رجلا متأثر كثيرا بين يعملون معه ، خاصة اذا حاولوا ان يشرحوا له الامور بمنطقه فني او عملي . ولكننا لم نكن نعلم من هم بطلقته كيا ان احدا لم يكن يعرف من

هم يطلعتي . فما كان في وسع المرء ان يعرف المحرضين مسبقا ، ولكن فقط بعد ان يقهروا بالتحريض ، ومن المستحيل ان تعرف قبل ذلك . قد تظن ان هؤلاء اليهود لا يثقون في بعض ويخافون بعضهم البعض . نعم ، ان هذا حقيقي .

واستمرت الخلافات الايديولوجية والنكثية ، وان كان العائق الخالص يعمد محاربة البريطانيين أثناء مقاتلتهم « لهتر » ، قد أصبح غير ذي موضوع فالهاجاناه ، كانت أكثر تدقيقا من الارجون فيما يتعلق بمسألة الاعتداء على الارواح في حين كتبت « الارجون » بدورها تعترض على أسلوب « عصابة شتين » في استغلال الاغتيالات كسلاح مشروع . وكانت « الهاجاناه » تتطلع دائما نحو القيادة السياسية المنظورة . وكتبت تحرص على تبرير عملياتها سواء على أساس كونها رداً يتناسب وحجم الاستفزاز البريطاني أو انها جزء من الهدف الآخر لاقولمتها السرية ، الا وهو الهجرة غير المشروعة . فمثلا ، قامت قوة من « الهاجاناه » بقيادة « اسحاق رابين » باطلاق سراح ٢٠٨ يهود من احد معسكرات الاعتقال البريطانية في « اتليت » ، جنوب حيفا ، وذلك في ١٠ أكتوبر من عام ١٩٤٥ ، أي قبل ابرام اتفاق « المقاومة العبرانية » . وكتبت اهدافها المفضلة هي الهجوم على نقاط المواصلات ، خاصة السكك الحديدية ومراكز خبز السواحل .

ومع هذا فقد علمت « حركة المقاومة العبرانية » ، منذ أكتوبر عام ١٩٤٥ حتى شهر يوليو عام ١٩٤٦ ، بقدر معقول من التنسيق . وقد تدمرت الجبهة بسبب كارثة الهجوم على فندق « الملك داوود » ضمن أمور أخرى . ووفقا لاقوال « بيجين » فإن اسعد ايلم حياته كتبت هي ايلم وحيدة العمل بين المنظمات الثلاث . اذ ان أحلامه باقلمة جبهة مشتركة لم تتحقق خلالها فحسب ، بل انه ورجاله لم يعودوا يعتبرون خارجين على القانون . لقد ظل طموال اربعين عاما يفرق في التعرف بين « الارهابيين » و « المقاتلين من اجل الحرية » . ولم يكن ليرضى ان يضحي بالمبادئ في سبيل الاحتفاظ بمظهر الاحترام ، ولكنه كان يشعر براحة اكبر عندما كان يستطيع التوفيق بين الامرين :

« لم يكن هناك اعتراف رسمي بنا في عهد « حركة المقاومة » ، ولكننا مع ذلك كنا نتمتع بالاعتراف . ورفع من على كاهلنا جزء من المسؤولية — حتى لو كان ذلك جزءا ضئيلا فقط . والشعب كله كان يقف وراءنا » .

هذا ، وقد وجهت « حركة المقاومة العبرانية » ضربتها الاولى ابلن ليلة ٢١ أكتوبر والاول من نوفمبر سنة ١٩٤٥ . وأسفرت الهجمات عن نجاح « البالماخ » في اغراق ٣ زوارق دورية شرطة في حيفا ، ويشا ، ونجحت الهاجاناه في نصف الخطوط الحديدية عند ١٥٣ نقطة في جميع اتجاه فلسطين واصابة منشآت السكك الحديدية في القدس وتل أبيب بالاضرار . بينما نجحت

« الارجون » في تدمير قاطرة واصلبة ست قاطرات اخرى باضرار وذلك في غارة جريئة على رصيف البضائع ومحطة « اللد » . وكانت عصابة « شتين » هي الوحيدة التي فشلت في تحقيق اهدافها الطموحة للفعالية ، فقد انفجرت شحنة ناسنة قبل الاوان وقبل النجاح في غرسها بخزان البترول في معمل التكرير بحيفا ، وشنت « الارجون » و « شتين » طوال فترة الشتاء ، وفي اطار بنود الاتفاقية ، غارات على الشرطة البريطانية وعلى منشآت الجيش والطيران بحثا عن الاسلحة . وقد خسر البريطانيون في احدى الليالي وبالتحديد في ٢٧ ديسمبر عشرة قتلى واثنى عشر جريحا . واستؤنف الهجوم المشترك مرة اخرى في ٢٥ فبراير عندما نجحت « منظمة الارجون » في تدمير حوالي عشرين طائرة من السلاح الجوي الملكي البريطاني وهي مرابطة في مطارات اللد و « قصطينا » و « كفر سركين » ، مما اسفر عن خسائر يتراوح تقديرها ما بين ٧٥٠ الف جنيه استرليني ومليونين من الجنيهات الاسرائيلية . واستمرت الغارات على السكك الحديدية والشرطة طوال شهر مارس . ونجحت « عصابة شتين » في ليلة ٢٦ ابريل في اثارة غضب البريطانيين وهنقم الى اقصى حد ، عندما قتل باغتيال ستة جنود مظليين وهم نائمون على اسرتهم بمعسكر في تل ابيب . كما اصيب اربعة آخرون بجراح . وأعلن اللفتنانت جنرال « جون دارسي » القائد العام للقوات ، في تقريره الذي رفعه الى رئيس الاركان في لندن ، أنه لن يتمكن من السيطرة على رجاله اذا وقعت هجمات مماثلة اخرى عليهم ، وبخاصة أن بعضهم قد اتجهوا في حالة هياج شديد الى شوارع « نيتايا » . وشنت « المقاومة العبرانية » آخر عملياتها خلال شهر يونيو ، حيث تسببت « الارجون » في الحاق خسائر قيمتها مائة الف جنيه استرليني في مخزن عربات السكك الحديدية ، وشنت فرق المتفجرات التابعة للبالماخ « عشرة طرق ومعابر جديدة من بين الاحدى عشر طريقا ومعبرا التي تربط فلسطين بجيرانها . بيد أن « عصابة شتين » اصبحت بخسارة ملححة أخرى عندما قتل احدى عشر من رجالها وأسر عشرون منهم في طريق عودتهم من غاراتهم على ورش السكك الحديدية في حيفا .

وكان لدى البريطانيين عام ١٩٤٦ ، ثمانين الف جندي وعشرين الف شرطى مرابطين في فلسطين التي لم يزد عدد اليهود فيها عن ستمائة الف نسمة تقريبا . ومع ذلك فلم يستطع البريطانيون ان يردوا على حملة التخريب والارهاب التي قادها خمسة آلاف أو نحوها من مقاتلي « حركة المقاومة العبرانية » ولقد كتب « جيه . بوبريل » يقول في الدراسة التي اجراها حول « الارجون » و « عصاية شتين » : « لقد اصبح الانتداب بمثابة دولة عسكرية تخضع لحالة حصار مستديم وعلى الرغم من حجم الحامية ، ومعداتها ، وعزيمتها فانها عديمة الفعالية ، تهزم نفسها بنفسها » . وكانت الفرقة السادسة المحمولة جوا تشكل القوة البريطانية الرئيسية ، ولكن لم يكن لامرأها من

المسلمين القادمين في (« نورثايد » و « آرنهيم » من ذوي « البريهست
 الخمر » ، أي خبرة بكتيفية التعامل مع المضايقات الذين يختفون داخل المدن
 المؤسطة التي تزودهم بثلاذ ثلثم تلمها . وكان الجيش عاجزا عن الحركة ، فلم
 يكن من المستور شن حروب ليلية ضد يهود فلسطين . في أعقاب تفرغهم
 للأبادة الجماعية أن (الهالكوست) . وعلى إثر الحالات فان الامريكيين ما كانوا
 سيكتفون على ذلك . واستمر المجدل يدور في طقتهفرغة : فالادارة في القدس
 كلفت ترى أن الحل الوحيد هو التسوية السياسية . ولابد الجيش هذا الرأي ،
 ولكنه لم يكن مستعدا لأن يترفع لتمزيق أنفه في التراب ، حتى يتم التوصل الى
 مثلك تلك التسوية واستطاع مارشال « بيرناردى مونجمرى » ، رئيس
 الأركان العامة للقوات الامبريالية ، أن يقنع مجلس الوزراء بالتحرك وذلك بعد
 « ليلة الجسور » ، وقيل الأرجون باختلاف خمسة ضباط بريطانيين من أحد
 أندية تل ابيب كرهائن حتى يتم إطلاق سراح اثنين من رجالها محكوم عليهما
 بالاعدام . وقال بعد أن زار فلسطين أن الجيش مستعد تماما للـ
 « حرب ضد هذا العدو المتطرف الماكر » . وأكد مجلس الوزراء أنه لم يعد
 يستطيع السكوت على وضع انخفضت فيه سلطة الحكومة الى الحضيض . وقد
 ادرك البريطانيون بذلك الوقت ، أن العدو لم يعد هو مجرد شرمة المقاتلين
 النابيع « للارجون » عصاة شتيون . وصدرت التعليمات التي السير
 « أثر كاتنهام » ، المندوب السامي البريطاني ، تفوضه بسحق « العناصر
 الاكثر تطرفا » داخل الوكالة اليهودية ، الذين كان من المعتاد انهم يدبرون
 الحملة الارهابية من خلال « الهاجاناه » .

ويبدأ البريطانيون يوم ٢٩ يونيو ١٩٤٦ في تنفيذ العملية التي أطلق
 البريطانيون عليها اسم « عملية أجاثا » بينما وضعها اليهود « بالنسبت
 « الأسود » وتم تعبئة كل الجنود ورجال الشرطة الموجودين من أجل اقتحام مقر
 رئاسة الوكالة اليهودية ومكاتبها الأخرى في القدس وخمسة وعشرين مستعمرة
 في أماكن متفرقة من البلاد ، وتم اعتقال ٢٧١٨ يهوديا من بينهم شخصيات بارزة
 « موشيه شاروت » ، « والحاخام » يهودا لوب شتلمان » ،
 وعثر على ترسانة اسلحة تابعة للهاجاناه في كيوتو ياجور ، واثني جنوب
 شرق حيفا . وعرض خطر التخول في المناطق اليهودية بفلسطين . ومع هذا فإن
 العملية لم تحقق النجاح السلبي الذي كان — مونجمرى — يسمي اليه . فان
 أهم شخصية ، وهن بن جوريون ، كانت موجودة في باريس بعيدا عن مثاله .
 واختفى « موشيه ستية » ، قائد « الهاجاناه » بعد أن وصله تحذير في اللحظة
 الأخيرة . ونجح نائباه « إسرائيل جاليلي » و « اسحاق سلاه » : مؤسسي
 « البالاخ » ، في أن يتواريا عن الانظار ، بينما ظلت منظمة « الارجلون »
 و « غصاة شتيون » كيون مناس وقد كتبت هذه واحدة من المرات الوحيدة
 التي لم ياتشف فيها « بينجين » على التعار المتشعبين الى قواعد زيفتية في

و الكيوترات » و « الموشهفات » — أي المقري للجماعية والتعاونية التابعه
 لحركة العمل . فلم يستطع البريطانيون العثور على مخابئهم . وكان الفضل
 الاساسى « ليهوم السبت الاسود » هو انه لم ينجح في ذاته في دفع « وايزمان »
 وغيره من المعتدلين الى تشكيل قيادة بديلة ، كما انه لم ينجح في تقويض وحدة
 « حركة المقاومة » . وساد معظم يهود فلسطين شعور بضرورة الرد بشكل ما .
 وكانت المشكلة هي كيف يكون هذا الرد . واقترحت « جولدا مائير » التي
 كانت واحدة من الزعماء السيلسيين القليلين الذين احتفظوا بحريتهم — اعلان
 العصيان المدني . ولكن كان « موشيه سنيه » و « مناحم بيجين » يتطلعان الى
 القيام باعمال اكثر ابهارا من ذلك .

كان « بيجين » معنيا بالتأثير النفسى الذى تركه يوم « السبت الاسود »
 على يهود فلسطين ، اكثر من اعتبله بالاثر الاستراتيجى . ولم يكن ذلك
 اليوم قد نجح في تحيد « الهلجناه » و « البالمخ » ، على الرغم من خسائرها
 فى الارواح والعقل . وكانت هناك دواع اكبر من اى وقت سابق لقيام
 جبهة مشتركة نشطة ، تضم كلا من « الارجون » و « عسلة شتيرن » .
 ولكن كان « السبت الاسود » استعراضا مذهلا للقوة البريطانية . وخشى
 « بيجين » ان يؤدى ذلك الى غرس بذور الانهزامية بين اليهود ، حيث ان
 الانهزامية تعتبر امرا قاتلا بالنسبة لاي حرب تحرير . « كنا ندرك ان
 الطريق الوحيد لاستعادة الفتة اليهودية بالذات هو عن طريق شن هجوم
 مضاد ناجح » .

وكان لقد « الارجون » يحتفظ في جميعه بالخطه المناسبة فكان تد
 سبق في اوائل العلم ان اقترح عليه مدير عملياته ، الواسع الحيلة ،
 « جيدي بلجلين » ، قيام المنظمة بخضرب فندق « الملك داود » الذى
 ياوى جناحه الجنوبى ، مقر رئاسة الادارة البريطانية ، مع وجود مقر
 للشرطة العسكرية وفرع التحقيقات الخاصة في جناح ملحق به . اما بلقى
 الفندق زوى الادوار السقة ، الذى كان المستثمرون المصريون اليهود قد
 افتتحوه عام ١٩٣٢ ، بصفته اول فندق حديث فخم يقام بالقدس ، فقد كان
 ملتقى للشخصيات البارزة في حكومة الانتداب حيث تتناول الكوكيتل وتدبر
 المؤامرات . وكان من بين تلك الشخصيات البارزة « تشيسى تشانون » الذى نزل
 فى الفندق عام ١٩٤١ ، بصفته عضوا فى البرلمان ، ووصف الفندق بأنه
 « يعتبر بلا جدال افضل فندق فى العالم » بعد الريتر ، فى بلريس » .
 وكانت « الهاجاناه » قد استخدمت حق الفيتو فى ربيع عام ١٩٤٦ ضد
 خطه « بلجلين » على اسس انها استفزازية اكثر من اللازم . ولكن
 عندما عاد « بيجين » يعرض الخطه بعد يومين من السبت الاسود . باركها
 « سنيه » . وتم تبنى « عملية مالونتشيك » (كلمة « مالون » تعنى « فندق »
 بالعبرية ، ثم اضيف اليها صيغة التصغير باللغة « اليسدية » — وتم بعد

ذلك اختصارها ، كاحتياط أمن اضافى الى « عمليات » تشييك « كجزء من « الليفشوف » الانتقامى الثلاثى الشعب : فاسسند الى « عصاية شتيرن » تدمير مبنى « اخوان ديفيد » المجاور والذي يستخدم كقصر لمكتب الاسلام الحكومى ، بينما يقوم « الهاجناه » بالاغارة على ترسانة الاسلحة فى « بات جاليم » بحيفا ، واستعادة الاسلحة التى استولى عليها البريطانيون فى « يلجور » . وكان الاسم الحركى « الكودى » للعملية التى ستفذهها « عصاية شتيرن » هو « عبيدك وغداك » ، لها بالنسبة لغارة الهاجناه فكل « استعادة الممتلكات المفقودة » ويرر « سنيه » موافقته على هذه العمليات على اساس انها تتفق ومبدأ « المعين بالعين » - فهو تشن هجوما على الحكومة البريطانية فى مقابل هجوم شنته على الحكومة اليهودية . وقد صدقت لجنة « اكس » السرية العليا ، التى كفت تشرف على « المقاومة العبرانية » ، نيلبة عن الوكالة اليهودية ، على الخطط الثلاث دون اطلاق اعضائها الخمسة على التفاصيل حيث اخطروا فقط بأن « مبنى حكوميا هاما » سيتم ضربه ، ولكن لم يسيروا الى اسم المبنى بلتصديد .

ويتفق كل من « بيجين » و « جاليلى » على أن الهدف من تدمير فندق « الملك داود » كان اذلال البريطانيين وليس قتلهم . ويقول جاليلى الذى كان نائباً لسنيه « وشريكه فى السكن آنذاك » ، « كان الهدف هو تخريب مبنى يستخدم مقرا للسكرتارية ولقيادة الجيش وكان ذلك ردا على « السبت الاسود » ولقد كان عملا جريئا ، جسورا وينطوى على مخاطرة بالغة ويوجه ضربة الى المركز العصبى . ولم يكن الهدف منه هو تدمير الفندق ذاته . كما لم يكن الهدف منه . بكل تأكيد ، هو أن يسفر عن وقوع ضحايا » وقد صدرت الاوامر الى « باجلين » منذ البداية بمنح افراد السكرتارية والناس الموجودين بالفندق ، فرصة كافية لمغادرته .

غير أن هناك ثغرة يصعب سدها بين كل من تقارير « الارجون » و « الهاجناه » ، حول المشاورات الفنية التى دارت بين « باجلين » واسحاق سلاه ، فوفقا لاقتوال « بيجين » ، اقترح « بيجين » منح البريطانيين فرصة زمنية لمدة ٥ دقائق ، بينما اقترح « سلاه » خمس عشرة دقيقة فقط . ولكلها اتفاقا بعد ذلك كحل وسط منح البريطانيين مهلة لمدة ثلاثين دقيقة . ويؤكد أعضاء « الارجون » أن « سلاه » ضغط على « باجلين » لزيادة قوة الشحنة الناسفة التى ينوى غرسها فى « بدروم » الفندق . ويقولون أن « الهاجناه » كانوا يريدون ضمان عدم اتاحة فرصة كافية للبريطانيين لنقل مثلث من الوثائق المدنية التى استولوا عليها من مكاتب « الوكالة اليهودية » .

وقد نفى « جاليلى » هذا التقرير كلية (كان هو و « بيجين » الوحيدين الباقيين على قيد الحياة ابان الثمانينيات ، وبطبيعة الحال وكما هو معتاد

بالنسبة لمثل هذه المؤامرات ، لم يتم تسجيل أى تفاصيل كتلة) . ويصر على أن « الهلجقاء » لم يكن لديها أى مصلحة فى وقوع انفجار مدوى . بل انها كفت تنظر الى العملية أساسا كرمز فقط . وكان « سده » مهتما الى أقصى حد بتقليل احتمالات حدوث اصلات بين الأشخاص لدرجة انه اقترح توقيت القنابل لتفجر بعد الظهر عندما يكون معظم العاملين قد انصرفوا الى بيوتهم (وهذه نقطة لا يدور حولها جدال) اما عن الوثائق فلن « جاليلى » يرفض فكرة انها كانت عملا دخل فى حسابات « الهلجقاء » . وليس هناك شك فى أن كلا من « الأرجبون » و « الهلجقاء » كان لديهما بعد وقوع الحادث ، دوافع قوية تجعلهما يحاولان تخفيف قدر المسؤولية التي يتحملها كل منهما . بل ليس من المستغرب أن يكونا قد مارسا أساليب الدعاية السوداء ضد بعضهما البعض ، او على الأقل أن يكون كل منهما قد حاول اضعاف أكبر قدر من الطريق على الدور الذى اداه . وربما كان مما يؤكد صحة ادعاءات « الهلجقاء » الى حد ما ، التصريحات التى أدلى بها البريطانيون بأنهم لم يحصلوا تقريبا على شيء من وثائق الوكالة اليهودية يزيد عما كانوا يصفونه من قبل ، وربما كان أبسط سبب وراء ذلك هو عدم توفر مترجمين للعبرية يتقنون بهم (أى من غير اليهود) . ولقد جاء فى صحيفة « باليستين ترانجيل » ، (المثلث الفلسطينى) ، نقلا عن رجل شرطة يهودى انهم : « لم يكن لديهم احد يستمعون به فى العمل ضد « الهلجقاء » سوى أشخاص من أمثالى — ممن كانوا يدينون بالولاء للهلجقاء . وكنا نفرز جميع الاوراق ، ولكننا ، اذا عثرنا على ورقة تدين « الوكالة اليهودية » ، أو تضربها : كنا نلقى بها فى المراض ونفرقها بالمال . وبعد يومين أصبحت جميع مواشير الصرف فى مقر رئاسة المبلحت الجنائية البريطانية مسدودة تماما .

وفى أول يوليو ، تلقى بيجين الاوامر بتنفيذ « عملية تشيك » ، وواصل باجلين عمله فى تنقيح خطته التتصيلية للتسلل الى قاعة « ريجاتس » للطعام بالفندق ، عن طريق مخزن الخدم وطريقة « باليدروم » ثم بطول الفندق . ولكن طلبت الهلجقاء فى ١٧ يوليو من بيجين تأجيل التنفيذ ، وذلك لاسباب لم يطلع عليها أبدا . ولكن « سنيه » قد حظى بزيارة من « ماير وايزجال » ، المساعد الشخصى للنشط والمخلص جدا « لاهليم وايزمان » . ويبدو أن وايزمان كان يعلم أن ثمة شيئا ما يدبر ، وأن كان لم يطلع بالتحديد على ما هو هذا الشيء . وحاول وايزمان أن يستغل آخر قطرة من النفوذ لديه ، فى محاولة بطولية أخيرة لفرض سيطرته على اتجاه الاستراتيجية الصهيونية . وأعلن وايزجال هو يقرأ من بيان مكتوب :

« أننا نقف على حافة هلوية .. وإذا ما واصلتم تنفيذ عملياتكم فلن

هذا سيكون بمثابة اعلان الحرب على بريطانيا العظمى . وانا واثق من ان بريطانيا لن تسكت وبذلك سنخسر كل ما كلفنا من اجله . ومازلت أشغل منصب رئيس الحركة الصهيونية ، ومن المعترف به عامة في الانظمة الديمقراطية أن الرئيس يكون القائد الاعلى للقوات المسلحة . . وانا استخدم الان سلطتي هذه . وانا آمرك أن توقفوا فوراً جميع العمليات التي تقوم بها الجماعات السرية الثلاث » .

وهدد وايزمان بالاستقالة فوراً وبأن تكون استقالته مسببة اذا لم يخضع « سنيه » لهذا الانتذار النهائي . وأصر على أن اقل ما يرضى به هو تأجيل كل العمليات الى حين اجتماع اللجنة التنفيذية العليا « للوكالة اليهودية » في اغسطس التالي بباريس ، لبحث افضل اسلوب لمواصلة النضال . وعلى الرغم من أن « سنيه » لم يشارك « وايزمان » في مخاوفه ، بل على العكس كان تواتاً للعمل ، فإنه لم يجد امله مغراً من الرضوخ . فهذه أول مرة يتدخل فيها الزعيم المسن بطريقة مباشرة في شأن من شئون « الهاجاناه » . ونصح « جاليلي » « سنيه » بالاتجاه نموراً الى « لجنة اكس » ، ويقول « سنيه » : « ان هذا كان خروجاً على الاساليب المشروعة . وكنا نستطيع مجازاته ونقول لوايزمان انه يستطيع الاتصال بين جورويون . ولكن كانت المسألة أخطر من ان نياطل فيها على اسس التمسك بالاجراءات الشكلية . فكان لابد من عرضها على « لجنة اكس » ، وكان لابد للجنة ان تتخذ قراراً بشأنها . وشرح « سنيه » للجنة بدقة اعتراضات وايزمان ، وان لم يحدد لها البنى الذي سيتم ضربه . وعدل أحد أعضاء اللجنة — وهو « ليفي اشكول » الذي أصبح فيما بعد رئيساً للوزراء — عن موقفه ، وبذلك سمحت الموافقة على تنفيذ العمليات الثلاث .

ولم يكن « بيجين » يعلم شيئاً عن هذه الاتصالات المتبادلة . واكتفى « سنيه » بأن طلب التأجيل . ولم تجد « عصابة شتيرن » بأساً من الانتظار . أما « بيجين » فكان قلقاً . فكلمها زادت الفجوة الزمنية ، قلت احتمالات الاحتفاظ بسرية عملية « الملك داود » . ووافق مرتين على منح « سنيه » مهلة أخرى ، ولكن بدأ صبره ينفد . وكان قائد « الهاجاناه » يسلك طريقاً ملتوياً ووعراً في محاولته التنسيق بين قادته السياسيين والارجون . ومن الواضح ان « سنيه » كان يأمل في تغيير السياسة الرسمية بمجرد أن يتحدث مع « بن جورويون » قبل انعقاد اللجنة التنفيذية العليا في باريس ، ولكنه لم يكن يقى ببيجين بدرجة تكفى لان يطمعه على الحقيقة ووفقاً « لجاليلي » ، فإنه لم يكن يرغب في ازعاج قائد « الارجون » :

« لم يذكر الحقيقة كلها . فاولاً وقبل كل شيء ، فهو لم يكن مضطراً لذلك . ولم يكن مضطراً لان يطلع بيجين على أسرار الحركة الصهيونية : أي اسرار تنظيم « اليشوف » . ولكن كان هناك سبب أكثر خطورة . فهو لم يكن يرغب

في تشييط حمة « بيجين » . فلو ان بيجين شعر بالاحباط نتيجة لاطلاعه على حقيقة ان الحركة الصهيونية قد بدأت تنسحب من النضال للتوصل الى نتائج بعيدة المدى .

ولسفرت مراوغات « سنيه » عن تحقيق النتيجة التي كان يحاول تجنبها بالذات . فقه قام قائد « الهاجاناه » في ٢٠ يونيو بإبلاغ « بيجين » بأن «الوكالة اليهودية» تستعد لإعلان سياسة عدم التعاون مع البريطانيين وذلك في ٢٥ يوليو . وكان هذا سببا آخر « في عدم تنفية اى عمليات قبل ذلك التاريخ . ولم يستجب « بيجين » . وبعث « سنيه » في صباح ٢٢ يوليو بآخر نداء وجهه اليه في جبهة واحدة : « يجب ان تمتنع مؤقتا عن تنفيذه عملية القدس » . ولكن كانت « الارجون » قد كتبت بالفعل عن تلقى اى اوابر .

وكانت القنابل المخبأة في اربعة اوعية لبن ، قد وصلت الى القدس فعلا . وكان هناك كثيرون - في الارجون و الهاجاناه و عصابة شتيرن - يعرفون بخطة الملك داود حتى انه لم يعد ممكنا تجهدها لفترة اطول . وكان بيجين يرى انه قد حصل فعلا على موافقة « الهاجاناه » على عملية « تشيك » . ولم يكن احد قد ابلغه بلخائها ويقول يعقوب امرامى ، الذى خلف « ايلي تافين » كرئيس لخبابرات الارجون ، ان المنظمة ضاقت ذرعا بتأجيلات « سنيه » .

« لم نكن نعلم شيئا عن ائذار وايزلمان ، ولكننا كنا ندرك ان وايزلمان يعارض فكرة النضال ضد البريطانيين وانه يحاول التقليل من شأن هذا النضال . وكنا نظن انهم انما يريدون مجرد التأجيل . وكنا نمتد بدرجة اكبر على حقيقة انهم كانوا يطلبوا منا أصلا تنفيذ العملية ، ولم نر ان هناك سببا يدعو للتأجيل . ولم يقدم « سنيه » اى تفسير .

هذا وقد امتنع بيجين من جلبه عن الخوض في المسألة اكثر مما ذكر في كتابه «التمرد» الذى لم يحاول فيه تبرير أسباب رفض مطلب قائد «الهاجاناه» .

وفي الساعة الثانية عشرة و٢٧ دقيقة من بعد ظهر الاثنين ٢٢ يوليو من عام ١٩٤٦ ، انفجرت شحنة ناسفة من مادة « تى . ان . تى » وزنها ٢٥٠ كيلو جراما ، داخل مطعم « الريحانيس » ، الذى كان خاليا في ذلك الوقت ، وذلك قبل موعدها المحدد بست دقائق . وشهت الدعائم الوسطى الموجودة تحت الجناح الجنوبي بفندق الملك داود ، وانهارت خيمون غرفة من غرف مكاتب الادارة المدنية والعسكرية البريطانية ، محدثة صرنا بدويا وسط سحباة من الدخان وتراب الاسمت . وتطايرت قطع الحجارة في الطريق الرئيسى الذى يطل عليه الجناح ، لقتل المرة وتصيبهم بالعمات . وذهبت الانتفاض المتطيرة بأحد المسئولين البريطانيين وذهبت به ليرطم بحائط مبنى « جمعية السبلن المسيحيين » القبل للفندق ، ويخترقه بجسمه تاركا وراءه رأسه

المنزوعة من اثر قوة الانفجار ودماء المتفجرة على الحائط . وظل عمل الانقاذ يستخرجون جثث الضحايا من تحت الانقاض حتى بعد اسبوع من وقوع الحادث وأعلن في ٢١ يوليو الحصر النهائي لعدد ضحايا العملية التي اسفرت عن ٩١ قتيلا من بينهم : ٢٨ بريطانيا ، و ٤١ عربيا ، و ١٧ يهوديا ، واثنان من الارمن ، وروسي واحد ، ويوناني ومصري . ويبلغ عدد المصابين ٤٦ شخصا . وكان اكثر من نصف القتلى من الكتائبين ومن موظفات الالة الكتبية والسعاة وغيرهم من صفار الموظفين في السكرتيرية وفي الفندق . وصدم « مناحم بيجين » ازاء فداحة الاصلب ، ولكنه سارع بالنفاد عن رجاله ، وظل حتى بعد ٤٠ علما من وقوع الحادث ، يلقي بمسئولية حجم الخسائر على البريطانيين . فهم لم يكتروا بالتحذير الذي ابلغ تليفونيا الى تحويلة تليفونات الفندق . واعلنت اذاعة « الارجون » السرية الحداد على الضحايا من اليهود — الذين اختصتهم بالذكر تشسيا مع اسلوب بيجين في التمييز . ولمنعت الاذاعة عن اعلان الحداد على القتلى البريطانيين ، حيث ان بريطانيا لم تعرب عن حزنها على الستة ملايين يهودي الذين هلكوا في محرقة النازي . واعلنت « اننا سنواصل السر في طريقنا — طريق المعاناة ، وطريق النضال — ونحن نطوى صدورنا على هذا الحزن وهذا الغضب ازاء مأساة اليهود المؤلمة » ويذا ان « الارجون » لم يلاحظوا ان معظم القتلى لم يكونوا يهودا أو بريطانيين بل كانوا عربا . وكما يقول « ثيرستون كلارك » : بالنسبة للارجون ، فان العرب لم يكن لهم أى وجود ، بل كانوا كالأشباح غير المرئيين .

وأصبح من المعروف الآن بصورة مؤكدة أن الارجون قد قتلوا عملا بتوجيه الانذار ، ولكنه لم يبلغ للسلطات البريطانية بالاسباب بالجدية ولا قبل فترة كافية تسمح للعاملين بلخلاء الفندق قبل انفجار الشحنة الانفاس . ان ما وقع في ذلك اليوم الحزين اثناء فترة تناول طعام الغداء كان بمثابة مأساة جاءت نتيجة لسلسلة من الاخطاء . ولكن لا يمكن اغفاء « منظمة الارجون » وقائلها من المسئولية الكاملة . فهما كانت قلة تجاربهم السابقة ، لا يمكن تصور تنفيذ أى عملية تخريب على هذا النطاق الضخم دون أن يوضع في الاعتبار احتمال وقوع خطأ . فمن شأن التنبؤ مثلا أن تنفجر قبل موعدها ، كما ان الرسائل قد تصل الطريق فلا تصل الى وجهتها المحددة . وكانت القدس قد تعرضت آنذاك لانتشار موجة من الانذارات الكاذبة وكانها وباء . ولم يكن هناك ما يضمن عدم التعامل مع الانذار الذي وجهه « الارجون » على انه واحد من تلك الانذارات الكاذبة . كما كان من المعروف جيـدا أن يوم الاثنين يعتبر اكثر ليالم الاسبوع ازحاحا بالعمل بالنمسية للسكرتارية حيث انه يأتي في اعقاب ايام الاجازة الاسبوعية للمسلمين واليهود والمسيحيين ولذلك فان معظم العاملين لم ينصرفوا لتناول الغداء قبل الساعة الواحدة بعد الظهر . وكان هذا هو السبب وراء اقتراح « الهاجاناه » تنفيذ العملية في الوقت

متأخر من النهار حتى ولو أدى ذلك الى زيادة المخطر التي يتعرض لها فريق
« جيدي باجلين » .

لقد أبلغ التحذير الى الفندق تليفونيا بواسطة « أدينا هاي » البالفة
من المهر ستة عشر علما والتلميذة بلحدي مدارس القدس التي كانت تتولى
نقل رسائل الارجون . ويدات « أدينا » في اجراء اتصالاتها بمجرد ان انسحبت
مرفة التخريب من « بروم » الفندق . وتقول ان قائد العملية اعطى الإشارة
التي سبق الاتفاق عليها تقول « أدينا » :

« دخلت حانوتا قريبا من فندق الملك داود - وكان محلا للمطور أو لبيع
التظلمات - أو ربما كان يجمع بين الامرين ، واتصلت بالفندق . وقلت بالعبرية
والانجليزية : « هنا المقاومة اليهودية .. لقد غرشنا القنابل بالفندق ،
فالرجاء اخلاء الفندق فوراً . لقد اتفونلكم ، ثم هرولت عبر شارع الملك جورج .
وكان يوجد آنذاك كشك للتليفون حيث توجد حالياً حديقة علبة . واتصلت
بالقنصلية الفرنسية وابلغتهم ان ثمة قنبلة ستفجر في فندق الملك داود وطلبت
منهم فتح النوافذ حتى لا تحدث أضراراً . ثم اتجهت الى شارع يلغا بالقرب
من محطة الانويس القديمة ، واستخدمت التليفون الموجود بمحل لبيع البويات
واتصلت بصحيفة « بالسنتين پوست » وابلغتهم بالعبرية اننا قننا بزرع قنابل
في فندق الملك داود ، واننا حضرناهم هناك . وطلبت من الصحيفة تطهيرهم مرة
اخرى واتجهت بعد ذلك الى معسكر اليهود ، وعندما وصلت الى محطة البوليس
هناك ، تردد صوت انفجار هائل ، لقد كان هذا هو صوت انفجار فندق
الملك داود .

ويمكن القول ان من المستحيل اتهام مثل هذه الرحلة ، حتى لو قابلت بها
نفاه مراهقة في عجلة من امرها ، في مدة تقل كثيراً عن نصف ساعة ، اذا اخذنا
في الاعتبار المكالمات التليفونية الثلاث التي اجريت خلالها . وثمة دلائل مستقلة
تؤكد ان المكالمات الثلاث قد تمت بالفعل . ويقول « نعيم نيسلن » ، رئيس
الخدم في فندق الملك داود ، انه استدعى الى تحويلة التليفونات بالفندق :

« كان عامل التليفونات شاحب الوجه تماماً . وقال ان امرأة اتصلت به
وابلغته ان ثمة قنبلة في الفندق . وطلبت منه ان يهدأ والا يثير الرعب . وهرعت
الى المدير ، مستر (ملكس) « هلمبرجر » ، الذي قال لي ان من السهل جدا
على اى شخص ان يعلن ان قنبلة توجد بالفندق . فقلت له : لماذا المجازفة
ولماذا لا يبلغ السلطات . والتقط سماعة التليفون وادار على الفور رقم مقر
التيلاية البريطانية . ثم قال لي : « لا تقل لأحد . فان احداً من يخبر الفندق » .
وكان قد سأل البريطانيين : « هل اخذ الفندق ؟ » . ولم اسمع الرد ولكني
اعتقد انهم ردوا بالنفي ، وان هذا هو السبب في طلبه منى علم ابلاغ احد ،

وان احد لن يفادح الفندق .. واتجهت بعد ذلك لاستئناف اعمالى بعيدا عن قاعة
« الريبانس » ركنت فى موقعى هناك عندما وقع الانفجار .

ولم يوجه « نيسان » ، فيها بعد ، أى أسئلة الى « هلبورجر » حول
هذا الموضوع : « انه لم يتحدث أبدا بعد ذلك من المسألة » ولم يحدث أبدا
ان افرقتها معه مرة أخرى . فهو فى غاية التشدد . . وكان « نيسان » يهوديا
عراقيا ، عمل من قبل لدى الاسرة المالكة فى بغداد . وقد تزوج ، بعد الحادث
باربع سنوات ، من « ادينا هاى » ، ولكن لم تكن له أى صلة « بالارجون » .
وهو كان على صلة بعم « ادينا » ولكنه لم يحدث ان قابلها الا بعد فترة طويلة
من الحادث . ويؤكد « اميل سوتير » المدير المساعد بالفندق ، صحة رواية
« نيسان » فى مضمونها . وكان « اميل » قد استبعد صدق التحذير فى البداية
على اساس انه خدعة . ويعترف « سوتير » وهو مسيحي سويسرى متزوج من
بريطانية ، بان عمال التفيتون اخطروه ثلاث مرات بالتحذير .

وقد تأكدت أيضا صحة الانذارات الاخرى ، حيث اقترنها كل من
« الباستاين پوست » (او الجيروسالم پوست حاليا) ، والفنصالية الفرنسية ،
بل ان عامل تحويلة الصحيفة تلم بلخطار الشرطة . وقد عثر على تلك الرسالة
مسجلة فى سجلات المبلعث الجنائية . وقد بعث جندى فرنسى كان يخدم فى
قوات حفظ السلام للامم المتحدة بجنوب لبنان ، عندما اعيد فى عام ١٩٨١ نسر
رواية « ثرستون كلارك » عن أحداث ذلك اليوم — بعث برسالة الى « ادينا
نيسان » يبلغها فيها ان والده كان متصل فرنسا بالقدس علم ١٩٤٦ ، وانه
يذكر كل تفصيل الحادث منذ ايام طفولته .

وبالتاء نظرة تطيلية على الماضى ، نجد انه من الواضح ان البريطانيين
كانوا سيتصرفون بسرعة اكبر ازاء التحذير لو ان « ادينا هاى » اتصلت
تليفونيا بالسكرتارية مباشرة ولم تكف بالاتصال بتحويلة تليفونك الفندق .
ولم يكن رقم السكرتارية سرا . ولكن كانت « منظمة الارجون » تعتقد ان
اجراء مكالة واحدة هو افضل طريق لتحذير كل من الفندق والسكرتارية فى آن
واحد . وكان « اسحاق افينوم » ، قائد الارجون المحلى بالقدس الذى تالمت
منه « ادينا » الاوامر ، يعتقد انه مجرد ابلاغ التحويلة يكون بمثابة اطلاق
جرس الانذار ، وانه بمجرد الضغط عليه يتم نقل التحذير الى كل من ادارة
الفندق والبريطانيين فى آن واحد . ولكن ، على خلاف ظن « الارجون » ، من
الواضح ان عمال التحويلة لم تكن لديهم سلطة اطلاق الانذار على مسئوليتهم
الشخصية .

ويظل التساؤل معلقا : لماذا لم يتم البريطانيون باخلاء السكرتارية عندما
علموا بالانذار من « هلبورجر » ومن الشرطة ؟ ان أبسط رد على هذا هو ان
الوان كان قد قلت . ولكن المسألة تتلوى على ما هو اكثر من ذلك . فنان

« مناجم بيجين » ظل يروى في الإحاديث التي أدلى بها حتى وقت قريب - وكان آخرها في عام ١٩٧٦ - لن السير « جون شو » ، سكرتير عام الإدارة البريطانية ، تلقى التحذير ورد قتلا في غطرسقه المعتادة : « اننى موجود هنا لاصدار الإوامر الى اليهود ، وليس لتلقى الإوامر منهم » . وكانت هذه الرواية قد نقلها يسرائيل جاليلي ، عضو الهلجناه ، الى « بيجين » في ظرف يسام تائلة من وقوع الكارثة . ويقول « جاليلي » بدوره عن صحفي أمريكي (توفى بعد ذلك) وقد رفع « شو » دعوى تشهير ضد صحيفة لندنية يهودية صغيرة منذ فترة طويلة ترجع الى عام ١٩٤٨ ، عندما قلمت بنشر الخبر . وقد اتسم « شو » وسكرتيته انها لم يتلقيا أى انذارات . وقد سحبت الصحيفة زعمها بدلا من الدفاع عنه ، حيث انها لم تستطع العثور على أى شهود اثبتت . وتقول « جوزفين » ، زوجة « شو » ان الخبر مختلق تماما بهدف الاسماء الى سمعة السير « جون » ولتخفيف جزء من المسؤولية عن كاهل الارجون ، ولكن ليس هناك أى دليل ايضا يثبت هذا الادعاء . ويسلم « شمويل كاتز » ، مدير دعاية « بيجين » ، فى تسجيله لتاريخ كفاح « الارجون » ، « بإمكانية استبعاد » الرواية الخامسة برد « شو » على الإنذار .

ومع كل هذا ، فإن شخصا ما بالإدارة البريطانية تلقى الإنذار ، وهناك الكثير من المعلومات التي تؤكد ان شيئا ما قد وقع خطأ . وربما كلن هذا هو سبب المشكلة . فإن « بلجلين » ورجاله كانوا قد دخلوا الى « بديوم » الفندق متخفين كعمال عرب . واثناء اعداد قتال المتفجرات فى قاعة « الريباجنس » للطعام شاهدهم ضابط بريطانى برتبة « ميجور » فاطلق الإنذار . واثناء الارتباك الذى وقع ، اطلق أحد رجال « الارجون » النار عليه . وأبلغ الحادث الى رجال الامن البريطانيين ، ولكن مباد اعتقاد خاطئ بأنه اشتبك مع بعض اللصوص العرب . وقام رجال « الارجون » بعد ذلك بتفجير شحنتين صغيرتين فى « طريق جوليان » ، وهو الشارع الرئيسى الذى يقع عنده فندق الملك داود ، لاجل البوليس على اغلاق الشارع مما يضمن عدم زيادة عدد الاصابات المحتملة . واتفجرت القنابل قبل موعدها ، مما زاد من الارتباك العام . وسمع سير « جون شو » هذه الانفجارات من حجرة مكتبه بالدور الرابع ، فعبر الممر الواقع خارجها لتقصى الامر ، وتوصل الى ان المسألة لا تزيد عن كونها واحدة من الحوادث « العادية » المألوفة فى عام ١٩٤٦ . ورأى ان البوليس بوسعهم معالجتها حيث ان لديه اشياء اهم من ذلك يؤديسها . ومن الواضح ، لذلك ، أن التحذير الذى وجهته « اينفا هاى » ، من خلال شبكت اتصال الفندق والامن ، لم يتم تقييمه على اعتبار انه حدث منفرد ، بل على اساس انه جزء من الفوضى التي كانت تسود القدس حيث كانت اصوات الانفجارات والطلقات والهرج والمرج من الامور المعتادة . واذا كلن قد وقع اهمال من جانب البريطانيين فيما يتعلق بالامن ، فانه لم يتجاوز نطاق الاخطاء البشرية

المسوح بها . ولقد دفع البريطانيون ، والعمالون لديهم ، وزوارهم ثمننا نادحا للغاية مقابل هذا الخطأ .

بيد أنهم قضوا على الجزء الأكبر من مشاعر التعاطف التي حظوا بها في بداية الامر ، وذلك عندما وصل انى الصحف والصهيانية خطيب دورى أصدره القائد العلم الجديد للقوات البريطانية ، الجنرال سير « افلين باركر » ، الى قواته . وكان سير « باركر » قد كتب الخطاب الذى ندم فيها بعدد على اصداؤه ، في ثورة من الغضب ، ولكنه استغل كفرينة تؤكد اسوا الشكوك السائدة ازاء النوايا البريطانية ، فقد أعلن :

« يجب على جميع الجنود البريطانيين الامتناع عن اقامة اى علاقات اجتماعية مع اليهود ، ويجب ألا تجرى اى اتصالات معهم خارج نطاق الالتزامات الرسمية فقط ، وأن يكون ذلك في اضيء الحدود المكنة . وأنا أدرك أن هذه الاجراءات من شأنها اثارة بعض المتاعب بالنسبة للقوات ، ولكنى واثق من أنهم لو فهموا تماما الأسبل الذى دفعتنى الى اتخاذها فأنهم سيدركون انها لائقة ، وانها كتيلة بمعاقبة اليهود بأسلوب يكرهه هذا الجنس أكثر من شئ آخر ، الا وهو تغريمهم ماليا واظهار احتقارنا لهم » .

وقد ضاعفت عملية « الملك داود » من كراهية الجمهور البريطانى « للارهاب اليهودى » . ولكنها ساعدت في الوقت نفسه على زيادة ايمان الحكومة بحتية التوصل الى حل سلس . فان الكرامة البريطانية تأثرت فعلا كما تأثرت معها ارادة الاستمرار في حكم فلسطين . اما داخل المسكر اليهودى فان هذه العملية كانت بمثابة توقيع حكم باعدام المقاومة المشتركة . فاجبر « موشيه سنيه » ، أكثر قادة « الهاجاناه » ثورية ، على الاستقالة . ووافق « بن جوريون » في باريس على العودة الى الوسائل الدبلوماسية التى شملت الموافقة رسميا على قبول مبدأ التقسيم . وتوقفت الهاجاناه تقريبا عن كل عنيفتها التخريبية لمدة سبعة عشر شهرا . وكما توقع « بيجين » فان « الأرجون » و « عصابة شتيرن » ، وجدوا أنفسهم مضطرين الى مواصلة الطريق بمفردهم ، دون الحصول على معونة من أحد . وكانت هذه هى احدى التوقعات التى أثبتت الايام صحتها ، دون أن تترك لديه اى شعور بالاغتيال ازاء انتصار رايه .

الفصل القان

« النفس بالنفس »

كان لعبارة « فلننتقم الله لجهائم ! » ، التي جاءت في البيان الذي أصدره مجلس انوزراء الاسرائيلي في ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢ ، في نهاية اجتماعه الاسبوعي ، صدى مدويا . وحدث هذا الدعاء باستئزال اللعنة ، هزة عنيفة في اعضاء السلك الصحفي بالقدس الذين كثفوا يشعرون بالتعب المعتاد الذي يسيطر عليهم في عطلة نهاية الاسبوع ، وايقظهم من اغفائهم بعد ظهر يوم الاحد المذكور . لا يمكن أن يكون هناك سوى رجل واحد يستطيع أن يكتب مثل هذه العبارة : « بناحم بيجين » الذي يتولى رئاسة وزراء اسرائيل طوال الخمس سنوات السابقة . وعلى الرغم من أن البيان بدأ بالموافقة على اجازة لسفير مخضرم ، ثم اشارة غامضة الى استعراض المسائل الدبلوماسية والامنية ، فان هذا الاجتماع لمجلس الوزراء لم يكن اجتماعا عاديا . فقد جاء في الفقرة الثالثة من البيان اعلان عن اصدار مجموعة جديدة من الطوابيع البريدية ، الامر الذي كان من الممكن اعتباره ، في ظروف اخرى ، بمثابة مسألة غير مثيرة للاهتمام تملأ كما كان الحال بالنسبة للبثود التي سبقته . ولكنها كانت طوابيع تثير الشعور بالورع بنفس درجة اثارتها لاهتمام هواة جمع طوابيع البريد . اذ ان هذه الطوابيع العشرين صدرت « تخليدا لذكرى شهداء الجيل الذي أسس دولة اسرائيل » . وقد تضمنت المجموعة ، من اجل المحافظة على المظاهر ، شخصيات وطنية بارزة من امثال « حنا سنيش » ، شاعر « الكيبوتز » الذي أعده النازي بعد أن قفز بالمظلة الى داخل أوروبا المحتلة ، و « ايلي كوهين » الجاسوس من دمشق . ولكن أحدا لم يندهش عندما ظهرت على عشرة طوابيع من ضمن العشرين طابعا ، صور المناضلين من « الارجون » و « عصابة شتيرن » الذين أعدمهم البريطانيون شنقا ، ورجلين فجرا نفسيهما أثناء وجودهما داخل زنزانة المحكوم عليهم بالاعدام .

لقد كان قاتلهم القديم يدفع الدين الذي في عنقه لهم . هؤلاء الاثخام كانوا بالنسبة « لناحم بيجين » آخر الشهداء ، وإبطال ملحمته الشخصية ، وكان « بيجين » يضعهم على منصة تسمو فوق كل منصة أخرى لغريم من القتلى في صفوف « الارجون » الذين سقطوا في ميدان المعركة ، والذين يحمل لهم في نفسه كل تقدير . ان اولئك هم الرجال الذين قتل عنهم ، وهو يفيض في التعبير عن اعجابه بهم في كتابه « التمرد » ، انهم اجتازوا الاختبار :

« ليست هناك معركة مجيدة ، ولا هجوم عاصف . ولكن هناك فقط التفكير والتأمل - التفكير في الوقت الذي أخذ ينفد مع كل دقة من دقائق

الساعة . والتفكير فيها وراء الزمن . ان الايلم تمر بطيئة وطويلة ولكن الليلي اطول . والوقت يمتد ويتيح فرصة اطول من اللالام للتأمل . ويطوف بالذهن ذكرى شىء ما او شخص ما . ذكرى صوت ام بسنة ، او زوجة شابة ، وهو ياتى من بعيد ولكن بوضوح كليل . ان الملابس الصراء التى يثيره بها الجلاء ، تذكره على الدوام بان ايلمه اصبحت معدودة ، وان الشمس التى تسطع خارج زنازاته المظلمة لا تعمل على محو الليل واتما تعمل على زيادة اقتراب الظلام الازالى . ان المرء لا يستطيع هنا كبت غريزة حب البقاء . فان الصراع المؤلم يستمر معها ، فهو يبدأ صباح كل يوم من جديد وكل ساعة وكل دقيقة ، ويستمر يدور فى ذهنه عنما يخلد الى النوم وعنما يقوم من نومه وفى غدوه ورواحه وفى وحدته عبر زنازاته المغلقة .

لم يكن الامتحان مجرد اختبار فى الشجاعة ، وانما فى الانضباط والالتزام ويشرح « يعقوب امرامى » ، مدير مخابرات « الارجون » ، هذا الامر قائلا : « لقد ذهبوا الى المشنقة لانهم لا يعترفون بالحكم البريطانى ، وكان بعضهم على الاقل يستطيع ان ينجو بجلده لو انهم قبلوا السلطة القضائية للمحكم البريطانية ولم يجبرهم احد على الرفض ، وكلفت لديهم حرية اختيار مطلقة . فقد مزق « دوف جرانيير » ، وهو اكثر هؤلاء الشهداء اخلاصا ، توكيلا رسميا كان قد وقعه بفوضى فيه احد المحالين باستئناف الحكم . لقد كان هؤلاء شهداء بمعنى الكلمة : رجال اختاروا الموت فى سبيل هدف . كلفت تضحياتهم تشكل جانبية خاصة بالنسبة « لبيجين » الرومانسى والمعتلدى ، القائد والفترج فى وقت واحد . لقد كانوا يتصرفون وكتهم شخصيات خرجت من بين صفحات رواية بقلم « جابوتسكى » ، حيث يقومون بتوجيه قضائهم ثم ينشدون « الحانيكا » (نشيد الحركة الصهيونية) وهم يتفون عند المشنقة . وعندما توفيت « اليزا بيجين » فى نوفمبر من عام ١٩٨٢ ، دفنت عند جبل الزيتون بالقرب من مقابر « مائير فينشتلين » و « موشيه برازاني » ، اللذين خدعا الجسلاذ بأن نجرا قنبلة يدوية مهربة اليهما فى سجن القدس المركزى . وكان « بيجين » قد طلب فى وصيته التى كتبها بعد انتخابه رئيسا للوزراء فى عام ١٩٧٧ ، ان يدفن هو وزوجته بجوارهما .

وكان « بيجين » بصفته قائدا للارجون يقدر ارواح المقاتلين حق قدرها . فكان يصر قبل تنفيذ اى عملية على ان تتضمن خطة للهروب قبلية للتنفيذ . ومع ذلك فقد كان يضع فى اعتباره احتمال ان يتعرضوا احيانا للمقاومة ، وان يموت بعضهم او ان يصابوا بعاقلت ، بينما يعتقل آخرون بل وقد يتعرضون للنفى ايضا . وهذا هو ثمن « التمرد » . لماذا كلفت المعركة ذات قيمة غالبا تكون جديرة بالتضحية . وكان « بيجين » يرفض السكوت على الاذلال بواسطة المشنقة او الصلوط . فقد عاشى اليهود فى محتلتهم بالمهجر فى

صبت من مثل هذا الازدلال ، ولكنهم لن يسكتوا عليه في وطنهم القوي . ولم ينس « بيجين » عندما كان طفلا وأجبر على مشاهدة طفلة عذوية الجسد العنفي في زعماء اليهود « ييديست - ليتوينسك » ، بناء على أوامر أحد الجنرالات البولنديين ، ويقول « كنت آنذاك في السابعة ، ولكن بشاعة هذا المنظر المهين لم يح مح من ذاكرتي مطلقا » .

وكانت عمليات الشنق والجلد بالسيارات من الاساليب التي اعتسها البريطانيون على استخدامها من أجل قمع حركات التمرد بالمستعمرات وان كان ذلك في الحالات القصوى . وكانوا ينفذون الاعدام في اعداد من عسرب فلسطين تفوق عدد اليهود . ولكن لم يرد على البريطانيين بالمثمل ، من بين الجبايات المتوردة ، سوى « منظمة ارجون زغاي ليهوى » . وقد تمكنت المنظمة من وقف عمليات الشنق والجلد التي مارستها انسلطات البريطانية بممارستها الشنق والجلد بالسيارات ضد الضباط وضباط الصف البريطانيين أنفسهم وردت على الاهانة بالمثمل ، ليس ضد الجنود ككفراد فحسب بل ضد النظام ككل . وما زال الالم الناجم عن تلك الاهانة قلما حتى اليوم . ويتردد ان « مارجريت تاتشر » قالت بعد مرور ثلاثة عقود على تلك الاحداث ، لرئيس وزراء آخر في الكومنولث ، انها لا تستطيع مطلقا مصافحة رجل مسئول عن شنق اثنين من الجنود البريطانيين برتبة سرجنت (ومع هذا فقد استقبلت مناحم بيجين في مقر رئاسة الوزارة في داوننج ستريت) .

وقد اثير أول تهديد وجهته الارجون ، فقد التي القبض على كل من « ميشيل آشيل » و « يوسف سمحون » ، عضوي المنظمة ، وهما في طريقهما الى المستشفى بعد ان اصيبا أثناء اشتراكهما في غارة مسلحة وقعت في ٧ مارس عام ١٩٤٦ ، ضد أحد معسكرات الجيش بصرافند . وكانت فرقة من « الارجون » قد تسللت الى القاعدة العسكرية متخفين في زي جنود مظلات بريطانيين ، ولكن اكتشف ابرهم عندما طبع أحد أفرادها وحاول انتزاع مخفج آلي من طراز « فيكرز » من فوق إحدى الدبابات . وانسحبت الفرقة في غير نظام . وصدر الحكم بالاعدام ضد « آشيل » شاعر الارجون ، و « سمحون » وردت المنظمة على ذلك بلفظ طاف سعة من الضباط البريطانيين : خمسة من احد نوادي تل ابيب والملاح من القدس . وقد تمكن الاخر من الهرب ، مما سبب « لبيجين » الشعور بالخزي الابدى . وفرضت السلطات حظر التجول في تل ابيب ، وبدأت عملية التفتيش من بيت الى بيت واعلن « ببيجين » ان الارجون سترد على « الشنق بالشنق » . وجرت المفاوضات بين الطرفين من خلال الوسيطاء اليهود . واطلقت « الارجون » ، كعمير من حسن النية ، سراح اثنين من الضباط المحتجزين واعطيت كل واحد منهما جيبها كتمويض من أي اقرار لحقت بهما . واعلن الضابطان انها لتيا محللة طيبة . وعنفها تم استرداد عضوي

« الارجون » ، ألقى الرهائن البريطانيين البلقون في وسط تل أبيب ، وهم محشورون داخل صندوق شحن . وخرجوا منه ، وهم يرتدون زيهم العسكري الأبيض الذي كان قد تم كيه ، مما أثار سخرية وضحك المرة . لقد عقدت « الارجون » صفقة ولم تتراجع عن تنفيذها .

ولكن لم تكن العملية التالية نهاية سعيدة مماثلة . وان كانت قد اسفرت عن تحقيق نصر آخر « للارجون » . فقد صدر حكم ضد « بنيامين كيمتشي » المقاتل في الارجون البالغ من العمر سبعة عشر عاما ، بالسجن لمدة خمسة عشر عاما مع جلده ثمانى عشرة جلدة عقبا له عن حمل السلاح . وردت « الارجون » على ذلك باعلان : « اذا استخفتم السوط ضدنا ، سنستخلم السوط ضدكم » . ومع ذلك تم جلده « كيمتشي » ونفذ « بيجين » وعيده ، حيث تم اختطاف ضابط بريطاني برتبة ميجور وثلاثة ضباط صف من تل أبيب ونيثانيا وريشون لوزيون . وتلقى كل واحد منهم ثمانى عشرة جلدة قبل الافراج عنهم . وقد أكد البيان الذى صدر وهو يحمل شعلا يصور ضفتى الاردن ويندقية وتحتهما فقرة تقول « ليس اقل من هذا » : ان المنظمة لن ترد « بالسوط فقط مستقبلا ، اذا استمرت عناصر القهر في جراتها التى تهدف الى الحاق الاهانة الجسدية بالشباب اليهودى وشرفه القومى والانساني ، بل اننا سنرد بالنار » . وابتلع البريطانيون كبريائهم . فاعفى شلب آخر من « الارجون » كان قد اعتقل مع « كيمتشي » من عقوبة الجلد . ولم يوقع البريطانيون بعد هذا عقوبة الضرب بالسوط على أى من اليهود او العرب طوال المدة المؤلفة الباقية لهم في « الارض الموعودة » ومهما يكن من امر ، فقد تحققت امنية احد الجنود البريطانيين ، كتب عبارة على أحد ملصقات « الارجون » التى تحذر جميع ضباط الجيش البريطانى من احتمالات تعرضهم للجلد بالسوط . . كتب يقول : « لا تنسوا الضابط الذى يرأسنى برتبة سرجنت - ميجور » .

أما استخدام جبل المشقة فقد احتاج الى جهد أكبر لايقافه . اذا احتاج الامر الى تنفيذ الاعدام شنقا في سبعة من رجال « بيجين » قبل أن يتم ايقاف مثل هذا الحكم . كما استدعى الامر أن يلحق بهم اثنان من الجنود البريطانيين برتبة سرجنت ، تم تنفيذ الاعدام فيهما شنقا بمقصلة أقيمت خصيصا لهذا الغرض ، لا لاي ذنب ارتكابه سوى كونها بريطانيين موجودين بفلسطين في ذلك الوقت . وكثرت حكومة « ائلى » والادارة البريطانية في القدس ، في وسط هذا الجو من الارهاب الذى يزداد جراءة ، تعمل تحت ضغوط مكثفة من الراى العام لاستعراض قوتها . ومن ثم فقد أصبح « دوف جراتر » المهاجر اليهودى المجرى البالغ ثمانية وعشرين عاما

والذى اصيب بجراح مرتين أثناء خدمته في الجيش البريطاني رمزا لروح
التحدى الميزة للارجون ، وللإصرار البريطاني .
وقد ألقى القبض على « جرائر » في أعقاب غارة مسلحة على مركز
شرطة « رملت جان » في ٢٣ أبريل ١٩٤٦ وكلفت فرقة من الارجون قد
دخلت المبنى متخفية كجنود بريطانيين جامعا لتسليم مجموعة من المعتقلين
العرب . وعندما لم يغفروا على مفتاح خزانة الاسلحة ، قلموا بنفس البلب ،
مما نيه حامل مدفع برن يقف على سطح المبنى واحد رجال الشرطة الذى
أجرى اتصالا تليفونيا طلبا النجدة . وفقدت « الارجون » في هذه
المعركة غير المدبرة ، ثلاثة من رجالها . وتحطم فك « جرائر » عندما أصيب
برصاصة فيه ، وكاد أن يفارق الحياة عندما عثر عليه رجال الجيش .
وأجريت له سلسلة من العمليات الجراحية ، وأصبح لائقا للمثول أمام القضاء
حيث جرت محاكمته في يناير سنة ١٩٤٧ بلفسترس . ووجه « جرائر »
أثناء شرحه للأسباب التى تجعله يرفض حق المحكمة في مقاضاته ، اتهامها
الى بريطانيا بتحويل « أرض اسرائيل التاريخية » الى قاعدة عسكرية
ويافتصلها من الشعب اليهودى « لذلك فلم يمد هناك أى أساس قانونى
لحكمكم ، الذى أصبح لا يقوم الآن سوى على مبدأ واحد فقط : القوة
الغاشمة ، المظة في استخدام السلاح وسيلة الارهاب المتخفى في صورة
القوانين المزعومة . لقد صيغت هذه القوانين بواسطة حللى الحراب .
وهم يصدرونها ثم يطبقونها بما يتناقص مع الحقوق الاساسية للإنسان
ويتعارض مع ارادة الشعب المحلى والقانون الدولى » .

وعندما أصدر القضاة العسكريون الحكم عليه بالاعدام شنقا ، رفع
صوته مرددا النشيد الصهيونى وهو يقف في قمص الاتهام . وكثن
« جرائر » بفضل الحياة على الموت ، ولكن على أن يكون ذلك رفقا لبلائه ،
وليس لمبادئ قضاة . وكان المعتقلون من رجال « الارجون » يعرفون
جيذا الفرق بين الاستشهاد والانتحار . وكنوا يودون أن يتم انتقامهم
أو مياليتهم ، ولكن على ألا يكون المقابل هو التمس الرافة . وأصدرت
« منظمة الارجون » انذارا ، وأن كل اقل تحديدا من الانذارات السابقة :
أن اعدام أسرى الحرب يعتبر جريمة قتل مع سبق الإصرار . ونحن نندد
نظام الحكم البريطانى بمرافقة الدماء ردا على ارتكابه مثل
هذه الجريمة » . وكان رد فعل « بيجين » المبشئ ، مرة أخرى ، هو
اختطاف رهائن بريطانيين . فاختطف الميجور ه . ا . كولينز ، الذى قيل
أنه ضابط مخابرات ، ولكنه كان في واقع الامر ضابطا متقاعدًا يشتغل في
الاعمال الحرة ، وذلك أثناء تلوله الشاى بمدينة القدس . واختطف كذلك ،
القاضى « رالف ويندام » من قاعة المحكمة في تل أبيب . ويبدو أن عملية الاختطاف

الاخيرة ازعجت البريطانيين أكثر من الاولى ، وإن كان من المشكوك فيه أن السبب في ذلك هو صلاته بالطبقة الإستعمارية ، كما كان يزعم « بيجين » ، وبدأت الحكومة بحلول كسب الوقت بعد أن كتبت قد قررت في بداية الأمر تنفيذ حكم الإعدام علي « جرانت » بصرف النظر عن المواقف . فأعلنت تأجيل تنفيذ الحكم إلى أجل غير مسمى لاتاحة الفرصة له لتقديم التماس إلى « المجلس الملكي الخاص » . وكان هذا الاعلان بمثابة نقطة تحول في القضية وكانت جماعة « الأرجون » تواجه تقوفا عديدا . وقرّر « بيجين » أن استهوار احتجاز الرهائن لن يحقق شيئا ، خلاصة وأن المخيا الموجود به القاضي « ويندام » ، لم يكن آمنا علي الإطلاق ولكن عندما اتضح أن البريطانيين كفوا لا يزالون مصممين علي شنق « جرانت » وثلاثة آخرين — هم « يجل درينزير » ، و « مرخاي الكوش » و « الانيزر كاشاني » — لم تدبر « الأرجون » عملية الانتفاذ بسرعة كافية . وكانت البلاد كلها تخضع للقوانين العسكرية ، ونقل الرجال الاربعة المحكوم عليهم بالإعدام من القدس إلى حصن عكا ، حيث أعدموا في ١٦ أبريل عام ١٩٤٧ ، تحت مستل قانوني من الضالين . وقلم بعد أسبوع واحد « فينشتاين » و « برازني » ، من الأرجون و « عصابة شتين » ، علي التوالي ، بتفجير قنبلة يدوية ، تم تهريبها اليهما داخل برتقالة . وكنا ينويان أن يصحبا معها الجلاذ إلى القبر ، ولكنهما رجعا عن ذلك عندما أصر حاخام السجن علي مرافقتها حتى جبل المشنقة .

وقد حققت « الأرجون » ، إعلان سيف ذلك العام ، أكبر انتصاراتها ، اقتحام حصن عكا ، الذي كان يبدو منيعا منذ عهد الصليبيين — ولكنها عانت أيضا من الآم تنفيذ أحكام اعدام أخرى وانتخا القرار الصعب بشنق الجنديين اللذين يحملان رتبة سرجنت واللذين تحتجزهما المنظمة . وتمت عملية اقتحام الحصن الكائن في وسط المدينة العربية ، عن طريق تنفيذ خطة معقدة لاختراقه من الداخل والخارج . وقد بلغ المجموع الكلي للمسجونين الذين هربوا من الفجوة التي فجرت في الجدار الحجري السيلك ٢٥١ سجيناً منهم ١٣١ عربياً ، والباقي ١٢٠ من اليهود . ولكن كانت الخسائر فادحة في المقابل ، حيث قتل خمسة عشر يهودياً أثناء المطاردة كما القى القبض علي خمسة آخرين . وكان من بين القتلى « ميتشيل اشيل » الذي كان قد نجا من جبل المشنقة منذ عام مضى وقدم ثلاثة من المعتقلين الجدد — وهم « اشغالوم جيب » ، و « مائر ناكار » و « يعقوب ويز » — إلى المجازعة بتم عقوبتها الإعدام . وقال أحدهم للقضاة :

« أننا نعلم أن هذه المعركة ستسفر عن نتيجة واحدة . فإن شعبنا سيحصل علي حريته وسيجلبو المستبد من الأرض . ولهذا فليتنا نحفظ يهودنا . بل الأكثر من هذا فليتنا سعداء . فليس هناك سمادة أكبر من أن نهب حياتنا من أجل مثل

اعلى ، وان نعلم ونعلم بما لا يترك مجالا للشك ، اننا من بين اولئك الذين يلمبون دورا مباشرا في سبيل تحقيقه .

وأدرك « بيجين » أنه يجب على « الارجون » أن تأخذ رهاق من رتب عالية ، حتى يستطيعون انقاذهم . ولكن منذ تنفيذ عمليات الاعدام السابقة أصبح البريطانيون على حذر ، مما جعل تنفيذ ذلك أمرا صعبا . واضطر «الصيدون» في نهاية الامر الى الاكتفاء باختطاف اثنين من جنود المخابرات برتبة سيرجنت ، أثناء عودتهما الى مسكنيهما سيرا على الاقدام وهما يرتديان الملابس المدنية بعد أن قضيا ليلة في مصيف ناتقيا بدون تصريح . وتمت عملية الاختطاف عن طريق ضرب السيرجنت « كليفورد مارتن » و « ميرفن بيس » بالهراوات وتخديرهما بالكورفورم ثم نقلهما بسرعة الى مخبأ أعد خصيصا لهذا الغرض أسفل مصنع لسقل المس بناتقيا . وكان حارس سجنهما هو «جيدى باجلين» رئيس عمليات الارجون . وأعلن البريطانيون تحديد اقامة جميع سكان المدينة اليهودية ، وتم استجواب ١٤٢٧ شخصا منهم ، ولكن بقي الجنديان في زنازتهما الخائفة بمرحاضها المصنوع من قماش سبيك والاكسجين المعبأ.ونفذ حكم الاعدام فى ٢٩ يوليو عام ١٩٤٧ ، فى المسجونين الثلاثة من منظمة الارجون — « جيب » « نكار » و « فيس » ، حيث اقتيدوا الى حبل المشنقة عكا . وفى ظرف ساعات قليلة من ذلك ، لحق بهم كل من السيرجنت « مارتن » والسيرجنت « بيس » . وتولى « باجلين » بعد التلاور مع « بيجين » ، مؤكدا له امكانية تنفيذ العملية وتم شنتهما بواسطة علرضة خشبية فى سقف مصنع المس المهجور . ثم نقلا الى غلبة صفرة من اشجار الكفور حيث تركت جثتيهما تتدليان من شجرتين . ووضع « باجلين » لغما بالقرب من الشجرتين على أمل أن يقتل جنديا ثالثا حتى يتحقق التعادل ، ولكن عندما تأخر البوليس فى العثور على الجثتين أخطرت منظمة « الارجون» الشرطة بمكثتهما ، مع تحذيرهم من وجود الغام فان « باجلين » كان يخشى أن يصيب اللغم اى جندي يهودى قد يشترك فى مهمة البحث وبناء على التحذير ، فان البريطانيين سحبوا الجثتين مستخدمين الجبال والخطافات ، معتقدين أن الجثتين ذاتهما ملفوتملان . ومما زاد من بشاعة عملية استرداد الجثتين بالنسبة لفرقة الانتقاذ العسكرية والشرطة والصحفيين والمصورين الحاضرين ، أن الجثة الاولى عند انزالها لمست اللغم الذى زرع « باجلين » ففجرت وتطايرت اشلاؤها . أما الشجرة التى تحمل الجثة الثانية فقد انتلمها الانفجار من جنورها واصيب ضابط برتبة كلبتن من سلاح المهندسين الملكى كان يشرف على العملية ، فى وجهه وكفقه .

تردد مدى عملية شق الجنديين فى جميع أنحاء العالم ، مثلما حدث لعملية الانفجار فى فندق « الملك داود » وعملية الهروب من حصن عكا . ومع هذا فقد كان « مناخم بيجين » الذى صدق على العملية ، محتفظا بصورة غريبة

ازاء هذا القرار . وكتب يقول في مذكراته التى نشرت في كتابه « التمرد » :
« وفي اليوم التالى تم شنق البريطانيين . لقد علمنا عدونا بالمثل . ولقد حزنناه
مرارا وتكرارا . ولكنه تجاهل تحذيراتنا بسرار . لقد اجبرنا على الرد عليه
باسلوب « الشنق بالشنق » . وكانت ايلم ساد الظلام نهارها كليلالى الخالية
من النجوم » هذا هو كل ما قاله في المسلة التى تقل عن صفحة واحدة والتى
خصصها لمهنية الشنق ، من هذا القرار ايا بقتى المسلة فقد ملأها بتوجيه
الامم للبريطانيين لتنفيذهم « احكمم الاعدام » التى لا معنى لها .

بيد ان قرار قتل الجنديين لم يصدر ببساطة ، فقد بذل « بيجين » جهودا
ثابتة في مشاورات مع زملائه بالقيادة العليا للارجون ، على الرغم من عدم
وجود ما يفيد بأنه كان يعارض قرار الشنق . ويعتقد « يعقوب امرامى » ان
« بيجين » لم يكن يعرف تملها ما يجب عليه عمله . يقول « امرامى » :

« لقد سال الجميع عن آرائهم ، ولم يكن يريد ان يؤثر على الآخرين عن
طريق اعلان موقفه . وانا شخصيا كنت اؤيد القرار . وقلم بمشورة ستة
او سبعة منا — مثنى وفردادى . ولم يكن هناك من يعارض القرار . وانا لا اتنى
ان البعض كانت تراودهم المخاوف . لقد كانت المسالة نسبية . وكان راي
البعض قاطعا ، بينما كان هناك آخرون لديهم بعض الشكوك ولكنهم قالوا نعم .
وكان « بيجين » ، يريد ان يسهل المسالة على اى احد يريد ان يقول لا ، او
يعبر عن اى تحفظ .

« وكانت مشاورة كل اعضاء القيادة العليا بهذه الصورة ، عملا غير
عادى ، وكانت القرارات تؤخذ عادة بواسطة موافقة اغلبية الاعضاء
الموجودين . ولم اسمع « بيجين » يعترف مطلقا بعد ذلك بأنه كانت لديه بعض
الشكوك . ولو أنه كان لا يوافق على القرار لمعارضه بكل قوته ويدافع بقوة
عن وجهة نظره . ولم يكن هناك آنذاك ، اى دليل على أنه كان يعارض
القرار . وكان « بلجلين » اقوى المؤيدين لقرار الشنق — فان البريطانيين
شنقوا رجاله هو .

وجدير بالذكر ان أحد الدارسين الاسرائيليين اكتشف بعد خمسة وثلاثين
عاما ان والدة السرجنت « مارتن » كانت يهودية مصرية . وكان والده قد
تزوجها اثناء عمله في السودان كموظف مدنى من وزارة المستعمرات . ووفقا
للشرائع اليهودية فان هذا الامر يجعل السرجنت يهوديا . وقد سئل احد
اعوان « بيجين » ، الذى كان قد اصبح رئيسا للوزراء ، عما اذا كان هذا
سيؤثر في مصر السرجنت ، لو أنه كشف عن تلك الحقيقة آنذاك . وكان رده
« في الغالب لا » . فان تنظيم الارجون السرى قد سبق له ، على اى الحالات ،
اغتيال يهود آخرين ممن اعتبرهم خونة .

ومهما يكن من أمر ، فإن عملية شنق الجنديين البريطانيين حققت الهدم
منها ، فلم يتم بعد ذلك اعدام أى ارهابى يهودى وان كان قد تم قتل خمسة
من اليهود الإبرياء عندما هاجمت جماعات من الجنود والشرطة البريطانيين
في تل أبيب كرد فعل لعملية الشنق . وأغلق « بيجين » صفحات القضية على
أساس افتراضى ان اعدام الجنديين البريطانيين قد انتقذ أرواح عشرات من
رجالهم « عصابة شتيرن » خلال العلم الأخير للانتداب البريطانى .

ولكن ربما لم يكن من قبيل المصادفة أن « بيجين » كان يصر باستمرار ،
منذ ان تولى رئاسة مجلس الوزراء ، على رفض مطالب زملائه من اليمينيين
باعدام الارهابيين العرب . فقد حصل على كفايته من عمليات الاعدام ، كما
انه كان يعلم جيدا قيمة الاستشهاد .

الفصل التاسع

الخروج من عشي « الديباي »

كان شفق كل من السيرجنت « ملرتن » والسيرجنت « بيس » بمثابة القشة التي قسمت ظهر البعير بالنسبة للرأيين المعام والبرلمانى فى بريطانيا . وكان رد الفعل المبدئى هو الغضب . فاجتاحت المظاهرات المعادية لليهود فى لندن وليفريول ومانشيستر وجلاسجو وغيرها من المدن البريطانية . ولكن سرعان ما تحولت الكراهية الى تساؤل : هل فلسطين تستحق فعلا هذه التكاليف الباهظة التى يدفعها البريطانيون بأرواحهم ومكانتهم ومصلحتهم ؟ لقد أخذ الرد على هذا التساؤل يقبلور ابلان صيف علم ١٩٤٧ ليصبح نقيًا جازما .

واعترف سير « آرثر جريتشى - جونز » ، وزير المستعمرات بمجلس العموم فى ١٢ اغسطس ، بان « ثمة موجة شديدة من التساؤل تسود الجمهور البريطانى حول الاعباء والتكاليف التى تتحملها بريطانيا ، والمساءلة الناجمة عن استمرار بريطانيا فى تحمل هذه المسئولية الدولية » . وكان هناك شبه اجماع كامل بين أعضاء مجلس العموم ، الذين تم استدعائهم من اجازاتهم الصيفية لمناقشة مسألة شفق الجنديين ، على المطالبة بانسحاب مبكر للقوات البريطانية . وقال « ونستون تشرشل » فى خطاب وجهه فى قصر « بلنهلم » الى أعضاء حزب المحافظين المعارض والمجتمعين هناك :

« ان (بريطانيا) تحتفظ بحوالى مائة الف جندي بريطانى فى فلسطين وتبذل من الاموال التى نحصل عليها بصعوبة ثلاثين مليون جنيه استرلينى ، او ربما اربعين مليون جنيه سنويا هناك ، .. وليست هناك اية مصلحة بريطانية فى استمرار الانتداب فى فلسطين . ولقد بذلنا طوال ثلاثين عاما تقريبا جل طاقنا من اجل القيام بمهمة شريفة فرضناها على انفسنا تلقائيا . وقد طالبت الحكومة منذ علم بلخطر الامم المتحدة باننا نرفض تحميل المزيد من الاهاتك والخسائر . ولكن الوزراء اکتفوا بفتح اغواهم فى بله وتردد بصورة مخزية فى اتخاذ القرار ، ولمالوا لا يفعلون شيئا سوى ترك افواههم مفتوحة حتى الان » .

وقد بعث « هيودالتون » ، عضو الوزارة العمالية ، برسالة الى « كيمنت آتلى » ، رئيس الوزراء ، يقول له فيها :

« اننى وافق تملها من ان الاوان قد حبلن تقريبا لكى نخرج كل قواضا من فلسطين . غلن الاوضاع الموجودة هناك حاليا ، لا تكلفنا غاليا من حيث الافراد والاموال فحسب ، ولكنها ، كما يعلم كلانا ، لا تشكل اية قيمة حقيقية من وجهة النظر الاستراتيجية - وعلى اى الحالات لا يمكن الاحتفاظ بقاعدة آخنة فوق « عش دبليو » - فضلا عن هذا غلن بقاعا هنا يمرض شبابنا لاقصى التجارب بلا داعى حقيقى ، مما يولد مشاعر معادية للسامية بسرعة مذهلة » .

وجاءت قوة ضغط الراى العلم ، عقب شنق الجندين البريطانيين ، على رأس قائمة الاسباب التى سردها « الميزابيت مونرو » ، الأخيرة البريطانية فى شئون الشرق الاوسط ، وراء حدوث « التحول الضخم » فى موقف بريطانيا ، فتقول :

« ان الراى العلم البريطانى اعتاد طوال سنين عديدة ان يتخطى اى عقبات تعترضه فى فلسطين ، وكان ينظر الى « الاضطرابات » و « العنف » هناك ، تملها كما كان ينظر الى « الاضطرابات » فى ايرلندا - اى كتجربة مؤلمة على الرجل الابيض ان يتحملها كجزء من اعبائه ، ولكن هذا الاتجاه تغير فى الاول من اغسطس سنة ١٩٤٧ ، وكان السبب فى هذا التغيير هو تنفيذ الامدام شنقا فى جندين بريطانيين شابين برتبة مسرجنت ، على يد الارهابيين اليهود الذين ارتكبوا هذا العمل كاجراء انتقامى . فلهجة جميع التعليقات التى تردت فى الداخل ازاء هذا العمل تختلف تماما عن التعليقات على الاعمال الارهابية السابقة ، والتى اسفر بعضها عن خسائر امدح فى الارواح - كعملية نصف فندق « الملك داود » مثلا . وقد نشرت الصحف المصورة فى صفحاتها الاولى صور الرجلين المشنوقين ، وساد شعور بالاستياء العام ازاء استخدام الجثتين كشرى متفجر ، بل ان الراى العلم الحر عبر فى عدة مدن بريطانية عن استيائه فى صورة ثورات محدودة من المشاعر المعادية للسلمية » .

وادى هذا الحدث بسرعة الى تصعيد المشاعر المناهضة لأمريكا ، وذلك فى فترة غير ملائمة على الإطلاق . « وقسم وزير الخارجية البريطانى تحذيرا فى الثانى من اغسطس الى السفير الأمريكى لويس دوجلاس ، يفيد بان بريطانيا التى « تشعر بالاحباط وخيبة الامل نتيجة للقيام بمهمة الانتداب ، التى لم تحظ بالامتنان عليها ، قد تضطر الى التخل عن هذه المسئولية » وكان الموقف فى فلسطين يعمل على تسييم العلاقات بين الولايات المتحدة وبريطانيا .

وكلفت الحكومة قد بدأت بالفعل فى اتخاذ الخطوة الاولى نحو انتهاء لاتنداب - على الرغم من اتهام تشرشل لاهضاء الوزارة بالبلادة - قتل

خمسـة أشهر من اعدام الجنديين . فقد ألح « برنست بيغين » في مجلس العموم يوم ١٨ فبراير السابق الى « ان السبيل الوحيد الباقى الان لملنا هو رفع المشكـلة الى الامم المتحدة لاتخذ قرار فيها » . فقد أدرك وزير الخارجية ان بريطانيا لن تستطيع ارضاى اى من العرب أو اليهود — وانها لا تملك امكانية فرض حل من جانبها . وكان بيغين « ما زال محجما عن الاعتراف بفلاسـة سبيلسته والتخلى عن الانتداب » ، غير ان بريطانيا تقدمت فى شهر ابريل بطلب الى الامم المتحدة لتشكيل لجنة خاصة لدراسة الاحتمالات القائمة فى فلسطين وتقديم تقرير بنتائج دراستها الى « الجمعية العامة » فى الخريف . ويعتقد « هارولد بيللى » مستشار وزير الخارجية « بيغين » لشئون الشرق الاوسط ، ان هذه المبادرة صدرت اسلما عن « اتلى » اكثر من ان تكون من بنك افكار وزير الخارجية . واصدرت « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين » فى ٢١ أغسطس ١٩٤٧ ، توصيتها بانهاء الانتداب البريطانى وانشاء دولتين منفصلتين واحدة يهودية واخرى عربية . وفى ٢٩ نوفمبر وافقت الجمعية العامة على التقسيم باغلبية الثلثين .

ولم يكن هذا هو الحل الذى كان « مناحم بيجين » و « الارجون زغاي ليويمى » يسمون الى تحقيقه . وكان « بيجين » قد عقد اجتماعا سرىا فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٧ مع « اميل ستندستروم » ، رئيس « لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين » . وقد عقد هذا الاجتماع ، الذى منح « الارجون » نوعا من الاعتراف الدولى ، بترتيب من كلرر دافيدسون ، الصحفي الامريكى بالاسوشيتيكبرس ، حيث قدم مساعيه الحميدة نظرا ان يكون هو الوحيد الذى يطلع على تقرير مباحثتهما التى استغرقت ثلاث ساعات .

وكتب « دافيدسون » يقول فى تقرير قد اجل ارساله لمدة شهر حتى تنتهى بعثة الامم المتحدة من عملها وتضادر الشرق الاوسط ، ان « ستندستروم » و « بيجين » قد نالشا « فى هدوء وبأسلوب ودى التاريخ السياسى والدينى لفلسطين وكان الحديث لطيفا ووديا لدرجة ان « ستندستروم » قام بنفسه فى النهاية بتحضير « بيجين » قائلا : « ان الشرع قريب من هنا . ليس من الافضل ان نخفض اصواتنا ورد عليه بيجين ضاحكا : « لا تخش شيئا ، فلن رجالنا يقفون هناك . وسيلفوننا اذا ارتفعت اصواتنا ولفقت الانتباه » .

وقد حدد قائد الارجون اهدافه ، بينما كانا يرتشفان النبيذ وياكلان الفاكهة ، بمنزل الشاعر « يعقوب كوهين » فى تل ابيب ، ونص برنابجه على المطالبة بمنح اليهود السيادة على جانبى الاردن على ان يتم تنفيذـه وفقا للخطوات التالية :

- ١ - انتهاء الاحتلال البريطاني « لارض اسرائيل » .
- ٢ - نقل السلطة الى هيئة نيابية ديمقراطية تمثل شعبنا .
- ٣ - اعادة جميع اليهود الراغبين في ذلك الى الوطن في فلسطين بمساعدة من هيئة دولية .
- ٤ - اجراء انتخابات ديمقراطية عامة بعد الانتهاء من اعادة اليهود الى الوطن .

٥ - الحصول على قرض دولي لاستصلاح الارض لمصلحة كل من الفلاحين العبرانيين المقدنين والعرب ، والذين يعتقدون من العوز الشديد وهم يزرعون تحت نير العبودية والاستغلال .

وعندما استعد ستندستروم للانصراف ، صلفه « بيجين » قائلًا : انتهى لك التوفيق في مباحثاتك ، ولكن لا أحد منا يتصور أن تراك سوف يجعلنا نتخلى عن النضال .

وقد قبل « ديفيد بن جوريون » قرار التقسيم على مضض ، نيابة عن التنظيم اليهودي في فلسطين (الليشوف) كما وافق عليه بمصفته الشخصية ، حاييم وايزمان ، الذي يعتبر أكثر الدبلوماسيين الصهيونيين اصراراً ومثابرة . غير أن « بيجين » أعلن رفضه للقرار وكأنه شيئاً محرماً ، وقد صدق وعده الذي أعلنه عند وداعه للجنة الأمم المتحدة . وظل يحارب التقسيم فعلياً حتى أعلن قيام دولة اسرائيل يوم ١٤ مايو عام ١٩٤٨ ، ثم في الكنيست طوال مدة الست والعشرين سنة التي قضاها في صفوف المعارضة ، وأخيراً من موثمه داخل الحكومة التي تولى رئاستها بعد عام ١٩٧٧ ، وذلك عن طريق بذل كافة الجهود المبكئة لضمان عدم عودة الأراضي المحتلة في الضفة الغربية الى الاردن أبداً .

هذا ، ولطالما انقسم الرأي العلم الاسرائيلي حول مدى مساهمة « الارجون » و « عصابة شتيرن » في انشاء دولة اسرائيل فبموجب تفسير « المabay » للتاريخ ، كل « المنشقون » يعتبرون بمثابة عنصر ازعاج ، لا قيمة له . اما الجهد الفعلي في بناء الأمة فقد اضطلعت به حركة العمل (تحت رئاسة حزب المabay) ، وحلفائها من الطبقة المتوسطة والفئات الدينية . وهم « الصهيونيون العمويون » وحزب « مزارعي » . وشطب الدور الذي لعبه ورثة « جابوتنسكي » . ولكن عندما قام « بيجين » في عام ١٩٧٧ بتشكيل حكومة الليكود المنتخبة ، تبوأ « التصحييون » المكلة التي يستحقونها وانتقلت الاوضاع . وأصبح « بيجين » يوصف بأنه الرجل الذي « طرد البريطانيين من البلاد » ، بينما تحول « بن جوريون » وشركاؤه الى مجموعة

من الأشخاص خائري القوة الذين يقبلون الحلول الوسط ، ورجال لا يملكون البصيرة ولا الشجاعة التي تمكنهم من مقابلة الطغاة الدخلاء .

ولا يقل هذا التفسير الجديد المتطرف تشويها للحقيقة عن سابقه فالوثائق البريطانية والناشئة التي دارت في بريطانيا تبين بوضوح أن « الإرهاب اليهودي » قد لعب دورا بارزا في تحطيم ارادة المبقاء في فلسطين . وكانت لبريطانيا اهتمامات أخرى تشغلها في الداخل والخارج . فالجنسية الاسترليني كان يواجه خسوفا ، كما كانت بريطانيا تعاني من نقص شديد في الوقود بعد أن تعرضت لشنه قلس . وكانت الهند على وشك نيل الاستقلال .

وبدأت نظرة بريطانيا الاستراتيجية تتغير مع بداية نهضية الامبراطورية البريطانية . ولم يكن في وسع الحكومة ، في مواجهة التهديد السوفيتي المتزايد في أوروبا أن تعرض للخطر تحالفها مع أمريكا والمساعدات المالية التي تحصل عليها منها . وأصبحت فلسطين تشكل عبئا ، خاصة وأنها ، كما قالت « اليزابيث مونرو » ، « لا تعتبر مسألة حياة أو موت بالنسبة لميزان مفعوعات المملكة المتحدة أو مستوى المعيشة بها ، ولا بالنسبة لأمن بريطانيا العسكرية أو علاقاتها بالكونغولث » . وبحلول عام ١٩٤٧ ارتفعت تكاليف المحافظة على سيادة القانون والنظام في فلسطين وأصبحت باهظة . فالى متى تستطيع بريطانيا الاحتفاظ بمائة الف رجل مرابطين هناك ؟ وعلى أى الحالات فإن مائة ألف لم يكونوا كافين لاداء تلك المهمة . وتزايد الشعور بأن الفوائد الناجمة من وراء ذلك أصبحت في تناقص مستمر . ولم يستطع الجنرالات ولا السياسيين ايجاد رد مقبول على حرب المعصليات المستمرة التي تشنها « الأرجون » و « عصبة شتيرن » في المدن . فلم يكن ثمة سوابق يمكن الرجوع اليها . ولم يكن في وسعهم قهر المتمردين دون أن يسحقوا « اليشوف » ككل .

وفي الوقت ذاته ، كان الشباب يقتلون يميدا عن ديارهم بلا سبب مقنع . وكانت بريطانيا تتعرض للاهانة والسخرية . ففي خلال ثلاث سنوات — أى منذ نهضة الحرب العالمية في ١٩٤٥ الى أن غادر آخر المنحوبين السالميين للبلاد في عام ١٩٤٨ — لقي ٣٣٨ مواطنا بريطانيا حتفهم بأساليب عنيفة على أيدي الجماعات اليهودية . وقتل ٩٩ بريطانيا خلال ستة اسابيع اعتبرا من أول أكتوبر وحتى ١٨ نوفمبر من عام ١٩٤٦ ، بعد ما انسحبت « قوات الهجاناه » في ١٦ يوليو من ذلك العام ، من حركة المقاومة العبرانية . وفي يناير سنة ١٩٤٧ تم اجلاء حوالي ألفين من الرجال والنساء والاطفال الى بريطانيا بينما نقل بقى المدنيين للإقامة داخل « ساحة آمنة » خلف الاسلاك الشائكة . وخلال ليلة واحدة من شهر مارس قتل أكثر من عشرين بريطانيا . من بينهم اثنا عشر ضابطا عندما قامت « الأرجون » بنسف نالدهم بالقدس ، فضلا عن أصلبة ثلاثين بريطانيا بجراح . واشمل رجال « عصبة شتيرن » الثار في معمل لتكرير

البترول في حيفا ، واستمرت السنة اللهب مشتعلة لمدة ثلاثة أسابيع .
وأوصى رؤساء الاركان في لندن بفرض الاحكام العسكرية في بعض الحالات
المدينة ، ولكنهم أقرّوا ان « فرض القيود في جميع أنحاء البلاد في وقت واحد ،
إنها يفوق امكانيات القوات المتاحة حاليا ، كما أن فرض الاحكام العسكرية من
شأنه أن يزيد من الاعباء الحالية دون مزايا تعويضية » . وكما يقول « نيكولاس
بيثيل » :

« لما كان كل واحد من الضحايا البالغ عددهم ٢٢٨ شخصا ، قد لقي
حتمه بطريقة فردية ، حيث قتل بمفرده عن طريق إطلاق الرصاص عليه ، أو
ضمن مجموعة صغيرة بواسطة قنبلة ، فإن موتهم ترك أثرا عميقا داخل الرأي
العام البريطاني لا يقل عن الاثر الذي أحدثته الخسائر الأكبر حجما في الأرواح
البريطانية ، أبان الحرب العالمية الثانية ، والتي تحملها بصبر وتصميم . في حين
بدأ هؤلاء القتلى البالغ عددهم ٢٢٨ وكثهم ملأوا بلا أي داع . ولذلك فقد
تضاعفت الضغوط السياسية من أجل وقف تلك الاغتيالات .

هذا ، وقد رفع التفضل الأمريكي في القدس تقريرا الى واشنطن في أول
مايو من عام ١٩٤٧ جاء فيه ما يلي :

« لا مفر من استنتاج أن حكومة فلسطين ، التي يحول المسؤولون فيها
إدارة شؤون البلاد من خلف الأسلاك الشائكة ومن داخل مباني محاطة بحماية
مكثفة ، وهم يعيشون (أي أولئك المسؤولين بدون زوجاتهم وأبنائهم) في عزلة
تثير الشفقة في وسط مناطق آمنة — لا مفر من استنتاج أن هذه الحكومة لا تزيد
عن كونها منظمة طريفة بلا أمل كبير في أن تتمكن من مواجهة الأوضاع القائمة
حاليا في البلاد » .

وتوصل « مايكل ج . كوهين » ، المؤرخ الإسرائيلي ذو الميول السياسية
الصهيونية اليسارية ، بعد أن أجرى دراسة مستفيضة للوثائق البريطانية
« الأرشيف » ، إلى « أن التاريخ يوحى ، على ما يبدو » بأن الأساليب العنيفة
التي انتهجتها جماعة « أرجون زفاي ليومي » والمكروهة فعلا من الناحية
المعنوية ، كان لها تأثير حاسم في تحويل مسألة الجلاء من كونها حلا بديلا في
فبراير ١٩٤٧ ، إلى قرار حازم ، بحلول شهر أغسطس من ذلك العام ، ينص
على التخلي عن أعباء الانتداب » .

ولكن ، لا يمكن تقييم دور « الأرجون » و « عصابة شتيرن » في فراغ .
فإن قوات الهاجاناه كانت تدبر في الوقت ذاته حملة بأسلوب مختلف لم يكن أقل
اضرازا بسمة بريطانبا ومكانتها ، وإن أدى إلى اظهار القضية اليهودية في
صورة أفضل . فقد عملت فيما بين عام ١٩٤٥ وشهر مايو من عام ١٩٤٨ على
أحضار حوالي سبعين ألف يهودي بطرق غير مشروعة إلى فلسطين . وقد
تمكنت البحرية الملكية البريطانية من اعتراض طريق ١٥٠٠ من هؤلاء

المهاجرين واحتجازهم في قبرص . وكنت اشهر مراكب الهجرة غير المشروعة ، وهي « الاكسودس ١٩٤٧ » (أى الخروج الجماعي ١٩٤٧) ، قد اقلعت في يوليو من ذلك العام من الميناء الفرنسي الصغير ، « بورت - دي - بو » ، حفنة على ظهرها ٥٠٠ يهودي . وقد تمقتها طائرات السلاح الجوي الملكي وسفن الاسطول البريطاني في رحلتها عبر البحر الابيض المتوسط . ولما كنت معسكرات قبرص قد امتلأت عن آخرها ، فقد قرر « بينين » انتهاج سياسة جديدة لمقابلة أولئك المسلمين باعادتهم الى المكان انذى اتوا منه . وفي يوم ١٨ يوليو اعلى مشاة البحرية البريطانية ظهر « الاكسودس » امام الساحل اقرب من غزة . وانتهجت « الهاجاناه » سياسة تجمع بين المقاومة والاعلام . فقد تم نقل صوت المعركة الدائرة مع القوات البحرية التي اعتلت المركب ، الى الشاطئ من خلال أجهزة ارسال قوية واختارت « الهاجاناه » ان تعرض قضيتها على المسرح العالمى الاوسع نطقا بدلا من ان تحاول انزال بعض الركاب . فصدرت القطعيات الى قبطان السفينة « ايك آرل » ، باستغلالها « كظاهرة كبرى تحمل لافتات تبين مدى ضعفنا ومسكنتنا وعجزنا ، ومدى قسوة البريطانيين » . وادى البريطانيون الدور المرسوم لهم في النص الذى وضعته « الهاجاناه » . بحماس يفوق كل تصوراتها اذ انهم قاموا بتوجيهها ، بعد سيطرتهم عليها ، الى داخل ميناء حيفا حيث أصبحت هدفا ثلثا يقف اهل آلات التصوير ومراسلى اجهزة الاعلام المالية ، وشاهد حدث وصول السفينة ، رئيس « لجنة الامم المتحدة الخمسة بفلسطين » اميل ساندستروم ، واثنان من زملائه ، بدعوة من « ابا اييل » ، الذى أصبح فيما بعد وزيرا لخارجية اسرائيل ، وكان يعمل آنذاك بالوكالة اليهودية . وقد ذكر « اييل » في مذكراته ان المهاجرين قرروا الا يستسلموا لمحاولات الابعاد في هدوء . ووجه « ونستون تشرشل » الى « بينين » اتهامها بشن « حرب قذرة » ضد اليهود .

وعلق اييل على ذلك بقوله :

« لو ان احدا اراد ان يعلم حقيقة ما يقصده « تشرشل » لمعرفة بسهولة من مشاهدته لجنود البريطانيين وهم يستخدمون اعقاب البنادق والخرابيط والقنابل المسيلة للدروع ضد الناجين من معسكرات الموت . وكتبوا يحملون الرجال والنساء والاطفال بالقوة الى السفن لجسمهم ، حيث يتم القاءهم في الاقفاص الموجودة فى اسفل السفن لينقلوا الى خارج المياه الاقليمية لفلسطين . وبينما كان « ساندستروم » و « بريليج » و « جراندوس » يراقبون هذه الممارسات البشعة ، كنت انا اترقب عودتهم الى القدس بصبر نافذ . ورايت وجوههم عند عودتهم وقد علاها الشحوب من هول الصدمة . وادركت ان سؤالا واحدا فقط كان يشغل بالهم : اذا كان هذا هو الاسلوب الوحيد الذى يستطيع به الانتداب البريطانى ان يستمر ، فمن الافضل وقفه تملها . »

وقد ضاعف البريطانيون من حملاتهم بإعلانهم لهؤلاء المشردين انى الميناء
الفرنسى « بورت — دى — بو » حيث رفضت أغلبية اللاجئين البالغ عددهم
٥٠٠ شخص ، النزول الى الشاطئ بالرغم من العرض الفرنسى بمنحهم حق
اللجوء . وابتدحت للصحافة العالمية حملة أخرى لتصوير الظروف الصحية
السيئة فى السفينة وكتابة التقارير عنها . ووصفت الصحيفة الشيوعية
الفرنسية « لومنتيه » السفن البريطانية الثلاث بأنها تشبه معسكر
« أوشفيتز » . وارتكب « بينين » عند ذاك أكبر أخطائه على الإطلاق ،
حيث أرسل اليهود الى ألمانيا . وكانت سياسته الجديدة بمثابة كارثة اعلامية
لبريطانيا خاصة فى الولايات المتحدة ، بينما أدت الى تحقيق نصر ساحق
للمسيونية . وكتب « اليزابيث مونرو » تقول : « لقد استغل الصهينة الركاب
كقطع فى لعبة الشطرنج . ولارتكبت الحكومة البريطانية ، التى تعرضت
لاستقزاز بالغ ، نفس الخطأ ، وأثارت تصرفها بإرسال اليهود الى المكان الذى
كان يعتبر من قبل بمثابة مقبرة لهم ، استياء الملايين ، أكثر مما لو أرسلوهم
الى أى مكان آخر فى العالم » .

وكانت الهجرة غير المشروعة تعتبر حتى تلك الفترة ، حكرًا على
« الهاجاناه » والوكالة اليهودية . فقد استطاع « التصحيحيون » أن ينقلوا من
أوروبا الى فلسطين فيما بين على ١٩٣٧ ، ١٩٤٤ ، أربعين ألف يهودى فقط ،
وذلك وفقا لأكثر تقديراتهم تناولا . ولكن نشاطهم فى هذا الصدد توقف بعد ذلك
وركزوا جهودهم بدلا من هذا على التفضال المسلح « للارجون » و « عصابة
شتيرن » .

وكان عموم الصهيونيين يحتكرون أيضا انشباط الدبلوماسية فى لندن
ونيو يورك بل و فى فلسطين ذاتها ، بالرغم من الرنين المرتفع لدعاية « حركة
التصحيح » فى أمريكا . وإذا قلنا أن بريطانيا ما كانت ستتخلى عن الانتداب
فى ذلك الحين بدون نغز حرب المتمردين ، فإن الحقيقة تؤكد أيضا أن قرار
الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ما كان سيحصل على الاغلبية لولا
« مغالطات الاروقة التى كان يجريها الدبلوماسيون المقتوتون فى كل من
واشنطن ونيويورك . وبالمثل ، فبدون الريادة المؤوية لصهينة حركة العمل
وحلفائهم ، لما كان هناك اعداد اقليم الدولة اليهودية ولما وجدت البنية
الاسلمية للسيادة . ولولا وجود المزارع الجماعية والتعاونية فى النقب والجبال
لما جاء خط الحدود الاسرائيلية بهذه الصورة ، بل يمكن القول أنه لما كانت هناك
شعاعة أو زراعة .

لقد كتب « جوزيف ب . سيشتمان ، رفيق « جابوتنسكى » وكاتب
سيرته ، يقول :

« لقد كلن حزب التصحيحين ، والمنظمات المنبثقة عنه ، هو الوحيد دون جميع التشكيلات الصهيونية في فلسطين ، الذي لم يكن يملك أى مستوطنات (فيها عدا بعض الاستثناءات الضئيلة القليلة) او مشروعات اقتصادية او مؤسسات خاصة به . ولقد مكنتهم هذا من المحافظة على مثلهم الصهيونية العليا وقدرتهم على حرية الحركة ، مما جعلهم الطليعة العسكرية ليهود فلسطين . بيد انهم دفعوا ثمننا باهظا جدا نظير ذلك ، فقد أصبحوا يشكلون الفئة المعوزة داخل المجتمع اليهودي ، وكثيرا ما اثرت حاجتهم الاقتصادية على فرصهم السياسية » .

ومرة أخرى أصبحت « الهاجاناه » تشكل نواة لجيش يهودى قادر على صد هجوم خمسة جيوش عربية وردها على أعقابها . وكانت جماعة « الارجون » و « عصابة شترن » مدربتين على شن هجمات غذائية والقيام بعمليات تخريبية وغارات انتقامية ، ولكنها لم تكن مدربة على استخدام أساليب الحرب التقليدية . وكانت القوة الاسمية للهاجاناه في منتصف عام ١٩٤٧ تبلغ ٤٣ ألف رجل وامرأة ، لكن كلن ٢٢ ألف منهم يتبعون « الحرس الوطنى » المقتر للتدريب والتسليح . بيد أن « الهاجاناه » كفت تلك أيضا « قوة ميدانية » قوامها ٨ آلاف من المتطوعين المتفرغين طوال الوقت ، يتدربون بانتظام . كما كانت قوات « البالماخ » النظامية تضم ٣١٠٠ رجل وامرأة . وقد جاء من بين هذه القوات الأخيرة معظم قادة الجيش الاسرائيلى الناشئ . وعندما اقتربت الحرب ، قامت قوات « الهاجاناه » بتنظيم نفسها في ٥ كتائب ميدانية وتدرت على الأساليب القتالية وانشئت ٥ مقر رئاسة اقليمية ، ومع ذلك كان الهاجاناه ظلت ، حتى حلول نهاية عام ١٩٤٧ ، مفتقرة بشدة للتسليح . فلم يكن تحت يدها سوى ١٧٦٠٠ بندقية متنوعة ، و ٢٧٠٠ مدفع نصف آلى ، واقل من ألف مدفع ملكية ويقدر أن الارجون كانت تضم آنذاك حوالى النى عضو ولكن نصفهم فقط هم الذين تلقوا بعض أنواع التدريب . أما عصابة « شترن » فكانت قوامها بضعة مئات فقط . وكان مقاتلو « بن جوريون » قد أعدوا انفسهم لشن حرب تحرير ، بينما نظم مقاتلو « ببجين » عملية التمرد ضد البريطانيين . ولا يمكن استبعاد أى من هاتين العمليتين ، كما لا يجب التقليل من شأنهما .

التفصيل المثير

كما حدث في دير ياسين

« تقيل تهاتى على هذا الذى يعد عملا رائعا وأبلغ تحياتى الى كافة القواعد والجنود . اننا نشد على ايديكم واننا فخورون جدا بقلادة المتازة وروح القتال التى سالت خلال هذا الهجوم العظيم ، اننا لن ننسى القتلى ونشهد على ايدي الجرحى بكل الحب . أبلغ الجنود انكم بهذا الهجوم والفزوة ساهمتم فى صنع تاريخ اسرائيل . غلتوا صولوا طريقكم حتى النصر ، وكما حدث فى دير ياسين وفى غيرها غلنا سنهلم ونسحق العدو . يا الهى ، يا الهى لقد اخترنا لنحقق هذا الفزوة .. »

عندما ارسل مناحيم بيجين هذا الامر الذى يشى بالابتهاج الى قتلته فى القدس كان لا يعرف الا قليلا عما حدث قبل ذلك خلال او بعد المذبحة التى وقعت يوم ٩ ابريل سنة ١٩٤٨ فى قرية دير ياسين وهى قرية عربية تقع على الطرف الشمالى الغربى من مدينة القدس . ولكنه أعلن بعد ذلك بيومين عبر اذاعة « صوت صهيون المقاتل » التابعة لجماعة ارجون زغاي ليومى انها معركة مقدسة اشترك فيها لأول مرة جنود من الارجون زغاي ليومى وليخى والبالاخ . ولقد ظل قائد الارجون زغاه اكثر من ثلاثين عاما مقتنعا تماما أن دير ياسين كانت عملية عسكرية تقليدية حارب فيها رجاله بشجاعة وشرف ، محولين التقليل من وقوع خسائر بين المدنيين الى ادنى حد متمسكين بالاخلاقيات التى درجوا عليها . وقد ادان بيجين خلال المظاهرات التى أجريت معه مؤخرا وكذلك خلال تصريحاته السابقة بن جوربون وكل شخص آخر خلفه فى هذا الرأى ووصفهم بأنهم « منافقون ضيقو الاثق » بل وصل به الامر الى وصفهم بالكذابين . أن هذا الثبات على المبدأ يعد دليلا قويا على ولاء بيجين لمبادئه وربما يعد ايضا دليلا على جنون العظمة القوى لديه . ان ما يقوله بيجين بعيد كل البعد عما حدث بالفعل فى تلك القرية فى صباح أحد ايام الجمعة بعد أن نفضت بريطانيا يديها من الانتداب على فلسطين بشهر واحد .

ان دير ياسين القرية التى يقطنها ما بين ثمانمائة واثلاث مائة نسمة يكسبون عيشهم من العمل فى المحاجر وقطع الاحجار مؤازرت تؤرق مناحيم بيجين والدولة التى ساعد على انشائها وسواء اكلن الامر مجرد صفحة ام مديرا ، وسواء فككت يهودية ام عربية فلن دير ياسين سببت ذعرا ادى الى اسراع

سبعمانه ألف من العرب في الهروب من الأرض التي سرعان ما أصبحت إسرائيل . ان الاسم لم يفقد قط رنينه ومازالت قصة دير ياسين تمثل بلفسبة للصهيونيين موضوعا محرما ، فان الوثائق والصور قد أسدل عليها ستار من السرية لفترة أطول مما يمكن أن يلحق الضرر بأمن إسرائيل . ووجد الساسة والكتاب من كلا المعسكرين الصهيونيين أنه من الحكمة اغلاق ملفت دير ياسين لأن الجميع متورطون في المذبحة . وعلى الرغم من أن بن جوريون أسرع بإرسال برفيقة عزاء الى الأمير عبد الله في عمان فلان الهلجاة كثفت مشغولة بالفعل في محو الدليل الاكثر بشاعة ، فقد استطاع مصور لجريدة سينمائية تصوير فيلم طوله اربعمئة قدم للرحلة الاخيرة من المذبحة ولكنه ارتكب خطأ بالحديث عن ذلك الى احد زملائه الذي كان يعمل لحساب مخابرات البالماخ ، والذي ذهب الى مطار اللد وقام بتبديل الفيلم قبل أن يطير الى لندن وتلقت الجريدة السينمائية فيلما طوله اربعمئة قدم يصور تشكل الضباب في القدس .

كان عرب دير ياسين يعتقدون أنهم آمنون ، على الرغم من الحرب غير المعلنة التي نشبت بعد تصويت الامم المتحدة بتقسيم فلسطين . وكانوا يلتصقون في معاهدة عدم الاعتداء التي وقعها مختار قرينهم مع الضلحية اليهودية الجاورة في جيفات شاول . وكما يقول محمد عارف سابور وهو مفتش متقاعد بالمدارس الذي كان يبلغ السادسة والعشرين من عمره عند وقوع المذبحة : « كان هناك اتفاق على ألا تحدث مشاكل بينهم ، فإذا قلت مجبوعة من شبابه بمهلجة دير ياسين فلان اليهود يقومون باعتقالهم ومنعهم . وإذا حاجم احد من دير ياسين جيفات شاول فان العرب يقومون بمنعه . لم تكن هناك مشاكل بين اليهود والعرب هناك في ذلك الوقت » . كانت دير ياسين بلفسبة للهلجاة قرية عربية يجب اخضاعها للسيطرة اليهودية عاجلا او آجلا ولكن ليس بالضرورة عن طريق الغزو ، وكانت القرية تمثل أهمية استراتيجية لسببين ، أن وتوعها في يد العدو يجعلها تمثل خطرا للضواحي اليهودية في جيفات شاول ، بيت حلكريم يلفاتوف ولبيت فلفجان بسبب موقعها في اعلى التل . وكانت الهلجاة تخطط لاقامة مهبط لاطارات على طول سلسلة التلال بين جيفات شاول ودير ياسين والتي من شأنه الابقاء على الاتصالات بين القدس والساحل في حالة الطوارئ . وفي حلة ابو غوش وهي قرية « محاذية » اخرى تقع على بعد اربعة ايام على الطريق المؤدى الى تل ابيب فلان السكن العرب واقفوا على النزوح عن القرية خلال مدة الحرب وسمح لهم بالعودة اليها بعد ذلك وربما كان يجري ترتيب لشيء مماثل بلفسبة لدير ياسين .

ولكن عضلات الأرجون وشتمين كانت لديها أفكار أخرى . فلا انهم خرجوا من تنظيمات سرية فلمهم كانوا يتوقون لانبات معدتهم ان يظهروا للهلعاناه والعرب انهم ليسوا مقاتلي شوارع . وكتبوا كذلك يشعرون بالقلق من أن بن جويون ربما يذعن لاقتراح الامم المتحدة بتحويل القدس او يقوم على الاقل بالتعامل مع الملك عبد الله .

ومع ذلك فلان اولئك المنشقين كانوا يدركون مدى النقص في الرجال وسلاح لديهم . وكذلك لانتقارهم الى التدريب على القتال . ويقول يهودا لايبوت وهو ضابط كبير في الأرجون ويعمل حاليا استاذ للعلوم في الجامعة العبرية ان جماعته لم يكن لديها اكثر من ثلاثمائة مقاتل في القدس وان عدد جماعة شتمين كان يبلغ المئة بالكاد . وقال لايبوت في شهادته للودعة في ارشيف جايوتينسكى في منتصف الخمسينات ان الفكرة الاصلية بهلجمة دير ياسين صدرت عن ييهوشيا جولدميت وهو ضابط عمليات الأرجون في القدس : « كان السبب اقتصاديا اسلحا ، اى الاستيلاء على غنية للحفاظ على القواعد التى قمنا حينذاك بانشائها بموارد فقيرة للغاية » وعلى الرغم من هذا فقد ظلت الفكرة الاساسية هى غزو القرية بقوة مسلحة وهو شيء لم يكن معروفا حينذاك في البلاد واصبح نقطة تحول في العمليات العسكرية اليهودية وسرعان ما وافقت جماعة شتمين التى كانت تتطلع الى المصالحة مع الأرجون على الاقتراح الذى تمت احلته الى اجتماع مشترك لكبار الضباط المقاتلين : اربعة من كل جماعة وفقا لما ذكره لايبوت الذى كان احد اولئك الضباط ، فلان عضلة شتمين اقترحت تحويل العملية الى غارة تاديبية يقول : « لايبوت » في شهادته :

بالاضافة الى المنقشة العسكرية تقدمت جماعة ليهى باقتراح يفصى بالقضاء على سكان القرية ليرى العرب ماذا يحدث عندما تشترك ليهى والأرجون زغاي ليومى في عملية عسكرية معا .

ولسبب اسلحي آخر — فلان هذا سوف يحدث اضطرابا كبيرا في البلاد وسيكون نقطة تحول هامة في سير المعارك . وكان الهدف الواضح هو تحطيم الروح المعنوية لدى العرب ورفع الروح المعنوية للجالية اليهودية في القدس الى حد ما وهى التى ظلت الضربة تلو الضربة وخاصة باحدث مؤخرا من تمثيل بجث القتلى اليهود الذين وقعوا في يد العرب » .

واضاف بنزومون كوهين قائد الأرجون في العملية والذى اصيب بجراح عند بداية تبادل اطلاق النار : « عندما وصل الامر الى منقشة وضم السجناء ، والنساء ، والشيوخ ، والاطفال تضاربت الاراء . ولكن كان راي الاغلبية يلف الى جانب القضاء على كافة الرجال في القرية وادى قوة

أخرى تملأنا سواء كتبت من الصيوخ أو النساء أو الأطفال .
« ان الرغبة في الانتقام كانت قوية بمقد الضربة التي وجهها العرب
الى جوفس يفتريون وأتلوت وهما مستوطنتان يهوديتان بالقرب من القدس
فتقدتها اسرائيل ثم استعملتها في سنة ١٩٦٧ .

وقد رفض ضباط الارجون اتخاذ قرار حول اقتراح عصابة شتيرن
ولكنهم أحالوه الى القيادة . . ويقول لايبندوت ان ييجين رفض الاقتراح وأصر
على أن يستخدموا مكبرا للصوت لتحذير سكان القرية واعطائهم فرصة
للاستسلام دون اراثة الدماء . وقد لكت مصادر الهاجاناه هذا . ووافق
قائد الميسدان من جماعة الارجون على مضي على استخدام مكبر للصوت
وترددوا في أن تفلت فرصة أحداث مفاجأة من أيديهم ويزعم لايبندوت ان كل
جندی كلفت لديه تعليقات بتجنب أحداث خسائر .

كان الهدف هو حل العرب على الاستسلام وكلفت الرسالة التي كان
مفروضا اذاعتها عبر مكبر الصوت هي:

« انكم محاصرون بقوات الارجون وليهي ولن يحدث لكم شيء اذا
لم تقاوتوا » .

وكان هناك احد احتملين :

اما السيطرة على القرية وترك السكان هناك او نقلهم الى القسم
العربي من القدس ، « اننا لم نتخذ قرارا سريما وجامدا مسبقا بل قررنا
الانتظار ورؤية ما سوف يحدث . وكان القرار الوحيد هو أحداث أقل قدر
يمكن من الخسائر » .

وعسرف ديفيد شالتيل قائد الهاجاناه في القسم خطة المنشقين
لهاجبة دير ياسين . وحاول في بدىء الامر اثناءهم عن عزيمهم ، فالتصيرية
كانت تقع في ذيل قائمة أولوياته . نهى لم تكن تطل على طريق القدس —
تل اييب ولم تقم بايواء العصابات من العرب الرجل الخارجين عن القانون .
وكانت الهاجاناه مشتبكة في معركة يثمة للاستيلاء على كاستيل وهى مضبة
استراتيجية تتحكم في الطريق العام . واقترح شلتيل أن ينضم رجال الارجون
وشتيرن بأسلحتهم الى المعركة المدائرة للاستيلاء على كاستيل ولكنهم
رفضوا كما رفضوا كذلك اقتراحا بالاستيلاء على قرية عربية أخرى قريبة على
الطريق مثل قرية كولونيا بالقرب من قرية موتزا اليهودية . ويقول لايبندوت :
« كلفريد ان نركز على القتال في القدس وأن نترك القتل على الطريق
للبلماخ والهاجاناه . ولم يكن لدينا قوة كبيرة كافية في القدس . ولم يكن
في استطاعتنا تقسيمها . وكانت دير ياسين ، كما يبدو ، هدفا يسهل
الاستيلاء عليه .

وعلى عكس الإنكار الذي أعلنته الهاجاناه عقب المذبحة مباشرة فإن شاليتل وافق على مفضى على المخلصة على دير ياسين ولكنه وضع شروطا صارمة في خطاب أرسله الى قادة عصابات الأرجون وشترين المطين :

« نما الى على انكم تخططون للقيام بعملية ضد دير ياسين ، واود ان الفت انتباهكم الى حقيقة أن الاستيلاء على دير ياسين والاحتفاظ بها هو مرحلة في خطتنا الشاملة . اننى لا اعترض على قيامكم بالعملية شريطة ان تكون لديكم القوة الكافية للاحتفاظ بها . فاذا لم يكن ذلك في مقدوركم فاتنى احذركم من تدمير القرية مما سيؤدى الى رحيل السكان وقيام قوات خارجية باحتلال المنازل المنهارة . ان هذا الموقف سيجعل المعركة العملية اكثر صعوبة بدلا من جعلها اكثر سهولة . وان محاولة اعادة احتلال المكان سيلحق خسائر جسيمة برجالنا . وهناك رأى آخر اود وضعه نصب اعينكم وهو أنه اذا دخلت قوات خارجية المكان فإن هذا سيفضى على خططنا ببناء مطار » .

وكان شاليتل يأمل في أن يبقى المنشقين بمواردهم الضئيلة عن تنفيذ ما ينوون القيام به في دير ياسين ولكنهم كانوا مصرين على المضي قدما . واثق قائد الهاجاناه اعطاء موافقته بدلا من المخلصة بوقوع مواجهة مسلحة بين القوات الصهيونية المتنافسة . كان قرار ازرائيل جاليلى قائد الهاجاناه بعدم التعاون مع رجال الأرجون وشترين خرقا للأوامر الثابتة . ولكن شعر شاليتل أنه يتعين عليه استخدام الحكمة . وفي يوم الجمعة ٩ أبريل سنة ١٩٤٨ زحفت قوة مشتركة مكونة من ثمانين مقاتلا من الأرجون وأربعين من شترين الى دير ياسين في هجوم من جهتين . وقبل اذاعة أى تحذير وقع مكبر الصوت في حفرة وعلى الرغم من أن بيجين ظل سنوات بعد ذلك يزعم أن سكان القرية تجاهلوا التحذير الا أن شهود العيان أجمعوا على أنه لم يذع أى تحذير قط — او على الأقل من على مسافة تسمح للعرب بسماعه . وحتى أية حال نكبا يقول لا بدوت فإن هذا ما كان يغير من الامر شيئا . فضل العرب القتل وكانوا اكثر استعدادا مما كان يظن مهاجمهم . وكانت دير ياسين مثلها مثل أية قرية في فلسطين التى يسودها الاضطراب تعين عرسا أثناء الليل . واستطاع احدهم رؤية المهاجمين الذين ندموا فيما بعد لانهم لم يقوموا بهجومهم تحت جنح الظلام — وأطلق الحارس تحذيره وكان كل بيت تقريبا يمتلك بندقية وان كفت من النوع العتيق وأمسك الرجال ببنادقهم وشرعوا في الدفاع عن انفسهم وعائلاتهم وكان القائد بنزيون كوهين ضمن ابطال الخمسة والثلاثين يهوبيا الذين أصيبوا بجراح وكان اجمالى القتلى أربعة من الأرجون وواحد من شترين . ولم يكن هناك دليل على وجود مدافع او غيرها من الأسلحة الثقيلة او جنود عراقيين او سوريين كما يزعم الأرجون . وروى شهود العيان اليهود ما راوه من اطلاق النار

من انقناسة الذى كلن متواصلا وحقيقيا . ووفقا لما ذكره لابيودوت الذى نولى القيادة فلن مقللى الارجون وشترين كلن لديم نحو عشرين بندقية وثلاثة مدافع من طراز برين (وكلنت اكتر الأسلحة فاعلية) وما بين ثلاثين الى أربعين مدفع خفيف من طراز ستين وان لم يعمل معظمها لانها مصنوعة بأيدى الهواة فى ورش الارجون ، فى تل ابيب وعدد قليل من المسدسات والقنابل انيدوية تقول شهادة « لابيودوت » :

« كانت المشكلة الاساسية بالنسبة لدير ياسين أن العرب كانوا اقصى منا ولديهم بنادق وذخيرة اكثر وكثرتا يحاربون من منزل الى منزل . وحقيقى أن المقاومة كلنت مركزة على تل واحد الى الغرب ولكن كلن هذا مركز المدينة ، الذى يشكل تسعين فى المئة من مساحة القرية » .

تم ارسال رسول الى مركز قيادة الهاجاناة فى القدس فى ثكنات شينلر وارسل شلتيل مجموعة جنود من البالمخ مع مدفع مورتير ومدفع رشاش . وقتلت وحدة البالمخ بتطويق التل الغربى من الجهة اليمنى واستطاعت اسكلت المقاومة دون وقوع خسائر ثم انسحبت . ومها كلن اعتقاد بيجين الذى عاد الى تل ابيب بالنسبة للمنشقين وقتال البالمخ جنبا الى جنب ، فقد كان ذلك هو حجم الاشتراك الفعل للهاجاناه فى المعركة . ومع انهيار الجانب الاكبر من دفاع العرب استأنف مقللو الارجون وشترين القتال مصوبين نيرانهم الى أى شىء يتحرك وللمنازل لنسفها سواء كلن السكن داخلها ام لا واصبح من الصعب بصورة متزايدة السيطرة على مقللى الارجون وشترين . وما لا شك فيه أن بيجين أمر بضبط النفس ولكن كلما طال امد العملية ، ازدادت الفوضى ، وبدا أن المثيرين عادوا الى غرائزهم الوحشية الاولى . ويقول يهوشيا جوردينتشك وهو ضابط من الارجون انهم فكروا فى الانسحاب بعد أن احقت بهم خسائر :

« كان لدينا اسرى وقررنا القضاء عليهم قبل الانسحاب ، كذلك قضينا على الجرحى لاننا لم نكن نستطيع على أية حال علاجهم وفى احد الامكن قتل نحو ثمانين من الاسرى العرب بعد أن قام بعضهم بإطلاق النار مما أسفر عن مصرع شخص من اتوا لعلاجهم ، كذلك تم اكتشاف العرب الذين تنكروا فى زى النساء . وهكذا شرعوا فى اطلاق النار على النساء أيضا اللاتي لم يسرعن الى المنطقة التى تجمع فيها الاسرى » .

أكد يائير تاسبان وهو الان عضو فى حزب ماابام اليسارى فى الكنيسست قصة الرجال العرب الذين تنكروا فى زى النساء . وكان تاسبان حينذاك يبلغ السابعة عشرة من عمره ويدرس فى احدى المدارس الثانوية فى القدس ودفعه مقللو الهاجاناه للاشتراك فى دفن الموتى بعد انسحابهم من مساحة المعركة . ولكن تاسبان يقدم تفسيراً مختلفاً لذلك :

« ما رأيناه كلن نساء وأطفالا وشيوخا والذي اصلنا بالمصدة هو مجرد حالتين أو ثلاث علي الأمل من الشيوخ الذين تنكروا في زى النساء وانفكر عندما دخلنا الى حجرة الميشة في أحد المنازل ان وجدنا امرأة صغيرة ميتة في أحد الاركان وكان ظهرها الى الباب وعندما وصلنا الى الجثة وجدنا أنه رجس عجوز بلحية . وكان استنتاجي لما رأيته أن ما حدث في القرية قد أثار رعب اولئك المجائز لدرجة انهم أدركوا ان كونهم عاجلز لن يشفع لهم وكتلوا ياماون في ان التنكر في زى النساء سينقذهم » .

استطاع ماثر بليل الذي اصبح فيما بعد سياسيا يساريا وكان وقتذاك ضابط مخابرات في الهلجاة في القدس ولم يكن معروفا لعصابات الارجون وشترين ان يشهد العملية برمتها : الهجوم ، والمقاومة والمذبحة . وكان قد عرف بالهجوم المرتقب وقرر ، دون ابلاغ رؤسائه ، ان يذهب وان يرى كيفية تنفيذ المنشقين لمخططهم . واخذ معه آلة تصوير وكان هدفه هو ابلاغ مقر القيادة بقدرتهم القتالية . وكان من المعروف ان الانجليز سيتركون البلاد قريبا وان الهاجاناه ستكون هي الجيش الوطني وستعمل على ضم المنشقين الى صفوفه سواء كوحدات متميزة أو موزعة بين المقاتلين الآخرين وعلى اسوا الاحوال فانهم اذا رفضوا انتظى عن وضعهم المستقل فغن الهلجاة ستقوم بلخصاصهم بقوة وفي كلتا الحالتين فانه سيكون من المفيد تقييم ادائهم في أول عملية تقليدية يقومون بها . واستهل بليل تقريره لا زرائيل جاليلي بالآيات الانتاحية لاحدى القصائد العبرية المشهورة التي كتبها حايم ناشمان بياليك بعد مذبحه كيشنيف سنة ١٩٠٢ والتي قام خلالها الرعاع الروس بقتل تسعة واربعين يهوديا وجرح خمسمئة آخرين :

« انهض واذهب الى مدينة القتلى وستصل الى الافنية وسترى بعينيك
« وستلمس بيدك على الاسوار والأشجار والأحجار والحوائط دماء
« القتلى المتجدة وانتمهم المسحوقة ..

ومازال تقرير بليل محظورا ولكن ما يفكره هو مذبحه غير منظمة بعد ان ضمت معظم المقاومة العربية :

« كانت مذبحه فورية لم يسبق الاعداد لها . كانت انفجرا داخليا لا يستطيع أحد السيطرة عليه . كانت مجموعات الرجال تذهب من بيت الى بيت تقوم بأعمال السلب والقتل وكتت تستطيع سماع صرخات النسوة العرب ، الشيوخ العرب والأطفال العرب في منازلهم ، حاولت المنور على القادة ولكني لم اناجح ، حاولت ان أصرخ وان امنعهم ولكنهم لم يكونوا يلقون بالا الى » . كانت عيونهم طمع كتوا كما لو كتوا مخدرين ، مسممين عتليا ، كتوا في حالة من التثوة » .

وبالنسبة لحمد عارف سامور لم يكن الضحايا مجرد اشخاص مجهولين لديه كانوا أبناء صومعته ، جيرانه أصدقائه وشاهد المدرس الشاب المنجبة من منزله الواقع في الجانب الآخر من دير ياسين حتى نجح في الساعة الرابعة بعد الظهر من الهروب الى عين كرم على بعد عدة ايام الى المغرب ويقول ان معظم الناس قتلوا داخل منازلهم :

« في احدى الحالات وهى حالة اسرة زهران نجا شخص واحد من بين خمسة وعشرين ، وفي منزل آخر امسكوا ببلن الاسرة غواد البالغ من العمر ستة عشر عاما وكلفت له تمسك به وقتلوا بقتله بسكين ، وقضت الام بعد ذلك عشرين عاما في احدى المستشفيات العقلية . وفي احد الشوارع قتلت سيدة شابة وطفلاها البالغان من العمر سنتين فقط وتركت لجسادهم هناك . وانتقل المهلجون الى قلب القرية وشرعوا في قتل كل من يرونه او يسمعون به مجرد ان يفتح بابه كقولوا يستخدمون القنابل (اليدوية) البنادق الالية وشبه الالية . واستطاع ابن عمي الهرب بعد ان اصيبت ملايسه بقنوب من طلقات الرصاص . وقام احد الضباط بوضع بندقيته الالية في احد النوافذ وشرع في اطلاق النار في الخارج وقتل اى شخص يتحرك . وقتلوا بقتل عمى على حسن زيدان وعمى فلعبة التى سمعته ينادى « انقذونى » فهرعت اليه ولكنهم قتلوها . وجار آخر الحاج يارح الذى سمع بعض الاصوات وخرج ليستطلع الامر ولكنهم قتلوه هو ايضا وسمع ابنه بحمد الذى يبلغ السابعة عشرة من العمر سمع ابيه يناديه ، فذهب الى نفس المكان وقتلوه . وسمعت امه صوته يطلب انقاذه فجرت اليه وقتلوه . حدث كل هذا قرب منزلى ورايتة . »

وتحدث سامور وبقيل عن قيام مجموعة من الجنود بتنفيذ حكم الاعدام في خمسة وعشرين رجلا في احد المحاجر بين دير ياسين وجيفات شلؤل . ويمترف سامور انه لم يشاهد اطلاق النار ولكنه سمع عنه من احدى النساء التى شاهدته . ومع ذلك فلن بقيل لا يساوره الشك حين يقول : « قتلوا بوضعهم في احد المحاجر وظهورهم الى الحائط ثم اطلقوا عليهم النار ، رايت اطلاق النار ثم تمت بعد ذلك بتصوير الجثث . ويقول بهوشيا ارييلى وهو جندى بالجيش البريطانى كان يقود المتدربين من الهاجقاه والذى ارسل لحسن الموتى انه راي عددا من الرجال « قتل في الحجر » . ويزعم يهودا لابوديت انه لم يسمع قط عن تنفيذ عمليات اعدام وانه باعتباره قاتلا عللا كن سيفعل ذلك ولكن كل الدلائل تشير الى عكس ما يزعم .

وهناك مزيد من التقارير البشعة حول الفظائع التى ارتكبتها قوات الارجون وشترن التى يستعرض فيها لارى كولينز ودومينيك لابير في

كتابهما « القدس » مزيدا من القصص حول عمليات الاعتصام وما زعم حول شق بطن إحدى النساء الحوامل وكان مصدرهما الاساسى ممثل المصليب الاحمر في القدس جاك دى رينير والمقيلات التى أجرتها محطة سى . اى . دى البريطانية مع الذين تجوا من المذبحة ويعترف دى رينير فى تقريره المنشور انه وصل الى القدس يوم الاحد اى بعد يومين من القتل ولكن قوات الأرجون وشستين كانت لاتزال هناك . ويرى كولينز ولابير ان هناك « اتجاها عربيا لتضخيم الاحداث عند استعانتها والتأمل فيها » وهناك دليل آخر يشير الى انه لم تثبت ادانة المهاجمين . ويقول يانير تسبان الذى شهد انسحاب الأرجون وشستين انه لم ير أية دماء على ملاجئهم ويضيف قائلا : « اتنا عندما قمنا بدفن ضحايا لم أر اى دليل على استخدام السككين فى القتل . ايا محمد سلور الذى ليس لديه اى سبب للتقليل من الفظائع فوائق انه لم تحدث أية اعتداءات جنسية » اتنى لم اسمع أو أرى اى اغتصاب أو اعتداءات على النساء الحوامل ولم يتحدث معى اى شخص من الناجين عن طحوت مثل هذا الامر . فاذا حدثك شخص عن ذلك فانتى لا اصدق . وكتب طبيبان من القدس ارسلتهما الوكالة اليهودية لفحص الجثث تقريراً قالاً فيه انهما لم يشاهدا اى اثر لوتوع تعذيب أو تمثيل بالجثث .

بما لا شك فيه أن المنشقين قاموا بعملية استعراض للأسرى العرب عبر شوارع القدس اليهودية قبل اطلاق سراحهم فى الجانب العربى من المدينة ، وانهم رفضوا الاحتفاظ بدير يأسين كما أمرهم شاليتل أو دفن الضحايا . ويوافق لايبوت فى مجال تفكره لما حدث أن رفض دفن الموتى كان خطأ فاحشا « انك لا تستطيع أن تترك جثث الموتى فى أرض المعركة حتى لو كانت جثث الاعداء ، لم تكن منظمين لتفعل ذلك لم تكن نعرف ما يجب علينا عمله كانت تلك هى المرة الاولى التى نخوض فيها مثل هذه المعركة ويحدث مثل هذا العدد الكبير من الضحايا . كنا مكودين ، كذلك كنا خائفين من أن يقوم البريطانيون بضربنا بالقنابل من الجو » .

كل هذا الخوف الاخير صحيحا وحاسما فقد تعرضت السلطات البريطانية على المتهمين وكثت تواتة الى تصفية الضحايا معهم ولكن لم يكن لديها فى ذلك الوقت الطائرات أو القوات المطلوبة . وبعد مواجهة عسيرة سمحت المهاجرات لفقلى الأرجون وشستين بالانسحاب . وقد تمت تعبئة يانير تسبان ومعه نحو مائة من رفائله المدرين للقيام بعملية دفن الموتى لان الجانب الاكبر من القيادة الصهيونية كانت لا تريد أن يرى البريطانيون والمصليب الاحمر الدولى أو الصحافة المالية النظافة الكلية فى

دير ياسين وتمت عملية الدفن بسرعة شديدة لدرجة أن أحدا لم يتوقف ليحصى الجثث . ويصفه عامة فان الآراء أجمعت على أن عدد القتلى العرب وصل الى ما بين ٢٤٠ و ٢٥٠ على الرغم من أن بيجين كتب في كتابه « التبريد » : أن القتلى يبلغ عددهم نصف ذلك الرقم . ولكن ما يدعو للدهشة أن محمد عارف سلهور يوافق في هذا القول ويقول أن ثلاثة وتسعين قد قتلوا في القرية وأن ثلاثة وعشرين قد أعدموا في المحجر المجاور لها . وهكذا يبلغ مجموع القتلى مائة وستة عشر قتيلا . وبعد نحو ثلاثة أيام من المذبحة اجتمع ممثلون عن العشائر الخمسة في دير ياسين في القدس في المكتبة الإسلامية بالقرب من المسجد الأقصى ووضعوا قائمة بالاشخاص المفقودين وأحصينا الاسماء فوجدناهم مائة وستة عشر ولم يحدث شيء منذ سنة ١٩٤٨ ليحملني على التذكير أن هذا الرقم كان خاطئا .

وبرة أخرى فليس هناك ما يدعو سلهور للبالغلة أو التقليل من عدد الضحايا ويدعم رأيه هذا يهوشيا أريئلي الذي يعمل حاليا أستاذا للتاريخ وأحد دعاة السلام في اسرائيل فيقول ان « رقم مائة وستة عشر رقم معقول ولا اعتقد أنه كان باستطاعتنا دفن أكثر من ١١٠ الى ١٤٠ جثة » .

ان الرقم الحقيقي لن يمكن معرفته قط لانه لم يتم وضع علامات على القبور ولم يسمح للعرب بالعودة الى دير ياسين . وعلى أية حال فان الاسطورة غابت الاحصائيات .

الفصل الحادى عشر

تمرد على السفينة النالنيا

انتهت الحياة النشطة للارجون زغاي ليومى يوم الثلاثاء ٢٢ يونيه ١٩٤٨ كلن ما حدث لشبه بالفيلم الماسلوى الشهير « ذهب مع الريح » : القاء آلاف من اعملات النقدية على شاطئ تل ابيب ، الاخ يقتل اخاه ، احتراق سفينة محملة بالاسلحة والذخيرة والمتجرات شديدة الانفجار بالقرب من الشاطئ ، الشائعات عن الحرب ، الخيفة والخطر ، المواطف المشبوبة والخطب الرنانة الرخيصة وكان اغراق الجيش الاسرائيل بناء على اوامر من رئيس الوزراء لسفينة الارجون « النالنيا » المحمية المحملة بالاسلحة صدمة اخرى تشبه « تهمة الدم » فى مقتل ارلوزوروف وخيانة شمشون وهو مالم يغفره مناحيم بيجين قط لديفيد بن جوريون وحركة العمل الصهيونية التى كان يتزعمها . ومع ذلك فقله يجب على قائد الارجون ان يتحمل مسئوليته عن البرقيات المتعارضة وسوء التقدير التى اوصلت الدولة اليهودية الوليدة الى حافة الحرب الاهلية .

ضعفت سيطرة بيجين على الارجون عندما خرجت عن نطاق العمل السرى وبدأت قيادة القدس التى كانت معزولة فى طرف طريق معرض للهجوم بعيدا عن مقر القيادة فى تل ابيب تعمل باستقلال متزايد . وكلفت وحدات الارجون قد تم اهلجها فى الجيش الوطنى الذى استمد بنياته وقواده من المهاجرين . وبدأت المكاتب فى الخارج تأخذ بملفات من جلقها دون تنسيق وبينما بدأ كبار الرفاق فى العودة الى الوطن من المنفى أو السجن لم يعد بيجين يملك وحده احتكار الحكمة السياسية . فكان هناك رجال مثل يلكوف ميريدور ، الياما لا يكن ، اريخ بن اليمالزر وهليل كوك ، اكتسبوا خبرة متراكمة فى افريقيا ، واوروبا ، والولايات المتحدة ولم يكونوا واتقين ثقة عمياء بأحكام بيجين . والثىء نفسه بالنسبة للمقاتلين الشلب مثل اميهاى بلطين الذى نضجت شخصيته وسط النار . كانوا جميعا يشعرون بحرية اكبر فى مناقشته بل وربما فى الاختلاف مع قراراته احيانا . كانت الايلم والدولة ذاتها فى حالة من عدم الاستقرار . لم يكن هناك اجماع من الارجون بالاعتراف بالسيادة المطلقة للحكومة الانتقالية برئاسة بن جوريون ، أو فى التخلّى عن روح العمل السرى . وفى الوقت الذى أبصرت فيه « النالنيا » التى سميت على الاسم المستعار لجاپوتينسكى عبر البحر المتوسط اختلط الخط الفصل بين الاستراتيجية والتكتيك ، بين العمل السياسى والقيام

بلمعالمات العسكرية التى استمد منها بيجين قوته . خرج القائد من ممكنه الى الميدان . كان ذلك عللا غير مالوف ، اذ اعتقد رجال الارجون الاخرون انهم اكثر دراية منه فى هذا المجال . وبسبب تشتت السلطة ،

كان حوار بيجين مع يزارايل جليلي الذى كان حينذاك نائب بن جوريون فى وزارة الدفاع مترددا وغامضا افسدته التركة المثقلة بعزم الثقة والمنافسة السياسية ويشير السجل التاريخي ان كلا الجانبين كانا مخطئين فى شكوكهما فلم يكن بيجين يخطط لانقلاب كما ان بن جوريون لم يكن ينصب لقائد جماعة الارجون كما يهدف الى القضاء عليه وعلى البقية من قوته . ولكن كلا الرجلين تصرنا بطريقة اوحى بانهما يتآمران ضد بعضهما البعض . فقد اساء بيجين فهم دوافع وقرارات بن جوريون . ولم يقدر كيف سيقوم رئيس الوزراء بارساء اسلمس بناء الدولة والحكومة والجيش . وساعد تردد الارجون على زيادة شكوك بن جوريون كما ساعدت على ذلك الكراهية

المتأصلة فى نفسه ازاء كل شئ يظله الارجون ومنحيم بيجين من عنف ، وفوضى الامر الذى يشكل تحديا وقعا للحق الالهى لحزبه ، حزب الملبى .

وما كان يجب ان تحدث لمساء « اللانينا » . فقد كفت دولة اسرائيل التى ولدت قبل ذلك بشهر واحد فى ١٢ مايو ١٩٤٨ تقابل من اجل بقائها . وكفت القدس اليهودية تتعرض للتهديد من الشرق وتل ابيب من الجنوب . وكان الجيش يمر فى طور التشكيل من عصابات الهاجاناه والارجون وشتمين ومن العناصر المتنافرة من المتطوعين اليهود القدامين عبر البحار . وكل يعانى نقصا شديدا فى الاسلحة والذخيرة . وكانت « اللانينا » تحل نحو خمسة الاف بنديقة بريطانية من طراز لى انفيلد واكثر من ثلاثة ملايين طلقة بنديقة ، ومائتين وخمسين بنديقة من طراز برين ومائتين وخمسين بنديقة من طراز ستين ، ومائة وخمسين بنديقة الية المائنة من طراز سباندوا ، وخمسين مدفع مورتار ، وخمسة الاف قذيفة ، وطلبا من مادة ال تي . ان . تي وكذلك سماعة واربعين متطوعا ليسوا جميعا من المتطاعين مع الارجون . وكفت السفينة اشبه بمنحة الهية ، كانت تلك السفينة سفينة امريكية من مخلفات الحرب بدأت العمل فى سنة ١٩٤٤ واشتراما هليل كوك من اللجنة العبرية للتحرير القومى ، النسادى الامريكى لمؤيدى الارجون ببلغ خمسة وسبعين الف دولار . وقلم افراهم ستفسكى بتسجيلها تحت علم بنما . بعد بحث مضمي عن الاسلحة تلقى المكتب الاوربى للارجون حولة السفينة من الاسلحة هدية من الحكومة الفرنسية التى كان واضحا انها ترد الصاع صاعين للبريطانيين لتأييدهم شارل ديغول قبل وبعد التحرير .

وقبل ثلاثة ايام من انتهاء الانتداب البريطانى ابلغ جاليلى ببجين ان
بن جوريون ينوى اعلان دولة يهودية . ووافق قائد الأرجسون ، الذى كان
يخطط لاعلان الدولة بنفسه اذا لم يتم بن جوريون بذلك ، وافسق على
الاعتراف بالحكومة المؤقتة وعرض على الفور بيع « الثالانجا » الى السلطات
بببلغ مائتين وخمسين الف جنيه استرلينى ورفض جاليلى عرضه على اساس
ان السفينة معروفة لدرجة انه من المتعذر ان تقوم بنقل الاسلحة دون
اكتشافها . وفى اول يونيو تعهد ببجين بضمم الأرجون الى صفوف الجيش
الوطنى ووقع مع جاليلى اتفاقا من ست نقاط :

١ - انضمم اعضاء الأرجون الى صفوف الجيش .

٢ - يجرى تشكيل وحدات خاصة من مقاتلى الأرجون فى الوية الجيشى .

٣ - يتم تسليم الاسلحة ، المعدات وتجهيزات صناعة الاسلحة الى
سلطات الجيش .

٤ - تمارس هيئة اركان مؤقتة تتكون من ضباط من الأرجون عملها
نيابة عن الجيش حتى يتم انضمام كافة اعضاء الأرجون (لم يتحدد موعد محدد
ولكن بن جوريون رأى ان هذا سيستغرق نحو شهر يتم بعده تسريح هيئة
اركان الأرجون) .

٥ - الخاء انشطة الشراء المنفصلة وتحويل العقود الى الجيش .

٦ - تتوقف الأرجون وقواتها عن العمل كوحدة عسكرية فى دولة
اسرائيل وداخل مجال سلطة الحكومة الاسرائيلية .

اضاف جاليلى ، نزولا على رغبة ببجين للحفاظ على ماء وجهه ، جملة
تنص على ان الأرجون تحل نفسها بمحض اختيارها . ولم يرد أى ذكر عن
وحدات الأرجون فى القدس . ولكن زعم ببجين ان المدينة المتنازع عليها
خارجة بصفة مؤقتة عن مجال سلطة الحكومة .

ليس هناك ما يدعمو للشك فى اخلاص ببجين بتوقيعه هذا الاتفاق ، كانت
ثورته موجهة ضد البريطانيين وكان هدفها اقلية دولة يهودية فى الوطن القديم ،
وأقر بأن بن جوريون الذى كان يتمتع بتأييد الاغلبية ، هو الزعيم الطبيعى
لهذه الدولة وكان مستعدا بصفة أساسية للتطلى عن اثارة العراقل من اجل
السياسة الديمقراطية ولكنه اختلف اختلافا جذريا حول نقطة حساسة وهى
- حدود الدولة - مع الاتجاه السائد للقيادة الصهيونية لدرجة انه لم يكن
من الممكن النظر الى ولائه ككبر مسلم به . ورفض ببجين التقسيم وواصل
الحديث والعمل كما لو كان يستخدم الأرجون لامثاله مهما كان تيار
الحكومة ، وكان ذلك الاساس المنطقى وراء شك بن جوريون وهو ما لم
يحاول ببجين تهديده .

اعلن بيجين في كلمة القاها يوم الاستقلال في ١٥ مايو ان الارجون ستدخل عن العمل السرى « داخل حدود الدولة العبرية المستقلة » وأضاف في تفسير اختار كلمته بعناية : « لقد لجأنا الى العمل السرى تحت حكم القمع . الان لدينا حكم يهودى في جزء من وطننا . في هذا الجزء ليس هناك حاجة الى العمل السرى لليهودى . في دولة اسرائيل ستكون جنودا وبناء » .

وفي الوقت الذى كلفت الارجون تتفاوض فيه مع معلونى بن جوريون كتب بيجين الى زملائه في الخارج أن الارجون ستكون القوة المقتلة اليهودية الوحيدة « لموضع الامة في موضع القيادة للبلاد بأسرها » ولأن القيادة الصهيونية الرسمية والمهجعاه لن تكون مستعدة لذلك فإن الارجون ستحتاج الى أسلحة لأجل عشرة آلاف رجل (وهو عدد اكبر بكثير مما تستطيع استخدامه في ذلك الوقت) وحث ممثليه على (تكليس الأسلحة) . عندما اشتكت السلطات بعد توقيع اتفاق يونيو من أن الارجون ما تزال تشتري الأسلحة من الخارج وتجمع التبرعات من الداخل أجاب بيجين بأن هناك تدخل فنى . ولم تقتنع الحكومة . وانتظرت بمشها لشراء الأسلحة في مرسا بدون أن تتصل بها الارجون ، وفي اسرائيل كرر بيجين القول خلال عرض عسكري في ناتانيا أن دور العمل السرى في الخارج هو جمع الأسلحة حتى يحين الوقت لشحن هجوم لغزو البلاد بأسرها . وأثار طلق ليفى اشكول الذى كان زميلا لجاليلى خلال المفاوضات مع الارجون ما رآه من الانقسام في القيام بالادوار . ففى الوقت الذى يلعب فيه دور السياسى يلجأ زملاؤه الى الخير العسكرية . كتب الصحفي الاسرائيلى شلومو نلكيبون في تقريره حول موضوع السفينة « القاتلينا » المؤيد للارجون الى حد كبير : « لم تستبعد فكرة أنه ربما يكون ضروريا للارجون زغاي ليومى أن تتواجد خارج حدود البلاد وفي القدس الدولية . وأكد هذا شلوميل كاز وهو عضو في جماعة الارجون في أوروبا :

« اننا لن نحل صفوننا كلية ، اننا لم ننس قط القدس ، التى رفضت الحكومة الاسرائيلية اعلان سياستها عليها ، حيث سقطت المدينة القديمة وحيث تتعرض المدينة الجديدة للخطر . هناك يتعين على الارجون أن تواصل وجودها المستقل للنضال من أجل ضم المدينة بأكملها الى الدولة اليهودية ، وحتى ذلك الحين فانه يتعين الحفاظ على بقايا الارجون في الخارج » .

ويبدو أن كلمة خارج الحدود كلفت تعنى خارج حدود التقسيم .

ازدادت شكوك الحكومة في ١٩ يناير بعد أن إبحرت « التبالينا » من ميناء بورت دى بوك بالقرب من مارسيليا عندما انقضت إحدى وحدات

الارجون احسد متاريس الجيش وازدادت اعمال التمرد المافئة خلال اسبوع
ازمة السفينة « التالينا » .

وفي ٢٦ مايو كتب بن جوريون مقالا يدعو فيه الى اخضاع تلك التهديدات
التي تهدد وحدة الدولة والجيش وحظر الابتداء على أية قوة مسلحة خارج
الجيش ولم يكن هذا مرسوما روتينيا واكد « بن جوريون » :

ان هذا يقرر مصير الدولة الجديدة ووجودها والذين يحبون نوق
ارضها . ان مخواه هو الحيلولة دون تقويض الدولة وتدمير الجيش . ان
جيشا واحدا خاضعا للدولة وللدولة فقط يعمل باسمها يمكن ان يبقى الى الابد
وليس جيوشا خاصا متحزبة .

ويحق لبن جوريون ان يفخر لانه طبق نفس المنطق دون تنم على
البالاح ، الجيش الخاص لليبار ولكنه انتظر حتى نهاية حرب الاستقلال .

وتسلمت الارجون يوم الاربعاء ٩ يونيو بناء على امر من جورج بيدال
وزير الخارجية الفرنسية الاسلحة التي بلغ ثمنها خمسة ملايين دولار .
وبعد يومين على الرغم من اضراب عمال الشحن ابحرت السفينة التي
تزن ١٨٠ طن بحمولتها كاملة . وتوافق ابصار السفينة مع بدء وقف اطلاق
النار لمدة شهر بين القوات الاسرائيلية والعربية الذي توصل اليه مراقبو
الامم المتحدة . وجهت الهدنة التصرفات في الارض ومنعت اخراج اسلحة
اضلعية . وفي مكتب الارجون في باريس اعرب شامويل كاتز عن استيغله
من تلك الشروط باعتبارها تذل بالميزان الى درجة كبيرة في غير صالح اليهود .
ولم تمنع الهدنة بريطانيا من شحن اسلحة الى العراق او الاردن او مصر
حيث موافقها بعيدة عن منطقة القتال . وكان الحظر الوحيد الفعالي ضد
اسرائيل ، كتب كاتز :

١ اعتدت الهدنة من حيلنا ازاء سفينة التالينا التي ستكون الان
معرضة للهجوم من جانب المصريين او البريطانيين ، كاتتهك للهدنة . .
قررنا انه على ضوء خطورة الموقف بالنسبة للأسلحة فاننا سنقوم بالمخاطرة
التي ربما تنشا عن انتهاك رسمي للهدنة ، ولذلك فانه يجب ان تبحر
السفينة وان يقوم قاعدها بالقيام بما يراه ضروريا لتجنب او مقاومة الاعمال
العداثية اي انه يتعين على القائد ان يفعل كل ما هو ممكن لتجنب مراقبة
الامم المتحدة) .

كل ذلك قرارا من جانب واحد اتخذه مكتب باريس الذي احتفظ سرا
ببوعد ابصار السفينة عن مقر الارجون في تل ابيب . وكلفت باريس تمسرى
ان يبين لديه تحفظات حول انتهاك الهدنة على الرغم من انه كان يعارضها
من حيث المبدأ ، وكان يقول لزملائه : « ليس مهما موقفنا ازاء الهدنة ولكننا

لا نريد ان نتحمل مسؤولية النتائج المحتملة التي تنتج من انتهاكها » . ولكن كان مكتب باريس واثقا ان الحكومة ستخضع للامر الواقع ولم تكن لديه النية للسماح لمل ابيب بتقرير موعد ابصار السفينة او اذا كانت ستبحر ام لا . ان القول انه كانت هناك مخاوف من ان يتم اعتراض برقية او مكالمة تليفونية كان عفرا واحيا . وعلى اية حال فلن مغادرة السفينة عرفت على الفور وعرف بيجين بالمر الابصار من محطة الب - بى . بى . سى كما عرف عن أزمة أخرى حدثت بعد ذلك . وقام بيجين بالمرسل بوقية الى كافر ، الذى أكد - بعد ثلاثة ايام - ان الشحنة في طريقها . وفضل بيجين ان يدع الحكومة تقرر ما اذا كانت ستخاطر بانتهاك الهدنة بالسماح للسفينة بالدخول الى ميناء اسرئيل . وقام بمخاطبة مونرى نين قبطان السفينة والياهو لانكين قائد كتيبة الارجون على السفينة عن طريق الراديو وامرهما بالبقاء بعيدا وانتظار مزيد من التعليمات . وعلى الرغم من ان لانكين تلقى الرسالة الا انه اختار ان يتجاهلها وواصلت السفينة ابصارها .

وخلال اجتماع عقد في ١٥ يونيو ابلغ بيجين وارينغ بن اليمائر الذى كان قد وصل من فرنسا جليلي عن السفينة وحولتها الثانية . وفي هذه المرة تجاهل بيجين اعتراضات زملائه وابلغ الحكومة عن حولة السفينة وكان قد احتفظ حتى ذلك الحين بسر هدية بيدال . وبمسد التشاور مع بن جوربون ابلغ جليلي تليفونيا عن موافقة الحكومة على السماح للسفينة بالاقتراب من الشاطئ . ولكن امر الارجون بسحبها الى كفاريتكين وهي مستوطنة بين נתانيا وقاصرة وليس الى شاطئ تل ابيب ملقنى الانتظار . وقد اشر بيجين فيما بعد الى رسو السفينة في كفاريتكين وهي احد معازل الملبأى على انه دليل على انه لم يكن يخطط للقيام بمصيان . وافترض جليلي ان بيجين سيقوم بتسليم السفينة وحولتها الى الحكومة بدون شروط . وعبر مفوضو الارجون الذين صدمتهم بعض أسئلة جليلي التى اتسمت بالخشونة عن شعورهم لأول مرة بعدم ارتياح ازاء دوافعه .

وخلال المحادثات التى جرت في ١٧ و ١٨ يونيو ثارت شكوك متبادلة . وعندما وافق جليلي على انه يتعين ارسال عشرين في الملة من الاسلحة الى مقاتلى الارجون الذين ما زالوا يعملون بصورة مستقلة في المدينة ، بينها قال جليلي انه يعنى ان تذهب الاسلحة الى الجيش النظامي (لم تفصل الحكومة ، كما فعلت الارجون بين القدس وبقية البلاد ولحصدت قوات الهاجاناه السابقة هناك باعتبارها جزءا من قوات الدفاع الاسرائيلية) . ورفض جليلي كلية طلبا ثانيا بان توزع الثماتين في الملة الباقية من الاسلحة على وحدات الارجون العاملة في الجيش الوطنى أولا . وراى ان هذا يعد بداية لوضع اسفين لانه اذا ما وافقت الحكومة على مطلب الارجون

بالنسبة للأسلحة فاتها سرعان ما ستحاول إرغامها على التخلي عن التزامها بقرار التسليم . أصر جاليلي على أن تتسلم وحدات الأرجون الأسلحة بنفس الشروط التي تتسلم بها الوحدات الأخرى . وفي يوم ٢٢ يونيو أعلن بيجين في كلمة شهيرة أذيعت بتراديو بعد ليلة تدمير « التالنيا » أن رجاله ما كانوا سيستمعون له إذا ما خضع لمطالبهم بأن تكون لهم الأولوية . وكثف خلال حديثه التقلب عن رفضه التام لفكرة ترويض نفسه على دمج كتائب الأرجون ، وقال في تلك الكلمة :

(لقد حلوا بذلك الأسلحة منذ سنوات ، ما الذي لم يفعلوه ، ما الذي لم يضحوا به من أجل كل بندقية وكل مدفع ؟ والآن عندما وصلت أسلحة التحصن هذه ، هذه الكمية الضخمة من الأسلحة الحديثة ، كيف لا نعطي هذه الأسلحة إلى مقاتلينا في الجيش ؟ كيف نمتنع عن التأكد من أن يتسلم رجالنا هذه الأسلحة أولا ؟ لقد أحضرناها فكيف إذن نمتنع عن تسليمها بها ؟ .

ولكن أصرار بيجين قلبه معارضة قوية من جانب هيليل كوك الذي قامت لجنته الأمريكية بشراء « التالنيا » . وكان كوك الذي يزور تل أبيب قبل انتهاء أعمال الأرجون في الولايات المتحدة شديد الغضب :

لقد فقدت السيطرة على أعصابي ، قلت انظر ان هذه أول وآخر سفينة لنا ، هناك عدة سفن في طريقها إلى الهلجته . ان علينا عمل كل ما يمكننا حتى لا تقع أية تفرقة ضد مقلتي الأرجون في الجيش فإذا بدأت في التفرقة لصالح الأرجون فلك ستعطيم رخصة للتفرقة ضدها بعد شهرين أو ثلاثة من الآن .

وبعد مشاورات أجراها مع اثنين من كبار زملائه وهما يلكوف مريدور وحاييم لاندو وافق بيجين وأجرى اتصالا تليفونيا مع جاليلي . ووفقا لما ذكره كوك فإن بيجين وافق على أن تذهب نسبة المقاتلين في المقة من الأسلحة إلى الجيش ككل . ولكن بمجرد تسوية هذا الخلاف نشأ خلاف آخر . أصر بيجين على أن يحضر ممثل عن الأرجون ، أي هو نفسه ، استعراضا للوحدات عند استلام الأسلحة وتسليمها باسم الأرجون . ويقول كوك : ضحكت فيما بيني وبين نفسي « فلنا مني أنه يريد القاء خطاب » .. بحث جاليلي الموقف ثم قرر ألا تكون هناك شروط . ويعتقد كوك أن غرور بيجين كان سببا في دوام الخلاف بدون مبرر : ويقول « ان السمة المميزة في بيجين هي الاهتمام بالمظهر قبل الجوهر » فمن أجل رغبته في القاء خطاب ضاعت السفينة واختلف الجانبان كذلك حول من سيقوم بتفريغ السفينة « التالنيا » ومكان تخزين الأسلحة . وأصررت الأرجون على أن توكل إليها مهمة التفريغ وإن يتم تخزين الأسلحة في مخازن الأرجون تحت حراسة مشتركة من الأرجون زفاني ليومي وقوات الدفاع الإسرائيلية . وأصررت وزارة الدفاع على أن يتحمل الجيش

بمفرده مسئولية التفريغ والتخزين . وتبنى جيدي باجلين قائد عمليات الارجون موقفاً أشد تشدداً مما كان ينويه بيجين . ووفقاً لما ذكره « ميريدور » فان قائد الارجون لم يكن يقصد فرض اية شروط ولكن « باجلين » جره الى موقف متشدد - أبلغ « نيهاس فازي » رئيس هيئة شراء قوات الدفاع الاسرائيلية ودفيد هاكوهين ضابط الاتصال بقوات الدفاع الاسرائيلية اللذين كانا يقومان بالمفاوضات بهذا الشأن وصول المفاوضات الى طريق مسدود . استنتج جاليل ان الارجون تستعد للعمل بمفردها . وفي يوم السبت ١٩ يونيو أبلغ جاليل بن جوريون بأنه « نشأ موقف جديد خطير ، يتمثل في المطالبة بجيش خاص ، بأسلحة خاصة لوحدات معينة في الجيش .

لقد كانت مأساة « التالنيا » تقترب من نقطة اللاعودة . ووسط التقريرات القائلة ان السفينة كانت تقترب من الساحل الاسرائيلي وان مئات من جنود الارجون كانوا يهجرون وحداتهم ويتدفقون عبر كفار فيتكين ، دعا بن جوريون الوزارة الى جلسة طارئة يوم السبت ٢٠ يونيو . وتجددت المخاوف القديمة نتيجة للانباء التي ذكرت ان بيجين وبقيّة قيادة الارجون ينتظرون على الشاطئ .

فانفجر بن جوريون قائلاً في غضب : « لن تكون هناك دولتان ، ولن يكون هناك جيشان ولن يفعل مستر بيجين ما يريد ، علينا ان نقرر عما اذا كنا سنقوم بتسليم السلطة لبيجين او مطالبته بالكف عن أنشطته الانفصالية . واذا لم يستسلم فاننا سنطلق النار .

وافقت الوزارة بالاجماع على اقتراح من جملة واحدة : « تعهد الحكومة الى وزارة الدفاع باتخاذ ما تراه متمشياً مع قوانين البلاد » وأضاف بن جوريون (الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء ووزير الدفاع دفعا لاي لبس ازاء ما يقررونه « ان القيام بعمل اطلاق النار » . أبلغ جاليل والجنرال ياجيل يادين رئيس الاركان الذي تم استدعاؤه الى الاجتماع ان السفينة ستصل في الساعة التسلعة مساء ذلك اليوم وان ستمئة من رجال قوات الدفاع الاسرائيلية موجودون بالفعل بالقرب من المكان ، وانه يمكن احضار كتيبتين اخريين وصدرت اليهم الاوامر بالتجميع لمواجهة اى عمل . وأصدر القائد اوامره بلن يبذل الضابط المسئول كل جهده لتجنب استخدام القوة ولكن اذا لم تنفذ اوامره فانه سيجري استخدام القوة » . حث بن جوريون الذي ادهشه اجماع الوزارة ، يادين على « العمل بسرعة » . وفسر جاليل تصويت الوزارة بالاجماع على انه قرار اجماعي بتجريد الارجون من كافة الاسلحة . أوضح الجنرال دان ايفين قائد الجيش المحل لرجاله ان الهدف من العملية الوشيكّة هو : « ازغام الارجون زفاي ليومي على تسليم السفينة والاسلحة وتجريداهم من الاسلحة التي شرعوا ضدها » .

كان جليلي مترددا في الضرب دون بذل جهد آخر للتوصل الى اتفاق .
وقام بارسال نازيه الى كتار فيتكن لدعوة بيجين الى التباحث . منع
ميردور بيجين من الذهاب ، لانه كما اوضح فيها بعد ان تلك كفت خدمة
للقضاء على بيجين في الطريق . ووفقا لما ذكره نازيه فان بلجلين رفض الحديث
اليه ، وقال انه اذا اراد جليلي رؤية بيجين فانه يجب ان ياتي الى كتار
فيتكن . وعندما قتل نازيه علنا بالرد كتب جليلي انذارا الى بيجين قام
بالتوقيع عليه الجنرال ليفين :

« بناء على امر خاص من قائد أركان قوات الدفاع الاسرائيلية امر
بصادرة كافة الاسلحة والعتاد الحربي الذي وصل الى الشواطئ
الاسرائيلية في نطاق سلطاتي ووضعتها على الفور تحت تصرف دولة اسرائيل .
لقد صدرت الى الاوامر ان اطلبكم بكل الاسلحة التي وصلت الى الشاطئ
لوضعها تحت حراستي وابلقكم انه مطلوب منكم الاتصال بالقيادة العليا
واطلبكم بالامثال لهذا الامر على الفور ، فلذا لم توافقوا على القيام بهذا
فانني سألجا على الفور الى استخدام كل الوسائل التي املكها لتنفيذ الامر
وابلقك ان المنطقة بأسرها محطلة بوحداث الجيش وان الطريق مسدودة
وتقع عليك بالكامل مسئولية النتائج المترتبة عن رفض الاتصايح لهذا الامر ،
واملك عشر دقائق للرد » .

يزعم جليلي ان الانذار قدم لبيجين « وسيلة مشرفة للانسحاب » على
الرغم من ان صياغة الانذار لا تتم عن ذلك . ويقول ان مهلة العشر
دقائق كانت كافية ، لان الارجون لم يكن املها سوى خيارين لا ثالث لهما اما
الرفض او الايجاب . ولكن بيجين لم « ياخذ هذا الانذار الغبي » ياخذ الجدد .
وقال فيها بعد انه اعتقد ان ليفين كان يتصرف من تلقاء نفسه دون معرفة
خلفية الاحداث . وعلى أية حال فان جليلي لم ينفذ مهلة العشر دقائق ، ففى
الموقت الذي استمر فيه رجال الارجون في تفريغ الاسلحة أرسلت الحكومة
أوفيد بن أمى عمدة ناتانيا للتوسط بين الطرفين . كان بن أمى مقتنعا بان
الارجون لم تكن تخطط للقيام بانقلاب ولكنه فشل فى التقريب بين وجهات
نظر الطرفين .

كان بيجين مازال يواجه المتاعب مع موعوسيه وأعلن « بلجلين » في
جو تسوده روح الشعور بالاضطهاد ان الجيش يقوم بنصب كمين وبدأ في
اعادة تحميل بعض الاسلحة التي كانت قد افرغت بالفعل من السفينة واراد
ان يميدها الى البحر حتى انتهاء الهدنة ثم يتم تفريغها في غزة او العريش
جنوبا . كان بيجين مازال يعتقد انه يستطيع خداع الجيش ، وقال
« لبلجلين » : « اتركها ، اننا سنقوم بتفريغ الاسلحة هنا قبل وصول
مراقبي الامم المتحدة . اتقى لا اعتقد ان لدى الجيش نوايا سيئة تجاهنا .
ان المشكلة تكمن في الامم المتحدة . خلاصة الامر ان بيجين قام باعفاء « بلجلين »

من منصبه وعين « مريدور » بدلا منه . ولكنه سرعان ما هزف أن نوابيا الجيش كانت أبعد ما تكون عن النوايا الحسنة . بعد أن أبلغ جاليلى رفض انذار آيفين قرر بن جوريون عدم اجراء اى مفاوضات أخرى : « لم يعد ممكنا التوصل الى حل : فلما أن يمتثلوا للادامر وينفذوها ، أو سنقوم بإطلاق النار . اننى أعارض اية مفاوضات واتفاق معهم . لقد انقضى وقت الاتفاق . . اذا تواظرت القوة فانه يجب استخدام القوة بدون تردد » .

أضاف بن جوريون بخط يده كلمة « غورا » وفي كثار فيتيكين في الساعة الخامسة بعد الظهر من يوم الاثنين ٢١ يونيو توقف تفريغ الاسلحة في الوقت الذي كان يحاول فيه مريدور ، ومونروغين وأفرهام ستافسكى الذين سافروا من فرنسا على ظهر السفينة اقتناع بيجين بأخذ السفينة الى تل أبيب حيث سيكون السكان أكثر ودا وحيث تكون الحكومة أكثر ترددا في بدء معركة . بدأ إطلاق النار بينما كان بيجين يقوم باستعراض قواته ، ووجه قائد الأرجسون في حديث بالراديو اللوم الى الجيش لهجومه ، من كلفة الاتجاهات وكلفة انواع الأسلحة . قال ناكديمون ان جنود قوات الدفاع الاسرائيلى أطلقت النار دون صدور أوامر لها وكتب يقول انه خلال حالة الفوضى الشاملة التى حدثت فإن الأرجسون ردت على النار بالمثل . ولكن يزعم هيليل كوك الذى كان على الشاطئ في كثار فيتيكين ان قوات الأرجسون كانت البائدة بإطلاق النار — ليس على الجيش ولكن باتجاه البحر كما لو كانوا يزيدون ان يقولوا انهم جادون وانهم مستعدون لعمل اى شيء . وبما كنت الحقيقة فان الأرجسون فقدت ستة قتلى وتسعة عشر جريحا وقوات الدفاع الاسرائيلى قتيلين وستة جرحى خلال القتل الذى دار خلال الليل . وأصر بيجين الذى انبطح أرضا على الرمال لتجنب الطلقات المنهرة ، بمخادرة المكان لان هذا سيعيد انسحابا مخزيا . لكن عندما أحاط طرادان بحريلن بالزورق الذى اقل فيروستافسكى الى الشاطئ قبا بحمل بيجين والقائه في الزورق بعيدا . فأخذ يسب ويحتج باللغة العبرية والييدية وأخذ الزورق يناور حتى عاد الى السفينة لم يتقذه هوفين من التعرض للاصابة سوى مهارة نين الملاحة التى تعلمها بالاسطول الأمريكى في المحيط الهادى .

غادرت « التالنيا » كثار فيتيكين في الساعة ٩٢٥ ليلا بتعقبها أسطول صغير من السفن الحربية الاسرائيلية المعادية . ووصلت تل أبيب في نحو منتصف الليل . وفي ساعة مبكرة من صباح يوم الثلاثاء ٢٢ يونيو اذاع مكبر للصوت عرضا نهائيا من الحكومة : « اتصتوا ، اتصتوا ، سيقوم ممثل عن الحكومة والجيش بالضعود الى السفينة لاختلاء الوجودين على ظهرها وتقديم المساعدة للجرحى وتفريغ السفينة » . مرة أخرى تجاهل بيجين وزملاؤه الفرصة لتسوية الأمور دون اراقة دماء . وعلى ظهر السفينة اقترح انه

يجب على بيجين أن يظل إلى الضلعي ويتفاوض ولكن أوقفه الياسو لانكين
خوفا من أن يتعرض للأذى . واعترف لانكين فيها بعد أنه ربما كان من
الاصوب ترك بيجين يذهب للتفاوض . ربما كان من الممكن تجنب ما حدث
بعد ذلك ، ولكن ربما كان بيجين قد قتل .

لم تكن الحكومة يساورها القلق فقط من جراء رفض الأرجون الامتثال
لأوامرها بل ومن تجمع مؤيدي بيجين على شاطئ تل أبيب وفسرار الويبة
الأرجون من معسكر صرفند وغيره من المعسكرات وكان راي بن جوريون أن
سيادة الدولة في خطر . وخلال اجتماع للقيادة العليا أخذ رئيس الوزراء
يرغى ويزيد ويجادل نفسه وهو في حالة شديدة من الغضب . ووصفه أحد
الشهود بأنه كان اقبح « بأسد حبيس في قفص » . وقد طلب من شابويل
باتاي قائد العمليات البحرية ابداء رايه كخبر فيها يمكن عمله ازاء السفينة
التالنيا :

« طرحت كافة الافكار : قنفت قتابل دخان لاجبارها
على الرحيل ، الاستيلاء على السفينة من القوارب ، تزيغ
الشحنة ... رفض بن جوريون كافة مقترحاتي بإشارة
من يده . لم اصب الهدف وفهيت فيها بعد فقط ما كان يريد
سماعه مني - ما هو هدفه الحقيقي . كان
تدمير السفينة التي أصبحت ذريعة للصراع بين الاشقاء .
كان يريد تدميرها لأزالة الموضوع الذي كان الناس يستعبدون
للقتل حوله ، وسيكون هناك فيها بعد خلافات واتهامات
مضادة متبادلة ولكن ان يعود هناك ذريعة للقتال .

بنفس الروح أمر بن جوريون يادين : « عليك أن تقوم بكافة الخطوات :
تجمع وحدات الجيش ، النيران ، قاذف اللهب وكافة الوسائل الأخرى
التي في حوزتنا لتحقيق الاستسلام غير المشروط للسفينة . وكانت كل
تلك القوى سيتم استخدامها اذا ما أصدرت الحكومة تعليماتها بذلك . وخلال
اجتماع طارئ عقده مجلس الوزراء تقلب رئيس الوزراء على أية تحفظات
أثيرت . ورد بن جوريون على أولئك الوزراء الذين فضلوا تقديم تفويضات
بدلا من الحرب . . » أن ما حدث . . يمرض الدولة للخطر . . ان هذه
محاولة لإحطيم الجيش وهذه محاولة للقضاء على الدولة ولا يمكن في رأيي
التوصل إلى حل وسط بالنسبة لهذين البتختين ، وإذا ما أصبح من الضروري
لأسوء جظنا البالغ التمسك لهذا الغرض فلن علينا أن نقبل . لم يسرد
المتشككون بشيء وصوتت الوزارة بأغلبية سبعة ضد اثنين بمطالبة الأرجون
بتسليم التالنيا إلى الحكومة واستخدام القوة إذا استدعى الأمر . وعلى
النور أمر بن جوريون يادين بالتصرف .

أصبحت التاليفات التي رست في أكثر الامكن اضعفها على شاطئه
 تل ابيب على مرأى من الزوار ، والمراسلين ، ومرتضى الامم المتحدة في
 شرفت غلقتهم ، قبلة للراحمين والخالدين من الجنود المؤيدين للحكومة
 والمؤيدين لبيجين في ملابسهم الرسمية وحلقتهم . وتتفق المنفيون
 الى الشاطئ كما لو كانوا مشاهدين في مباراة نهائية للكاس . وكان رجال
 الارجون المؤيدين لبيجين يرددون التهفات المعادية للحكومة . وأخذ
 الجيش يتنازل من أجل منع تعزيزات الارجون . بدأ انزال احد القوارب
 المحملة بفرجال المسلحين من التاليفات وبدأ اطلاق النار خلال دوامة الفوضى
 التي حدثت تولى ايجال آتون القائد الشب لقوات البالمخ العملية . وكثت
 الاوامر الصادرة اليه من بن جوريون صارمة ومحددة : « اقبض على بيجين !
 اقبض على بيجين ! » .

في الوقت الذي بدا فيه المصلحات تنتشر ومناشدة الارجون عبر
 مكبر الصوت سكن تل ابيب بالانضمام الى جانبهم ارسل آتون في طلب
 مدفع . وتم اخلاء الشوارع التي كثت على مرمى نيران التاليفات . رقام
 آتون ونقيب اسحق رابين بمعالجة أرض المعركة من مقر البالمخ في فندق
 ريتز . وبعد الظهر تم التوصل الى وقف لاطلاق النار لاخلاء الجرحى .
 وفقا لاحد التقارير فان قادة البالمخ راوا الارجون يضعون مدفعا آليا
 ثقيلًا على سطح السفينة مصوب الى فندق ريتز . سمى آتون الى
 الحصول على إذن باستخدام المدفع ووافق بن جوريون : « حوالى الساعة
 الرابعة بعد الظهر وبدأ القصف . كان بيجين مقتنعا ان آتون لديه النية
 تها في قصف التاليفات وكتب يقول في كتابه « التبرد » : « فجأة سمعنا
 ازيزًا فوق رؤوسنا ونلدنا على قائد البالمخ مذكرين اياه انه وعد بوقف
 كابل لاطلاق النار ، لم يرد علينا ثم جاءت طلقة ثانية وثالثة ورابعة ،
 لقد احاطوا بالسفينة وهم يزحفون لتحقيق هدفهم .. » .

زعم آتون الذي أصبح فيما بعد وزيرًا للخارجية ونائبًا لرئيس الوزراء
 انه قام باطلاق « طلقات تحذيرية » كحيلة أخيرة لانتاع السفينة
 بالاستسلام . ووفقا لرواية البالمخ فان خمس أو ست طلقات فقط قد
 أطلقت . وقال آتون انه « اندعش » لان السفينة أصيبت وأمر رجاله على
 الفور بوقف نيران الحفصية . سواء اكلن ذلك صحيحا أم لا فان الإصابة
 البالغة نفذت أوامر وتعليمات بن جوريون وأضعت النار في التاليفات وأضعت
 نيران الحرب الأهلية غير المرفوب فيها وغير الخطط لها ، وسهلت الحل
 السريع للارجون لتتحول الى قوة عسكرية منفصلة . كان الهدف الوحيد
 الذي لم يصبه آتون هو مناحم بيجين ولكن اذا كان قائد الارجون مصيبا
 فان ذلك لم يكن بسبب عدم المحاولة : « غنى كل مرة أذهب فيها الى

منصة ريمان السفينة كانت تتعرض بصفة خاصة الى نيران كثيفة وعندما اغادر المنصة كانت النيران تتوجه الى نلحية اخرى . كانت الطلقة تنقب وسط سطح السفينة ثم تنفجر في مخزن السفينة . انتشر القنحان وانفجرت الذخيرة . نجح مونروفيين في تشغيل المضخات وغمر المخزن بالمياه ولكن مع استمرار اطلاق النار بدأ الامر وكأنه بمسألة وقت فقط قبل ان تنفجر السفينة المشتعلة . وعلى الرغم من اعتراضات بيجين الشديدة رفع القبطان عنها ابيض مؤقتا ودعا بالامح الى وقف اطلاق النار . كان بيجين منبطحا على السطح وكانت ركبة أحد البحارة فوق ظهره . ورفض مغادرة السفينة قبل ان يغادرها آخر رجل من رجله ، وقال في حديث اذاعه في تلك الليلة ان رؤسبه هددوا باستخدام القوة لارغله على مغادرة السفينة ولكنه رفض مغادرتها :

اذا كنت قد استمررت في البقاء فوق السفينة لان هذا لم يكن من منطلق الوطنية بل من منطلق الشعور بالواجب . فكيف لي ان اغادر السفينة التي كانت في طريقها الى الانتصار . وكان هناك جرحى على سطحها ! ويمكن ان تحدث الكارثة في اية لحظة ! قال لي القائد : « اعدك اننا سنخرج جميعا ، سنخرج وبالفعل تم اخراج معظم الجرحى ، وهكذا قفزت الى الماء » .

قال آخرون ان اثنين من بحارة مونروفيين الاقوياء قتلوا بلقائه الى البحر . وكان آخر من غادر السفينة غين ولاتكن قبطان السفينة وقائد مقاتليها من الارجيون . كلت معركة شاطيء تل ابيب الارجيون اربعة عشر قتيلًا وتسعة وستين جريحًا في مقابل مقتل اثنين من قوات الدفاع الاسرائيلي وستة جرحى . وكان من بين القتلى افراهم سنافسكى صديق طفولة بيجين الذي كان قد قبض عليه ثم اعلنت براءته من قتل حليم اروسورف على نفس ذلك الشاطيء الرطب منذ خمسة عشر عاما . وتم نهبها بعد انتقاذ بعض الاسلحة من السفينة المحطية التي بقي حطابها على مرأى من تل ابيب كشاهد على حملة السيلسين — سواء بن جوربون او بيجين وفقا للتحيز لاي منهما . ولم يكن غرق السفينة الثانية اسعد اللحظات في حياة قائد الارجيون ولا كانت الكلمة التي القاها في تلك الليلة بعد ساعتين من غرقها من اذاعة الارجيون السرية بأفضل خطبة . لقد فقد بيجين السيطرة على نفسه وانفجر في بكاء مرير وسب بن جوربون ووصفه بذلك الغبي ، ذلك الاحق الذي تأمر لقطه واردف ذلك بحركة بن يده تشير الى انه يستطيع القضاء عليه وهدد بالويل والثبور لكل من تسون له نفسه ايداء أسرى الارجيون . وبعد ذلك في نفس الليلة نشرت الارجيون بيانًا وصفت فيه بن جوربون بأنه « ديكتاتور مجنون » وحكومته بأنها حكومة من الطغاة المجرمين ، والخونة والمقتلة ، والتي البيان الامر السابق لقوات

الارجون بالانضمام الى الجيش . ولكن ييجين حذر رجاله من اطلاق النار على قوات الدفاع الاسرائيلي قائلا : « انه لن يكون هناك قتال بين الاخوة في الوقت الذي يتف فيه العدو على الجلب »

اما يسرائيل جاليلي فقد خصه ييجين باسماء انواع القنفذ ، فوصفه بأنه « تاجر خثير يتاجر في الدماء والممتلكات اليهودية » ودرج قائد الارجون لسنوات عديدة بعد ذلك ان يذكر « رجلا مجهولا يشغل منصبا كبيرا في الدولة » وهو احد المقربين من بن جوريون الذي نصّب اليه أنه قال له « ان بن جوريون قد خدع في مسألة السفينة الثانية » وعلى الرغم من أنه لم يذكر المأمر الا انه كان يعتقد ان جاليلي هو الذي خدع بن جوريون . وليس من المستغرب ان ينكر جاليلي بشدة كل شيء عن ذلك الامر « ان هذا القول اما ان يكون حقا او حقا او كليهما وليس له أساس من الحقيقة » ثم تكن هناك تفاصيل حول اتصالات مع الارجون على اى مستوى لم تعلم بها وزارة الدفاع بالكليل وعلى الفور : « انكر بن جوريون الاتهام كذلك » ويزعم جاليلي ان بن جوريون كان « اكثر عدوانية منه بكثير » . عندما كنت في المقر في كهار فيتيكين تلقيت رسالة منه يقول فيها انه لا يفهم لماذا لا نعمل . لم يكن هناك خلاف كبير في الهدف أو الإدراك بين زعمي العمل . وتشير الدلائل على ان جاليلي تردد اكثر من مرة في القيام بعمل ، كان يريد أن يمنح ييجين الفرصة لاطاعة أوامر الحكومة ولكن رأينا ان بن جوريون هو الذي أرغم الآخرين على الإسراع في العمل . وكان بن جوريون هو الذي قال خلال اجتماع عقد في ليلة وقوع كلثة السفينة الثانية للجنة الشعبية : « فليبارك الله المدفع الذي قصف تلك السفينة » . كان ذلك دعاء بالبركة لم يستطع الا طيل من الاسرائيليين ، حتى من بين المعجيين بين جوريون ان يردوا بغير ارتياح كلمة « آمين » .

الفصل الثاني عشر

اختيار جانب المعارضة

لعل مناصح بيجين هو زعيم الحزب الوحيد في العالم الديمقراطي الذي خسر في ثماني انتخابات متعاقبة واستطاع الصمود حتى كسب الانتخابات التاسعة والعاشرة ، وليس صحيحا أنه كان مخلصا ضد النقد من جانب زملائه المتطرفين في الوطنية . كان يتعرض دائما للتحدي ولكن متحذو يملكون الاحترام والنفوذ ، والجاذبية الشخصية والمهارة السياسية التي تمكنهم من احتلال مكانته . وتحولت « حركة الحرية » التي أسسها في أغسطس ١٩٤٨ خلال اجتماع غنده الرئاسي القدامى في العمل السري الى حزب الارجون زئاف ليوين ، وكان أهم أعضائه ولده أكثر من ثلاثين علنا يشكلون ما أسماه بيجين « بالمعائلة المقاتلة » حيث يتنوع بين أفراده بسلطة شخصية غير قابلة للهجوم ومزاول بيجين هو النقد ومزاولوا هم أولاده وينادون بعضهم البعض بأسمائهم الكودية ويشاركون في تبادل الفكرية حول أساطير النصر ، والفتحية والاضطهاد . وخلال أول انتخابات للكيسيت في يناير سنة ١٩٤٩ لم يكن حيرت المطالب الوحيد بتركة فالديمر جلوبوتيسكى . كان هناك ثلاثة أحزاب أخرى هي : التصحيحيون من المدرسة القديمة الذين كانوا يعملون من الارجون باحتقار خلال سنوات الثورة ، وحزب المقاتلين بقيادة عصبة شتيرن ، والحزب الرسمي بقيادة مائير جروسلمان الذي انفصل عن جلوبوتيسكى في سنة ١٩٢١ . وكانت كل تلك الأحزاب تتنافس مع للحصول على أصوات الناخبين . ولكن كان أخطر منافسي بيجين هم التصحيحيون الذين مزاولوا ملين في المؤسسات الصهيونية والذين استطاع بسرعة تطويقهم بإقناع رئيس الاتحاد الدولي للتصحيحيين بالاعتراف بحירות باعتباره الفرع الاسرائيلي للحركة . اتبع بيجين أسلوبا تكرر كثيرا فيما بعد للتخلص من معارضي زعابته وهو ما فعله مع كثير من التصحيحيين المحنكين ، أنه يهجم من الداخل ، يعزل معارضييه ويجمد عضويتهم في الحزب . وعبر السنوات أبعد أولئك المنقذين يلزمهم شعور المرارة ولكن بدون حول ولا قوة — مثل ايرى جلوبوتيسكى ، ابن النبي ، وهليل كوك الذي دخل مجددا في معارك دستورية غامضة ، وشامويل تايير في سعيه لتحقيق مستقبل قانوني ناجح ولكنه يدين بالفضول لبيجين لاي نفوذ بأمل في ممارسته على هليل الحياة السياسية ، وعيزر فليسمان الذي بقيع في انتظار ، مثل ديجول ، دعوته الى انتفاذ الامة .

كان حزب حيرت منذ نشأته خليطا للايدولوجيين اتباع جلوبوتيسكى ويتبع سخط الناضحين اليهود الشرقيين وكان ما يربطهم معا هو مناصح بيجين الذي

أنشأ الحزب ورعاه حتى نما وازدهر . لم تكن هناك شبكة من الفروع الحطية النشطة بين الانتخابات وكلفت « بيتلر » اتحادا رياضيا أكثر منه حركة شبيلية . وتلكت سيطرة بيجين مع انتخابات أول كنيسة ، عندما وضع قائمة المرشحين ، وهو مجال خصص لاسباغ الرعية في نظام التمثيل النسبي باعتباره بطلا قوميا ، غريبا لدى اليهود . واستطاع في البرلمان ان يستعرض موهبته الخطابية ، مؤكدا مواهبة وهي نادرة في حيروت كزعيم شعبي ، واستطاع الوصول الى أولئك المحافظين عن التمسيد المذهبي وورث بيجين موهبته الشخصية التي أوروها جلوتسكي للتصحيحيين . عزل الزعيم نفسه في الدائرة الداخلية لحكني الارجون مبتعدا عن الخلافات الداخلية في الحزب مستخدما استحقاقه في القتل نيابة عنه ولم يمض وقت طويل في اعداد نفسه للخلافة . كان يفضل مبدأ فريق تسيد . كان يترك الطموحين ينقلسون بعضهم بعضا والمخلصين يشقون طريقهم الى جانب القائد للتقيم . وخلال التبرد الاول واجههم بالنتائج بفرض استقالته . وحدث في أحد المرات ان قام بتأجير غرفة في القمص واستأنف دراسته للحملة ، وبعد كاترة انتخابات ١٩٥١ للدورة الثانية للكنيسة عندما انخفض عدد الكراسي التي حصل عليها حزب حيروت من اربعة عشر مقعدا الى ثمانية مقاعد وانخفض عدد الاصوات التي حصل عليها الى اربعة آلاف صوت على الرغم من زيادة عدد الناخبين بـ ٨١٤.٠٠٠ صوت ، ان ابحر بيجين في اجرة الى ايطاليا وترك وراءه خطب استقالته مع نقيب اريخ بن اليمائر ولكن يوهانن يادير أحد شيوخ الحزب منع أي شخص من فتح الخطاب .

بعد فوز بيجين في انتخابات سنة ١٩٧٧ مثل سكرتيره السياسي بيهليل كلاشاي كيف استطاع الزعيم مقولمة الهزيمة لمدة تسعة وعشرين عاما ، اجاب قائلا : « لا اعتقد اننا توقعنا الفوز قط » . في الخمسينات كانت برامج حزب حيروت يزينها شعار : « ان الله اختارنا لنحكم » ولكن بيجين دائما يحذر دينيد بن جوريون رئيس الوزراء من انتقاله عندما ينولى السلطة ، ولكن كلا الشعار والجدل كتبا يعكسلان احلاما للخلاص أكثر منها أي حلم بالسلطة . كان حزب حيروت يعتبر حزبا للمعارضة وكانت رسالته الحفاظ على « راية الصهيونية الحقيقية مرفوعة » ، والفضل من أجل اسرائيل ابية وغير مقسمة وحض لبراجاتية أغلبية الملباي .

على الرغم من ان بيجين تخلى عن العمل السري وتفرغ لالقاء الخطب بمجرد اعلان بن جوريون للدولة اليهودية فان التزامه بالديمقراطية البرلمانية ظل متكفئا . كان معجبا بنموذج البرلمان الانجليزي على الرغم من كراهيته لحكم البريطانيين في فلسطين وكان ينادى بالحصانة والحماية الدستورية للأفراد عندما جرت في الكنيسة مناقشة « القوانين الاسلمية » المختلفة . ولكن كان هناك حنين يراوده دائما للدورة وان لم يكن للديكتاتورية ، كفت الحكومة في رايه مخطئة دائما والكنيسة لم يكن المكان النهائي للحكمة والشرعية

وعلى سبيل المثال ، على أول مؤتمر صحفي عقده بيجين كزعيم لحزب حيروت أكرر سلة العرب يقتل عصابة شتيرن لكونت فوك برنالدوت السويدي ووسيط الامم المتحدة ، ولكنه لم يستطع مقاومة لقاء المسئولية المبكرة على « البريطانيين الذين حكموا المؤامرة » . وكذلك على « شركتهم الظاهرين والمستترين في وزارة الخارجية الامريكية » وكذلك « السلسلة الخاطئة » للحكومة المؤقتة في اسرائيل .

« حذرنا الحكومة المؤقتة من أن تقيم دعائها على حكم استبدادي في الجبهة الداخلية ومحولة الاسترضاء على الجبهة الخارجية الامر الذي يعد عملا سريا جديدا لقد اعلنا هذا التحذير في ١٥ مايو ولكن الحكومة المؤقتة انني نتحدث علنا عن السيادة في الوقت الذي تمارس فيه الاستبداد والاستسلام المخزي لم تلق بالا الى تحذيرنا . ولذلك فانه لا يمكن استبعادها كلية من تحمل المسئولية غير المبكرة للمساءلة القدس بسبب سياستها .

وعلى الرغم من تظاهره بالشجاعة شن بيجين حرب عصابات ضد « استرضاء » التقسيم بالكلمت وليس بقوة السلاح وحتى لو اراد فانه لم يكن يملك الوسائل ليفعل شيئا آخر . جرى اعتقال كثير من الذين فروا من الجيش من جنود الأرجون بعد مسألة السفينة النافليا . وفي القدس استسلمت آخر وحدات مستقلة من الأرجون لانداز الحكومة الصلار في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٨ .

وقال بن جوريون : « ان بيجين ، وهو ابعد الناس عن العمل الخيري ، يعرف سلطة القوة واستسلم للقوة فقط » ، وتولى زعيم حزب حيروت مهمة النضال من اجل « ارض اسرائيل » بعد ثلاثة اسابيع من اجتماع أول دورة للكنيست وبعد اسبوعين من توقيع اتفاقية الهدنة بين اسرائيل ومصر . وقال بيجين ان التفكير بأن اسرائيل تدخل مرحلة سلام وهم بالغ :

« وجد الان في الجزء الشرقي من اسرائيل ، كما في الاردن احتلال بريطاني غير مباشر ... ان يكون هناك سلام لدولتنا وان يكون هناك سلام لشعبنا اذا لم نحرر هذا الجزء من الوطن من القوات الفارزية ... ان سيلاستنا الخارجية الرسمية تسير في اتجاه تجسيد الحدود المصطنعة ، حدود التزيق » .

عاد بيجين الى الهجوم في ابريل سنة ١٩٤٩ عندما تفاوض الدبلوماسيون والضباط الاسرائيليون للتوصل الى هدنة مع الملك عبدالله في رودس . وفي محاولة لتقسيم ائتلاف بن جوريون غلف منطلقه بمزيج من العبارات اللاهوتية والمسيحية :

« لقد وقعت هذه الحكومة انتفاضة عيودية مع خدام بريطانيا ، مع حاكم الدولة التي تسمى نفسها المملكة الأردنية الهاشمية — ولما قرنا العظيم هذا الاسم الذي تمت الموافقة عليه في وثيقة رسمية وقعتها حكومة اسرائيل مع الملكة الاردنية التي تمت الموافقة حكومة اسرائيل على الواقع على طول ضفتي نهر الاردن ... ان معنى هذه الانتفاضة ان البريطانيين يستطيعون العودة الى غسرب اسرائيل واقلة قواعد عسكرية لهم هناك ... اريد توجيه بضعة كلمات الى أعضاء الكنيست من الوجهة الدينية . سألني اريد ان اسأل ضامركم — وأنا واحد من المؤمنين في اسرائيل — كيف لم تهتز أيديكم عند موافقتكم على مشروع يتضمن الاعتراف بالملكة الهاشمية الاردنية ، وبكلمات أخرى التخلي عن الاردن — كل الاردن الى ايدي الاعداء ؟ كيف لم تهتز أيديكم عند الاعتراف رسميا بسيطرة عبدالله على مدينة القدس القديمة ؟ »

على الرغم من وجود حراسة أردنية على حوايط القدس القديمة ، وعلى الرغم من محنة حرب الاستقلال التي فقدت فيها اسرائيل ٦٥٠٠ من بين السكان البالغ عددهم ٦٧٥٠٠٠ نسمة وبالرغم من المشاكل التي تواجه الدولة الوليدة التي ضاعفت سكانها خلال أربع سنوات عن طريق الهجرة ، بالرغم من كل ذلك ، امر بيجين على ابقاء شعلة « أرض اسرائيل » متوهجة . كان اينان بيجين قويا في عدم قبول أي حل وسط « لا نقولوا لنا انه لا جدوى من اصدار اعلانات » قال ذلك في مقام اقتراحه بأن يقوم الكنيست باعلان « القدس الموحدة » وليس فقط القسم الغربي من المدينة ، عاصمتها . ان الدول الأجنبية يجب أن تعرف أن القدس لنا ، كلها لنا — الهيكل — الحائط الشرقي — والقدس كلها على جانبي الحائط لنا ، والقدس عاصمتنا ليس فقط من الناحية النظرية بل من الناحية العملية .

بالنسبة لبيجين كانت القدس بكلها للعاصمة « أرض اسرائيل » كلها ، ضفتي نهر الأردن كما حددها جيلوتيسكي ، كانت الوطن اليهودي سواء كانت اسرائيل في موقف يسمح لها باستردادها أم لا . كان يلح بأن رباط آمون « عمان » مثلها مثل شيكيم (نابلس) وجليل مثل الناصرة والباشا مثل الشارون هي « وطننا » ومهما كان غضب الرئيس جيني كارتر خلال محادثات كليب صيفيد سنة ١٩٧٨ فانه لم يكن يستطيع اتهم الزعيم الاسرائيلي بالتضارب . الا ان ارباط بيجين كان للمهم المكان ، للاسماء وللاصدائها التاريخية لم يكن لديه شيء من حب موسى ديلن للأرض لذاتها ولا شيء من الية « الصبرا » معها .

في مايو سنة ١٩٥٠ عندها ضمت الاردن الضفة الغربية رسميا وجبه بيجين اللوم لموسى شاريت وزير الخارجية لاعطائه الضوء الأخضر « لعبد الله

وحكومة يمين التي وقعت وراءه لتحويل الذهب والخزير الى عمل قانوني
 ومعترف به سياسيا « ظلت المملكة الهاشمية بالنسبة لبيجين الاراضي التي
 تحتلها بريطانيا من « ارض اسرائيل » اذا استطاعت الكتل أن تغزو ...
 اخذ بيجين يسأل بن جوريون من الذي اعطى الحكومة السلطة للاعتراف
 بفلسطين القدس ، والهيكل ، ومقبرة البطريك وقبر راشيل ، والخليل :
 وبيت لحم ، وشيكسيم وجليل وبلشان ؟

لقد انتخبتم لتسيير شؤون الدولة . ربما يقوم الشعب باختيار
 من يحل محلكم . وقد يجدد انتخابكم . ولكن من اعطاكم الحق ، وفي
 أي انتخابات اعطيتم السلطة للتخلي باسم شعب اسرائيل عن ميراث
 الاجداد ، ميثاق الاجيال ، قيادة التاريخ التي كان ثمنها دماء الملايين
 عبر مسيرة مائة وعشرين جيلا ؟ .. لم تعط أية انتخابات هذه
 السلطة ومن المؤكد انها لم تمنح لكم في الانتخابات الأخيرة . دعوني
 نناقش هذا السؤال « اذا أردتم السلطة فلنخرج الى الشعب ونسألهم
 اذا كانوا مستعدين أن يعلنوا أن عبدالله ولسنا نحن الذين يجب أن
 يحصل على القدس ، والخليل وبيت لحم » .

يجب بيجين في نفس المناقشة انذارا بأن اعتراف الحكومة بالضم الاردني
 ليس ملزما لحزب حيروت . « عندما تأتي حكومة أخرى - وسوف تأتي - سوف
 تمن أن هذا التوقيع غير ساري المفعول . ان كل ارض اسرائيل تخص شعب
 اسرائيل ولن تعترف بحق عبدالله او بحق البريطانيين في حكم بوصمة واحدة
 من وطننا » .

كان النضال من أجل « ارض اسرائيل » على الرغم من مثالياته على ضوء
 حقائق الخمسينات يحترم حدود الديمقراطية البرلمانية . كان بيجين يضع
 علامات أكثر من تسليق التكتلات . ولم تظهر مثل هذه الشكوك في معركته
 التاريخية الثانية مع حكومة بن جوريون في هذه الفترة - المعركة ضد قبول
 اسرائيل للتعويضات الألمانية . عاد زعيم حزب حيروت الى سياسات الشارع
 معرضا الجماهير على الزحف الى الكنيسة معرضا مستقبله السياسي للخطر
 وهو في كامل وعيه . كان هذا الموضوع الذي جاء بعد الابادة النازية لليهود
 مباشرة تثير مشاعر عنيفة في المجتمع الاسرائيلي . كان حزب اللابام اليساري
 الذي ظل بعيدا عن الائتلاف الحاكم يمارض أي تعامل مع بون بنفس القسوة
 التي كان يمارض بها حزب حيروت . وكان للحركتين جنود مشتركة في النازية
 البولندية ، وتعرض اليهود البولنديين أكثر من أي يهود آخرين للابادة تحت
 الحل النهائي : ولكن بيجين وحده رفع راية الاضطهاد .

كان اقتراح بن جوريون للمستشار الألماني كونراد أديناور ملجأ آخرًا اتسم بالقباه ، لم يكن الهدف منه عقد مصالحة سريعة بين القتل والمقتول بل كان محاولة يائسة ليوصل الاقتصاد الاسرائيلي المجهد مسيرته وتدعيم الدولة اليهودية في مواجهة اعدائها العرب . أقر رئيس الوزراء أن اسرائيل لا يمكنها البقاء في عزلة وتحتاج الى حليف قوى واتجه أولا الى بريطانيا بل ألمح أن اسرائيل مستعدة للانضمام الى الكومنولث ثم اتجه الى الولايات المتحدة ولكن كلتا الدولتين الفيتيتين سببتا له خيبة الامل . بدأت حكومة العمال والمحافظين البريطانية محادثات تمهيدية ولكن سرعان ما خمد الاهتمام . واستنتج مستشارو بن جوريون أن وزارة الخارجية البريطانية كانت ضد الفكرة منذ البداية وتأكدوا أنه ليس هناك فرصة . وفي واشنطن كان جون غوستر دالاس وزير الخارجية أكثر اهتماما باستعادة العلاقات الأمريكية مع العرب . وأعلن أسلم إحدى لجان مجلس الشيوخ : « أن مشكلتنا الأساسية هي تحسين موقف الدول الإسلامية ازاء الديمقراطية الغربية لان هيتلر تنضغل في المنطقة بصورة مستمرة منذ الحرب » . ولم يلق اقتراح ابن جوريون بجمال اسرائيل « قاعدة الغرب ومخزن غلاله وورشته في الشرق الأوسط أذانا صافية » . ولقيت مفائدة اليهود الأمريكيين تعاطفا أكثر فقد اغتتح رئيس الوزراء حملة لبيع الاسهم الاسرائيلية في اجتماع ضخم في ميدان حقيقة ملبسون في مايو ١٩٥١ . ولكن على الرغم من نجاح الحملة غاب مؤرخ حياة بن جوريون كتب يقول : « أن الاموال التي تدفقت لم تكن كافية لتحقيق استقرار طويل الأمد لاقتصاد الدولة المزعرع . كانت اسرائيل تحتاج الى مساعدة مالية طويلة وضخمة » .

تابت اسرائيل بأول محاولة مترددة للحصول على تعويضات في مارس سنة ١٩٥١ ولكنها حاولت تجنب التعامل مباشرة مع الالمان وقدمت طلبا للحصول على بليون ونصف بليون دولار الى قوات الاحتلال وهي : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتي ، وبريطانيا وفرنسا تعويضا عن الممتلكات اليهودية التي استولى عليها النازيون . ولكن الدول الكبرى رفضت القيسام بأي شيء ازاء هذا الطلب . كلت التعويضات مسألة تخص الالمان . وجاء هذا الطلب في المرحلة التي اثار فيها أديناور الزعيم الجديد لالمانيا الاتحادية المعادي للنازية الى استعداده لدفع تعويضات لاسرائيل . كتب تيريس بريتي المؤلف البريطاني في تاريخه لحياة أديناور أنه لم يكن هناك ثمة شك في تسوية حساب الالمان مع اليهود « كان الشيء الممكن هو جعل أقصى حد لاعادة ممتلكات اليهود في نطاق الوسائل المتاحة لالمانيا . كان يبدو دائما أن أديناور يفهم ذلك وأنه كان يعتبر أن هذا العمل واجب عليه » . ومع ذلك فإن عددا كبيرا من الاسرائيليين ومن بينهم أعضاء في وزارة بن جوريون وزعماء حزبه الملبم شتموا بالذعر من الفكرة . ومع ذلك فإن رئيس الوزراء

لم يجد أية متاعب في تهنة ضميره وكان يعرف ان الطريق الوحيد لجعل التمويضات مقبولة لدى الاسرائيليين هو وضع كل نطفه وراء الحصول على تلك التمويضات . وقال : « في عبارة واحدة فان السبب يكمن في وصية الستة ملايين ، ضحايا النازي ، الذين كان قتلهم بمثابة صرخة مدوية لاسرائيل من ان ننهض ، ان تكون قوية ويزدهرة لحياة امنها وسلامها . وهكذا ننزع وقوع هذه الكارثة اننى حلفت بالشعب اليهودي من ان تحدث مرة أخرى . ولم يكن بن جوريون أقل براعة في الدفاع عن وجهة نظره في الكنيسة حيث قال :

« تعرض أكثر من ستة ملايين يهودي للقتل عن طريق التعذيب ، والتجويب ، والمذابح الجماعية والاختناق الجماعي .. وحملت عمليات السلب قبل وأثناء وبعد هذا القتل الجماعي — بطريقة لم يسبق لها مثيل كذلك .. ان جريمة بهذا الحجم الضخم لا يمكن ان يكون لها تعويض ملادي ، ان اي تعويض ، مهما كان حجمه لن يكون تعويضا عن فقد الحياة الانسانية او نهلية لمعاقاة وآلام الرجال والنساء ، والاطفال ، والشيوخ ، والرضع ومع ذلك فانه حتى هزيمة نظم هتلر استمر الشعب الالماني في التمتع بشمار المنفعة والسلب والنهب والسرقة من اليهود الذين قتلوا . وتعتبر حكومة اسرائيل نفسها ملزمة بطلبة الشعب الالماني برد هذه الممتلكات اليهودية المسروقة . دعونا لا نجعل قتلة شعبنا المستبدين أيضا من ممتلكاته !

انفجر مناحيم بيجين الذي كان والداه وأخوه من بين الستة ملايين قتل في ثورة غضب شديدة . لم يكن هناك شك في اخلاصه في محاولته العنيفة للحفاظ على احترام الذات لليهود ولكن البعض الآخر في حركة حרות انتهزوا فرصة موضوع التمويضات كوسيلة لاعادة الحيوية الى الحركة وارجاع بيجين الى الحياة السياسية بعد نكسة انتخبلت سنة ١٩٥١ . وجد بيجين متممة بالغة في الدور الذي أوكل اليه . ووصف يهوذا أومير الذي كان يعمل في ذلك الوقت مراسلا في صحيفة الحزب « حרות » الزيلة التي قام بها الى يلكوف روين سكرتير علم الحركة :

« قرأ صحيفة (يدعوت أحرونوت) التي كانت بحوزتي ولاحظت خبرا صغيرا جاء فيه ان الدكتور نلحوم جولمان سيقيم بزيارة الى ألمانيا لاستكمال اتفاقية التمويضات ، وفجأة نادى على أريخ ابن اليمارز : « أريخ ، أريخ ، هذا سوف يسيله . مناحيم سيعود لهذه الحملة ، هذه حملة من أجل شرف الأمة ، وحمو ، الوحيد الذي يستطيع ان يقودها . بعد ذلك بأسبوعين عاد بيجين من أوروبا وخرجت حركة حרות من جودها العميق » .

بعد ظهر يوم ٧ يناير سنة ١٩٤٢ جُلِب بيجين جثداً تراوح عيده بين ٢٠٠٠ (كما قال البوليس) و ١٢٠٠٠ (كما قال بيجين) من مسكن القدس من شرفة فندق تل أبيب في ميدان صهيون . كان هناك رذاذ خفيف يسقط ولكن خطابه كان ملتبها .

كُتِبَتْ صحيفة (جيروساليم بوست) نصف الموقف :

« كان مستر بيجين يتحدث بحماس وكان كثيرا ما يصبح ويقرن كلماته بكلية مؤثرة كثيرة من التوراة . وأشار الى بيان الحكومة المؤبد لحسابات التمييزية باعتبارها ذروة سياسات ذلك المجنون الذي أصبح الآن رئيسا للوزراء ، وجذب وبيط القارئ خطابه ورقة من جيبه وبسطها بطريقة درامية وقال : « اننى لم اجزء الى هنا لاثرتكم ولكن هذه الورقة التى سلمت الى الآن تقول ان البوليس ليه تفضل يدوية تجتوى على غاز مصنوع في ألمانيا - نفس المصنوع الذى استخدم لقتل آبائنا وامهاتنا . اننا على استعداد لتجعل اى شيء : حجارة التعذيب ، معسكرات الاعتقال ، المسجون السرية في سبيل عدم اتخاذ اى قرار بالتعامل مع الالمان » .

يبدو ان الاشارة الى الفاز الالماني كان مثالا كلاسيكيا لعدم اهتمام بيجين بالحقائق ، فهما يكن اصل غاز الدبوع فانه ليس مثل غاز زيكلون - بي ولكن هذا التلميح اتى ثماره . ووجه بيجين الذى كان يتحدث على بعد عدة مئات من اليرادات من مبنى انكبيست حيث كان بن جوريون يدافع عن سياسة الحكومة تحذيرا الى رئيس الحكومة :

« عبقنا وجهت اليانا نيران المدفع ، اصدرت امرا : لا ! اليوم ساصدر امرا : نعم ! وستكون هذه معركة حياة او موت .. اليوم سيعلن رئيس الوزراء اليهودى انه سيذهب الى ألمانيا ليحصل على اموال ، انه سيبيع شرف الشعب اليهودى من اجل مكسب مادي جاليا له العار الابدى .. ليس هناك ألمانيا واحدا لم يشترك في قتل آبائنا . كل الماني نازى ، كل الماني قاتل ، ايزنهاور قاتل ، كل مساعديه قطة ، لكن كل تقديراتهم الاموال : الاموال ، الاموال انهم سيكفرون عن هذا الشيء البغيض بدفع ستة ملايين دولار ! » .

سار بيجين عبر شارع بن يهودا مرددا صيحة « الحرية او الموت ، لا سبيل للتراجع » ليتحدى بن جوريون في الكنيست . المبنى الذى يضم وزارة المباحة . وسارت الجماهير وراء بيجين ولشرف صحيفة « جيروساليم بوست » ان العنف اندلع في الشوارع لمدة ساعتين ؟

اخترقت الجماهير متاريس البوليس المحاطة بالاسلاك الشائكة وقامت بقلب السيارات الواقعة في الشوارع والقضاء الحجارة على مبنى الكنيسة وعلى البوليس المنوط به حماية المبنى . ووصل عدد الجرحى من رجال البوليس الى اثنين وتسعين وسنة وثلاثين منفا حتى الساعة السابعة مساء . وفي الساعة السابعة والنصف اعيد النظام الى مسرح الأحداث بوصول فرقة من الجيش احاطت بمبنى الكنيسة واصبحت القنارات امامه موجودة تماما .

من داخل الكنيسة كتب مراسل آخر يصف المناقشة التي جرت في جو من العنف لم يسبق له مثيل في الحياة البرلمانية الاسرائيلية . « كلفت تخترق قاعة الكنيسة صيحات الجماهير لم تكن بعيدة ، اصوات متاريس البوليس المتقطعة وصوت سيارات الاسعاف والانفجارات المتقطعة لقتل الفلاني والسنة اللهب من سيارة تحترق ، ثم تحطم زجاج التوافذ نتيجة لقذف الحجارة واخترق دخان القنابل المسيلة للدموع بن الشارع حيث تجرى المعركة خارج القاعة واصيب احد الاعضاء بجرح في رأسه » . واستمر الاجتماع على الرغم من كل هذا الاضطراب وتم اخلاء القسم من القاعة التي كانت تتساقط فيه الاحجار والنظايا الزجاجية ، والذي يضم مقاعد الملمم ، والمسيحيين المعممين وهايويل هاميز راسي ، وجلس الاعضاء في أماكن أخرى . ولكن فيما بعد جرت مناقشة ذاتها داخل الكنيسة عندما وصف مناحيم بييجين (جيروت) رئيس الوزراء بأنه سفاح ورفض ان يتراجع عما قاله ورفض كذلك مفادرة منصة الخطابة عندما طلب منه نائب رئيس المجلس ذلك قتلًا : اذا لم انكم فلن يتكلم احد وقام نائب الرئيس بنفي الاجتماع وسط الضجيج .

كان خطب بييجين ضد التمييزات الالمانية ربما كلن سيصبح من اعظم خطبه البرلمانية لو كان في ظروف مختلفة . فعند قراءته بهنو بعد ثلاثين عاما من القاته يتضح انه خطاب عاطفي ، فصيح ، متعل . انه نداء الى الكبرياء اليهودي وتقدا قاسيا لأولئك الذين كانوا علي استعداد للمساومة بشانه . قطعتم المسرح مقمة بالحزن والشجاعة وان كان مبالغا فيها قليلا . ولكن في النهاية يجري تذكرها تحت ظلال اعمال الشعب ، والاحجار ، والقنابل المسيلة للدموع والزجاج المحطم التي صاحبت المناقشة وجنوح بييجين الى لغة غير برلمانية والتبجح المنافي للديمقراطية كان مدركا للسلطان وخاطبها باعين مفتوحة . بعد سحبه في النهاية لوصفه بن جيويون بالسفاح وامراره على انه : « اذا لم انكم فلن يتكلم غيري » . وانساق على طلب رئيس المجلس بالانسحاب (ليس نتيجة للتهديدات بانني ساطرد من الكنيسة - انني انظر

الى طردى من الكنيست بمستخفاف ، عندما نتكلم عن الحملة الراهنة نتمنى
أزديدها لأنه مازال أهمى مهمة أقوم بها هنا وربما تكون الأخيرة ، وسأقوم بها
الى النهاية) .

كلت الحجة الاساسية التى دافع بها عن قضيته أن الشعب الامنى
بأكمله مذنب فى المسألة برمتها - الملايين الذين صوتوا لصالح النازيين ،
الذين خدموا فى جيش هتلر ، الجستابوا الالمان ، اس والاس . ا ، دبلوماسيى
اديناور الذين كانوا دبلوماسيى رينتروب . من وجهة النظر اليهودية لا يوجد
المثى واحد ليس نازيا وليس هناك المثى واحد ليس قاتلا وانتم تريدون الذهاب
اليهم لتلقى الأموال منهم . كان ييجين يساوره القلق حول الطريقة التى
سيقتبل بها العالم قبول تموضات حيث قال :

« ان الالمان سوف ترى حقيقة واحدة : وهى انكم جليست
مع قنلة شعبكم واعترفتم انهم قادرون على توقيع اتفاقية ، انهم
قادرون على المحافظة على اتفاقية ، انهم أمة بين الامم ، ان
الالمان لا يكرهوننا فقط ولم يقتلوننا ويحرقوننا فقط ، لم يؤذوننا
وليسوا غيورين منا فقط ولكنهم يكون لنا بمسفة خاصة شعورا
بالاحتقار . وفى هذا الجيل الذى نطلق عليه آخر جيل يتعرض
للمعبودية وأول جيل يتحرر من عبوديته - فى الجيل الذى كسبنا
فيه مركز الشرف الذى خرجنا فيه من العبودية الى الحرية ،
تأتون الآن ومن أجل عدة ملايين من الدولارات الملعونة ، من أجل
بضائع غسدة وتلقون بالقدر الضئيل من الكرامة الذى اكتسبناه
... انكم تجعلون الارض تميد تحت أقدامنا ، انكم تعرضون
شرفنا واستقلالنا للخطر ، كم مستعرض للاحتقار » .

بعد أن ناشد بيجين بن جوربون اجراء استفتاء بدلا من تحدى مايعتقد
أنه ارادة غالبية الاسرائيليين أعلن بيجين عن رأيه النهائى الحاسم . وقال ان
هناك اشيء فى الحياة أسوأ من الموت ذاته :

« هذه هى احدى الاشياء التى ستضخى بحياتنا من أجلها ونكون
مستعدين للموت فى سبيلها ، ستترك علاقاتنا ، ستفارق اطفالنا ولا يكون
هناك مفوضات مع المثيا .. أعرف ان لديكم قوة ، لديكم سجون ،
معسكرات اعتقال ، جيش ، قوة بوليس ، جواسيس ، مدافع ، بنلق
آلية ، كل هذا لايم . حول هذا الموضوع ستتناثر القوة مثل تناثر
الزجاج على الصخر ، ستقتل للنهية لأجل قضية العدالة ولا جدوى
للقوة البدنية فى مثل هذه الحالات . انها مرء وقاعة . اننى أحذر ولكنى
لا أهدد ، من الذى أهدده ؟ اننى أعرف انكم ستجروننا الى معسكرات
الاعتقال ، انكم تسجنون المئآت اليوم وربما ستسجنون الالاف ، لايم ،

سيذهبون ، سيجلسون ، سيجلس معهم ، وإذا لقتضى الامر فاننا سنقتل معهم ولن يكون هناك تعويضات مع ألمانيا وليساعدنا الله في منع كارثة ستحيق بشعبنا ، ومستقبلنا وشرعنا . » .

بها كانت نوايا بيجين ليلة السلب من يناير سنة ١٩٥٢ فلن خطبه تحول الى مجرد كلمات خطابية جوفاء حيث وافق الكنيست على سياسة بن جوريون ازاء التعويضات الألمانية بأغلبية واحد وستين صوتا ضد خمسين صوتا بينهم أحد أعضاء حروت الذي أصيب بإزمة قلبية وتم إضراره الى قاعة الكنيست على نقلة) . وبعد اسبوعين صوت الكنيست بأغلبية ستة وخمسين صوتا ضد سبعة وأربعين صوتا لتعليق عضوية بيجين للثلاثة أشهر الباقية على دورة الكنيست كعقوبة على مسئلة غير البرلمان خلال المناقشة ، وفي شهر مارس عام بيجين بإلقاء خطاب أمام مظاهرة من ٧٠.٠٠٠ من معارضي اتفاقية التعويضات في تل أبيب ولكنه توسل الى مستمعيه بعدم اللجوء الى العنف (وفقا لما ذكره منتقدوه فانه تلقى نصيحة بأن آلاف من سكان الكيبوتزات مقتولى المضلات حضروا الى المدينة لحراسة المبنى العلبة والقضاء على أية أعمال شغب) صاح بيجين قائلا : « مستر بن جوريون ان انه اسرائيل سيقدر من منا الحبيب » .

بعد ذلك بوقت قصير تم توقيع اتفاقية مع ألمانيا ، تعهدت بون بإمداد اسرائيل بما قيمته ٧١٥ مليون دولار في شكل بضائع وخدمات على مدى أحد عشر عاما وإن تدفع ١٠٧ ملايين أخرى الى لجنة تمثل المنظمات اليهودية العالمية . وكان ضمن المعدات الضخمة التي تلقتها اسرائيل إحدى وأربعين سفينة تجارية ، وأربع نقلات بقول ، وحوض سفن عالم ومصنع للصلب وصهر النحاس . ورفض آينهاور ، — على الرغم من شكوك بيجين في انه خدم فترة من الوقت في سجن أحد المعسكرات النازية — تهديدات العرب لاقتصاد ألمانيا الغربية قائلا لهم : « هناك أشياء أكبر يتعين التفكير فيها أكثر من مجرد اتفاقيات عمل لا بأس بها » . اننا نريد ألمانيا مختلفة عن ألمانيا هتلر » .

لم يستطع مناحيم بيجين توطين نفسه على قبول ألمانيا الجديدة » هذه وخلال باقى الخمسينات والستينات ، سنوات المعارضة الطويلة المحيطة ، لم يترك بيجين أية فرصة منه لمهاجمة الحكومة لتوصنها الى اتفاق مع « قطة الشعب اليهودى » . وشجب تبطل الزيارات بين المدارس الألمانية والمدارس الاسرائيلية ، وندد بعنف ببيع مدافع شبه آلية من طراز « عوزي » الى بون ، وألقى واحدة من خطبه الرنانة « انى أنهم » ضد اقلية علاقت دبلوماسية (في سنة ١٩٦٥) ودعا الى يوم حداد قومى عندما قدم أول سفير لألمانيا أوراى اعتماده . ولكن لم يكن هناك شهداء ، أو زنانات أو معسكرات اعتقال لاولئك

الذين قاوموا التوريثيات ونتائجها ، كما لم يمت ييجين أو رفاقه في
الغسق الأخير .

كان ذلك انتصارا حلوا مشوبا بالمرارة لبين جوريون في مبارزة حامية حتى
الموت كانت أحيانا مبارزة نهيلة ودائما حقيرة أصبحت مثل بباراة رياضية يشاهدها
الاسرائيليون . كانت مبارزة شخصية أساسا . كان بن جوريون يأخذ زمام
المبارزة بوجه عام أو يحرص ييجين لذلك . رفض رئيس الوزراء في أحد
المراحل الاعتراف بوجود زعيم حزب حيروت مشيرا اليه في الكنيست
على انه « العضو الذي يجلس الى جانب د . بلدير ويترك قاعة الكنيست
عندما يساعد ييجين الى المنصة . ولكن يثار لنفسه بترديد صلاة « شيهيهانيون »
: « لنشكر الرب لإبقائنا أحياء وسعادتنا وجعلنا نعيش هذا الزمن »
وذلك في المناسبات التي يبقى بن جوريون جالسا في مقعده . وصلت
مبارزة الانهالك الى ذروتها أو ربما الى دركها الأسفل بمناقشة
كريمة ومتأخمة من موعدها حول موضوع السفينة التالفا في يناير
١٩٥٩ ، اتهم بن جوريون بيجين بأنه لسم يشترك في حرب الاستقلال ،
وسفر بيجين من بن جوريون واتهمه بمقاطعة البريطانيين وسط ملاهى باريس
ووبخه بن جوريون قائلا : « لا تقاطعني ، ليس لديك على الأقل شيكا
أو جستانلو . وعندما دعا بيجين رئيس الوزراء الى اخراج موضوع السفينة
التالفا من الكنيست الى لجنة تحقيق اجاب بن جوريون : « لا يا سيدي
لن اذهب الى أى مكان معك خارج الكنيست . اننى هنا خاضع للقانون
وأنا أحترم القانون ويجب أن أولى اهتمامى بك وبكل عضو آخر فى الكنيست .
هنا يتمتع كل عضو بحقوق وواجبات متساوية . وليس لدى أية نية للاجتماع
بك فى نفس الغرفة خارج هذا المكان » .

كان ييجين قد أبلغ حزبه قبل ذلك بثلاث سنوات انه لن يحضر لجنة
العلاقات الخارجية فى الكنيست اذا كان بن جوريون حاضرا لانه لا يتحمل
الجلوس فى نفس الحجرة مع رئيس الوزراء « الذى جرح مشاعره عدة مرات
خلال العام الماضى » .

وخلال مناقشة موضوع التالفا اتهم بن جوريون بيجين بالكذب « هذه
الكذبة الوحيدة التى قالها هنا كافية بالنسبة لى لمعرفة الحقيقة التى يقدر
على قولها . اننى لا أظن انه يتعد الكذب انه يسلطة غير قادر على التمييز
بين الحقيقة والخيال » . ولكن عداء رئيس الوزراء لبيجين كان أعمق من
الكرهية الشخصية ، كان يكن وراء الخلاف اعتقاده أن حيروت مثلها مثل
الارجون شكلت خلال أزمة التالفا تحديا لديمقراطية اسرائيل التى لم تثبت
دعائها بعد . وقال « انها نفس الحركة والكثف مستر ابا أهييم طبيعتها
فى مقال كتبه بعنوان « من مذكرات فانيستى » ، ولسم يترده بن جوريون

في مقارنة بينين بهتلر . وهو انطباع عززه بينين بخوضه الانتخابات العامة في سنة ١٩٥٥ في سيارة كاديلاك مفتوحة ويحراسة مجموعة من شباب الفرياء . وقد ظلت هذه الصورة مطبوعة في أذهان الناخبين بعد فترة طويلة من نسيان معايرة بن جيوربون له .

إذا كان بن جيوربون الباديء في تبادلها القفص فإن بينين كانت له الكلمة الأخيرة . وفي مايو ١٩٦٢ عندما اختلف المحارب القديم اختلافا شديدا مع حزبه حاول بدهاء هزيمة خصمه :

ستشعر هذه الدولة بالراحة ، وستشعر الأمة أنها في حل أفضل ، وستنتهي الكراهية والعداء ، ويزور الاحترام المتبادل ، وسيختفى الحقد وستبرز المنافسة المفيدة ولو كانت منافسة مريرة ولكنها ستكون أمنية وجيلية ، وسيختفى التحريف وتزدهر الحقيقة ، وستقل المسافة بين القلوب وسيعبق الاحساس بالوحدة ، وسيختفى التناق وتبرز الصراحة ، وستوضع نهاية للتعلق البيزنطي ، وستعود الشجاعة وحرية التفكير ليحتسلا مكانهما ، وستقدم الشعب في كل المجالات الاخلاقية ، والسياسية، والاقتصادية — عندما يتقاعد زعيم الملباي الذي يعمل رئيسا للوزراء وكلما كان هذا قريبا كان ذلك أفضل » .

القصل الثالث عشر الخروج من القبة

على الرغم من عدائهما المستمر كان بن جوريون اول من يمنح بيجين اول شعور بالاحترام والتكريم اللائق بزعيم معارض مخلص ، ففي يوم الأحد ٢٨ أكتوبر ١٩٥٦ استدعى رئيس الوزراء بيجين الى فراشه في تل أبيب حيث كان يعاني من حمى شديدة وأبلغه ان اسرائيل بمسبيلها الى مهاجمة مصر . وكان بن جوريون قد أطلع مجلس وزرائه في وقت سابق من نفس اليوم على الخدعة العسكرية الاتجلو — فرنسية والتي عرفها المعلم نيميا بعد بحرب السويس ، والاسرائيليون بحملة سيناء . وكان بن جوريون يريد التأكد من تأييد الكنيست والبلاد بالكامل . وقام باستقبال جميع زعماء كافة الاحزاب المعارضة ماعدا الشيوعيين في مسكنه بشارع كيرين كايبيت . ولم يكن بيجين هو الوحيد موضع شتته ولكن مغزى الاجتماع لم يغيب عن اي منهما . وكان بن جوريون بعد كل انتخاكت يعلن انه مستعد لتشكيل ائتلاف مع « كافة الاحزاب ماعدا حيروت والشيوعيين » كان اعضاء حيروت مازالوا منبوذين في تولى المناصب العامة وكان اعضاءه مضطرين للنضال من اجل الحصول على ترقية في الجيش انظلمى ، كما ان ابواب التقلبات كانت مغلقة في وجوههم . وكانت حركة العمل تسيطر على معظم المشروعات . كن حزب بيجين يتعرض للتهكم وفقدان الثقة . وكان النصححيون مازالوا منبوذين الصهيونية كان استدعاء بن جوريون لبيجين ايماءة بالقبول على الرغم من محدوديتها .

امسك بيجين ، الذي كان ينادى دائما بشن حرب وقتالية منذ بداية العلم وتبنى استراتيجية « الفاعلية الايجابية » ردا على تسالل الفدائيين العرب قبل ذلك ، بيد بن جوريون وقال له : « اننى احيى قرارك الشجاع » وأكد له : « انك تستطيع الاعتماد على تأييد » . خلال مناقشة الحرب في الكنيست أثبت زعيم حيروت انه صادق في وعده . ولكن هذا التقارب لم يدم حيث صب بيجين جام غضبه القديم على بن جوريون في يناير التالى عقب خضوع رئيس الوزراء للضغط الامريكى وسحب الجيش من سيناء : واتهم بن جوريون قائلا : « ان اسرائيل حصلت على نصر عسكري ولكنها عانت هزيمة سياسية » : تذكر انه بعد هذا الانسحاب فان مؤيدي الحكومة ، اي الاغلبية ليست على حق دائما » . بل ان بيجين كان اكثر قسوة بعد ذلك بشهرين عندما قام بن جوريون بسحب قواته من قطاع غزة : « جزء محرر من وطننا »

وقال ان رئيس الوزراء سار بنعمال خشفة فوق أجساد منسلي الشصم المنتخبين « ويل للاعين التي قرأ والاذان التي تسمع هذه الكلمات ، • ظلت رحلة بيجين الشاقة عبر غابة السياسة بطيئة ومضطربة وخلال الحقبة بين حرب السويس وحرب الايام الستة أيام استطاع حروت ان يدعم صفوفه ليصبح ثاني أكبر الأحزاب بعد حزب الماباي ولكنه لم يستطع اختراق الصفوف ليهده هيئة حزب العمل • وفاز في سنة ١٩٥٥ بخمسة عشر مقعدا من مقاعد الكنيست المائة والعشرين وحصل على سبعة عشر مقعدا في سنة ١٩٥٩ • سنة ١٩٦١ ولكن نصيب الماباي من المقاعد لم ينخفض قط الى اقل من اربعين مقعدا ، الفئ كان مع غيره من احزاب العمل - المابام واحدوت وهافودا يضيفان الى ثقل اليسار الديمقراطي •

يرجع النخر من اسلوب وتطلع زعالية بيجين الى بداية الخمسينات ، كان يلجا عقب كل انتخابات تقريبا الى العمل السرى وهو الاسلوب الذي افه عندما كان رئيسا للوزراء ، كان بيجين يحب الانفصال ويستمتع بخوض المعارك التي كانت تخرج منه افضل واسوأ ما فيه ، الرجل الاستعراضي ، والخطيب ، والمثلثس الجبر . ولكن سعيدا بشعوره بالاضطهاد . كان اتمل ذكر للسبينة الثلاثيا واتل سخرية من الارجون كتيل ببقارته ولكنه لم يحب قط تحليل وقوع كارثة . كان يشعر بالملل من الاشياء العادية لانها تخالف طبيعته الرومانسية . وبنهلية الخمسينات أصلب بعض رملي بيجين التصب من المعارضة الدائبة . كتب احدهم وهو عضو في « الاسرة المقاتلة » من مخضرمي الارجون سرا الى بيجين في نوفمبر سنة ١٩٥٩ يشكو من أن دعاية الحزب موجهة فقط الى أولئك الذين التزموا بالفعل بتأييد الحزب وليس الى الناخب المتردد • وكتب العضو في خطابه يقول : ان حروت معارض للمابام ، ولكن ليس لاجل أى شيء يمكن أن يمنحه الثقة . وأن كثيرا من الناخبين يرفضون تعلق رجل واحد ولا داعي لذكر حراسة الدراجة البخارية . وهناك الكثير من « سلطة بيجين » وليس « حروت » واستعكمت الانتهازية قبضتها ، وهناك السعى وراء الانتصارات الرخيصة ومنافسة ببسطة للجواهر بدلا من حملة مطلومت موجهة الى الجواهر المفكرة وتم اتخاذ قرارات كثيرة للغاية ونقا لاهواء الزعيم . وتوقفت الحركة عن تعليم الشباب ولا تقدم افكارا جديدة . كذلك غل المتقدين أعروا عن عدم ارتياحهم لراء السعى لخطب ود التناخب المتين خاصة عندما يستتبع ذلك التضحية بالحرية الفردية . وبعد خيبة الامل التي أصلبت حروت في انتخابات سنة ١٩٥٩ عندما حصلت على مقعدين آخرين فقط اذان شلويل تلير وهو من اصغر الاعضاء زعالية بيجين علنا وصلها بلقها زعالية « مملسة » .

اثبتت تلك السخرية وجود صيحة علة ضد بيجين الامر الذي شكل

اضطر تحديواجهه بيجين منذ سنة ١٩٤٨ ، ثورة علنية بنت كيمسا لو كانت
دعوة لاستخدامه خداحة والسماح له بالاستقالة وتاجلت المواجهة نتيجة
اتفاق بين حيروت والليبراليين ، ورثة حركة الصهيونية العمومية من الطبقة
المتوسطة لتشكل تحالف لاجل (وهي كلمة مركبة من جوش حيروت ،
الليبرالية وكتلة حيروت - الليبرالي) ولم يكن ذلك اندماجا كاملا فظل كل
حزب محتفظا بهويته ، وسياسته المنفصلة وتنظيمه ، ولكنها كانت خطوة
هامة من اجل ايجاد بديل يمين - وسط عريض للعمل ، وانضلت حيروت
الى مجال نشاط السياسات الاسرائيلية ، وبذلت المحاولات الاولى في بدايه
سنة ١٩٥٠ عندما اقترح ازرائيل روكاش عمدة تل ابيب على بيجين أن يضم
حيروت وانصهونيون العموميون صفوفهم خلال الانتخابات البلدية الوشيكة .
رفض بيجين العرض ، ولكن في سنة ١٩٥٥ عندما تخطى حيروت المصهونيين
العموميين في الكثيبت جاء الدور على بيجين لانتخاب زعيم المبادرة التي
رفضت هذه المرة لان حيروت كلن شديد اللطرف بالنسبة لطوائهم في
الحزب الصغير المنتدس الذي انفصل في النهاية لتشكل الحزب المستقل
الليبرالي بزعملة نوئي كول وجدعون هوسنر . فشلت المفاوضات السرية
مره اخرى بعد حرب السويس ولكنها كانت أكثر نجاحا قبل انتخابات سنة
١٩٦٥ . وتم التوصل الى الانساق في ٢٦ ابريل سنة ١٩٦٥ والذي فتح
الطريق أمام حيروت الى اتحاد تقنيات الهستدروت المنتشرة . أكد بيجين
لشركائه الجدد ، بقيادة يوسف سلبير والمليخ ريمالت الليبراليين المخضرمين
انهم لن يظلوا في المعارضة طويلا بعد ذلك . كان الاتحاد زواجا مفيدا وليس
التقاء عقول . ونجح لان الليبراليين كانوا مستعدين للثول عند راي حيروت
فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والدفاعية بينما تخطى بيجين لهم عن السيطرة
الاقتصادية . ولكن آمال بيجين تحطمت في انتخابات ٢ نوفمبر سنة ١٩٦٥
حيث فاز جاحال بستة وعشرين مقعدا أقل بمقعد واحد قبل اتساق حيروت
والليبراليين . بينما فاز تحالف العمل بخمسة وأربعين مقعدا بزيادة أربعة
مقاعد عن مقاعده قبل الانتخابات على الرغم من عيوب بن جورويون الذي
فاز حزبه رافى بعشرة مقاعد . وبعد تسعة عشر عاما كان شباب حيروت قد
تحمل الكثير . انضم الى شاول تلمير وهو محام طموح في تل ابيب وضابط
مخابرات سابق في الارجون ، في تمرده ضد زعملة بيجين ، اليعيزر شوستاك
وافراهام تاليز من اتحاد العمل الوطني المناهض اليميني القليل العدد ولكن
المنظم تنظيما جيدا ، للهستدروت . وكان يوهان بادير قد حفر بيجين من
ترقية تلمير بسرعة كبيرة ولكن اجله بأنه « لديه ثقة غير محدودة به » . ألقى
شوستاك بالفاز خلال اجتماع اللجنة المركزية لحيروت بعد اسبوعين من
الانتخابات . وقال ان الخلاف بينهما يعود الى أيام انشاء الدولة في سنة

: ١٩٤٨

« فوصل بيجين إلى استنتاج أن مسيرة حركة التمتع حتى إنشاء الدولة لم تؤدي إلى تولي الحكم ، ولكن هذا الطريق سيقود حيروت إلى السلطة . وطالب بمنحة الثقة : « اخطوني الفرصة وسأثبت لكم أن الحركة ستفجع بطريقتي » . هكذا كانت العلاقة بين الحركة وبيجين غامضة . وتم قبول التسمية كثيرة لم يكن بينهما الأعضاء أو كانوا يوافقون عليها على أمل أن يثبت أنه على صواب . »

واجه بيجين التحدي وجها لوجه . وقال : « منذ دورة الكنيست الثانية والرابعة كانت هناك إشاعات وهيبات وسأقوم أنا هذه المرة بآثاره الموضوع » . منحت اللجنة المركزية الزعيم اقتراحا بالثقة بأغلبية ساحقة : تسعة وعشرين صوتا في مقابل خمسة مع امتناع أحد عشر عضوا عن التصويت . ولكن كان يجري الإعداد للمؤتمر القومي التاسع لحيروت في قرية مكليا خارج تل أبيب في نهاية يونيو ١٩٦٦ . . .

نظمت المعسكرات المؤيدة والمعارضة لبيجين قواتها خلسة كما كان يفعل المتآمرون القدامى في العمل السري . ولم تفصح الخطب الافتتاحية عن وجود معارضة مركزة ، ولكن المعارضة برزت عند التصويت على الرئاسة . قدمت قوائم منافسة إلى المندوبين البالغ عددهم ستمائة . وفازت المعارضة بسبعة أكثر من اثنين إلى واحد من مجموع الحاضرين والمقرعين (٢٥٢ — ١٣١) مما دعا إيهود أولمرت أحد زعماء حيروت في الجامعة العبرية لأن يقول بدون تفكير أن الإمبراطور لا يرتدى ملابس . قال : « حتى الآن قاد بيجين مسيرة الحركة باعتبارها حركة معارضة لتنظيم الحاكم ولكنه لم ينجح في تليدها إلى تولي الحكم وعليه أن يقبل النتائج ويستقيل مع كل قبلة الحركة » انفجر الصخب في القاعة عندما بدأ المندوبون الموانون لبيجين في التلويح بقبضاتهم والنداءة بسقوط الشلب المفرور . سارخ بيجين ، الذي ربما لم يكن يفهم بعد خطورة التحدي إلى الدفاع عن أولمرت وقال أنه إذا لم يسمحوا له بالاستمرار في الحديث فإنه سيفادر المؤتمر . وقال إنه سيمر بالخير لوجود مثل أولئك المندوبين المستعدين للتعبير عن مثل هذه الآراء وتقديم مثل هذه الاقتراحات . وأصل أولمرت وهو ابن أحد أعضاء حيروت القدامى وعضو الكنيست عن الليكود فيها بعد انتقاد الصورة الأخلاقية للحركة ، وانتقارها إلى الديمقراطية الداخلية وتوزيع بطاقات العضوية بالجملة ، وعندما تلجا القيادة إلى الهجوم ، غلقها تستخدم الهجوم ضد هدف حقيقي وهو شلول تامر وحفلقه من اتحاد العمل الوطني . .

في اليوم الثالث من المؤتمر حول بيجين القليل المعارض له بلن قسم استقالته من زعلة الحزب وعرض التخلي عن مقعده في الكتيبت . ولكن هذا العرض رفضه على الفور المنويون الذين اصلبتهم الدهشة البالغة وكتبت صحيفة (جيموساليم پوست) تصف ما حدث : « ولكن رفض مستر بيجين تغيير قراره . وكان قد قال امام اللجنة المركزية في وقت سابق من اليوم نفسه : « عندما تقوز في الانتخبات فالتنا نصيح جميعا منتصرين ، ولكن عندما نضر فلنا الموم » . ونهم الموالون القدامى الطبيع وضغط بآدير على المنويين لاعادة انتخبل بيجين على الفور وحث رئيس المؤتمر افرهم شستريمان بيجين على العدول عن استقالته : « انه ليس شخصا خلصا انه ينهى الى الحركة وجزء من تاريخ الامة » . عاد بيجين الى المنصة « لتعديل بيانه السابق » « ووافق » على البقاء كمضو في اللجنة التنفيذية للحزب . واستعملت القيادة سيطرتها ونارت ثقلمتها الرسمية للمراكز الاسلمية في اللجنة بزيادة اربع اصوات (٢٥٢ - ٢٤٩) خلال اقتراع سرى في الساعة الثالثة مبالحا ولكن لم ينه التبرد . واثار تلير الغضب بالحديث عن التميز بين رجال المنفى ورجال المستقبل ، سيسيو الشتات وسيسيو الصابرا التواقون للسلطة : « باعتبارى رجلا حرا مولودا في هذه البلاد ، وباعتبارى مرؤوسك في الارجون زفاى ليوى ، اجى الان واعارضكم في انعلن ، واعان اننى لا اعرض الابدلوجية بل الاساليب » ولدهشة بيجين والمنويين المجتمعين اخبرجت المعارضة ارنبا من القبة اذ سعد ايهاى باجليل رئيس عمليات الارجون السابق الذى لم يقم باى دور في السيسلة منذ سنة ١٩٤٨ الى المنصة وبدأ في صب احتقاره على القيادة .

انفض المؤتمر دون حل المشكلة بعد خطاب مفعم بالمشاعر الجياشة القاه بيجين واستغرق ثلاث ساعات :

« هناك حد لما يمكن ان تتحملة الشخصية العلبة . هناك حد للقسوة العلبة من رجل ما . انهم يطالبوننى بالتقاعد من الحياة العلبة ولم اتقاعد ، ليس لائى مكروه او اننى محبوب . ولكن ما هو الخطا الذى ارتكبته ضد هذا الشعب طوال حياتى ؟ ما الخطا الذى ارتكبته ضد مستر بن جوربون حتى يكن لى كل هذه الكراهية ؟ هل كان ذلك لائى انا واصدقائى حاربنا من اجل الدولة التى اصبح بن جوربون اول رئيس لوزرائها بموافقتى ؟

صلى بيجين بعض حسبلته مع الصحافة ثم بدأ في توجيه اللوم الى المعارضة الداخلية : « شوستاك وتلير وتلير : كلتوا يعملون من وراء ظهري شكلوا ائتلافا فيما بينهم ولم يبلغوننى . كان مستر تلير يصرف اننى كنت اتسوى الاستقالة وتركونى مثل رجل اعمى لتخبط في الظلام . هل كان يظنون اننى رئيس وزراء مونلكو لاکرامى على الوزارة دون علمى ؟ » .

كتب ملك سيجال وهو مراسل سيلي اسرائيلي غير معروف عنه تعامله مع زعيم حירות تمليقا جاء فيه :

« كان الضלב تجربة مؤلة بسبب الاعتراف بالتمرضى للادى الشخصى العميق . واعترف بعض الصحفيين الذين كانوا يجلسون على مقدمة الصحافة والذين تحدث معهم بعد ذلك انهم شعروا بالحرج الى حد ما لجلوسهم وسط هذا الحشد للاستماع الى هذا الاعتراف العميم من الذى يقف على المنصة في حالة هياج شديد ، بينما تجلس حولنا النساء البليكيات . شعرنا اننا نشهد تحطيم شخصية عملة » .

ولكن لم تكن مقدمة الصحافة هي شرمة المسرح التى كان بيجين يلعب دوره املها ويوجه لها اهتمامه . وكما كتب سيجال يصف تلك الليلة : « دوت القاعة بتصفيق مدوى بينما كان الرجل الشاحب احمر العينين يتسال تاركا المنصة » كان بيجين حريصا على ان تقتصر استقالته على مدة الدورة التاسعة لمؤتمر حירות . لم يتم انتخاب خليفة آخر في قرية ملكليا ، المقر الدائم للبطولات الرياضية اليهودية الدولية . حل بلدير مؤقتا محل بيجين كرئيس لمجموعة الكنيست ويلكوف ميريدور كرئيس للحزب بدلا منه .

نجح بلدير المخادع في استرضاء المعارضة ولكنه احتفظ بأغلبية الحرس القديم في اللجنة المركزية . ووافق باعتباره رئيسا للجنة القيادة على اقتراح يمنح المعارضة فرصة متكلفة في اللجنة المركزية بشرط ان يقدم بها كل أعضاء الكنيست من حירות ايضا . قلم كل جانب بتعين سنة واربعين عضوا في اللجنة ولكن كان للموالين أغلبية اثني عشر في مقابل ثلاثة بين أعضاء الكنيست . وقال بلدير : « اننى افضل ان ابقى في التيه الاسيلسى مع مناحم بيجين بدلا من الجلوس في الوزارة مع شلوييل تلير . وفي نوفمبر التالى عندما واصل حירות طريقه استأنف بيجين تولى القيادة بهدوء . وواصل تلير ، وشوستاك ، والشلب اليهودى المرت شق طريقهم بعد فضيحة حول خطاب مزور معادى لبيجين ارسل الى صحيفة (هالرتس) ولكنهم عادوا مرة اخرى وسط تشكيلة من الرايات الممزقة ليجلسوا في مقاعد الحكومة بعد ذلك بعشر سنوات .

على الرغم من شكوك الليبراليين عقب انتخابات سنة ١٩٦٥ والضجة التى ثارت خلال صراع الزعامة في حירות لم يصب جاحل باى اذى . كان الليبراليون لا يحرزون اى تقدم وينتظرون في الاتجاه الاخر . ولكن تأمرت الاحداث لتجهمهم مع مناحم بيجين في حكومة واحدة أسرع مما كان يتخيل اى منهم . غنى ١٥ مايو سنة ١٩٦٧ وبينما كانت اسرائيل تحتفل

بالذكورى التابعة عشر للاستقلال قلم الرئيسى المصرى جمال عبد الناصر
 بولس دبلته الى سيناء عبر قناة السويس مشرا ازمة ثقة تبدو عند
 تذكرها في غير موضعها بدرجة غير معقولة ، كان العرب يتحرقون للحرب ،
 وكان الاسرائيليون يشعرون بانهم معرضون للهجوم . وللمرة الاولى
 خلال التاريخ القصر للدولة اليهودية انتقدوا الثقة في قدرة زعمائهم على
 مواجهة مثل هذا التحدى . كان بن جوريون قد اعتزل الحياة السياسية
 وذهب الى كيبوتز سيدح بوكر في صحراء النقب وكان خليفته لىنى اشكول
 مشهورا عنه عدم انخراطه ولم يكن رئيس الوزراء الجديد يمتلك خلفية
 عسكرية على الرغم من دعاته كسياسى فى الحزب وكان مثله مثل بن جوريون
 يشغل منصب وزير الدفاع . وعلى النقيض من بن جوريون لم يكن جديرا
 بالقيام بالمهمة .

تم التشاور مع بيجين وابلاغه عن تطورات الازمة باعتباره زعيما لكتلة
 المعارضة . كان بيجين مدركا تماما لحالة الفراغ في قمة السلطة والقلق
 المتزايد في البلاد . كان تفكيره الاول اعادة بن جوريون الى الحكم على
 الرغم من عدائهما الطويل والتبادل . كان بيجين يحترم بن جوريون . وان
 كان يظن عليه بهذا الاحترام — باعتباره الرجل الذى قاد اليهود الى
 الاستقلال بعد الف سنة من النفي . وكان يفضل وجود علاقة مختلفة
 معه . كان بن جوريون كما يراه بيجين فسوق كل شيء سياسيا نشطا ،
 رجل دولة لم يتهرب من اتخاذ قرارات صعبة كان الشيء الذى لا يعرفه
 في ربيع سنة ١٩٦٧ هو ان بن جوريون الذى بلغ الثمانين من عمره لم يعد
 الاسد القديم الذى يوقو به . وكان الجنرال اسحق رابين قائد الاركاب
 الذى كان يشكو من انه يطلب منه تحمل الكثير من العبء العسكرى والسياسى
 كذلك ، قد توجه الى بن جوريون ليحصل منه على تأييد معنوى ولكنه
 اصيب بخيبة الامل ويكتب يقول بعد ذلك بسنوات :

« كان مؤلما رؤيته في حالته الراهنة ، بعيد كلية عن اية مصادره
 للمعلومات والاسوا انه يتمتع بقوة بمفاهيم قديمة واطفا في
 تقييمه لقوة قوات الدفاع الاسرائيلى . كان مقتنعا ان اسرائيل
 في موقف سياسى غير محتمل ويشك في ان تستطيع تخليص نفسها
 من الخطر ببدء حرب مع مصر » .

استطلع بيجين آراء زعماء الاحزاب المعارضة الاخرى ومن بينهم شيمون
 بيريز السكرتير العام لحزب بن جوريون رانى الذى انفصل عن العمل
 في سنة ١٩٦٥ . وشعر بالرضا لانهم يشاركونه تشخيصه ويوافقون على
 وصفه للعلاج . وفي ٢٤ مايو وهو اليوم الذى جعل بعده ناسم الحرب
 امرا متهما باغتياله مضيق تيران — شربان الحياة لبناء ايلات الاسرائيلى

على البحر الأحمر - اقترح بيجين سرا على اشكول دعوة بن جوريون لرئاسة حكومة وحدة وطنية . وكان رد اشكول الذي لم يكن خلافه مع بن جوريون أقل حدة من خلاف بيجين معه : « إن العربى الواحدة لا يمكن أن يجرها حصانان » . وعلى الرغم من أن بيجين كان مثقرا بالمرءة نهائى لاشكول غائنه قبل دعوة للانضمام الى زعماء الاحزاب المعارضة الأخرى لمعد اجتماع خاص في منزل بن جوريون في تل أبيب ولكنه شعر بنفس الفزع الذى شعر اسحق رابين ، كان الرجل العجوز مزال يجارب حربه الشخصية مع مؤسسة العمل ورفض قيام اسرائيل بضرية وقتلية ووصفها بأنها مغامرة خطيرة . وحث الحكومة على طلب مساعدة الدول الكبرى . تخلى بيجين عن فكرة تبعة بن جوريون للعمل وأبلغ رئيس الوزراء أن جاحال مستعد للانضمام الى ائتلاف شمل بشرط أن يشغل موسى ديان وهو عضو بالكنيست عن رانى منصب وزير الدفاع بدلا من اشكول وقال انه « الرجل المناسب فى المكان المناسب » .

كان التيار يتجه بالفعل الى ديان الذى كان رئيسا للأركان خلال حرب السويس ولكن جولدا مائير سكرتير عام حزب العمل كانت تمنع فى نسيان الماضى . ومع ذلك فقد أمر بيجين أن جاحال لن يشترك فى الحكومة بدون رافى ، ووفقا لما ذكره « هيبيل كاتيشاى » سكرتير السياسى - فإن بيجين كان أقل اهتماما بسمعة ديان الحزبية من اهتمامه بتأمين أكبر قدر ممكن من الوحدة . وفى النهاية أذعن اشكول لمطالبة الراى العام ولبيجين .

وفى أول يونيو ١٩٦٧ عاد مناحيم بيجين الى الاضواء وانضم الى حكومة اسرائيل ورثة جابوتينسكى : الارهابيون المحترقون من جماعة الارجون زماى ليومى . احترم بيجين ديونه التاريخية ودعا لخلص ثلاثة من رفاته بالكوف ، مريدهر ، وارينج بن اليعازر ويوهانن بادير للذهاب معه الى مكتب رئيس الوزراء حيث عانقهم ثم انصرف . وفى صباح اليوم التالى ، وهو فى طريقه الى انكنيست فى القدس وقف بيجين للحظة الى جانب قبر معلمه ، وكانت حكومة اشكول قد قامت قبل ذلك بثلاث سنوات باحضار رفات جابوتينسكى بطريقة ملائمة وأعادت دفنها على جبل ميرزل جنبا الى جنب مع زعماء صهيون . وذكر موسى ديان أنه بعد أن قام رئيس الوزراء بالترحيب بالوزراء الجدد فى أول اجتماع لهم مع الوزارة ، رد بيجين بخطاب قصير منعم بالمعواطف حافل بحكمه بن التوراة اخذ اشكول الذى كان يتمتع بروح الدعابة يؤكداه بقوله : « آمين ، آمين » .

الفصل الرابع عشر

التعريب على الحكم

في هذه الحرب لم يجد منلحيم بيجين نفسه مضطرا لانتظار دعوة وباعتباره وزيرا في الوزارة وان كان لم يتقلد منصبه بعد ان انضم الى حشد من السياسيين والجنرالات المتقاعدين المسؤولين في مكتب رئيس الوزراء في تل أبيب في صباح يوم ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ . وكان اول من سمع بالغفلة الجوية المنسقة التي باغتت القوات الجوية المصرية أثناء تنلول الانطار وكملت لاسرائيل السيطرة الحاسمة على سماء المعركة . فمئذ الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة من صباح يوم الاثنين نجحت موجات من المقاتلات القاذفة من طراز الميراج الفرنسية الصنع التي كانت تطير على ارتفاع منخفض بعيدا عن مجال الرادار في تدمير نحو ثلاثمائة طائرة حربية مصرية وعطلت كل القواعد الجوية المصرية الهامة من سيناء حتى مصر العليا . وعند حلول موعد الفداء حدث نفس الشيء بالنسبة للقوات الجوية الاردنية والسورية ، كانت سعادة بيجين بهذا الانتصار والاثارة التي أحسن بها لكونه واحدا من الدائرة الداخلية التي سمح لها بالاطلاع على السر تتسم بالطنولية . كلن ينفجر فرحا بالانباء التي حجت عن الصحافة وعن العدو ، وعانق حليم لاشكوف قائد الاركان السابق وهو ضابط قديم عمل في الجيش البريطاني وفي حرب سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ وأخبره بما حدث . وخلال توجهه الى القدس في وقت لاحق من نفس اليوم أخذ يلوح بعلم امام سيارة جولدا مائير وضرب معها موعدا وكانت رئيسة الوزراء المستقبلية عن حزب العمل تشغل منصب سكرتير عام الحزب وليست عضوا في الوزارة وفي الكنيسة بحث بيجين عن بن جوريون خوفا من أن يكونوا قد نسوا ابلاغ الرجل العجوز .

بينما كلن بيجين مازال خارج حجرة ليفي اشكول عقد تحالفا غير رسمي مع منلقسه القديم من البالماخ ايجال آلون الذي أصبح الان وزيرا للعمل ، وأدرك كلاهما الاحتمالات المتاحة نتيجة النصر الاسرائيلي الاولى وكلن اشكول قد بعث برسالة الى الملك حسين ملك الاردن عن طريق الامم المتحدة يحثه فيها على ابعاد الاردن عن الحرب . فاذا وافق فان اسرائيل تنههه بدعم بهاجمة المملكة الهاشمية . كانت الوزارة مستعدة من أجل تجنب الدخول في حرب على ثلاث جبهات اضاعة فرصة غزو الضفة الغربية والقدس الشرقية العربية . لم يعارض بيجين او آلون قرار ارسال البرقية الى عمان ولكن بمجرد أن اتضح في صباح يوم الاثنين أن حسين تجاهل البرقية بدعا في الضغط

على رئيس الوزراء بإعطاء أولوية لاعادة توحيد المحكمة المقسمة . قال له آلهن بنحزة سلغرة « بيجين واتنا نريد القدس . فلجلبه لشكول باللغة العبرية القديمة : « ليست هذه فكرة سيئة » .

وعندما وصل بيجين الى القدس لحضور جلسة خاصة في مبنى الكنيست الجديد الذي بنى على ارض مختصة في اعلى منطقة في جينف رام والذي تم افتتاحه قبل عام وتعرض المبنى للقصف من ناحية بيت لحم ، أدرك بيجين ان حله في طريقه الى التحقيق ربما اسرع مما كان يتوقع . وعندما عرف ان اشكول لم يصل بعد طلب من سكرتيره للسيلس الوقوف عند مدخل الاعضاء وطلب منه ابلاغه بمجرد رؤية سيارة رئيس الوزراء . أحاط بيجين بالشكول عند دخوله المبنى وطلب منه عقد جلسة طارئة لمجلس الوزراء قبل ان يترك الكنيست . وافق اشكول واجتمع الوزراء في حجرة الوزارة بالمطابق الثاني ولكن سرعان ما قام حراس المبنى بدفعهم الى مخبأ سري ضيق تسوده الفوضى . كانت قنابل المورتر تتساقط بالقرب من المبنى بدرجة خطيرة وانفجرت احداها بين الامشكوب في الخارج . صوت الاجتماع بالاجماع على الاستيلاء على المدينة القديمة محطة اذاعة الدي . بي سي . ويتنظر الطيعة الاولى من الصحف الصليحية . كانت القدس قد تم حينذاك تطويقها بالجيوش الاسرائيلية . وسيطر جنود المشاة على جبل سكوس وجبل الزيتون ، المرتفعت الهامة فوق المدينة القديمة وبعد منتصف الليل استمع بيجين في الاذاعة ان الامم المتحدة تستعد لاصدار امر بوقف اطلاق النار على كافة الجبهات .

طاردت بيجين ذكرى سنة ١٩٤٨ عندما اصيبت عصابات الهاجاناه الارجون وشترين بالاحباط نتيجة وقف اطلاق النار الذي حال بينهم وبين القيام بمحاولة أخرى لاستعادة القسم اليهودي القديم من ايدي النازي المرمي بقيادة الملك عبد الله . تناولت اول صحيفة تصل الى عتبة بيته وهي صحيفة المبللم اليسارية « عال هشتار » تفصيل أخرى عن القصة ، كان قرار وقف اطلاق النار وشيكا في الساعة الرابعة صباحا . يُقظ بيجين اشكول واقترح ان يصغروا اوامر الى الجيش بدخول المدينة القديمة قبل فوات الاوان . طلب رئيس الوزراء من بيجين معادنة موسى ديان تليفونيا . قال بيجين لوزير الدفاع : « على الرغم من اننا اتفقنا أمس على مواصلة تطويق المدينة القديمة الا ان قرار مجلس الامن يغير كل شيء . ولا يمكننا الانتظار بعد ذلك وابق ديان الذي كلن حتى حينذاك يتزعم الدعوة الى استراتيجية أكثر حذرا . وتحدث بيجين ببناء على اقتراحه الى رئيس الوزراء مرة أخرى وطلب منه القيام بعمل غوري . اتفق معه اشكول في الرأي واستشار زملاءه واصدر اولبره الى الكولونيل مورد خاي جور ولواء مظلته

بفتحهم الحوائط للمرة الاولى منذ قتل السلطان التركي سليمان الاعظم
بينهما في سنة ١٥٤٠ . وفي الساعة ١٥. ١٠ من صباح يوم الاربعاء ٧
يونيو وبعد قتل عفيف في الازقة الضيقة المؤدية الى بوابة سانت ستيفانس ،
كانت نجمة داود تخفق فوق الهيكل وكانت حفة من جنود المظلات السنين
يقطنهم غير الحركة والعمق يؤدون صلاة شكر عند الحائط الغربي . لم
يضر تنفيذ وقف الطلاق النار لمدة اربع وعشرين ساعة اخرى مما اتاح لاسرائيل
استكمال غزوها للمنطقة الغربية لنهر الارض وشبه جزيرة شفاء ، وعسطن
لرغم مما يكثف ذلك من المخاطر المستقرة المتوقفت خلفاء مشهورين . فلن
اسرائيل واصلت هجوما لتستولي على ارتفاعات الجولان السورية في الـ ١٧
الخامس والستين .

لم تكن تنقضي ثلاثة اشابيع اى في ٢٧ يونيو حتى قامت اسرائيل بتطبيق
قوانينها في القدس الشرقية . وكان ذلك يقرب بالنسبة لكافة المحلوسين
الشرعيين - ما عدا المتطرفين منهم - من ضم الغلى . وهكذا تحقق
خلم بيمين المثلث في قمم موحدة تحت السيادة اليهودية ، وتم اتخاذ خطوة
جديدة حتى يقسم الا بعد تقسيمها مرة اخرى اذا منيت اسرائيل بهزيمة في
حرب . حتى معظم الاسرائيليين من العربانيين انتابهم احساس بان شيئا
اشبه بالمعجزة قد حدث . كان خليطا من التحرر من شيء كان يمثل خطرا
شديدا والدمعة من تطهير الحواجز المادية والنفسية التي قسمت المدينة
المقدسة . انفع عشرات من الاسرائيليين الى الحائط الغربي للحج بدون
نظام ليل نهار : وسواء كانت جادة بيمين التي اقترحها عند الفجسز من
السبب وراء الاستيلاء على المدينة القديمة ام لا فانه كان راضيا على انسه
تمام بدوره .

.. شاركت حروت في الاجماع القومى حول القدس . فلم يناد اى تنظيم
يهوىة القسم الشرقي من المدينة الى الحكم العربى ولكن بالنسبة ليهسودا
والسامرة في الضفة الغربية التي احتلتها اسرائيل مؤخرا كان بيمين يتحدث
بلسم الإقالية . لم يكن يتخيل الكثيرون انه بعد تحقيق من الزمن فان اسرائيل
ستسيطر على كل فلسطين . غرب النهر . تحدث زعماء العمل عن انتظار
مكالمة تليفونية من عمان . وأعلن مورخاى يفتوف وزعيم الاسسكان ان
« الاراضى محفوظة في امان حتى يكون الملك حسين مستعدا لاستعادتها » ثم
يكن الحزب الدينى القومى قد تطرف بعد وأعلن زعيمه هليم موشى شليرو
امام مؤتمر الحزب في سنة ١٩٦٨ ان التوصل الى تسوية بشأن الاراضى
امر اصلى . ولكن بيمين كان ممها منذ البداية لبذل المستحيل للحيلولة
دون اعادة تقسيم « ارض اسرائيل » . لم يعترض عندما قررت الحكومة
ارسلان من يقوم بجس نبض الاردنيين ولكن ابا اييلان الذى كان يشغل وقتذاك
مكتب وزير الخارجية أعرب عن شكه فى انه اذا استجاب حسين فان بيمين
سيعتقل .

قال ابلخايل : « انني اذكرك كيف ضحك بيجين في سمر عندما سمع عبارة « الرفض القاطع » في يد الملك حسين . وفي شهر يوليو سنة ١٩٦٧ ساعد بيجين ايلان ووارحدا فتح على صياغة خطاب يفتح الطريق امام التوصل الى تسط وسط بين حقوق اسرائيل القومية في القدس ومصالح المجتمع الدولي . ونص للخطاب على : « ان اسرائيل لا تطالب باسيطرة على القدس من جانب واحد او بالسلطة المنفردة في الاماكن المقدسة للمسيحية والاسلام » . وستكون اسرائيل في اية قومية سليمة « مستعدة لتقديم صياغة مناسبة لتحقيق هذا المبدأ » . ولكن هذا الإعلان لم يتضمن مرضا للتوصل الي حل حول السيادة الاسرائيلية . كلن ايلان يابل ان يطلق هذا احتيالا بالتوصل الى حل ضمنى بالنسبة للمسجد الاقصى وقبة الصخرة . وهي الاماكن الاسلامية المقدسة في الهيكل اذا ما تم التفاوض من اجل تسوية سياسية مع الارض كان بيجين مستعدا للقيام بتلك المخاطرة .

بعد انتهاء الحرب كرمش بيجين كل براعه اللغوية في تأكيد ان اسرائيل تقبل قرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة رقم ٢٤٢ بكثر الالفاظ بعدا عن الالتزام بشيء . وكان هذا القرار الذي صاغته بريطانيا في نوفمبر سنة ١٩٦٧ كاذبي حد للاتفاق حول قاعدة لاجراء مفاوضات بين اسرائيل والعرب للتوصل الى حل شامل . يؤكد « عنضم السماح بالاستيلاء على الاراضي عن طريق الحرب » ويحذر من بين اعتياد اخرى التي انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من اراضي محل النزاع الاخير » . كان اعتراض بيجين الاول هو منضم استخدام الحكومة الاسرائيلية لكلمة « انسحاب » وكان يقاها بعد فطنت ان حيوت نجح في تحقيق هذا بعد علمين ونصف .

تم تقديم اقتراح الى الوزراء ثلاث مرات باستخدام كلمة « انسحاب » ورفضت الوزارة خلال احدى الجلسات مرر ليفي اشكول هذا . ثم تقديم اقتراح اليها لاستخدام كلمة « انسحاب » وكبت ضد استخدامها . اقترحا كلمة « انتشار » القوات . سأل احد زملائي رئيس الوزراء ما هو الفرق بين انسحاب وانتشار القوات اجاب بطريقة مميزة : « اذا قلنا انسحاب فعندئذ نكون ملزمين به واذا قلنا انتشار القوات فان ايلان سيفسرها بالطريقة التي يراها صوابا وسيفسرها بيجين بالطريقة التي يراها صوابا » .

اعلن بيجين بعداثرته كثيرا من التوصل النافذة ان كلمة « انتشار » ليست ملائمة لمعاهدة سلام . لان انتشار تعنى دائما تنشيط القوات للتعليم بوجوم . واستقر راي الحكومة في النهاية على : « يكون تنظيم القوات بالتوافق الكمل مع الحدود الدائمة التي تتحدد في معاهدات المسسلام » .

بالنسبة لبيجين كان الاختلاف بين « الانتحار » و « التنظيم » قاطعاً .
كان حريصاً على عدم استخدام لفظ « اعادة » فلم تذكر حكومة اسرائيل كلمة
« اعادة انتشار » او « اعادة تنظيم » فلم تكن تظم نفسها بالانتحار وشرح
بيجين الفرق قائلاً ان « الانتحار يعنى التحرك الى الخلف وفي كلمة تنظيم
ليس هناك حركة . ان ذلك مستقره الحدود كما تتحدد في معاهدة سلام . »

قال ايلان وهو واحد من اكثر الوزراء مرونة في مجال سرده لذكرياته :
لم يكن سهلاً بالنسبة لى صياغة مقترحات محتلة في وزارة تتكون من كافة
الاحزاب بما فيهم جلعاد الذي يمتد مثله انه يمكن التوصل الى معاهدات
سلام دون التضحية بأى اراضى على الاطلاق . ومع ذلك فان بيجين لم
يمارس حق الفيتو على الدبلوماسية الاسرائيلية . يقول ايلان ان « اشكول
كان يمنحى سراوهدوء تليده للصيغ التي لم تكن تلقى ترحيب بيجين
وزملائه » . ومع فان جاحال توقف في مرحلة حرجة قبل ان يوضح
الاحتلال في قلبه .

استكمل اشكول جلعاد في حكومة الوحدة الوطنية — برئاسة اشكول
حتى وفاته بنوية تلبية في فبراير سنة ١٩٦٦ ورئيسة جولدا مائير حتى
اغسطس سنة ١٩٧٠ — انتقل مناهج بيجين الى مرتبة يصبح فيها جديراً
بالاحترام . كان من الصعب ارضائه خلال حضور جلسات الكنيست
واجتماعات الوزراء كانت علاقاته مع أعدائه السابقين ودية وعلمية بل انه
هلل بن جورويون الهرم . وقد تصالح ان تقبلاً في احد الايام في مطعم
الريجنس في فندق الملك داود ودعا بن جورويون بيجين للانضمام اليه في تناول
الغداء وكتب له المحارب القديم يقول له بعد ذلك :

« كانت زوجتي يولا لسبب ما معجبة بك لقد عارضت
طريقتك بقوة أحياناً . قبل وبعد قيام الدولة . كما لو كنت
ساعارض طريقة جابوتنيسكي . عارضت بشدة عدداً من أعمالك
وآرائك بعد اقامة الدولة . ولست نادماً على معارضتي لانني كنت
محبياً في رأيي ولكنني لا احمل لك أية ضغينة شخصية وكلما
عرفتك أفضل خلال السنوات الأخيرة يزداد تقديري لك وتشاركني
زوجتي يولا في هذا . »

ابتهج بيجين بالاطراء بالرغم من انه ربما كان يفتقر الى الصياغة البارعة
وسر بنفس القدر لان اشكول كان رئيساً للوزراء أكثر قوة مما كان يتوقع او
ما كانت تؤمله له سمعته . وشهد فيما بعد ان اشكول اثبت انه رجل يستطيع
اتخاذ قرارات :

« رأيت يعمل في أوقات صعبة ، وأكرر انه كان البادئ أو الشريك
أو العامل الحاسم في اتخاذ قرارات حاسمة تلك التي كانت أقرب
القرارات الى نفسي - القرارات المتعلقة بالقدس ، وبمرفعات
الجولان ، والمتعلقة بتوحيد القدس وأعرف مدى تأثيره في اتخاذ
تلك القرارات »

كان زعيم حيرت وزيرا بين وزراء آخرين ، فلم يكن يتمتع بطلاقة متميزة
مع اشكول ، ولكن تم قبوله وفقا لنفس الشروط . ويقول ياكوف شمشون
شايبرو وزير العدل وأحد المخضرمين في الماباي : « كان أسلوب اشكول معاملة
الوزراء على قدم المساواة كان يميل الى قبول الجانب الآخر من العملة وليس
كبن جوريون وشاريت بصفة خاصة الذي كان يعتبر نفسه ينبوع الحكمة
كلها » . بدا تولى جولدا مائير لرئاسة الوزراء في اول الامر تهديدا بانتهاء
شهر العسل . وكانت رئيسة الوزارة الجديدة قد قاومت تشكيل ائتلاف
من كافة الاحزاب عشية حرب يونيو . وكانت أكثر اهتماما بابعاد موشى
ديان الذي لم تستطع ان تغفر له تركه الحزب مع بن جوريون أكثر من ابعاد
بيجين ولكنها كانت امرأة ذات آراء صريحة تمثل الولاء التاريخي وتحيزات
الماباي . وكانت مسز مائير من الشخصيات التي اذا كرهت أحد فان
كراهيتها تكون شديدة وظل مناحيم بيجين لفترة طويلة هدفا لكراهيتها .
ولكنها كانت تعرف كيف تسحر وتكيف . وكانت مثل اشكول تقدر أهمية
حكومة وحدة وطنية بمجرد بدء الحكومة العمل . كانت مصممة على نجاحها
واذا كان ذلك يعنى التعايش مع بيجين فليكن ذلك . ولدعشة المجتمع السياسى
تعاون الاثنان بسهولة بل بود في الوقت الذي استمر فيه الائتلاف . وعلى
الرغم من أن مسز مائير لم تكن تشاركه التزامه الكامل بأرض اسرائيل الا انها
كانت تشاركه شكوكه تجاه نوايا الفلسطينيين . وكانت فخورة مثله
بيهوديتها .

عمل بيجين الذي كانت له نقطة ضعفه كمدني تجاه الابطال العسكريين
على توطيد علاقته في هذا الوقت مع ديان وكان التقدير متبادلا بينهما مما أدى
في نهاية الامر الى تجنيد الخارج عن حزب العمل لخدم في حكمة يشكلها
حيرت . كانت هناك صلة روحية تربط بين الاثنين . فديان من جيل ولد في
اسرائيل ويعرف العرب كبشر وليس كأعداء مجهولين كان يعرف الارض
بطولها وعرضها بكل حواسه . كل بيجين يشعر كما لو كان في بيته في
القدس ، في تل أبيب وفي احلامه المتطلقة بالثورة ولكن داخل الوزارة
أصبحت نواة ما أطلق عليه أحد المطلقين الاسرائيليين : « ائتلاف مستور
تخطى الحدود الحزبية . اشتركا معا في معارضة الموافقة على مشروع
الون الذي وضع تمييزا بين السيادة والامن ، ويصور انسحاب اسرائيليا من

المتزايدة الإنسانية للفكر عند التوصل الى اتفاق مع الاردن ، توصل
بيجين وديان الى موقف مشترك نابع من منطلقات مختلفة : كانا متشابهين في
ايمانهما بالروحانيات . كان بيجين يؤمن بالخلق الالهي لليهود في ارض فلسطين
كلها . وكان ديان يتذكر تجولاته في الصحرا ، وقضاء الليالي تحت ضوء
النجوم ويرفض اى حل يمكن أن يحرم يهود آخرين من نفس العلاقة
الحميمية . كان الضم يثير استفزازا غير ضروري ، ولكن يجب ان تكون
هناك حدود لا يمكن الاضرار بها .

كانت الثلاث سنوات التي قضاها بيجين للتدريب على الحكم من سنة
١٩٦٧ الى سنة ١٩٧٠ سنوات مثيرة ولكنها أصابته بالاحباط دائما ، فلم
توكل اليه مسؤوليات عندما كان وزيرا بلا وزارة ، فالوزراء الاداريون
غيرهم بطبيعتهم ممن هم اعلى منهم ، حريصون على ألا يتركوا فراغا
لمفرهم . وبدأ بيجين دائما كما لو كان يخلق لنفسه عملا ، فكان يشكل
لجانا فرعية جديدة ، ويستقبل الصحفيين ، ويرد على منتقدي الحكومة .
كذلك فان فرصة البرلمانية كانت محدودة وكان ذلك يكبره وهو أحد النجوم
الأوائل للكنيست . فنادرا ما كان الاعضاء في المقاعد الخلفية يناقشون
الوزراء بدون وزارة ، كما ان مديري الحزب لم يعطوا للاعداد القدامى
فرصة التالى خلسة انهم ربما يعودون الى صفوف المعارضة في أية لحظة ،
وعندما وقع الانشقاق في النهاية شعر ايلان من جانبه ان بيجين « تخطى عن
مائدة الوزراء في مقابل منبر الكنيست وهو يشعر بالارتياح » .

عندما خلفت مسز مائير اشكول في رئاسة الوزارة لم يكن استمرار
عضوية جاحال في الائتلاف اثنوميتيكا بآلية حل . كان بيجين وزملاؤه يشعرون
بعدم الارتياح ازاء الاتجاه نحو التوصل لتسوية فيما يتعلق بالاراضي بين
اغلبية الوزارة وحسبسيتم المتزايدة من خطر أن ينجح اللوبي الاسرائيلي
الاكبر في اخراجهم من اليمين ، ولكنهم فرضوا الموضوع على السياسة
الداخلية وان لم يكن على السياسة الخارجية ففي الوقت الذي ازدادت فيه
الروح القتالية بين العمال الاسرائيليين طلب بيجين بتشريع يقضى بعمل
التعظيم اجباريا في الصناعات الاساسية والخدمية ، وعندما رفض حزب
الممثل بصفوره الممتدة في الحركة القتالية والتزامه بحق الاضراب ، أعلن
بيجين عن استعدادة للرجوع الى مقاعد المعارضة ولكن الذي اتعنه بالمدول
عن موقفه هو تاجر موضوع ارض اسرائيل وهو نفس الموضوع الذي ادى
في النهاية الى خروج جاحال من الحكم . وفي شهر ديسمبر ١٩٦٩ بدأ جونر
بارنج مهمة الامم المتحدة للسلام بعد ان طوى النسيان القرار رقم ٢٤٢ الذي
كان قد تبناه مجلس الامن وكان قتل عنيف قد نشب بين القوات الاسرائيلية
والمصرية على سفلى قناة السويس . وكانت هجمات الفدائيين الفلسطينيين

تتصاعد من الاردن وسوريا . ويبدأ العظم يخشى وقوع مواجهة أخرى ، وفي واشنطن قهرت ادارة الرئيس نيكسون أن الوقت قد آتف للقيام بمبادرة دولية جديدة لاعادة الشرق الاوسط لصوابه . وفي ٩ ديسمبر أعلن وليام روجرز وزير الخارجية الامريكية أن الدول الاربع الكبرى في مجلس الامن سستعملون مع يارنج لتتوصل الى تسوية ونفا للقرار رقم ٢٤٢ ولكن الامريكيون قد قرروا ايضا « التشاور مع الاتحاد السوفيتي مباشرة على أمل تحقيق أكبر قدر ممكن من الاتفاق بيننا » . أصاب اسرائيل النعر من كلا النقطتين - البحث عن تسوية في إطار القرار رقم ٢٤٢ واشتراك الاتحاد السوفيتي ، صديق اعدائها الذي قام بقطع العلاقات الدبلوماسية معها خلال حرب ١٩٦٧ . وبما زاد من شدة المقاومة للاقتراح الأمريكي ما أوضحه روجرز حول سياسة الادارة الامريكية ازاء الحدود . فقد أعلن أن الولايات المتحدة تؤيد مبدأ عدم الاستيلاء على الأراضي بالحرب وانسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية من اراض احتلتها في سنة ١٩٦٧ .

« أقيمت الحدود التي نشبت منها حرب سنة ١٩٦٧ بناء على اتفاقيات الهدنة في سنة ١٩٤٩ وحدثت منطلق السلطة الوطنية في الشرق الاوسط لمدة عشرين عاما . وتلك الحدود كانت خطوط الهدنة وليست حدودا سياسية نهائية . وكانت تحكم حقوق ودعاوى ومواقف الاطراف ازاء التوصل الى تسوية سلمية نهائية لاتفاقيات الهدنة ولم يكن قرار مجلس الامن يوافق او ينادى بتلك الحدود السياسية المحددة . ومع ذلك فانه يدعو الى الانسحاب من الاراضي المحتلة ، وعدم للاستيلاء على الاراضي نتيجة الحرب واقامة حدود آمنة ومعترف بها ..

اننا نعتقد أنه في الوقت الذي يتمين فيه اقلية حدود سياسية معترف بها ومتفق عليها من جانب الاطراف ، كما أن أي تغيير في الخطوط الثلاثة لا يجب أن يعكس ثقل الغزو ويجب أن يقتصر على التغييرات الطفيفة المطلوبة لتحقيق الامن المستقبل . اننا لا تؤيد السياسة التوسعية ونعتقد أنه يجب سحب القوات كما بنص القرار . اننا تؤيد أمن اسرائيل وأمن الدول العربية كذلك . اننا تؤيد اقامة سلام دائم يحقق الامن لكليهما » .

هكذا كان مشروع روجرز عند صياغته الاولى ، كان أكثر اعتدالا مما اعترف به الاسرائيليون ولكن ما لم يستسيغوه هو فكرة الانسحاب الفعلي من كافة الاراضي وما يشتت من فرض حل كان ذلك كافيا لبقاء مناحيم بييجين في الحكومة ، بدأ ان علاقت حزب العمل أصبحت تافهة . فجأة ، وقع جاحل

اتفاق ائتلاف جديد وارفع عدد وزرائه من اثنين الى ستة وزوا من بينهم عيزرا وايزمان الذي انتقل مباشرة من الرجل الثاني في قوات الدفاع الاسرائيلية الى حيروت ثم الى الوزارة كوزير للنقل وفي ٢٢ ديسمبر رفضت الحكومة مشروع روجرز جملة وتفصيلا وقالت ان المقترحات الامريكية :

« تحفيز ضد فرص اقلية سلام ، وتجاهل الحلبة الاسلمية بتقرير حدود آمنة ويتفق عليها عن طريق توقيع معاهدات سلام بطريق المفاوضات المباشرة ، وتؤثر على حقوق اسرائيل السيادية رانها في صياغة قرارات تتعلق بالفلسطينيين ووضع مدينة القدس ولا تتضمن اى التزام فعلى من جانب الدول العربية لوقف الانشطة المعادية لمنظمات الارهاب والتخريب » .

كلن بيجين راضيا ولكن قلعا ، فقد رفضت الوزارة مشروع روجرز بتشجيع من موقف جاحال التشدد ولكن لم يتوقع احد ان يؤدى الرفض الاسرائيلي الى القضاء على المبادرة الامريكية خاصة ان حربا الاستنزاف في قناة السويس تزداد يوما بعد يوم وكذلك الخسائر الاسرائيلية . غير زعيم حيروت موقفه نتيجة بيان حول السياسة الخارجية صيغت كلمانه بعناية في اواخر شهر مايو سنة ١٩٧٠ حيث اقترعت مسز ملير من اى وقت مضى من قبول القرار رقم ٢٤٢ دون سابق انذار . وشكا بيجين من ان جاحال لم يستشر . ولكن رئيسة الوزراء عملت على تهدئته بصفة مؤقتة بالتاكيد على ان شيئا لم يقصر . وخلال الاقتراع الذى جرى في الكنيست حول بيانها امتنع نواب جاحال الستة والعشرين الذين علوا الى الكنيست خلال انتخابات سنة ١٩٦٩ عن التصويت ولكن كتلة حيروت الليبراليين ظلوا في الائتلاف لمقاومة تقديم مزيد من التنازلات للامريكيين . لكن بيجين لم ينتظر طويلا لخوض التحدى . في يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٧٠ اقدم روجرز على خطوته الثانية فاقترحت الولايات المتحدة على اسرائيل ، ومصر والاردن بدء المفاوضات تحت اشراف يارنج للتوصل الى اتفاق سلام قائم على الاعتراف المتبادل بين اسرائيل والاردن بالسيادة ، ووحدة الاراضى والاستقلال السياسى وانسحاب اسرائيل من الاراضى المحتلة في سنة ١٩٦٧ . وفي نفس الوقت تلزم الاطراف بوقف اطلاق النار التزاما كاملا لمدة ثلاثة اشهر على الاقل ، ولتخفيف حدة المقترحات كلن الرئيس ريتشارد نيكسون اكثر تحديدا عن ذي قبل في تأكيد امن اسرائيل وكان قد ألمح في شهر مايو خلال مقابلة مع ايبان في البيت الابيض ان اسرائيل تستطيع الاعتماد عليه في الحصول على طائرات مقاتلة متفانية — مقاتلة اذا احتاجتها في حرب استنزاف ووفقا لما ذكره وزير الخارجية الاسرائيلي غسان نيكسون عقب الان التزمه :

« جعلنا نفهم أن تمهده لى حول طائرات الفلتوم يجب ان يؤخذ مأخذ الجد وأكد انه لن يكون متوقعا من اسرائيل سحب جندى واحد من اى من خطوط وقف اطلاق النار الا فى اطار اتفاقية سلام متبادلة تعتبرها اسرائيل مرضية لامنها ، كان هناك أيضا تمهد باستخدام الفيتو الأمريكى فى مجلس الأمن لمقومة اية قرارات تدعو الى الانسحاب الكامل الى خطوط ما قبل خطيط سنة ١٩٦٧ »

استنتج ايبان ومسر ماثير ان مخاطرة الاقتراح الأمريكى اقل من المخاطرة برفضه فان التوصل الى وقف كامل لاطلاق النار سيؤدى الى استمرار الحرب مع مصر ، واحتمال التورط مع الاتحاد السوفيتى وهبوط التأييد الأمريكى لاسرائيل . مع ذلك فان بيجين رأى فى ذلك خيانة للقضية ، وقال ألمم أعضاء جاحال بالكنيست « شلت يمينى قبل أن أوقع على مثل هذه الوثيقة » . وحذر بيجين من قيام مظاهرة معادية للشروع روجرز لمنع حدوث ميونيخ اخرى فى الشرق الأوسط . « من أجل الحفاظ على الوطن التاريخى فان اسرائيل ستعتد على « اتقنا » على جنودنا وعلى البقاء » . كان جلال يبريد وقف اطلاق النار ولكنه يرفض الموافقة على اية مفاوضات حول الانسحاب حتى يتحقق السلام . وحاولت مسر ماثير اقناع بيجين ان اسرائيل لا يمكنها الحصول على نصف الصفقة دون نصفها الآخر . كذلك فقلنا ان تتوقع الحصول على اى أسلحة من الولايات المتحدة . كلفت اجلة بيجين ان الأمريكين لم يقدموا أسلحة الى اسرائيل بسبب طيبة قلوبهم فان اسرائيل قد فعلت لامريكا أكثر مما فعلته امريكا لاسرائيل . أعريت مسر ماثير عن سقطها فى مذكراتها :

« لم استطع افهمه انه على الرغم من ان الالتزام الأمريكى تجاه بقائه اسرائيل كان كبيرا بالتاكيد فقلنا كما نحتاج الى مستر نيكسون ومستر روجرز أكثر بكثير مما يحتاجوننا ولا يمكن اقلية سياسات اسرائيل بالكليل على افتراض ان اليهود الأمريكين سيعملون أو يستطيعون اجبار مستر نيكسون على تبني موقف ضد ارادته أو تقديره . ولكن جاحال الذى اسكرته كلماته الجوفاء اتفق نفسه ان كل ما علينا ان نفعله هو مواصلة ابلاغ الولايات المتحدة اننا لن نخضع لاي ضغط مهما كان واذا فعلنا ذلك لمدة طويلة ويصوت عل هذا الضغط سيتلاشى يوما ما » .

ثم يكن جلال يقف كوحدة متراسة كما اعتقدت رئيسة الوزراء . كان الليبراليون يتعاملون مع موقف بيجين المعارض للانسحاب ولكنهم لم يكونوا يريدون ترك الائتلاف بسبب موضوع ما زال افتراضيا . كان اريخ دولزين

أحد وزراء جاحال ورئيس اللجنة الليبرالية المركبة المتحدث باسمهم ضد العودة الى المعارضة . يقول : « أننا لا نتأثر بلبشات أن رأينا الاسلحى هو أننا سنترك الائتلاف فقط اذا اتخذت الحكومة « قرارا » بالاستحلب . لنبقى في الحكومة حتى نتأكد انه ان يكون هناك « استحلب » . تبقت اقلية في حيروت بما فيهم عيزرا وايزمان وجهة النظر ذاتها . وكتب يقول : « كنت مقتنعا ان اذعان اسراييل لمشروع روجرز سيكون كارثة . ولكن لنفس ذلك السبب على وجه الدقة اقتنعت انه يجب علينا ان نبقى في الائتلاف والا نترك للوزارة اتخاذ قرار حول تلك المشروع كون وزراء حيروت » . ولكن ما كان ينبغي ليغير من موقفه . كانت الكلمات بالاسنة له : « مثل صلاية لاقتبال » فكان يرى انه بمجرد أن توافق اسراييل على « الاستحلب » فلها ستقف على الحانة المحرقة المؤدية الى التخلي عن « ملكية اجدالنا » . ان التنازل عن الحق اليهودى في الارض ليس الا خطوة تصيرة من التنازل عن الارض ذاتها . استخدمت ييجين كل قواه لحث حيروت على البقاء في الائتلاف ، ولكنه لم يكن لديه نفس التأثير على الليبراليين .

حسم الموضوع خلال اجتماع مشترك للجنة المركبة لكل من حيروت والليبراليين في مبنى الباتسبب القومى . قلم كل حزب بفرسال ١١٧ مندوبا . حاولت مسر ملير التأثير على نتيجة الاجتماع بالسماح لاعضاء جاحال في الكنيست بالتصويت ضد روجرز في الكنيست دون الاستعطار الى ترك الائتلاف . يقول دالزين في مجال روايته لتكرياته : « حاول ييجين بمسيدة اقناعنا . لم يكن يحاول اللجوء الى التهديد معنا ، لم يكن يغضب كان يحاول دائما الاقتناع ، حاول جاهدا ولكنه لم ينجح » .

كل التصويت بالاقتراع السرى بوضع اوراق التصويت في صناديق خاصة . وصل القوتر الى اقتصاء عندما جرى تفرغ الصندوق الاخير في الساعة الثالثة صباحا . فاز ييجين بأقل اقلية يفوز بها في حياته حيث حصل على ثلاثة اصوات بين ٢٢٤ صوتا . صوت نحو عمانية من المنشقين الليبراليين مع حيروت . يعتقد دالزين أنهم كلوا يصوتون ضد زعامتهم اكثر من تصريتهم ضد ييجين . صوت عدد أقل من مطلقى حيروت بالبقاء في الائتلاف . وقبل الليبراليون الحكم بدلا من ابعاد جاحال عن الائتلاف ، وأصر دالزين على انه يجب عليهم الوفاء بوعدهم : « لقد دخلنا الحكومة بما ويجب أن نخرج بما . لقد أعطينا كلمتنا ومهما كانت نتيجة التصويت فطينا احترامها » . ولكن اذعان الليبراليين كان سياسيا وأخلاقيا كذلك ، كان طويل الاجل وقصير الاجل كذلك ويرى دالزين انه « كان هناك احتمالي واحد لاجاد بديل لحزب العمل وكان ذلك بما . وهذا هو سبب تشكيلنا لجاحال . من الناحية التاريخية كان من الخطا القول أننا تركنا الحكومة ولكن كان من الصواب أننا لم تنفصل عن حيروت » .

استقلال مناحيم بييجين وخمسة من زملائه في جلحال من الوزارة في أغسطس سنة ١٩٧٠ ، وهو اليوم الذي أبلغت فيه جولدا مائير الأمريكين والكينست أن اسرائيل قبلت القرار رقم ٢٤٢ « بكافة بنوده » بهدف تحقيق — من بين أشياء أخرى — « انسحاب القوات الاسرائيلية من نراضى احطت في حرب سنة ١٩٦٧ » . انهيار الحائط الذي اعتقد بييجين انه بناء حول شعب اسرائيل ولكنه رفض ان يكون طرفاً في الهدم . وأعلن أمام جمع من زملائه في حيزوت انه لم يكن أكثر سلافاً مع ضميره مثلاً هو الآن . كان قرار الحكومة انتصاراً لحملتهم حزب العمل ولكن ارضياهم لترك يتاحل للثقل كان يشونه ندم خلفه . كتب ابا اييل يستاء غير عادى — وهو من أكثر الحيقم اعتدالا : « ترك زخيل بييجين وزملائه البارزين مادة مجلس الوزراء أكثر اندهاجاً وهدوماً ، ولقد افنتنا فكرة وحوية الجدل الفكرى » .

كان الانقسام محتماً ان علجلا او آجلا ، في السياسة الاسرائيلية فان حكومتك المؤخدة الوطنية افضل في صنع الحزب من صنع السلام . ما زالت آثار هذه الاحداث ماثراً للخلف . فزعت مسر مائير ان حروب يوم كيبور سنة ١٩٧٢ اثبتت صحة قرارها . فبدون ذلك القرار لم تكن اسرائيل مؤهلة لمواجهة الهجوم المفاجيء للمصريين والسوريين . حافظ الرئيس نيكسون على وعده ووصلت الى اسرائيل بالفعل طائرات الميغوم وغيرها من الاسلحة الامريكية بين سنة ١٩٧٠ وسنة ١٩٧٢ ويعتقد اريخ داللين انه اذا كان جالحال قد ظل في الحكومة فان الحرب ما كانت تحدث قط « بعد تركنا الحكومة توفقت لجنة الامن الوزارية . كان بييجين واحداً من العوامل الرئيسية في هذه اللجنة ، وكان الامن مجال اهتمامه الرئيسي . كانت الحكومة ستكون أكثر وعياً بالوقوف الامنى وما كانت ستعتمد على شخص اسطورى مثل ديمان باعتبارها ضمانة لكل شيء . ويرى الليبراليون كذلك انهم اذا كانوا قد انفصلوا عن تحالف جالحال فان بييجين ما كان يستطيع الفوز في انتخابات سنة ١٩٧٧ . ولكن هذا يفترض ان افتراق السبل ما كان يمكن تغييره الى عكسه . ولكن هناك شيء لا يقل الجدل وهو ان ثوقعت بييجين لم تتحقق . وافقت اسرائيل على القرار رقم ٢٤٢ بما في ذلك مبدأ الانسحاب ولكن سواء اكان ذلك خيراً او شراً فان اسرائيل لم ترفع على للتخلي عن بومسة واحدة من ارض اسرائيل غرب الاردن .

الفصل الخامس عشر

وحدة لم افشل

أعد ارتداد جاهل من حكومة الوحدة الوطنية برئاسة جولدا مائير في شهر أغسطس سنة ١٩٧٠ موضوع السلطة في مواجهة المبدأ إلى جسدول أعمال حيروت . كان منلهم بيجين فخورا بأن حزبه صدق عهده مع ناخبيه والقرابة بلرض اسرائيل غير المقسمة كان سعيدا ليصيب بالاحباط كل أولئك الصحفيين الانكباء ورسلى الكاريكاتير انذين كانوا على اتم استعداد فقط للسخرية قائلين : « انك لا تستطيع اخراج جاهل من الحكومة حتى ولو بيلدور » .

أن أولئك الناس ذاقوا حلاوة المنصب الوزاري (المكتب والسيارة) ولن يتخلوا عن المنصب (أو تلك الاشياء) . . ولكن أعضاء حيروت الآخرين الأكثر شبها كانوا أقل رضى وأقل ميلا إلى القناعة بحياة متقشفة ورعة . . أصبح معيزرا وايزمان تقدا لحركتهم ، كان الجنرال السابق رجل افعال لا اقوال كان يشترك بيجين في وطنيته الهيئية . وكان يعتقد أيضا أن التقلى من دعوى اسرائيل في الضفة الغربية لنهر الاردن كان يعنى القبول بتسوية مثلة ولكنه كان يفتقر إلى الدعاية الايديولوجية التي كان يتمتع بها زعيمه سلك وايزمان مجال السيلسة لتنفيذ اشياء هي انتهاء احتكار المabay ، وعدم العبادة عند ضريح جليوتنسكى كان من « الصلبرا » ابن أخ أول رئيس لاسرائيل حليم وايزمان كانت جذور صهيونيته في حيفا وليس في بريست — نيتوفسك ، وفي قوات الدفاع الاسرائيلي وليس في الأرجون ، غايي ليومي . وباعتباره مهندس السلاح الجوي الاسرائيلي الحديث عرف أحسن الرضا النابع عن القيادة والانجاز ، وبمجرد أن أدرك أنه لن يصبح قط رئيسا للأركان فإنه أصبح تواقا إلى نقل نشاطه إلى الحياة المدنية .

لم يكن هناك شيء أكثر اشباعا لحروره من المهرجان الذي أقامه بيجين للترحيب به بين صفوف حيروت أو من الانتقال السريع من صفوف الجيش إلى مقدة الوزارة ولكن هذه السعادة العابرة لا يمكن أن تدوم . كان بيجين يريد وايزمان كنجم ، ويكطل حرب وكسائد للامسوات ، وكأحد رجال انكليزية وليس منافسا له ، وكان حيروت ما زال حزبه وهو وحده الذى بيده تقرير سبلسته وأهدافه .

برز الصراع خلال مؤتمر الحزب في تل ابيب في شهر ديسمبر سنة ١٩٧٢ بدا بيجين الهجوم من البداية مخذرا المتمردين ومؤيديهم أن نجاح التحسدى

لسلطته ربما يرغبه على التقاعد وقال « انتهى ساجد أنه سيكون أكثر من الشعب العمل مع لجنة مركزية غير مقبولة أدى . كان ذلك مسرحية مألوفة ولكنها نجحت مرة أخرى . فمهم المندوبين الإيلاء واعطوا الموالية أغلبية الطغين في اللجنة المركزية . بعد تعرض وايزمان لهجوم دمدم من بيجين لم يجد أمله خيلرا سوى الاستقالة من رئاسة اللجنة التنفيذية للحزب التي كان بيجين قد عينه فيها وقال « لقد تطلبت بعض الدروس المهمة للفنية من المسيرة الديمقراطية » وتساءل في حديث خلص مع بيجين عما كان قد رغب قط في الانتقال من المعارضة الى الحكومة فرد زعيم الحزب قائلا : اننا نخلص للبلادي وليس لمقاعد الوزارة » . كان ذلك فيما يتعلق ببيجين نهاية المناقشة ، امر بيجين على موقفه ونشلت كافة المحاولات التي بذلت للمصالح بينهما . كان بيجين وثقا كما لو كان قد تملك حكمة احد انبياء العهد القديم ولم يكن يساوره اي شك . كتب يقول في صحيفة « محاريف » اننا لم نخطئ قط ، لقد حكمنا دائما على الاشياء بطريقة صحيحة ، ولهذا فاننا لم نتغير قط لاننا لم نحتاج الى التغيير قط .

وينفس الروح استبعد بيجين مجرد تشجيع المعارضة داخل حרות باعتبارها ابرا غير ديمقراطي . ويستطيع وايزمان ان يهاجم بعنف من مقاعد الاقلية فقط . « ان هذه حركة اشخاص سلبيين ، خائفين من التغيير انهما لا تبرز صورة حركة سياسية حيوية » وعندما شعر بيجين بالانتصار الكامل عهد الى حاييم لاندو ، تابعه الامين القديم في الارجون بتوجيه الضربة القاضية ، كتب وايزمان في كتبه « على اجنحة الملائكة » : « لا تروى لى الحكليات حول تجديد الحركة عندما يكون هدفنا جميعا هو السلطة ، لو نظرنا الى بنيان الحزب وتسلسله الهرمي وطبيعة العلاقات على مستوى القمة يتضح انه لم يكن هناك مجال لامل مخلوق مثلى » .

ووصل في مجلد آخر من مذكراته الى استنتاج ان حרות كان مكانا صفيرا لحفظ التوابل المعرضة للخطر .

في هذه الفترة قام القائد القديم للارجون بزيارته الاولى غير السعيدة الى بريطانيا وهي الزيارة التي اظهرت جميع غرائزه المولعة بالقتال . كان الزمن قد مضى وكان مستعدا لنسيان الماضي ولكن البريطانيين او بالاحرى صحافتهم وأعضاء البرلمان المؤيدين للعرب لم ينسوا . ففي مقال بعنوان : « زيارة قاتل » ذكرت صحيفة « صنداي اكسبريس » قراءها بشنق اثنين من الجنود البريطانيين . وقالت ان بيجين لم يلق عقابه قط على وحشيته ، كما قالت :

« ان من الامور البالغة المفارقة ، ان يرغب بيجين في زيارة بلد يكن له هذا القدر من الكراهية بل والاكثر غرابة هو تصريحاته

التي قال فيها أنه يشعر أنه قد مرت فترة زمنية كافية وأنه يتوقع استقباله بكرم الضيافة التقليدي أي نوع من الناس نطلبنا ؟ ان احدا لا يستطيع ان يعيش الى الابد مع الغضب والظلم الى الانتقام.

وفي بريطانيا هناك حقيقة نوايا طيبة ضخمة تجاه اسرائيل ولكن ليس هناك نوايا طيبة تجاه القتلة - هل يتخيل بيجين حقيقة أنه حتى بعد مضي ربع قرن ، فان الشعب البريطاني سيكون نواقا للترحيب بمقاتل لم يلق جزاءه ؟ »

ونشرت صحيفة « التايمز » نقدا لاذعا يشبه دير ياسين بمذبحة ماي لاي في فيتنام وركزت صحيفة « الجارديان » هجومها على الوقت الراهن حيث قالت : « ان هدفه هو سحب التأييد من حكومته المستعدة للتفاوض من اجل الانسحاب وما يقوم به مستر بيجين يجعل مشكلة الشرق الاوسط اكثر تعقيدا ويزيد من احتمال نشوب حرب . أنه ليس علما مساعدا او موضع فخر لاسرائيل » .

انتهر بيجين كل فرصة للرد على الصحافة ، في الراديو وفي التلفزيون وعندما سأل أحد الصحفيين ماهو شعوره عندما يجسد البوليس البريطاني يحرسه بدلا من مطاردته اجاب « هذه واحدة من أمتع فترات حياتي وأظن أن هذا مؤثر للغاية » ان رجال البوليس لديهم مخلصون للغاية وعندما ابلغ ان بعض السفراء العرب طلبوا من الحكومة البريطانية تسلمه لمحاكمته باتهامات عن جرائم حرب ارتكبتها في دولة عربية رد مبتسما : « ساكون أول عضو من الكنيسة يقوم بزيارة دولة عربية ، ربما يكون هذا بداية مفاوضات مباشرة للتوصل الى سلام دائم وعادل » على الرغم من التهديدات بتفجير قنبلة ، والمظاهرات المعادية والاسئلة التي وجهت اليه في المجلس رفض بيجين الغناء رحلته التي استغرقت ثلاثة ايام ولكن دعت معلمات التهديد التلفزيونية مديري فندق رويال جاردن وسترال هول ، ووسمنستر الى الغناء الاجتماعات العامة الهامة التي رتبها حيروت البريطاني . وعند عودته الى اسرائيل وصف بيجين الزيارة بسعادة ، وقال « أنها كانت أروع ثلاثة ايام في حياتي » ولكن ذاكرة العدو القديم التي لم تغفر له تركت لديه مذاقا مريرا . فبرغم كل شيء فان هناك زعماء وطنيين آخرين من الذين وصموا بالارهاب خلال الايام الفاسدة للامبراطورية البريطانية من أمثال جومو كينياتا ، والاسقف مكاريوس .. ولكنهم يستقبلون الآن بلحترام في لندن وكذلك الامبراطور هيروهيتو امبراطور اليابان . لم يكن بيجين يحتاج الى اثارة شعوره بالاضطهاد حتى يشتم المعاداة للسلمية .

كان الجنرال ايريل شارون مثله مثل عازر وايزمان يمينيا متطرفا وربما شديد الغرور ايضا بما لا يمكنه بالتاكيد من تحقيق طموحه العسكري تحت حكومة العمل . وكان شارون قد ترك الخدمة في الجيش في اوائل شهر يوليو سنة ١٩٧٣ وانغمس في سياسات جاحال واختار بدلا من حيروت الحزب الليبرالي لا لسبب الا انه يبدو اكثر استعدادا للاغراء فخلال شهرين غدير من وجهة اليمين الديمقراطي الاسرائيلي - ودفع مناهم بيجين خطوة حاسمة في اتجاه رئاسة الوزراء . لم يكن هدفه مجرد تحويل جاحال الى حزب للحكومة ولكن توسيع قاعدته حتى يمثل بدلا لهيمنة العمل .

واقترب شارون من تحقيق مهمته بنفس الحماس الذي اكتسب تعلق قوات مظلاته وخوف رؤسائه . كان سياسيا مبتدئا لا يتسم بالتواضع . كان يشق طريقه بحذر وتلحق ولكن يرفض كلمة لا وخلال اسبوعين منح حيروت بركاته لكتلة « ليكود » (الوحدة) الجديدة وهي تضم حزبي جاحال بالاضافة الى الوسط الحر بزعامة شامويل تامير والقائمة الرسمية وهي جماعة منشقة من جماعة منشقة من منشقي بن جوريون الذين لم يعودوا الى العمل . وعلى الرغم من تحفظاته على تامير المتمرد الذي كان قد طرده من حيروت في سنة ١٩٦٦ . كان بيجين من أكثر مؤيدي شارون حاسمة . فالشريك الاكبرسيظل حزب حيروت وسيظل حيروت هو بيجين ولم يكن شارون يشكل أى تحد لهيئة الزعيم .

وعلى الرغم من دفعه للمفاوضات فانها تحولت الى شيء كره وسارت على نحو بطيء حتى شهر سبتمبر . تجادل الحزبان الصغيران حول من سيحتل المركز الخامس والثلاثين او السادس والثلاثين في القائمة المشتركة لانتخابات الكنيست المقرر اجراؤها في ٣٠ أكتوبر رد اليميلاخ ريمالت وهو زعيم ليبرالي صبور ومتقف على تامير بمنف قائلا : « ان أى شخص يراوغ للحصول على المركز الخامس والثلاثين في هذه المرحلة من المحادثات لا يريد الليكود حقيقة » ولاسيباب تكتيكية غير بيجين مفاوضي حيروت فوضع يروهانان بادير الموالي القديم الذي لم يستطع أن يخفر لتامير تمرد في قرية مكليليا بدلا من بفجلين هاليفي المؤيد صراحة لليكود . عمل تامير بقوة ليحصل لنفسه على المركز الخامس بدلا من الثامن . أما عازر وايزمان الذي شجعه احتلال التوصل الى تحالف أوسع على الصلح مع بيجين فكان يفسر بالفئيان لدرجة أنه انسحب مرة أخرى . وكتب يقول في خطاب أرسله الى الزعيم حيروت :

« انني لم اشترك قط في مثل هذه العملية القبيحة والمخزية التي وقعت في جماعة من المفترض أن تكون مثالا للامانة والزعامة »

ولست أعفي نفسي من اللوم . لقد ساهمنا جميعا في خلق هذا المشهد السلبى . اشتركنا جميعا في التنازع حول مقاعد الكنيست بتبادل القلف

والأكاذيب الرهيبة . ان ما حدث خلال الأسابيع القليلة الماضية أكد فشلنا في تقديم الزعامة وأضحى أنه من الضروري ، من أجل الصحة - العامة - أن أترجل من عربة الحزب التي كنت أجلس فيها وأعود الى الحمول السياسي من أجل البحث عن الذات - والبحث عن طريق سياسي . »

ولم يكن ييجين في حالة نفسية تسمح له بالدخول في مواجهة أخرى مع القائد السابق للقوات الجوية . ورد قائلا « أعتقد أنه يتعين على كل شخص التصرف وفقا لضبره ونهمه وذلك بدلا من مناشدة وإيمان البقاء . ثم سمح ييجين لمساعديه بتسرب أنباء الخطابات المتبادلة الى الصحافة . »

كان إيريل شارون يتمتع بصلاية أكثر كان يهدى ويستحث ويكرسه محترفي الحزب على الوحدة . : « اما كل شيء أو لا شيء » وبينما الانتخابات على الأبواب في ١٦ سبتمبر سنة ٧٢ ، تم التوقيع على اتفاق ليكود . قال أحد زملاء شارون من الليبراليين وهو بين الاعجاب والصدمة « أنه اغتصب أربعة أحزاب . »

تنبا بعض المعلقين الاسرائيليين أن تشكيل الكتلة الجديدة سيعنى بداية النهاية لمستقبل ييجين . كتب ييجين مقالا ساخرا في صحيفة « معاريف » كان يمكننا أن نتحقق رغبتهم ولكن كان ممكنا كذلك نفس القدر أن يصابوا بخيبة الأمل . وفي نفس الوقت فانه حدد الأهداف الثلاثة الرئيسية بأنها : الحصول على أغلبية في الكنيست تسمح برفض أى اقتراح - بإعادة تقسيم أرض اسرائيل والقيام بمبادرة عملية للقضاء على الفقر ، والاندماج لايجاد بديل لحزب العمل . ومضى يقول في عشية السنة اليهودية الجديدة : « ولكن بالنسبة للان فان أحدا من بيننا ليس في طريقه الى بداية نهايته السياسية اننا جميعا في بداية سنة جديدة وربما - من يعرف ؟ - في بداية عهد جديد . »

اثبت ييجين أنه أقرب ما يكون الى نبى أكثر مما توقع هو أو توقع قراؤه .

وفي ٢٦ سبتمبر ، عشية السنة الجديدة قام موسى ديان وزير الدفاع بجولة في الجبهة الاسرائيلية في مرتفعات الجولان ، كانت هناك تقارير ملحقة حول تدعيم سوريا لقواتها المسلحة ولاته شاهد بنفسه امر بتعزيزات محدودة للقوات الاسرائيلية في الجولان ، . ثم ابلغ الاركان العامة « لدينا على الحدود الاردنية مستوطنات مدنية وليس اعداد وعلى الحدود المصرية لدينا عدو وليس لدينا مستوطنات . وعلى الحدود السورية لدينا الاثنان واذا ما وصل السوريون الى مستوطناتنا فان هذا سيكون نذيرا بوقوع كلثة . بعد ذلك بأحد عشر يوما . في يوم كيبور وهو من أقدس الايام في التقويم اليهودي قامت الجيوش المصرية والسورية في نفس الوقت بالهجوم على الجولان وقناة السويس .

وعلى الرغم من الدلائل المنفرة بالسوء فإن إسرائيل لم تكن مستعدة تماما .
وللمرة الأولى منذ سنة ١٩٤٨ كلفت تخوض حربا يقسة نظاما عن بقائها
القسمى .

وحشد السياسانيون صفوفهم وعاد ايزيل شارون الى الجيش وقاد اخذى
الفرق العسكرية التى اعادت الهجوم المصرى ثم قلا قوة الهجوم التى اعادت
المركة مرة اخرى عبر القناة وكنت جولدا مائير قد اطلعت ببعضين باعتبارها زعيما
للمعارضة على تقارير المخابرات الاسرائيلية بأن الغزو وشيك الوقوع ومع
ذلك فانه دهش مثل غيره عندما فتحت الجيوش العربية النار . فى الساعة
الثانية من بعد ظهر يوم ٦ اكتوبر قبل الموعد المتوقع بأربع ساعات كان زعيم
جيروت يصرى فى معبد مقر حزبه فى تل ابيب عندما ابلغته ابنته يائيل بالابناء .
امتنع بيجين طوال الاسابيع الثلاثة التى استغرقتها الحرب عن انتقاد الحكومة
أو القيادة العليا عن الخطا الذى كاد أن يسبب كارثة للبلاد . لم يكن هذا هو
الوقت المناسب لمعارضة مسئولة لانتهاز الفرصة لجميع اصوات للحزب ، ونكته
كان ينتظر فقط فرصة مناسبة . ولكن مع تحديد موعد اجراء الانتخابات فى
نهاية العام ومطالبة الأمة برؤوس « المذنبين » . امسك بيجين بهراوته وطالب
خلال مناقشة فى الكنيست فى ١٤ نوفمبر باستقالة مسز مائير وتسائل المرة تثر
الأخرى بعبارة — عبرية — منفضة : « لماذا لم تقوى بتعبئة الاحتياطى نيل
بسم كيبور ؟

لماذا لم تقوى بتحريك التعزيزات الى الجبهات ؟

يمكنك القول فليبارك الله الأمة التى لديها هؤلاء الجنود الذين يقاتلون
دفاعا عنها . ولكن لا يمكنك القول فليبارك الله الأمة التى لديها تلك الحكومة
لتقوها « اصيبت رئيسة الوزراء بالصلصة ازاء تدفق بلاغة بيجين بتلك السهولة .
وكتبت تقول (: لميته كان قد تلطم أو تردد . كان المتحدثون من المعارضة
يتحدثون عن اقتراب كارثة ، عن الرجال الذين قتلوا أو أصيبوا بالعجز عن
أشياء فطرية ، ولكنهم يتكلمون بسلاسة دون توقف وشعرت بالفشلين » .)

كان الشعور القومى يقترب من بيجين أكثر من مسز مائير . كفت علاقات
القتلى تقلد ديان على القبور . تلاشت فقايع حرب ١٩٦٧ والثقة المبالغ
فيها بتفوقها العسكرية — وقعت الحكومة والجيش فى كمين من صنع ايديهم
لقد افترضوا أنه طالما أن العرب لا يستطيعون كسب حرب فاتهم لا يستطيعون
بدء حرب وأثبت منطق الشرق الاوسط أنه اعتقد من ذلك . . فعل الرغم من
أن الجيش قلب الموائد على الغزاة المصريين والسوريين فى نهلية الامر الا أن
ثقة النفس لدى إسرائيل قد اهترت بمنف ووجه معظم الناس اللوم للحكومة
وخاصة ديان الذى كان يضع أن تجله خبرته العسكرية فى موقف التامب
للاخطار .

لم يخض بيجين قط حملته في ظروف أكثر ملائمة ولكن نتيجة الانتخابات التي أجريت في ٢١ ديسمبر كانت مخيبة للآمال عانت الفلبينيون حزب العمل والحكم لم يطرده . فاز الحزب الحاكم وحلفاؤه بأربعة وخمسين مقعدا في مقابل تسعة وثلاثين لليكود . كان ذلك يعني فقد العمل لستة مقاعد وفوز أحزاب الليكود بسبعة مقاعد وهو أفضل إنجاز حققه ولكن كانت أصوات المعارضة مقسمة فازت حركة حقوق المواطنين بزعامة شولتي ألوني بثلاثة مقاعد وهي قائمة يسار — وسط دخلت الانتخابات في آخر دقيقة .

لم يكن الاسرائيليون مستعدين تملأ لقبول حكومة برئيسة بيجين ولكن الاتجاه كان قد أرسيت دعائمه . وكان ليكود يتمتع بشعبية كبيرة بين الشباب الناضجين في الجيش أما اليهود الشرقيين في المدن النامية ومهاجري الموشاف والاحياء الفقيرة في المدن فكثروا يمينيون خلالهم في جماعة المجاي التي بذلك لهم الوعود بتوفير السكن والأعمال والخدمات الاجتماعية وكانت انتخبت سنة ١٩٧٣ أول نذير بموتوع زلازل .

الفصل السادس عشر

« زلزال صيف »

خاض بيجين انتخبات الكنيست الثالثة وهو مصمم على الفوز بينما كان حزب العمل الذي حكم بصفة مستمرة على رأس ائتلاف متجلس في حالة فوضى وقد ابرزت حرب يوم كيפור انه ليس قانرا ، وانه تولى الحكم كثيرا جدا . وكما لو كان توليه للحكم قد اصبح لهم مسلما به .

ادى انتصار سنة ١٩٦٧ الى تآكل نقطة الحكومة وبدأت المحسوبية التي كان يسمح بها على نطاق واسع خلال مرحلة الريادة تتحول الى فساد . اهتزت قيادة العمل وان لم تغلق تماما . وكان عدم الرضا من أداء الحزب ينتشر الى ما هو ابعد من صفوف الناضحين المعارضين التقليديين عند افتتاح دورة الكنيست . في يناير سنة ١٩٧٤ كان هناك الكثير مما يحارب بيجين من أجله . وعلى الرغم من تنبؤ القليلين بفوز ليكود عند اجراء انتخابات قادمة فإن التحالف الجديد كان يبدو بعيدا مقبولا ، كان بيجين يقود كتلة ليكود المكونة من تسعة وثلاثين عضوا يمثلون ٢٠.١٪ من مجموع الناخبين وكان من الصعب تجاهله او التغلب معه على انه مجرد مؤشر للقتال على هامش السياسة الاسرائيلية . اصبح القتل السري التعميم بين العريكة في اسلوبه وان لم يكن في افكاره واصبح اكثر امتلاء ، خلق شلبيه . كان شعره يلعب ، وتوقف عن تخزين سجارته التي اعتاد عليها . واشتهر في الكنيست بأنه برلماني بارع ومجتهد ليس فقط على المنصة بل في قاعة اللجان وفي قاعة طعلم الاعضاء . كان على طبيعته مع كتلة زملائه الاعضاء من الاحزاب الاخرى ، متفتح على الصحافة ، ومرحبا بالزائرين الاجانب وعلى لمسائه دائما عبارة ترحيب : « أهلا بكم في بلدنا » . اثبتت الثلاث سنوات التي قضاها في حكومة الوحدة الوطنية انه يمكن ان يكون شخصا بناء مثلما هو شخص انتقادي . وعلى الرغم من استقباله العدائي في لندن في سنة ١٩٧٢ . فإن زعيم المعارضة أصبح ضيفا يلقي الترحيب في احتفالات السفير البريطاني بعيد ميلاد الملكة سنفويا .

وفي الوقت الذي كانت فيه اسرائيل ما تزال تدفع ثمن رضائها عن نفسها بعد اكوابير لم يعدم بيجين اهداما يهاجمها . وان بيجين يكون في أفضل حالاته كخطيب وكرجل استمرافى عندما يهاجم . وفي أعقاب الكارثة الكثيفة التي خضرت فيها اسرائيل سياسيا وان لم تضر في ميدان المعركة بدت انتقاداته اللاذعة مشروعة أكثر مما سبق ، وكان الكثيرون يشاركونه شكوكه .

ومع ذلك فإن التاريخ سيثبت أنه كان مخطئا في شكوكه في تأكيد الرئيس أنور السادات رغبته في السلام وعدم ثقته في دبلوماسية هنري كيسنجر في الشرق الأوسط لقد أصبح ممكنا نتيجة « للمعمور العظيم » أن تتوصل مصر وهي أكبر دولة عربية إلى اتفاق مع إسرائيل وتضع اتفاقيات سيناء في سنة ١٩٧٤ ، ١٩٧٥ الاسس للحيلولة دون وقوع غزو جديد . ولكن ما كان بمقدور أكثر المثبتين جسارة أن يتبنا بقله خلال خمس سنوات سيقسم بين بين والسادات جائزة نوبل للسلام .

وسط رياح باردة ومطر منهزم في الليلة التي تلت فيها إسرائيل بأول انسحاب لها أعلن بيجين ألم ... ر شخص تظاهروا احتجاجا على الانسحاب وكتبوا يحملون المظلات في أحد ميلادين تل أبيب : « ان هذه مظاهرة ضد سياسة المظلة لشميرلين » انتقط أنريل شارون الذي كان قد تحول من الجيش إلى السياسة ونجم تلك الليلة ، اصداء محاولة التهدة وانهم الحكومة بانها تضع أفضل أوراق إسرائيل قاعلا : (« ان جيشنا المنتصر ينسحب تحت زعامة حكومة منزهة وانهزامية من أرض دفعت في سبيلها حياة الآلاف ولنم نحصل في مقابلها على شيء ») .

كان الليكود يتحدث بصوت واحد على الرغم من أنه لم يكن قد اندمج في حزب واحد . وأعرب الميلينج ومبات زعيم الليبراليين عن خوفه من أن تقوم جولدا مائير بقيادة إسرائيل إلى الانسحاب حتى حدود سنة ١٩٤٨ . وأضاف شامويل تلير تحذيرا ضد ميونيخ أخرى في الشرق الأوسط . وفي الكنيسة بدأ بيجين إطلاق اسم « الإدارة الانتقالية » على الحكومة . وبدأ يتحدث مرارا بتقليل من التردد (متذكرا عملها المنسجم في حكومة الوحدة الوطنية) . واقتناع دين أن السادات يسعى بلخلاص للسلام . وتسائل من قال ذلك لك لدرجة أنك ضللت هذه الأمة ؟ « ان الحكومة لم تكن تقال من قوائها أنها كانت تقال من أمن إسرائيل . زادت شكوك بيجين تجاه كيسنجر بسبب أصل وزير الخارجية اليهودي قال بيجين ، يجب تفكير كيسنجر أنه ليس أول يهودي في التاريخ يصل إلى مركز كبير . لقد عانى يهودا آخرون أيضا من عقدة أنه ربما يوجه اليهم الاتهام لحبابة اخوانهم اليهود ولهذا ساروا في الاتجاه العكسي تماما » وقال ان هذه عبودية في وسط الحرية » وعندما سأل أحد أعضاء الحكومة عما إذا كان يستطيع مواجهة كيسنجر بمثل هذا الحديث أجاب بيجين : « اننى سأفعل بالتأكيد » .

لكن على الرغم من كل ذلك فإن بيجين لم يكن محصنا ضد أن تصبیه عدوى السلام ففي خلال مؤتمر حيرت في سنة ١٩٧٥ الذي افتتح وسط احتفال رمزي في كيريات عرية . وهي مستوطنة يهودية في ضواحي الخليل، قدم بيجين مشروع سلام إلى العالم العربي يتكون من ثمان نقاط ويشمل

مدة ثلاثة سنوات في البر والبحر والجو وأجراء مفاوضات للتوصل
إلى معاهدات سلام بين إسرائيل وجيرانها تقضي بتجديد الحدود النهائية ،
ومحاولة إيجاد حل إنساني لمشكلة اللاجئين العرب ومطلب اليهود الخمسة
بملكيتهم التي تركوها عند مغادرة البلاد العربية إلى إسرائيل . ولكن الأمر
لم يغير جلده . ففي نفس الخطاب دافع بيجين عن « العقيدة التي نؤمن بها
لها حيلتنا ، الحق اليهودي في كل أرض إسرائيل » .

وأضاف بيجين يقول إنه إذا لم يتم التوصل إلى سلام فإنه يتعين على
إسرائيل ألا تقوم بيزيد من الانسحاب الذي عمل فقط على اقتراب العدو
من مراكز السكان الإسرائيليين ومعرض للخطر من اليهود . أن الانسحاب
بدون سلام تنجر لكل فرصة لتحقيق السلام » .

أثبتت حكومة جولدا ماتير بحق أنها إدارة انتقالية وعلى الرغم من أن
لجنة تحقيق « أجرائت » التي قامت بالتحقيق في توافي القصور التي أدت
إلى حرب أكتوبر ، القت باللوم على الجنود أكثر من السياسيين فإن ثقة
الجمهور في الحرس القديم بدأت تضعف . وبمجرد توقيع اتفاق فصل
القوات الأولى مع سوريا في أواخر مايو سنة ١٩٧٤ رضيت رئيس الوزراء
التي كانت تشكو من المرض بالتقاعد بشرف ولحق بها موشى ديان وزير
الدفاع ، ولكن رغبة الجمهور في رؤية وجوه جديدة توبلت بتصعيد جيل
آخر من قيادات حزب العمل وليس بلجراء تغيير للحزب أو على الأقل
تشكيل حكومة وحدة وطنية ثانية وهو ما كان يطلب به بيجين . سعى
اسحق رابين ، وهو من مواليد إسرائيل والذي عمل سفيرا لإسرائيل في
واشنطن بعد تقاعده من منصب رئيس الأركان إلى رئاسة الوزراء بعد ستة
أشهر فقط من وجوده في الكنيست ، كان اسمه يقترن بلنجاح ، حرب
الستة أيام والفترة المثيرة في العلاقات الإسرائيلية - الأمريكية وأكثر من ذلك
فإن اسمه لم يقترن بأزمة حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ كان على ليكود أن ينتظر
أجراء انتخابات أخرى قبل أن يأمل في تولي السلطة .

لم يضطرب بيجين بشدة فهو قد استطاع لمدة ستة وعشرين عاما في
مقاعد المعارضة أن يترك بصمة واضحة . كان إريل شارون أقل صبرا ،
أن انجذابه البرلمانية بتقاليدها المهنية والثروة لساعات بلا معنى لم تجذبه . وقد
اكتسب خلال عمله في الجيش سمعة بأنه شخص مستقل ، ومقاتل بجسد
الروح العدوانية لقوات الدفاع الإسرائيلية وشخصية انفرادية يطلق النار
أولا ثم يناقش بعد ذلك . ففي خلال حرب السويس لم يخضع شارون للأوامر
وهبط مع قوات مظلاته في ممر تلا .

وكانت تلك العملية مكلفة وغير ضرورية قتل فيها ثمانية وثلاثين
إسرائيليًا وأصيب مائة وعشرين وقد أنهى أربعة ضباط من مؤسسه
(تولي اثنين منها فيما بعد رئاسة الأركان وتولى آخر

رئاسة الموساد) بأنه يقوم بارسال رجاله الى حثلم لاجل مجيئه الشخصى . كتب موسى ديان رئيس الاركان في مذكراته في سنة ١٩٥٦ ان شارون لم يقدم الى المحكمة العسكرية لان للجيش الاسرائيلى لا يعاقب قلد لانه قام بالكثير بل للتصير في عمله . وكان شارون قد دخل ميدان السهولة في سنة ١٩٧٢ لان مصقله العسكري وصل الى ذروته . ولم يكن يسمى الى التقاعد بهدوء ولكن كان يسمى الي السر في طريق جديد يضع غيسه بصمته الذاتية على الامة وعندما بدا ان ذلك لم يتحقق تخلى عن مقمده في الكنيس وقبل قيادة احدى وحدات الاحتياط . وفي يونيو سنة ١٩٧٥ أصبح شارون مستظرا للشئون الامن لزميله السابق في السلاح اسحق رابين وعندما اتضح كذلك ان ذلك عمل تافه وعندما ادرك ان هذا لن يمنحه فرصة اخرى لتولى رئاسة الاركان قتل راجعا الى مزرعته في صحراء النقب . وكان على ليكود ، او هذا ما كان يبدو ، ان يواصل طريقه بدون الرجل الذي حثه على الوحدة .

خبير اول رئيس وزراء لاسرائيل بن « الصبرا » آمل الكثيرين الذين علقوا آلامهم عليه . اثبت رابين انه مغلوض عنيد ما كان كيسنجر يضغط للتوصل الى اتفاق ثلث حول سيناء ومنح الاتفاق الذي وقعه في سبتمبر سنة ١٩٧٥ اسرائيل اسلحا افضل للدفاع عن نفسها اكثر من ذلك الاتفاق الذي حاول وزير الخارجية الامريكي فرضه عليه في مارس .

لم يدخل الجيش المصرى ممرات الجدى ومثلا الاستراتيجية كما ان التحركات شرق قناة السويس تتم مراقبتها بحطت انذار مبكر اسرائيلية - امريكية ولكن اتهم بيجين بأن رابين غير موثقه السابق وجد آذانا صافية بين البسطاء الذين راوا نمط ان اسرائيل تتخلى عن المضيق وحقول بتروى ابو رديس المريحة دون وعد مصرى بقاء حالة الحرب وان رئيس الوزراء كان يمدى الامريكيين بدون داع خلال العملية . وفي نفس الوقت شعر الحالم بالحزن بسبب اتجاه رابين المتشدد ازاء الضفة الغربية .

كان يساوره القلق مال بيجين من اخطار وجود دولة فلسطينية وبرفضه اقتراح من الملك حسين بالتفاوض من اجل التوصل الى اتفاق لفصل القوات في اريحا شبيه بالاتفاق في سيناء ومرتفعت الجولان ترك الاردن دون دفاع في مواجهة العرب الراديكاليين الذين اتنعوا مؤثر الربط للدول العربية باعتبار منظمة التحرير الفلسطينية المثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى .

كان الانتصار الباهر الذى حققه رابين هو عملية الانتقال في مطار متينيس في يوليو سنة ١٩٧٦ كتبت ميلا بطوليا لم يسبق له مثيل في الاندما والمهارة وفي اللص السيلسى والتخطيط العسكري على حد سواء ولكن

زعماء العمل أحجموا عن سرقة الاضواء من قوالب المظلات بالخروج بمكسب سياسة من العملية ، ولكن بهجين الذي لم يتم بأي دور في العملية اللهم الا احترامه لفئة رئيس الوزراء التي اولاه اياه باطلاعه على العملية لم تكن لديه مثل تلك الموانع .

ذهب الى مطار بن جوريون حللا زجاجة ويسكي لتحية الرهائن المعادين وكان معظمهم من الاسرائيليين من مواليد المغرب والذين كتبوا في طريقتهم الى باريس على متن الطائرة المختطفة فما كان من الرهائن ومن عائلاتهم الا ان حلوهم على الاكتاف ويدعوا ، يهتفون بهجين كما لو كان بطل الساعة .

وعلى الصعيد الداخلي لم يكن لرابين اصحاء كثيرين كان الاسرائيليون يحترمون عقلية التحليلية ، وحذره كجندی ولكتم وجندوا انه شديد الانطواء مع زملائه ومع الجماهير كتيب الى حد يثير المخزية خلال خطبه ومقابلاته التلفزيونية . كان ينظر الى قرون - استشعر السيلسي والصبر على خلق القيادة التافهة ، لم يكن يستطيع دائما في عزله التي فرضها على نفسه اكتشاف الخطر في وقت مبكر فقد تأمر عليه من وزارة الدفاع شيون بربيز الذي هزمه للفوز في زعلة العمل ولكنه لم يعرف كيف يواجهه .

وعلى الرغم من جذور عقلته في حركة العمل فان رابين امضى سنوات تكوينه في الجيش . يستطيع القسائد حتى في قوالب الدفاع الاسرائيلي كبلجا آخر ان يفرض رتبته ويتوقع ان يطاع ولكن رابين وجد ان السيلسة لا تسير على هذا النحو ولذلك وجد الطريق صمما .

ازداد الاصلح ان العمل يفقد سيطرته ، جاءت الفضيحة نلو الفضيحة ارتكبها رجال آخرون ويرجع تاريخها الى اوج ايلم بنحاس سفير وزير المالية العملي ورجال السياسة الفارق الذي اكتسب سمعة انه يسيطر على الاقتصاد الاسرائيلي من نوبة صغيرة ، سوداء اللون . وقد حكم على احد الذين كان يشملهم بحايته وهو ميشيل تاسور مدير المجلس البلدي الاسرائيلي بالسجن خمسة عشر عاما بعد اعترافه بلته مخنّب بأربعة عشر تهمة وهي الرشوة ، والسرقة ، وخيانة الثقة وتحويل غير قانوني للتند ، واجراء مبادلات غير قانونية في التند الاجنبي ، وتزوير المستندات وشملت هذه الاعمال ملايين من الدولارات المقدمة من المستثمرين الاجانب لتدعيم الصناعة الاسرائيلية ، كذلك فان اشير بلدين مخير نقابة كويت هوليم التي تملتي من مشكل مالية وكان (سواء لسوء الحظ وربما لسوء التقدير) مرشح رابين ليكون محافظا لبنا اسرائيل ، حكم عليه بالسجن لمدة خمس سنوات

بتهمة الرشوة وتقديم اقرارات خريبية كاذبة ، ورفض القاضي ما زعمه اشير بأنه قلم يتحويل بعض تلك الاموال الى حسابات حزب العمل .

كما انتحر ابراهام اومير وزير الاسكن وسط انبا غير مؤكدة انه قلم بالاستيلاء على اموال لنفسه خلال ادارته لشركة التنمية التابعة للمستدروت كان ذلك ملادة — صالحة للمتبهكين والمعارضين ، كانوا يقولون ان السلطة انفسدت حزب العمل ولم تحدث الاشاعت المصلاة حول سوء تصرف حيروت في اموال تل — هاى الا تأثيرا ضئيلا او انها لم تحدث اى تأثير .

وسط هذا المناخ من الانحلال الاخلاقي عهد الحزب اندينى القومى والذى ظل لمدة ثلاثين عاما اكثر الشركاء التصقا بحزب العمل ، الى تضخيم موضوع انتهلك اجازته يوم السبت لاستطال الانتلاف . كانت اسرائيل بعد ظهر يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٩٧٩ ، تحتفل باستلام اول ثلاث طائرات مقاتلة من طراز اف — ١٥ العملاقة من مصانع ملكونيل دوجلاس وبينما كانت الطائرات الثلاث تقوم باستعراضات جوية اُلم المجتمعين من كبار الشخصيات صاحب رئيس الوزراء فى فرح : « ان هذا يوم عطلة يوحى لنا بالايمن والثقة التى نحتاجها — الثقة فى قوتنا والايمن فى مستقبل افضل » .

واضاف الجنرال مورخاى جور رئيس الاركان : « ان دولة اسرائيل اليوم دولة مختلفة وقوات الدفاع الاسرائيلية قوات مختلفة . ولسوء حظ رابين فان طائرات اف — ١٥ وهى اكثر الطائرات المتقدمة الى تسليتها اسرائيل حتى ذلك الوقت وصلت فى وقت خطر قريب من يوم السبت ، وخطر اضياف بانتهاك القانون الدينى بقيادة سياراتهم خلال الصودة الى منازلهم بعد حلول الظلام . قدم بوالى لجودات اسرائيل وهو حزب متطرف صغير كان خارج الائتلاف اقتراحا بعدم الثقة . وعند طرح الاقتراح للتصويت فى ١٤ ديسمبر امتنع عن التصويت تسعة اعضاء من بين الاعضاء المعثرة من الحزب الدينى القومى على الرغم من الاعتذار الذى قدمه رابين . تراجعت الحكومة ، ولكن قلم رئيس الوزراء بقيادة الوزراء الثلاثة من الحزب الدينى القومى مؤكدا : « ان الحكومة التى لا تستطيع الالتزام ببدا المسؤولية الجماعية لا تستطيع العمل كحكومة » .

بعد ذلك بأسبوع لم يمد واقفا من حصوله على اغلبيية . فاستقال من رئاسة الوزارة ودعا الى اجراء انتخابات مبكرة .

فى النظام الاسرائيلى فان هذا القول اسهل من العمل لانه يضمن ان يصدر الكنيست تشريعا بتحديد موعد الانتخابات ويخوض كل حزب مساومات ضخمة قبل نشر قائمة مرشحية ويسمح للموظفين العالين وضباط الجيش ببقاء يوم للاستقالة وتقديم انفسهم لغاز الترشيح للانتخابات ويستغرق طباعة

اوراق التصويت اسليج غير محددة . في هذه الحالة تحدد موعد الانتخابات في ١٧ مايو — وهو وقت كلف لوقوع فضيحة اخرى كيلة بوضع مسبار آخر في نغش حزب العمل وفي نغش أول رئيس للوزراء من « الصبرا » .

فقبل شهرين من الانتخابات في ١٥ مارس نشر مراسل صحيفة « هآرتس » في واشنطن أن ليا زوجة رابين لديها حساب بالدولار في احد البنوك الامريكية بعد أن أنهى زوجها جولته الديبلوماسية في سنة ١٩٧٢ . ويعد هذا انتهاكا للقوانين — الاسرائيلية في تداول النقد .

وامر اهلرون باراك المحلي العام اقلية الدعوى ضد مسز رابين لان المبلغ لا يقل عن ١٠.٠٠٠ دولار . ولا احد فوق للقانون فقبل منتصف الليل بقليل في يوم الخميس ٧ ابريل والجماهير تنتظر فوز ندى ملكي تل ابيب في بطولة كرة السلة الاوروبية بفارق نقطة واحدة اعلن رئيس الوزراء في التلفزيون والاذاعة انه ينسحب من المعركة الانتخابية ويتحمل مسؤولية متساوية بالنسبة لحساب زوجته في البنك وعلى الرغم من أن الدستور يمنع استقالته من رئاسة الوزراء في حكومة انتقالية فانه عهد بواجبته وترشيحه على رأس قلمية العمل الى شيمون بيريز وزير الدفاع اما ليا رابين فقد قامت بدفع غرامة لتصل ٢٧.٠٠٠ دولار .

خاض الليكود انتخابات سنة ١٩٧٧ باسم مناحم بيجين ولكن زعيم الحزب لم يشارك في الحملة الانتخابية الا بادنى قدر . وكان ذلك اختيارا من ناحية وضرورة من ناحية اخرى . فخلال الاسبوع الاخير من شهر مارس وكان مزال باقيا على الانتخابات شهرين تقريبا اصيب بيجين بأول أزمة قلبية واكثرها خطورة ودخل إحدى مستشفيات تل ابيب ولكن استراحة ليكود كانت قد تحدثت قبل ذلك بكثير . وكثت تلك اول انتخابات تجري في اسرائيل بالوكالة فقد تم تعيين عازر وايزمان الذي كان قد عاد الى الحزب لادارة الحملة وامر على ادارتها بشروطه بمساعدة اليعيزر زورابين وهو وكيل اعلانات مشهور . حث وايزمان المراسلين بعد أن اطلق طلقة البداية : « اتروا ما بين السطور وابحثوا عن ما ليس هناك » .

وكتب يوسف جوثيل في صحيفة « جيروزالايم بوست » : « مام بين هناك هو ذلك الجزء من الصورة السياسية لليكود وحירות الذي يشك في انه نفر الكثير من الناخبين في الماضي حتى لا يحصل على نصر انتخالي . لم يكن هناك هجوم غير ضروري ولا أية اشارة الى موضوع الاراضى التي تحتها اسرائيل والتي تثير الخلاف .

ظل بيجين اكثر مصادر القوة رواجاً بالنسبة لليكود ولكنه اصبح اكثر امتدالا — رجل لا يخاف التنازب المتردد . يقول وايزمان : « انه رجل أمين

لا يهتم بالاشياء الثقافية في تلك الايام أنه يعيش بتواضع وليس ل مجرد تحقيق اهداف علاقت علمه ، ولا يضيع وقته سدى في الحديث عما يؤيده وعما يعارضه .

أصبح بيجين ديمقراطيا ، مقاتلا (منذ سن التسلسه عشر كرس مناحيم بيجين كل جهده ، وموهبته وقدراته لقضية واحدة ، توطيد اقدام الشعب اليهودى على ارضه) أنه الرجل الشريف (المتواضع ، ذو العمل الخالص) . ورجل المعاشلة ، كان التناقض واضحا بينه وبين معارضيه من حزب العمل ، ولم يكن الليكود في حاجة الى كشفها ، فقد كان المناخبون مدركين تماما للفصاح الاخيرة ولسمعة بيريز في الالتواء والتناقض ، كان بيجين يظهر وهو يداعب احفاده ، يخطب ، ويزور الجيش ، ويحصل حفيده المفضل عند الاحتفال بختفنه . وفي المقابل اخذ العمل يسخر من بيجين : « اكتشف الليكود اكتشافا خطيرا وهو أن بيجين انسان بالفعل .

واعلان الياهو بن اليمائير رئيس لجنة دعاية ليكود المشتركة امام عامل الحزب :

« ايها المسادة اننى اريد ان اقدم لكم وعن طريقكم شكل الحياه تحت حكم الليكود ، تحت حكم مناحيم بيجين ، ستكون بلادا جميلة ، وسيكون من دواعي السرور والفخر العيش فيها ، حيث لا تكون هناك رغبة فى الاضراب وحيث يخجل الشخص من السرقة سيكون هناك احترام بين اليهودى والاخرى ، بلاد لا يشعر ابنائها بالخجل من كونهم يهود او صهيونيين . اننا سنقوم بتعليم الشباب حتى تصبح الخدمة لمصالح الدولة وفى الجيش او فى أى جهاز وطنى آخر شرفا وامتيارا .

لم يرد اى فكر للاراضى المحتلة ، او للحقوق اليهودية او للخدمة او الشهداء القدماى وهم يعلقون على المشقة . ولكن كان « بين » مـؤال يسيطر على السياسة من وراء الكوليس لقد نظى عن الحملة الانتخابية لعازر وايزمان ورجاله الجدد ، ولكن لم يتدخل من الحزب .

ويشهد ابن اليمائير « أن برنامج الحزب كان دائما من وضعه فى سنة ١٩٧٧ ، كما فى السنوات السابقة كان يحدد الخط السياسى خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والمشكلة الفلسطينية والسلام والحرب ، ويهودا والسامرا .

خرج بيجين من المستشفى ومن مناظرة تلفزيونية مع شمعون بيريز — وهى بدعة أخرى فى الانتخابات الاسرائيلية — طـافرا . لم يستطع النقاد تحديد الفائز النهائي كان بيريز متحفظا خلال المناظرة بينما سال بيجين خلالها وجال . ولكن ما كان يهم الليكود هو ان المناظرة اختمت اى شكوك حول صحة

بيجين ، كان مقاتلا — غير متوترا مؤجرا . وكان ولنفسا انه يملك لنفسه
ولمائه ومثير لدهشة بيريز بقتيلسه عبارات من اقوال وزير الدفاع نفسه .

اظهرت استطلاعات الراى النهائية ان حزب العمل مازال متقدما تقديما
طينيا ولكن ليكود كان يكسب ارضا بسرعة وقل واحدا على الاقل ممن
شملهم الاستطلاع ان بيجين ربما ينتج اذا ما حصل على دفعة . ولكن لم ياخذ
رايه بجدية سوى عدد قليل من المعلقين . لكن الادعاءات القديمة تموت
بسرعة . فعلى الرغم من كل شيء كان العمل يهر في لحظاته الاخيرة كحزب
يشكل حكومة . كان بيجين مازال في دور النقاشة ولكنه نجول في مراكز
التصويت خلال النهار . ثم عاد الى منزله في تل اببيب الواقع في شارع
روزينيوم ليستريح مع زوجته اليزا وابنتيه مليا وليا وصديقين من اصداقاء
العائلة القدامى ، مكس ويهوديت ميرير . ويعد ان تناولوا عشاءا بسيطا ،
شاهدوا التلفزيون في الحجرة الضيقة التي يستخدمها بيجين وزوجته كحجرة
معيشة ، ونوم ومكتب . وكانت هناك حجرة نوم اخرى في الشقة التي عكسا
فيها منذ سنة ١٩٤٦ اشترك في النوم فيها اولاد بيجين الثلاثة خلال فترة
الراحة . وهناك ايضا صالة صغيرة . وحمام ومطبخ كان ابن بيجين
بنجلين يدرس في الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراة في الجيولوجيا
وكان اكثر اولاد بيجين ميلا الى السيلسة ولكنه اقل حبا للمظهر وهو شلب
يقدر خصوصيته .

في الساعة الحادية عشرة مساء بعد انتهاء التصويت مباشرة ادهش
حليم يلين كبير مضمي التلفزيون الاسرائيلى المشاهدين بالتنبؤ بفوز ليكود
اعتمادا على غيبة التلفزيون غير الرسمية للتصويت وفي شارع روزينيوم لم
تستطع بنك بيجين السيطرة على انفعالاتها ولكن والدها استقبل الاتباء
بهذوء بل يشك غلنتيجة لم تكن نهائية ولا رسمية بعد وتسترجع مليا
ذكريلتها فتقول : « كان والدنا اكثر هدوءا وخاصاوالدتنا — جلس والدى
في كرسية المفضل مرتديا روب دى شلبر على قميص وينظرون .. اخذنا
تحتاذب اطراف الحديث كما لو ان شيئا خاسا لم يحدث .

تجمع حشد كبير من الناس خارج المنزل ، حرس من البوليس ، دلائل
التغير اتخذوا املكهم لصلبة رئيس الوزراء الجديد ، كان بيجين مازال
ينتظر كان الوقت مبكر جدا للاحتفال . عندما وصل سكرتيره السيلسى بيبيل
كلدبشاي في الساعة الواحدة والنصف ظهرا لدموته للذهب الى مقر الحزب
الذى يقع على مسيرة خمس دقائق اجلب: بيجين : « مازال املنا وقت ، ان
هذا مجرد تخمين من الاولاد في التلفزيون » وجده وراءه في قلعة جابوتيسكى
« كان مرتديا ملابسه ولكن بدون رباط عنق او سترة » .

ذهب ليطلق ذكته ثم عاد ومضى يشاهد التلفزيون وفي نحو الساعة
الثانية والرابع فقط قرر ان الوقت قد حان للذهاب الى مقر الحزب وعندما
اصبحت النتائج واضحة .

احتشد المئات من مؤيدي ليكود في المطابق الثاني من قاعة الاستقبال في
شارع الملك جورج . حاول علزر وايزمان ابعاد بعض اعضاء الحزب غير
المهيمن ولكن كانت تلك ليلة طلال انتظارها ، ولم يكن أحد منهم يريد ان تتوته
ذروتها . عندما امتلات نشرات التلفزيون بأنباء الانتصار غابوا في دوامة من
الصدمة والابتهاج الغابر هل يمكن ان يحدث هذا حقيقة ؟ جيبف شافيتسر ،
مهجر امريكي شلب جنده - الليبراليون للعمل في مكتب صحفية ليكود ،
انضم بحملى الى الصخب والمرح : « اتنا نحتفل جميعا ، لقد عملنا بجهد
وكسبنا الانتخابات » . فجأة قام أحد اعضاء الارجون انقداى بلماكه من
قميصه كان شديد الغضب وسأله : « من انت انتك كنت هنا من عدة شهور
فقط ، ابا انا فقد انتظرت ثلاثين عاما من اجل هذا » .

سرت الاشاعلت المتناقضة بيجين سيأتى ، لا لن يأتى واخرا في نحو
الساعة الثانية والنصف وصل الزعيم وعائلته كان بيجين يبدو نحيفا وضميما
نتيجة للارزمة القلبية الاخيرة . حاول مساعدوه حمايته من انفذاع الجماهير
ولكنه علق بمساعدة سميحا اربليخ الزعيم الليبرالى وعلزر وايزمان مدير حملة
ليكود الانتخابية . اوقف أحد الحراس اليزا وابنيها على الباب . كان بالداخل
ما يكفى من الأشخاص بالفصل استعطفتة الابنة ثقلة : « هذه أبى مسز
بيجين ، أتينا مع أبى مع بيجين » لم يتأثر الحارس لكلامها حتى جاء لاتقلاهم
اسحق شلمير الذى اصبح فيها بعد وزير الخارجية وخطفا لبيجين في النهاية .
وعلى المسرح انضم بيجين الى الحشد في غناء : « يحيا شعب اسرائيل »
مصفا بيديه على اتغام الوطنية . كان الجميع يتدافعون ليكونوا على مقربة
منه بقدر الامكان . السياسيون والمعلمون في الصلة الانتخابية على امل
الظهور في الصور التاريخية والافلام السينمائية ، امكن في النهاية لفساح مكان
ووقف بيجين بمفرده . تحت صورتين كبيرتين لجابوتنيسكى وهيرتزل . اخرج
قطاء اسود للرأس من جيب بذلته شهدت اياها افضل وكتبا اسود مسغرا
اخذ يطلو منه الترائيم كان الخطاب الذى القاه بعد ذلك مسالا بصورة غير
متوقعة ، لازهو بالانتصار ولا تهديدات . اقتبس بيجين فقرات من خطاب
ابراهيم لنكون الذى القاه عند توليه الرئاسة للمرة الثانية . « بدون حقد على
أحد ، بالخير للجميع ، بالثبات في الحق لان الله يهدينا لرؤية الحق فلنسمى
لاتمام العمل المنوط بنا ، تضيد جراح الامة .. » وشكر اليزا للسنوات التى
كرستها من عمرها للوقوف الى جانب مقتبسا كلمات من النبو زيرماح : « اتنى
انكرك ، عطف شبلبك حب معتقداك عندما يتبعنى في التيه ، في ارض لم يثبت

بها زرع « وبعد استرجاع ذكرى جلوبوتيسكى دما يبيجين كافة الاحزاب الصهيونية بما في ذلك حزب العمل — للاشتراك في حكومة وحدة وطنية اختلط اعضاء واتصل ليكود وسط صخب وصجيج رجـال البوليس ، والمصحفين ، والمصورين ، غلدر يبيجين المدن على غير توقع كما حضر محظا بالمساعدين الحريصين عليه جاء ززال الصـيف ومضى ، ابعاد الناخب الاسرائيلى ورثة بن جوريون وانتخب ورثة جلوبوتيسكى واصبح الخارجون هم المبعوثون للمنظم .

فاز ليكود في انتخابات سنة ١٩٧٧ بأغلبية مقبوضة وخسرها العمل بهبوط مدر ارتفع نصيب يبيجين من مجموع الاصوات بنسبة ٢٢٪ فقط وحصل حزيه على ثلاثة واربعين مقعدا بالقرانه بتسعة وثلاثين مقعدا حصل عليها في سنة ١٩٧٢ وقل نصيب العمل بنسبة ١٥٪ عقب انخفاض مماثل في سنة ١٩٦٦ ، وسنة ١٩٧٢ أى انه فقد اكثر من نصف مؤيديه في الانتخابات التي جرت مرتين خلال السبعينات وانخفض تمثيل العمل في الكنيست من واحد وخمسين بالاضافة الى ثلاثة من النواب العرب المنضمين للحزب في دورة ١٩٧٢ الى اثنين وثلاثين بالاضافة الى نائب عربى واحد في سنة ١٩٧٧ كان اكبر الانتصارات في سنة ١٩٧٧ تلك التي سجلها حزب الحركة الديمقراطية من اجل التغيير ، وهو حزب جديد للوسط بقيادة ايغال يلاين عالم الاثر المسادا وجنرال سابق ، حصلت قائمة يلاين على خمسة عشر مقعدا . (١٦٪ من مجموع الاصوات) في اول معركة انتخابية يخوضها الحزب . وعلى الرغم من وجود شامويل تاير المنشق عن ليكود اليميني على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من اجل التغيير فان القدر الاكبر من التأييد حصل عليه من الناخبين المتحررين من وهم العمل والذين سحوا لانفسهم برغامية الوقوف ضد الحزب كـثـوا يماقتبون العمل دون — او هكذا تخیلوا — مكافأة ليكود . حصل يلاين على اصوات من الليبراليين في ليكود واحزاب وسط اصفر ولكن تفقح انتخابات سنة ١٩٧٧ اكدت تغيرا جذريا اكثر بكثير مما احدثته الطبقة المتوسطة الساخطة تمثل في تحول في الولاء الذي كان يهدد بتغيير وجه الحياة السياسية في اسرائيل على مدى جيل بأكمله . لقد صوت اليهود الشرقيون بقنوبهم بدلا من جيوبهم وكان اليهود الشرقيون يشكلون بالفعل نصف اجمالي عدد المكنن وسيصبحون قريبا نصف عدد الناخبين في المدن النامية ، والقرى والمدن غير الكبيرة حيث يشكل اليهود الشرقيون (اليهود الذين نشأوا في الدول التي تتحدث العربية) أغلبية ساحقة حصل ليكود على ضعف الاصوات التي حصل عليها العمل . بينما حصلت الاحزاب الدينية على اصوات اقل وفي المدن التي جميع سكانها من اليهود الشرقيين مثل اوفاكيم ونيتيفوت في الجنوب وكريلا شـمـونة وبيت شـعـين في الشمال زاد

عدد الاصوات التي حصل عليها ليكود بنسبة ١١٪ بينما قل نصيب الصن بنسبة ١٧٪ (حصلت الاحزاب الدينية نسبة ال ٦٪ البلقية) كلن الاتجاه مملثلا في المدن التي يسكنها خليط من اليهود الشرقيين واليهود الغربيين ، ولكن بالاتجاه الى ليكود بنسبة معاكسة لعدد الغربيين وكلما زاد عدد اليهود من اصل امريكي او اوروبي كلما قل الاتجاه الى ليكود . أما القدس التي تسكنها اغلبية من اليهود الشرقيين وجماعة دينية كبيرة فقد اعطت لبيجين دفعة قوية . وظلت تل ابيب التي تسكنها اغلبية من اليهود الغربيين نصيب بيجين من الاصوات بنسبة ٢٪ فقط واعطت يادين ١٣٪ وفي حيفا حيث يشكل اليهود الغربيون الاغلبية الساحقة قل نصيب ليكود بالفعل بنسبة ٢٪ من عدد اصوات المدينة .

ترجع محاولة استمالة اليهود الشرقيين واليهود السفرديم (اولئك الذين طرد اجدادهم من اسبانيا في سنة ١٤٩٢) الى نجر حركة التصحيح كاحدى الحركات الصهيونية . قلم جابوتنسكى بزيارتهم وتمهدهم بل انه اضاف لغة لادينوا (اليهودية — الاسبانية) الى لغته العشر . وحث الحركة الصهيونية على اعطائهم نصيبا متكافئا في الاستيطان في الارض واتنى على نطقهم باللغة العبرية وسارلت الارجون زغالى ليوى على نهجه وجندت لخدمة اليهود الشرقيين في الوقت الذي ركزت فيه الهلجاة والمالماخ على سكن الكيبوتزات وخاصة من بين خريجي المدارس العليا من اليهود الغربيين .

ويعد اتلة الدولة جند بيجين نفسه مدافعا عن اليهود المظلومين المنادين الذين ينظر اليهم اخوانهم بلطقتار وعرف حيرت نفسه على انه حزب الفقراء المنادين والمفهورين « ويروى بيجين ان أحد الهلجاة ساله ذات مرة كيف استطاعت الارجون حل مشكلة الجماعات اليهودية الشرقية ، فاجابه ان الارجون ليست لديها مثل هذه المشكلة :

« لكن لانه اصر على ان اشرح له ذلك وفهمت ما الذي خان بضليقه ، اوضحت له انه خلال القتال السرى كانت المراكز العليا يجرى توزيعها دون تفرقة في الاصل معتدقهم . هذه هي الطريقة التي يحل بها الرء المشكلة ، ويتغلب عليها ويتوصل الى الحل الكليل بقتاه المشكلة » .

في الحقيقة فان كلا من الارجون وحيرت كانا ابطلا مما زعم بيجين ي اعطاء السلطة لليهود الشرقيين ، كشيء منفصل عن القيام بدور نشط . كانت القيادة العليا من الارجون قلصرة على الاوريين وحتى في سنة ١٩٧٧ رفع ليكود عددا اقل من العمل من أعضاء الكنيست من اليهود الشرقيين على الرغم من ان بيجين كان اكثر كرما في تعيين وزراء من اليهود الشرقيين في وزارته .

سمى بيجين منذ الايام الاولى للهجرة الجماعية بعد سنة ١٩٤٨ للحصص على اصوات النازحين . كان يقوم بجولات في خيام المهجرين دون ان يبدو انه يتفضل عليهم . لم يتوقف قط عن ان يكون يهوديا بولنديا ، ولكنه كان يخاطب اسيهود الشرقيين بلغتهم العاطفية العميقة ذكرا الله دون اثارة للمعاطف . ام يقتنهم تعليم جابوتنيسكى ولكنه كان يدعو الى القوة اليهودية ويحتقر تأسيس العمل الصهيوني كل هدف تحقيق شيء واحد وهو ان بيجين واحد منهم ولا يهم ماذا يأكل او كيف يلبس .

ان حزب العمل لايلومن الا نفسه . كان ايدلوجيته فرع من انثورات الوطنية والاشتراكية التي وقعت خلال القرن التاسع عشر في اوربيا كان هدفه هو خلق نموذج جديد لليهودي ، للفلاح ، للعامل والبناء ، كان اساسه علمانيا ، وهو انكار متعدد لقيم الجيتو . كان اليهود الشرقيون يعيشون في ايقاع ابطا كانوا في توافق مع تقاليدهم لم يتعلم شبلهم من اجل أحداث التغيير . جاؤا الى اسرائيل من منطلق التقوي او الضرورة . شعر زعماء العمل بالذعر من تدفق اليهود الشرقيين الى اسرائيل لخوفهم من ان يحولوا الدولة الى دولة « شرقية » وبدون سؤال القادمين الجدد عن المكان الذي يفضلون الذهاب اليه ارسلوهم لتعمير الحدود ولاء الامكن الخالية . لقد ذهب الرواد الى هناك كذلك ، ولكن وفقا لارادتهم الحرة . عملت حكومت العمل على اسكان المهجرين وايجاد اعمال لهم — ولم يكن هذا انجازا سيئا ولكن بطريقة توحى دائها بالفتنزل .

استوعبوه في سياسات المأوى ، في شبكة الوظائف والادارة ولكن كمرعوسين وليس كرؤساء . تشكل الجيل الاول الذي كان عاطلا عند وصوله الى اسرائيل بطابع واحد كانوا يذعنون للقوة الحاكمة كما لو كانوا يفعلون في شمال افريقيا او العراق ، ولكن داخل بيوتهم كانوا يعربون عن استيائهم منها ، وكان اطفالهم يسمعون .

صاح أحد الشباب : « جاء والدي من شمال افريقيا » في كيبوتز اموز اور الجديدة عندما تسلم ورقة للذهاب الى احدى المدن النامية : « حصنا » من المغرب ماذا اذن ؟ ألم يحصلوا على احترام الذات ؟ لا ؟ قيمهم ؟ ايمانهم ؟ أننى لست شخصا متدينا ، اتنى اسافر يوم السبت ولكن والدي ، لماذا يسفرون من ايمانهم ؟ لماذا نظفهم بالليزول في ميناء حيفا ؟ لماذا ؟ .

اصبح الجيل الثلثى اسرائيليا لم يعودوا يدينون بشيئا للعمل وعرفوا كيف يؤكدون ذاتهم . علمهم بيجين ان ليس فيهم شيء يخلون منه . ولكن في الوقت الذي اعد لهم كرامتهم اجاز كراهيتهم لليهود الغربيين الاشكنازيين وكل ملينلونه ، السلبى والاجلبى كذلك ، الطائفة الخلاصة والتبلة التقافى : المؤسسات الديمقراطية وادعاء التفوق . كان يثر الريح .

الفصل السابع عشر

تجربة ثقة رهيبة

« ان هذه ليست اراضي محظة لقد استخدمتم هذا التعبير لمدة عشر سنوات ولكن منذ مايو سنة ١٩٧٧ أمل ان تبدأوا في استخدام كلمة الاراضي الحرة . ان لكل يهودي الحق في الاستيطان في هذه الاراضي الحرة من الأرض اليهودية » . خلال ثمان وأربعين ساعة من نوزه في الانتخبات أعلن بيجين تحذيرا الى المجتمع الدولي الذي اذهلته مفاجآت اقتضاب بيجين ، ان بيجين رئيس الوزراء سيكون هو نفسه الزعيم الدائم للمعارضة . عقد بيجين مؤتمرا صحفيا مرتجلا خلال زيارته لمجموعة من المستوطنين العسكريين في « قادوم » بالقرب من « نابلس » ، اكبر المدن العربية في الضفة الغربية وكانت تلك المجموعة قد تم نقلها الى قادوم داخل حدود معسكر للجيش ، بعد اقامة مستوطنة رهيبة أطلق عليها أيلون مدراخ ، كتحدي لحكومة العمل ، وسط انقراض سابستا المذكورة في النوراة . وكلفت زيارة بيجين قد تم ترشيها مقدما للاحتفال بوضع لفائف الشريعة في معبد قادوم . ولكن الانتخبات حولتها الى حدث اعلامي وبداية استيلاء المتمردين من جماعة جوش امونيم في بنية ادارة الضفة الغربية . وعهد بيجين للمستوطنين : « خلال اسابيع او شهور قليلة سيكون هناك الكثير من المستوطنات مثل أيلون ماروخ . وقل : « لن تكون هناك حاجة الى قادوم » عندما سأل أحد الصحفيين رئيس الوزراء المقبل عما اذا كانت حكومته ستقوم بضم الاراضي فقال : « اننا لا نستخدم كلمة ضم ، انك تضم أرضا اجنبية ، وليس بلدك نفسها » وسأله آخر ، اكثر فطنة في استخدام لغة الصهيونية الجديدة : « هل سيطبق القانون الاسرائيلي في الضفة الغربية » . ويخه بيجين قائلا : « قل يهودا والسلمرا . استخدام الاسم دائما » . كلفت الالتاظ واضحة تماما ، ولكن بيجين اخذ يتلاعب بمضمون السؤال : « ان هذه مسألة تقديرية ، عندما تتشكل الحكومة فاعتنا سنذهب الى الكتيبت ونطلب اقتراعا بالثقة ثم نقوم بدراسة الخطوات التي يمكن اتخاذها » . كان بيان ليكود الرسمي حول الضم اقل لياقة . ظهر سبب حذره هذا بعد اسبوع وقد ادهش ذلك حذره كما ادهش المعارضة والامة بأسرها .

دعا بيجين موفى ديلن ، الذي كان قد أعيد انتخابه للكتيبت على تذكرة العمل الانتخابية للعمل وزيرا لخارجيته . وعلى الرغم من عودته الى المستشفى لمعاودة متاعبه من مرض القلب ، قاوم بيجين المطالب القوية التي قدمها الليبراليون لاسناد المنصب اليهم . يزعم أريخ دلزير انه بينما لم يكن هناك

تمهد شخصى من ييجين فله كان هناك اتفاق بين حيروت والزعماء الليبراليين بين ييجين وسهحا أرليخ على ان يتم تقسيم المناصب الاربعة الكبرى بين حزبيهما حيث يحصل حيروت على رئاسة الوزراء والدفاع ويحصل الليبراليون على المالية والخارجية . توقع الليبراليون ان يحتفظ ييجين على الاتصال ، ولكن أنكره الآن كانت تسبق سياسات الائتلاف ، كذلك لم يلق بالآلى رد الفعل الغاضب الذى ابداه حزب العمل والصحافة وتجدد المظاهرات المعادية لديان التى نظمتها العائلات التى نكبت بفقد ذويها فى حرب يوم كيپور والتى قامت بالقاء الحجارة على شقة ييجين فى شارع روزنيوم . كان مقتنعا ان سمعة ديان فى الخارج مثالت عالية حتى ولو لم يغفر له مواطنوه . كان الرجل ذو الرقعة على عينه مازال مستر اسرائيل . قتل ييجين من فراشه فى المستشفى :

« قررت ترشيح مستر ديان لمنصب وزير الخارجية ، بعض النظر عن كافة الاعتبارات الحزبية ، لاننا نحتاج خلال السنوات القادمة الى وزير خارجية يتمتع بمكانة واحترام عالى ، ولا يساوى الشك فى ان مستر ديان سيحظى باحترام شديد بين السفراء ، ووزراء الخارجية وغيرهم من الزعماء وهذا امر بالغ الاهمية بالنسبة لعلاقات اسرائيل مع الشعوب القريبة والبعيدة » .

لم يكن غصن الزيتون الذى مده ييجين للعرب حيلة دعاية . كان يريد استكشاف الاحتمالات وخاصة مع مصر . وعلى العكس كل مرتليا فى نوايا السادات ولكنه كان يريد الآن اختبارهم بنفسه . فلذا اثبت السادات اخلاصه فانه سيكون من السهل التوصل الى سلام مع مصر اكثر من « الشعوب القريبة » الأخرى . لم تكن سيناء جزءا من ارض اسرائيل . كان اختيار ديان اعترافا من ليكود بأنه ليس لديه مرشح لمنصب يقارن بديان فى مقدرته او خبرته . فمن بين وزراء ليكود المحتملين لم يكن هناك أحد سوى عيزرا وايزمان الذى كان وزيرا فى حكومة الوحدة الوطنية التى راستها جولدا مائير . اكد تعيين ديان كذلك الاستمرارية . وهو ما اكده احتفاظ ييجين بكبار العاملين فى مكتب رئيس الوزراء والذين كانوا على صلة وثيقة بسلفه من حزب العمل : مثل دان باير المتحدث الرسمى ، ويهودا امينر مستشار علاقات الديپلوسورا وكتب خطب رئيس الوزراء التى يلقيها بالانجليزية والبريجيدير — جنرال اغريم بوران السكرتير العسكرى وايلي مزراحى مدير مكتب رئيس الوزراء . كان يريد أن يظهر للعالم ان انتقال الرئاسة اليه كان انتقالا ديمقراطيا وليس انقلابا قامت به حفنة من الارهابيين المتعاضدين .

كان ديان قد ترك منصبه مع مئير مائير فى سنة ١٩٧٤ ولكنه استعاد مقعده فى الكنيست وكان أحد اعضاء الهيئة التى وضعت برنامج حزب العمل لانتخابات سنة ١٩٧٧ . واجلب على التسؤلات بقوله انه طالما خدم الدولة تحست شخصيات عملاقة مثل بن جوريون وجولدامائير فانه ان يقوم

بدور ثاقوى تحت إمرة زعماء أصغر (واقل) مثل اسحق رابين وشيمون بيريز . ويبدو انه كان يمد يبعين واحدا من جيل الابطال حتى ولو كان أكبر بستين فقط من ديان . كلفت جذور وزير الدفاع السابق عميقة في حركة العمل . ولد ديان في داغليا وهي أول كيبوتز . وكبر في ناحل وهي أول موشاف . ولكنه كان دائما ذنبيا وحيدا ، رجلا غير ثابت الولاء لا يعترف بالديون الشخصية أو الفكرية . كانت لديه ثقة لا تهتز في حكمه الشخصي ، ولكنه لا يسمح قط لهذه الثقة أن تتحول الى عقيدة ثابتة . أثبت التقاعد انه شيء أصعب مما كان يتوقع . فاذا كان هناك ما يمكن عمله فانه يريد أن يشارك فيه ولكن ليس بدون شروط . كتب ديان يقول : « قدرت انه سيعين على اسرايل قريبا أن تتخذ قرارات خطيرة مستقبلا وانني اذا استطعت أن اشترك في تقرير السياسة فاني استطع ممارسة تأثير ضخم على قرارات الحكومة تلك . كلفت العقبة بالنسبة لديان هي مصير الضفة الغربية وقطاع غزة . كان ضد ضمها وبالمثل كان يمارض عودتها الى السيادة العربية . كلن يحلم بشوية مؤقتة ترضى على نحو ما كل من اسرايل والاردن دون اللجوء الى الابتكارات الأوروبية مثل الحدود الوطنية . وافق بيجين بناء على توصية ديان أن لا يتم ضم الاراضى « في الوقت الذى تجرى فيه المفاوضات » وان يستمر السكان العرب في ارسال مندوبيهم الى البرلمان الاردنى وتلقى مساعدة مالية من الدول العربية عن طريق عمان . تبنى ديان سيلة « الجسور المفتوحة » في سنة ١٩٦٧ وكان لا يريد أن يشهد موتها بعد عشر سنوات . وقد ارضت تعهدات بيجين التى اكدها في جناحه بالمستشفى ديان . وكتب الى احد المنتقدين في احدى الكيبوتزات يقول :

« ان البديل عن ترتيبات امنية مع العرب سيكون هو الحرب بالتأكيد . هل يمكن أن تكون حكومة برفاسة بيجين أفضل لاسرايل بدونى ؟ واذا ما انضمت اليها فهل ستكون هناك فرصة لتحقيق اهدافنا — كما اراها ؟ هل لدى ، في الحقيقة حلا لمشكلة — نراعنا مع العرب وهل ساكون قادرنا على العمل وفقا لتصوراتى في مثل هذه الحكومة ؟ اذا كلفت الاجلبة على السؤال الاخير بالاجلب فهل يتعين على ، رغم ذلك ، ان ارفض عرض بيجين ؟ »

كانت المقامرة قد بدأت . من الصعب تصديق ان ديان تردد طويلا في اتخاذ قراره . قل لزميل من اعضاء الكنيست عن حزب العمل وهو جاد يلكوبى : « كان السؤال الذى كان على ان اواجهه هو ماذا كان قبولى لعرض بيجين والعمل معه يمكن ان يغير بشكل اساسى الموقف لصالح اسرايل : » . كان ديان مختلا بدرجة كافية ليجيب بدون تردد بنعم وليثبت انه على صواب .

لم يكن عرض بيجين على ديلن مغلفاً . فقد جرت محاولات أولية لجس النبض خلال الايام الاولى من الحملة الانتخابية عندما قام زعيم حيروت بزيارة الى فيلا ديان في كل ايبب في حي الضباط المتقاعدين في زاحالة . ووفقا لرواية ديان فانها كانتا يبحثان عرھا بلن يدخل ديلن الانتخابات على ثقة ليكود ، لكنه رفض لان بيجين كان لا يستطيع خلال تلك المرحلة اعطاء التأكيدات التي كان يسعى للحصول عليها حول الضفة الغربية وقطاع غزة . اقترح بيجين أن يترك الباب مفتوحا . وخلال احدي مناقشات المكتسبت بعد ذلك بخمس سنوات فسر رئيس الوزراء تلك المحادثات تفسيراً مختلفاً قائلًا ان موثي ديلن قام بالهجرة وتطسوع من تلقاء نفسه باعلان استعداده للعمل تحت رئاسة بيجين اذا قام بتشكيل حكومة قائمة . يضيف يهيل كاديشاي ان محاولات الاستكشاف استمرت بعد دخول بيجين مستشفى انشيلوف في شهر مارس . ووفقا لكاديشاي فلن بيجين دخل الى المستشفى لاجراء فحص عام وانه اصيب باول أزمة قلبية خلال زيارة ديان له .

على الرغم من تعاونهما في حكومة الوحدة الوطنية فلن الغزل بين بيجين وديان كان مسألة عقلية بحتة . يقول نافتالي لافي الذي كان متحدثا باسم فينان في حكومتى مثير وبيجين ان ديلن لم يكن يحمل الحب لزعيم حيروت :

« كان يقدر تصميمه ، قوته والطريقة التي كان يصرف كيف يمارس بها هذه القوة . كان ديلن يقدر أكثر من أي شيء آخر اخلاص بيجين ليهودا والسلمرا على الرغم من ان دوافعه للحصول عليهما باعتبرلهمما جزء من ارض اسرائيل لم تكن قبل دوافع ديلن . ولكنه كان يكره اسلوب بيجين ، لشته الطنانة ، ومبالفاته مما كان يعتبره تمثيلا رخيصا . كان يعتقد ان بيجين لا يفهم العرب ولا يعرف كيفية التعامل معهم وكيفية التوصل معهم الى اتفاق معقول لا يجرح كرامتهم ، اتفاق يعطيهم اقصى ما تستطيع اسرائيل عرضه عليهم « دون القيام بمخاطرة ضخمة بلاننا نحن » .

كان ديلن يقبل حلا سياسيا لا تكون فيه الضفة الغربية جزءا من اسرائيل . كان تطلعه بالامكن هناك لا يعني اننا علينا ان نستولي عليها . كان ديلن مستعدا لان يعيش آخرون هناك وفقا لاسلوب حياتهم ولكنه كان شديد الخوف من ان يتحول حكم العرب الى شيء لا يمكننا السيطرة عليه . كنت يمارض الضم بشدة ويجب أن يكون اليهود حساسين في الا يضموا أشخاصا اجانب ومعادين وارغلمهم على أن يكونوا اسرائيليين . ان الفلسطينيين في الضفة الغربية يجب ألا يكون لديهم جيش خاص بهم أو دعة جيوشي عربية أخرى . وخلاصة الامر ، ان ديلن كان مستعدا لاعطائهم الكثير . وكان يفضل اعطاء الاردن دورا كبيرا في اقلية مجتمع يتمتع بالحكم الذاتي .

لما فيها يتعلق بموقف بيجين ازاء ديان خان احد موظفيه وصفه على هذا النحو : « انه قام بتعيين ديان أولا وقبل كل شيء بسبب سمعته الدولية . ولكن ايضا يكن احترامنا لديان ، ذلك الاحترام الذى يستحقه كل من كل جنرالا بارزا في القوات المسلحة الاسرائيلية . كلن يتصلح في رغبة ديان في الاستقلال بأرائه » .

استغرقت اسرائيل وقتنا طويلا في تشكيل حكومة مثل الوقت الذى استغرقته اجراء انتخابات عامة . كلن على بيجين ان ينتظر ثلاثة اسابيع بعد غزوه في الانتخبات قبل ان يستكمل الرئيس افرام كاتزير مشاوراته الشسبية بلطقوس مع جميع الاحزاب الثلاثة عشر التى حصلت على مقاعد في الدورة التاسعة للكنيست ، ثم عرض عليه رئاسة الوزارة . وخلال تلك الفترة تلم بيجين بتغيير سيادة حزب العمل في ابقاء المستوطنات اليهودية بعيدا عن المسدن الجبلية في يهودا والسامرا حيث يتركز معظم عرب الضفة الغربية ، وانتزع موثى ديان من مقاعد حزب العمل وخرج من المستشفى التى دخلها للمرة الثانية دون امراض تذكر سوى التهاب في الغشاء المحيط بالقلب .

في مقر الرئيس الاسرائيلي في القدس التقطت الصور لبيجين وهو يصافح رئيس الدولة ويقل مسز نينا كاتزير . كان يتصرف بشهامة كما لو كان احد نبلاء العصور الوسطى . ومن منزل الرئيس ذهب الى الحسائط الغربى حيث وضع غطاء الرأس الاسود . كلن بيجين اول رئيس وزراء يمين هويته باعتباره يهوديا اكثر منه اسرائيليا . كانت الدولة بالنسبة له هي ارض اليهود وليس فقط تلك الاقلية من الجنس البشرى التى تصادف ان تعيش هناك . وبالنسبة له فان اليهودية لا يمكن ان تفصل عن الديانة اليهودية . كانت الزيارة عملا من اعمال التكريس قام بها رجل يعتبر نفسه حلما بين اليهود وليس مجرد رئيس وزراء اسرائيل . وعندما ذهب الى هناك مرة اخرى بعد انتخابات سنة ١٩٨١ ارتدى غطاء الرأس الذى اصبح شارة مستوطنى جوش امونيم .

كلن يجب مرور اسبوعين آخرين قبل ان يستعد بيجين لتقديم حكومته الى الكنيست وحلف اليمين . كلن السؤال الاساسى موضع الخلاف في مفاوضات الائتلاف المطولة هو عما اذا كان فريق الحكم سيضم حزب ايجال يادين الجديد — الحركة الديمقراطية من أجل التغيير — الذى خرج من اول انتخابات يخوضها وهو ثالث اكبر الاحزاب بعد ليكود والعمل . كلن الديمقراطيون تواقين للحكم ، كانوا حركة اصلاحية تمهدوا باحصاء الاسة بعد انتشار الفساد والمصالحة الذاتية خلال حكم حزب العمل في السنوات الاخيرة . كانت القوة الدافعة لبرنامجهم هي السياسة الداخلية وليس الخارجية على الرغم من انهم اعلنوا عن تأييدهم للتوصل الى تسوية حول

الأراضي في الضفة الغربية . كان زعماء الحركة يشملون الخارجيين عن اليمين وكذلك عن اليسار . كانوا يحاولون إلى تولي الحكم ، وإلى فرصة لتحقيق نتائج ليونوا بوعودهم للخاضعين . لم تكن المعارضة كافية وما كنت يمكن أن ترضى طموحت رجال مثل يادين وشمويل تلير . كانت المشكلة أن بيجين يستطيع تشكيل ائتلاف قوى دون مقاعد الديمقراطية الخمسة عشر . كان التوصل إلى اتفاق مع الحزب الديني القوي ، ووجودات إسرائيل ، شديد التطرف سيمطي ليكود — مدعها بليريل شارون — الذي حصل على مقعدين بقلعة خلصة ولكنه سرعان ما انضم إلى حيرت — أفضل وستون مقعدا من مجموع المقاعد في الكنيست البالغة مائة وعشرين . فلذا استقال ديلان من عضوية العمل فانه سيحتفظ بمقعده في الكنيست ، فعندئذ سيرتفع عدد المقاعد إلى ثلاثة وستين مما يعطي بيجين أغلبية ستة على الأقل (عضو مستقل آخر هو شمويل فلانو شارون الذي كان مطلوبا بتهمة جنحة مالية في فرنسا وعد بتأييد الحكومة ولكن كان ليكود حريصا على إبعاده) .

استطاع بيجين منلورة يادين تعضده تجربة ثلاثين عاما من الضداع الحزبي . كان يريد الديمقراطية في الائتلاف ، انهم سيعملون على توسيع قاعدة الائتلاف حتى لا يستطيع أحد انتهله بأنه يقود تحالف من الأيديولوجيين اليمينيين والمتعصبين النظريين . كانوا سيمنحونه أمانا في عدد المقاعد ولكنه كان يريدهم وفق شروطه . اعترض يادين على تعيين ديلان وعلى اتفاق بيجين مع وزير خارجيته المرشح حول صيغة الضفة الغربية . سارع زعيم ليكود بلجراء المفاوضات وأرغم يادين على التركيز على موضوعات السياسة الخارجية والأمن . طالب يادين بحسب العرض المقدم لديان لتولي الخارجية وأن يترك الائتلاف الاحتمال مفتوحا أمام التوصل إلى تسوية حلاً الأراضي ولكنه لم يكن ندا لبيجين . فوضت اللجنة المركزية لليكود زعيمها مسألة التفاوض للتوصل إلى أوسع ائتلاف ممكن ، وقررت بالتحديد أن أو. د. رار بلسناد الوزارات ستنتظر حتى المرحلة النهائية من عملية التفاوض . وفي نفس الوقت اخذت اللجنة المركزية مذكرة بالتقترح بيجين بأنه يجب تولي ديلان لوزارة الخارجية . وقال سيمحا أريخ ليهذا المتشككون : « أننا سنتكلم عن هذا عند تعيين المناصب » . لم يتغير شيء في التطبيق . كان بيجين يريد ديلان وفي النهاية ما كان باستطاعة أحد مخالفته ولكن هذا أعطى الديمقراطيين ذريعة للعودة إلى مقعدة الوزارة . وبالمثل فإن بيجين وافق على عدم ضم الضفة الغربية ، وأكد استعداد حكومته للاشتراك في محادثات السلام في جنيف عندما تعقدها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على أساس قرارى مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، ٢٢٨ . كان بيجين قد قلم قبل ذلك بسبع سنوات بحسب حزبه من حكومة الوحدة الوطنية بسبب موافقة جولدا مائير على القرار رقم ٢٤٢ . كان التعمد بالتخلي عن تلك الموافقة غير ملائم

بالنسبة لحكام الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ولكنه شجع أولئك الذين كانوا محتاجين للتشجيع . قدم بيجين وزارته إلى الكنيست في الموعد المحدد ولكنه ترك ثلاثة مقاعد خالية بصفة مؤقتة للديمقراطيين . وبعد أربعة شهور أثبتت حيلة بيجين التي توصل إليها بالصبر والتهديد والأغراء كما أرادها بالضغط . انضم يمين إلى الائتلاف كحائب لرئيس الوزراء ولم يكن يملك سوى حق التأخير (وليس الفيتو) حول بناء مستوطنات جديدة في الضفة الغربية والقيام بنور اسمي كينسق للسياسة الاجتماعية . ارتفعت أغلبية بيجين من ستة مقاعد إلى ستة وثلاثين بين عشية وضحاها بينما وأصل حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير ، بيراة ، طريق الحلول الوسط والتفسخ حتى أصبحت الحركة لا تعدو أن تكون ذكرى وتحذير عندما حل الوقت للدعوة إلى انتخابات أخرى في سنة ١٩٨١ .

نفع بيجين عن طيب خاطر ثبنا باهظا في مقبل أصوات الأحزاب الدينية خاصة أصوات أجودات إسرائيل التي كانت تسيطر عليه من خارج الكنيست هيئة من الحكماء الموقرين . كان الحزب الديني القومي ، حاملا لواء الصهيونية الدينية يكافح دائما من أجل الحفاظ على الوضع القائم في التوازن بين ما هو علماني وما هو مقدس في الدولة اليهودية . وقد حل دون السماح بلخال الزواج والطلاق المدني وحافظ على الاحتكار المؤسس للتيار الأرثوذكسي المتشدد في اليهودية ، وقوم الاتجاه إلى الابتعاد من مراعاة الشعائر اليهودية فيما يتعلق بيوم السبت في الخدمات العامة . كان حزب أجودات إسرائيل يسعى إلى المضي أبعد من ذلك وتغيير التوازن لصالح الشيوعية الديمقراطية (حكومة دينية) . كان الحزب يجاهد من أجل ذلك لانه - بالإضافة إلى الحصول على الأموال العامة من أجل نظام تعليمه الخاص - كان دافعه انوحيد للدخول إلى السلطة السياسية . كانت السياسة الخارجية وسياسة الأمن خارج ادراكه . كانت لدى بيجين موانع أقل مما كانت لدى رؤساء الوزراء من حزب العمل للتوصل إلى تفاهم ، كان يعلن بسعادة - أنه « أحد المؤمنين في إسرائيل » . بالنسبة له كان هناك نوع واحد من اليهودية ، وإسرائيل مدينة لأجيال من اليهود الاقليات باحترام قيمتها وممارساتها . كانت جميع فقرات اتفاق الائتلاف الموقع في ٩ يونيو سنة ١٩٧٧ الثلاث والأربعين ما عدا عشر فقرات تتناول التطبيقات والمزايا الدينية . وخلال أول حكومة لبيجين وجلت الفتيات من « العائلات المحافظة » من السهل الهروب من الخدمة العسكرية وأصبح من الصعب الاجهاض في حدود القانون وفرضت قيود على الأطباء في القيام بتشريح الجثث مما أدى إلى حدوث عجز في الكلى وغيرها من « قطع الغيار » اللازمة لمعملات زرع الأعضاء . ومنع النشاط التبشيري المسيحي .

بعد أربع سنوات من حرب يوم الغفران شعر بيجين بالرفض لأنه استطاع أقلية ائتلاف حكم لم تكن اسمه ثابتة في الداخل فقط ولكنه كان

جديرا بالثقة بدرجة كافية تردع أى دولة معادية من التفكير فى اعادة الكرة وتكرار ما حدث فى أكتوبر . كانت وزارته تضم فى وقت من الأوقات خمسة جنرالات متقاعدين هم : يلدن ، ودلين ، ووايزمان (الذى كوفىه بإسناد وزارة الدفاع اليه لنجاحه فى ادارة الحملة الانتخابية) وشارون (الزراعة والمستوطنات) وشمير اميت (رئيس المخابرات السابق تم لنتخلبه على قائمة حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير وعمل لفترة قصيرة وزيرا للنقل) .

انار تولى بيجين لرئاسة الوزراء عاصفة من التوجس والعداء فى الغرب خاصة فى بريطانيا حيث ثارت ذكريات الأرجون زعمى ليمى كما لو كان لم يحدث شيء منذ سنة ١٩٤٨ . كتب لويس هيرين فى صحيفة « التليز » اللندنية يقول : « ان مؤسس اسرائيل يجنى ثمر الأرهلب . الأرهلب يؤتى ثماره ويجب تشجيع عرملت » . وكتب عضو قديم فى الوحدة المسلحة المحولة جوا الذى فقد أحد رجليه فى هجوم قلمت به الأرجون فى ناكفيا الى السفارة الاسرائيلية يقول : « اذا جاء بيجين الى هنا فلتقى سائطه » وفى الولايات المتحدة امرت صحيفة « نيويورك تليز » عن قتلها ازاء السيلسك فى انشرق الاوسط .

أما « التليم » فقد اثارل شعور بيجين بجنون العظمة وعندما نصحت قرائها بان « بيجين يطابق مع ملجن » .

ذهل بيجين من ذاكرة العالم القسوية ، والرفض العنيد لرؤية الأرجون من خلال عيون قائدها . وطلب امتذارا من شبكة تليفزيون سى . بى . أس الامريكية لوصفه بالارهابى السابق . واجيب الى طلبة وقال لاحد المذيعين الاسرائيليين الذى أجرى معه مقابلة :

« اذا تقدمنى احد على اتنى ارهلبى وقدم يلمر عرملت على انه عدائى مقاتل فانتى لا احبل له سوى الاحتسار . لقد حاربنا لتحرير شعبنا عندما كان يتمرض للإبادة فى أوروبا . واعتقد ان ردود الفعل الغبية هذه ستلاشى عندما اشكل الحكومة . وانا مدعو للاجتماع بالرئيس كلرر فلذا لم تتوقف حتى حينذاك فانتى سأعرف كيف التصرف » .

كان الاسرائيليون من كافة التفاعلت السيلسية يقدررون بوضوح أكثر من الاجتلب انهم قد انتخبوا اول رئيس وزراء ايديولوجى ، الرجل ظل يردد نفس الاغنية لمدة اربعين عاما ويعنى كل حرف فيها : « انه سيكون مستعدا لتأييد كل كلمة حتى آخر دولار او آخر قذيفة » انه جدير بالثقة لدرجة مخيفة ، وفى الحقيقة فان بيجين جاء الى السلطة وهو اوضح من أى من أسلافه ولكنه كان يعترف صراحة انه يتطلع الى مؤرخيه الفضلين وكتاب السر الذاتية لادماده بالجمال المثورة للاستشهاد بها فى خطبه . ظل عاله هو

علم المؤتمر الصهيوني . كانت رؤيته غير واضحة ، ومربكة . كان يعنى من أجل المعالجة اليهودية ويدعو الى التمسك بالكرامة اليهودية وينخر بالقوة اليهودية . فلذا كان مستعدا لاجراء محادثات مع العرب للتوصل الى سلام فانه يفعل ذلك من منطلق القوة وليس من منطلق الضعف . وقيل عند تقديم وزارته الى الكنيست فى ٢٠ يونيو ان تطلب من أية دولة الاعتراف بحقها فى الوجود :

« ان الله آتانا هو الذى منحنا حق الوجود منذ وميض فجر الحضارة الانسانية منذ ما يقرب من اربعة آلاف سنة . ومن أجل الحق الذى جرى فى الدم اليهودى من جيل الى جيل ، دفنا ثمننا له فى تاريخ الامم . حقيقة ان هذه الحقيقة لا تحى لو تضعف حقنا بل على العكس . ولهذا فاننى أؤكد مرة أخرى أننا لا نتوقع ان يقوم أحد بالنيابة عنا بالاعتراف بحقنا فى الوجود فى أرض اجدادنا . انه اعتراف مختلف ذلك المطلوب بيننا وبين جيراننا ، اعتراف بالسيادة وباللحاجة المشتركة الى حياة يسودها السلام والتفاهم ، ان هذا هو الاعتراف المتبادل الذى نتطلع اليه وسنبذل من أجله كل جهد ممكن » .

وفىما يتعلق بالعلاقات مع الولايات المتحدة وضع بيجين تفرقة بين الرؤية والسياسة . كان يؤكد ان اسرائيل حليف ومصدر قوة . فأمريكا تحتاج اسرائيل بنفس القدر الذى تحتاج به اسرائيل الى أمريكا . خلال أزمة سنة ١٩٧٧ حول مشروع روجرز سخرت جولدا مائير وأبا اييل من « سذاجة » بيجين . ولكن بالنسبة للموضوعات التى تهمة كان رئيس الوزراء الجديد مستعدا للتودد الى أمريكا ومقاومة ضغوطها فى نفس الوقت . كان مصمما على تثبيت حدود أرض اسرائيل نهائيا . وبها كانت حقائق القوة فانه نادرا ما كان يلجأ الى الخداع ، ولم يوضع استعدادده « لكل السمن الصناعى » اذا لزم الامر موضع الاختيار قال أحد خبرائه فى انشئون الامريكية « انه مقتنع كلية ان الشعب الاسرائيلى سيواصل المسيرة معه ، كان يؤمن بقوة الاقتناع ، بالكلية ، بقدراته على الاقتناع . اننى ليس لى شك اطلاقا فى انه اذا حدثت مواجهة مع الولايات المتحدة حول موضوع ذى أهمية بالغة بالنسبة له فانه لن ينضى » . خلال زيارة بيجين الاولى الى واشنطن فى يوليو سنة ١٩٧٧ حثه الرئيس جيمى كارتر على اظهار مرونة حول الضفة الغربية فاما كان من بيجين الا ان قام ببسط « خريطة للامن القومى » احضرها معه تحسبا لهذه اللحظة واخذ يشرح المخاطر الناجمة من السماح للمدفعية العربية بالعودة الى حدود ما قبل سنة ١٩٦٧ . وقال للرئيس كارتر الذى شمر بالارتباك ، « اننا شعب ثلاثى » وكان يعنى انه من بين كل ثلاثة يهود قتل يهودى فى الهولوكوست القاتل . ومضى يقول « لم يكن باستطاعة الرجال اليهود الدناع عن نسلهم كان عليهم ان يسلموهن الى اقاتل . ثم بدا يقول :

« لقد أخذت على نفسي عهداً .. » ثم انفجر في موجة انفعال . وعندما حذره كارتر في نفس الجلسة في حجرة اجتماع الحكومة الأمريكية في البيت الأبيض من المضي في برنامج الاستيطان الفصم الذي وعد بالتعليم به في الأراضي المحتلة قدم له رئيس الوزراء قائمة بمعدة مسبقاً بعدد المدن الموجودة في الولايات المتحدة وتحمل أسماء عبرية مثل سلايم والقدس وتساقل ققلا : « لماذا ستقول إذا قال حكام تلك الولايات أنه لا يمكن أن يعيش يهودي في تلك المدن ؟ . كان مسئولو السفارة الإسرائيلية المصلحين لبيجين للمرة الأولى يعرفون أن هذه لا يمكن أن تكون كلمة إسرائيل الأخيرة ، وأصيبوا بالانزعاج ازاء حدة كارتر حول موضوع المستوطنات وعندما علنوا من البيت الأبيض إلى يلير هالوس ، قصر الضيافة الفخم سألوا رئيس الوزراء عما ينوي القيام به ، رد بيجين ققلا أنه سيقوم ببناء المستوطنات كما هو مخطط . وثبأ بأن الأمريكيين سيتخصصون لمدة ستة أشهر ثم يعودون إلى الحالة الطبيعية .

كان أول حاكم عربي يقترب إليه بيجين في بحثه عن السلام وأكثرهم تقليدية وتفتحاً هو الملك حسين ملك الأردن . كان وزراء اسرئيليون يقومون بالاجتماع به سرا منذ ما قبل حرب سنة ١٩٦٧ عندما كان لا يزال يحكم الضفة الغربية والقدس الشرقية واستمر الحوار خلال حكومت ليفي أشكول ، وجولدا مائير واسحق رابين . أما أكثر المقلبات توجهها لوجه فقد قام بها إيجال آلون وزير الخارجية الراحل الذي اجتمع بالملك أربع عشرة مرة ، بينما اجتمع به رابين ووزير دفاعه شيمون بيريز ثلث مرات . واجتمعت به مسز مائير لأول مرة في باريس قبل حرب الأيام الستة عندما لم تكن رئيسة وزراء بعد ، وفي إسرائيل بعد ذلك عندما أصبحت رئيسة للوزراء . ويضيف نلفنتلى لافي أن ديان قد تحدث إلى الملك « عدة مرات » بما في ذلك عدد من المرات عقب استقالته كوزير للدفاع في سنة ١٩٧٤ . وخلال فترة حكم رابين عقدت كل الاجتماعات في إسرائيل . ويقول أحد شهود المعلن أنه على الرغم من أن تلك الاجتماعات لم تحقق أية نتائج فاتها كانت اجتماعات جبيلة ، ومناقشت حرة ، مفتوحة وودية بين جنرالين وآخرين على شكلته .

وفور تولي السلطة ، ألح بيجين عن طريق الوسطاء إلى أنه يرغب في الانضمام إلى اجتماعات حسين .

القسم الثالث

وجاء الرد من عمان بالرفض القاطع الامر الذي اغضبه كثيرا . وعلى الرغم من ذلك فقد فوض ديان في حضور اجتماع خلص مساء يوم ٢٢ أغسطس بعد ان تخلص وزير الخارجية الاسرائيلي من حارسه الخاص بدخوله منزلا آخر من خلال الباب الاملى والتوارى في سيارة كانت في انتظاره في الخلف .

وعلى الرغم من ان المحادثات استمرت ليوم آخر بناء على طلب الملك حسين ، الا انها لم تكن مثمرة بالمرة . وقال الملك انه نفذ يده من الضفة الغربية والمشكلة الفلسطينية . واعلنت الدول العربية ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . واذا كانوا لا يريدونه ، فبوسعهم ادارة دقة شئون الفلسطينيين بدونهم .

وكتب ديان يقول ان محاولة ايجاد ترتيب مناسب ومتفق عليه لمشكلة الضفة الغربية وقطاع غزة هي محاولة تنسم بعدم الاكثراك فيما يبدو .. وفى الاجتماع الثانى ، اوضح الملك حسين موقفه بشأن احتمال تقسيم الضفة الغربية بين اسرائيل والاردن ، اى تسوية اقليمية .

وقد رفضها على الفور ، اذ ان اى ترتيب للسلام يقوم على اساس تقسيم الضفة الغربية من شأنه انه يعنى ان يوافق حسين على ضم جزء منها الى دولة اسرائيل ، وقال يجب ان افهم انه بصفته ملكا عربيا لا يمكنه ان يقترح حتى على شعب قرية واحدة ان يقطعوا اوصالهم مع اشقائهم العرب ويصبحوا اسرائيليين . وسيتم النظر الى موافقته على خطة من هذا القبيل على انها خيانة . وسيتم عرض اللاتهام بأنه باع ارضا عربية الى اليهود حتى يستطيع توسيع مملكته .. وقال ان الحل الوحيد لتحقيق السلام هو ان تعود اسرائيل الى حدود ما قبل شهر يونيو عام ١٩٦٧ . وبها يتصلق بمسألة السيادة ، يجب ان نعيد الى الاردن كافة الاراضى التى استولينا عليها فى عام ١٩٦٧ .

ومرح ديان لمساعديه عندما عاد الى القدس بأنه لم يندعش موقف حسين ولم يندعش كذلك رئيس الوزراء . وطبقا لما ذكره احد اصقاء بيجين القريبين ، فان بيجين لم يعتقد ابدا ان اية تسوية اقليمية ستفرى حسينا على التفاوض .

لقد كان يريد أن يستريح ضميره ، ويحصل عليها بعيدا عن نظايه ،
وجس نبض حسين . ولم يؤمن ديان بذلك على أية حال . وقد عرفنا موقف
حسين من الحادثات السابقة ، واستوضحه بيجين من جدول أعمال ديان
ولو كان حسين قال نعم ، لما تغير شيء . إلا أنه لم تحدث حتى المقابلة
نفسها . اننا نعرف الرد مسبقا .

وطبقا لما ذكره مصدر مطلع ، فانه على الرغم من ذلك ، اوحى ديان
قبل ان يفترقا بأن الملك قد يجتمع مع بيجين . ورد حسين بأنه لا يرى جدوى
من ذلك ، فأراء بيجين معروفة تماما . وفي حدود ما هو معروف كان اجتماع
ديان هو آخر اجتماع يحضره الماهل الاردنى مع وزير اسرائيلى . وكان
بيجين على استعداد للبحث فى أى مكان آخر .

الفصل الثامن عشر

السلام وفق شروطنا

كان ذلك بعد اقلية من مساء التاسع من نوفمبر عام ١٩٧٧ وكان الياهو بن اليسار ، مدير علم مكتب رئيس الوزراء وعميلا سرييا سلبقا يحل درجة الدكتوراة في التاريخ ويطلق لحيه سوداء تشبه لحيه تيودور هيرتل ، كان يقرأ وهو مضطجع في سريره في شقة بالقرب من مسكن الرئيس في القدس . وكان ذلك اليوم يوما طويلا ومرهقا . وقد خرق المقاتلون الفلسطينيون وقف اطلاق النار عبر الحدود اللبنانية وتسببوا في قتل مدني اسرائيلي وصرح خمسة آخرين بصواريخ كتيوشا وردت القوات الجوية بقصف استمر خمسا وستين دقيقة لمخيمات الفلسطينيين وكان العنصر البارز في اخبار التلفزيون المسائية تناول المزامم والمزامم المضادة حول الاصلاحت بين المدنيين وكذلك تأكيدات رئيس الاركن بأن اسرائيل سوف تحترم وقف اطلاق النار اذا ما فعل الجانب الآخر الشيء نفسه وتلقى بيجين تقرير عن الحادث وادلى ايضا بمشورته ولم يكن هناك شيء جديد في نشرة اخبار التلفزيون وكان في استطاعة بن اليسار أن يسترخى ولكن لم يكن هذا الاسترخاء ليطول امده .

فلقد دق جرس الهاتف الى جوار السرير . وكان المتحدث هو عنان صفواى ، محرر شؤون الشرق الاوسط في صحيفة جيمروزايم بوست . وكان صفواى قد تابع الاستماع الى اذاعة حية (على الهواء) من اذاعة القاهرة لخطب انور السادات الذى وجهه في افتتاح الدورة السنوية للبرلمان المصرى المسمى « مجلس الشعب » ويعد ان اعلن استعداده للتوجه الى مؤتمر في جنيف والذى يحاول الامريكيون احياءه من جديد ، ويعد ان هاجم اسرائيل لاجلها حول كل كلية وكل فصلة وكل شرطة ، التى السادات قنبلة لقد قال انه مستعد لان يذهب الى نهلية العالم من اجل محادثات السلام . وقال السادات « ان اسرائيل سوف يصمقها ان تسمع اتى اخبركم باستعدادى للذهاب الى اسرائيل نفسها الى الكتيست ، لا تبالط معهم من اجل ان اهل دون جرح جندي مصرى واحد . اعضاء مجلس الشعب ، ليس لدينا وقت نفسيه » . ولقد قول هذا العرض الذى قدمه الرئيس السادات بالنداء الحامسى « الله اكبر » من الاعضاء . لكن بعض الذين استمعوا له لم ينتبهوا كثيرا لما قال او اعتبروا ما قاله نوعا من الصيغ البلاغية في الخطبة تملأ كما اعتبروا تهديد السادات منذ اربع سنوات مضت بالقضية بمليون جندي مصرى في سبيل استعادة الارض العربية من القاصب الصهيونى . لكن حرب يوم

المفخران قد عليت أتلن صفاوى ان الرئيس فى العدة يعنى ما يقول . وقد ذهب الى بيجين ليعلمه بالقضية وليلم رد فعل بيجين لها .

كان بن اليسار غير مصدق لما سمع، لكن هذا المسئول الاسرائيلى لم يرد ان يستبعد ما سمع استبعادا تملها .

لقد سألته « هل أنت متأكد من ان هذا هو ما اعلنه السادات ؟ اتنى لا اصدق » فبالرغم من كل ما نعرفه مقدما الا اتنى دهشت من سماع السادات على استعداد للحضور الى القدس . ورد تقلا انه متأكد كل التأكيد . وسأله عما اذا كان قد تلقى برقيات من وكالات الأنباء . ورد بانه لم يتلق بمعد اى رسالة . وقالت « أرجوك ان تتأكد فلذا ما كان هذا صحيحا وصح ما اعلنه السادات فطيك ان تكتب اليه بانه سيلقى كل الترحاب فى القدس .

وفى اليوم التالى نشرت صحيفة جيروزاليم بوست قول أحد كبار مساعدى رئيس الوزراء مناهم بيجين بأن السادات سوف يلقى كل الترحيب هنا وأنه سوف يستقبل استقبالاً لائقاً . لكن الاسرائيليين كانوا او لا زالوا مترددين فى مواجهة هذه المبادرة بجدية . ولم تنشر صحيفة جيروزاليم بوست رواية صفاوى بعنوان رئيسية .. فى الصفحة الاولى . ولم يعكر بن اليسار امسية بيجين بهذه الاخبار ولكنه انتظر حتى بعد الساعة السابعة من صباح اليوم التالى . ولم يذع راديو اسرائيل بيان رئيس الوزراء بأن السادات سوف يلقى الترحيب الا فى الساعة الثامنة صباحا ولكن الاحتمالات لم تقل تبدو غير واقعية . ولما كان السادات قد استمر فى وضع التأكيد كله على مؤتمر جنيف وطلبه بتعهد اسرائيل مقدما بالانسحاب من كل الاراضى المحتلة ، فان الحرية قد اصابت اسرائيل اخذة فى الاعتبار ايضا ان جميع المقابلات السابقة بين الاسرائيليين والزعماء العرب كانت كلها سرية ابتداء من زيارة جولدا مائير للملك عبدالله ١٩٤٨ الى مقابلة ديان لحفيد الملك عبدالله بعد تسعة وعشرين عاما . وكنت اسرائيل مدركة تملها للحساسية العربية لدرجة استخدام الرقابة العسكرية للحفاظ على سرية هذه اللقاءات. ولكن لماذا عليك ان تفعل اذا ما سمعت رئيس اكبر دولة عربية يعلن جهرا انه مستعد للحضور الى القدس ومخاطبة الكنيست ، فهل سوف يؤذيه بين شعبه ان يتلقى دعوة علانية ، ان بيجين شأنه شأن سابقيه قال مرارا انه مستعد للذهاب الى اى مكان من اجل محادثات السلام وفى اى وقت . وعلى اية حال فان مصر لا زالت فى حالة حرب مع الدولة اليهودية رسميا . فكيف يمكن استقبال عدو فى عاصمة دولة لا يعترف بها وما زاد الامر حيرة عدم وضوح الرؤيا فى اشارة السادات . فلما اى شيء كان يهدف ؟

وبالرغم من الملاحظات الحرة التى اقلها بالفنمى مع جيسى كارتر ، الا ان السادات لم يستشر الامريكيين مقدما حول اعلانه هذا فى مجلس

الشعب . وطبقا لما قاله سيروس غانس وزير الخارجية الامريكية انه لخطر الرئيس تبيل اعلانه بيوم واحد من تفكيره في الذهاب الى اسرائيل . ونظرا لانه قد همهم فكرة عقد مؤتمر قمة في القدس الشرقية يضم الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الامن ومنظمة التحرير الفلسطينية وكذلك اسرائيل وجيرانها المباشرين ، فان رسالة كهذه لم تقبل بمعناها الواضح الظاهري . ولكن ما ان ادلى بتصريحه هذا حتى اصبحت الولايات المتحدة تسعى البريد السعيد على حد قول صموئيل لويس السفير الامريكي في تل ابيب .

وجاءت الرسائل وعادت عن طريق القنوات الدبلوماسية وعن طريق اعضاء الكونجرس الذين زاروا المنطقة ، وبصورة حيوية عن طريق الصحافة . وفي اذاعة باللغة الانجليزية موجهة الى السفير المصري - سك بيجين هذا القسم للامتين ، « لا حروب جديدة ولا سفك للدماء ولا تهديدات بعد اليوم » واجرى كرونكلت وبربرا وولتر المعرومين بلفقتهما في التلفزيون الامريكي مع النجوم والقادة ، لقاء مع كل من السادات وبيجين . واضاف هذا اللقاء المزيد الى الكرنفال السائد في المنطقة وان كان بعض الدبلوماسيين المفرضين قد اشاروا الى ان هذا ليس بالطريقة الوحيدة او الرئيسية للاتصالات بين القدس والقاهرة . وكان لقاء كرونكلت هو اول لقاء مشترك عن طريق القمر الصناعي من نيويورك وقطر السادات انه لابد من استلامه لدعوة مكتوبة . ووافق بيجين على ارسال هذه الدعوة . واستجاب السادات لذلك بقوله انه سوف يكون مستعدا للذهاب الى اسرائيل في اقرب وقت ممكن . وفي الخامس عشر من نوفمبر بحث بيجين برسالة الى القاهرة عن طريق حامل رسالة امريكي قال فيها :

« بالاصالة عن حكومة اسرائيل فان لي الشرف ان اتقدم لكم دعوتي الودية للحضور الى القدس وزيارة بلدنا . ان استعداد سملاتكم للقيام بمثل هذه الزيارة كما عبرتم عنها في خطبتكم لمجلس الشعب المصري ، قد قول هنا بالاهتمام العميق والايجابي شأنها شأن بيلتكم ببلتكم ترغبون في مخالطة اعضاء برلماننا ، الكتيمت ، ومقابلتي . فلذا ما قبلتم دعوتي ، وهذا ما آمله ، فسوف تجرى الترتيبات لكي تخطبوا الكتيمت من فوق منبره وسوف تمكثوه ، اذا ما رغبت في ذلك ، من مقابلة مخطف المجموعات البرلمانية ، المؤيدين منهم للحكومة والمعارضين لها . ودعنيؤكد لكم ، سيدي الرئيس ان البرلمان والحكومة والشعب في اسرائيل سوف يستقبلونكم بكل احترام ومحبة » .

وجاء رد السادات بنفس الايجابية فقد اخبر وفدا امريكي من مجلس النواب مكونا من أربعة عشر عضوا انه يعتبر الزيارة المقترحة « مهمة مقدسة » وانه سوف يذهب في اقرب فرصة ممكنة . ثم استطرد قائلا :

« وعلينا أن نعمل المستحيل لكي نخلص البطلة المفرغة التي أخذ العرب والاسرائيليون يتحركون فيها لمدة ثلاثين عاما . وهذا من أجل الأجيال القادمة . ومن هنا جاءت قضية هذه المهمة . وانتي اذا لم احلوا كسر هذه الحلقة المفرغة فإن الله سوف يحاسبني وكذا سوف تحاسبني الأجيال القادمة » .

وبالنسبة الى غلن ٧٠ ٪ من الصراع العربي - الاسرائيلي سببها مشاكل نفسية و ٣٠ ٪ يرجع الى اسلوب معالجة . وعلينا أن نتغلب على المشاكل النفسية ثم نتجه الى الأسباب المادية . ومن أجل ذلك فسوف أذهب الى المكسيك . واذا ما لزم الامر فسوف افتتح باب النقاش مع أعضاء الكتيسة الملة والبشرين لتزويدهم بلحقاتي المجردة هنا في المنطقة - أي وجهة النظر الأخرى - حتى يستطيعوا ان يقرروا لانفسهم » .

ولقيت الزيارة الشبكة الوقوع عدى في نفس بيجين وتغييره لذاته وفي احسنه المصير للتاريخ . هذه المحادثات من شأنها أن تبهن لاولئك الذين تساورهم الشكوك هل أن حكمته تدير في الطريق السليم « وأشار في الخطاب الذي ألقى به أمام اللجنة المركزية لحزب حيروت الى أنه يتوقع دعوة مقابلة لزيارة العاصمة المصرية وقال : « هناك تبسادية في هذه الأمور ، وببساطة الله سألور القاهرة في يوم من الأيام ، وسأشاهد أيضا الأهرام . وعلى أية حال ، فأتقيا ساعدنا في بنائها » . واحتاج رئيس الوزراء الى ثمانية عشر شهرا من الديبلوماسية فقد اقتنع بأن أبناء اسرائيل لم يبنوا الأهرامات .

ان مبادرة السادات لم تولد من فراغ ، فقد ساعد في مولدها حقلان من طرفين متضادين على المسرح الدولي وهما رئيس شيوعي وملك عربي . ففي شهر أغسطس ، بعد عودته من واشنطن ، قام بيجين بزيارة رسمية الى رومانيا ، وهي الدولة الوحيدة من دول الصلح الحديدي التي احتفظت بعلاقات ديبلوماسية مع اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ . وقد قضى ثمان ساعات في اجتماع مطلق مع نيكولاي شوشيسكو ، زعيمها المتشدد وأن كان مستقلا في رأيه . وذهب السادات وراء بيجين الى بوخارست ، وكان يتوق لسماع انطباعات شوشيسكو عن رئيس الوزراء الاسرائيلي الجديد . وهل هو متعصب كما يبدو ؟ وأكد له شوشيسكو بأن بوجين يريه حلا . والحق السادات على السؤال القاتل « هل بيجين أمين وهل هو زعيم قوى بدرجة تمكنه من الجلاء ؟ وكان رد الرئيس الروماني على السؤالين هو أجل » .

وكان ذلك كلفا بالنسبة للسادات ، الذي كان ممبعا على كسر سلسلة حروب الشرق الأوسط . وكان لديه أسلحة القوة التي تدعوه لتسوية

الرباط: الدبلوماسية والاقتصادية مع الولايات المتحدة ، الراعى التقليدى
لإسرائيل .

وقام الرئيس الشيعى بدوره ، وجاء الآن دور الملك العربى . لقد كان
الملك الحسن ملك المغرب رئيس الدولة العربى الأكثر قبولا لفكرة إجراء حوار
مع إسرائيل . وزاره اسحق رابين ، بصفته رئيسا للوزراء متنكرا باستخدام
شعر مستعار ونظارة شباب . وفى شهر سبتمبر ، بعد جلسة تهديدية مع
مثل كبير للموساد وهو جهاز المخابرات ، وجه الملك دعوة الى موسى ديان
لزيرة القصر الملكى فى مراكش . وبناء على طلب من وزير الخارجية ، أرسل
الملك الحسن رسالة للقاهرة تقترح عقد لقاء مصرى إسرائيل على مستوى عال .
وفى غضون أربعة أيام من عودة ديان الى القدس ، جاء الرد بأن المصريين على
استعداد لذلك . واقتروا عقد اجتماع إما بين السادات وبيجين أو بين حسن
التهامى نائب رئيس الوزراء المصرى فى ذلك الحين وموسى ديان . وعلى الرغم
من التحفظات التى أبدتها ديان ، فإن بيجين كان مستعدا للتوجه فورا الى
اجتماع القمة ، إلا أن المصريين فى ذلك الحين أعادوا النظر فى الموضوع .
واستقر الرأى على إجراء المحادثات بين ديان والتهامى فى الرباط يوم
١٦ سبتمبر .

وبالرغم من أنه كان من المفترض أن تكون تلك المحادثات سرية ، فقد
كان الأمريكيون على علم بها من خلال المغرب فيما يبدو . وتوقف وزير
الخارجية فى أوروبا وهو فى طريقه للولايات المتحدة ، واختفى فى بروكسل
وانطلق بطريق البر الى باريس ثم بطائرة خاصة الى المغرب ، بعد أن وضع شعرا
مستعارا وشارباً ونظارة شمسية على عينيه طوال الطريق . أما مسز راشيل
ديان ومساعد وزير الخارجية فقد اتجهوا الى نيويورك على متن الطائرة
(سابينا) واعتفروا للطيار هنرى ليفى الذى كان قد تم انقاذه من الطائرة
سابينا المختطفة فى مطار اللد فى عام ١٩٧٢ عندما كان ديان وزيرا للدفاع وكان
يتطلع لكافاته على ضيافته .

وعلى الرغم من احترام كافة المجاملات ، فإن النجاح لم يحالف مؤتمرا
الرباط . وقال التهامى أن السادات وافق على فتح حوار مع إسرائيل ، إلا أنه
لن يجتمع مع رئيس وزراء إسرائيل ويصافح يده إلا بعد أن يقبل بيجين مبدأ
الانسحاب الكامل من الاراضى المحتلة . وكان الانسحاب الاسرائيلى هو المشكلة
الأساسية ، وكان يشمل كما حثت قضايا السيادة والشرف الوطنى وبقاء
السادات فى السلطة . وكان ديان فاترا ولكن غير ملتزم وكان عليه أن يرد
على رئيس الوزراء . وعلى نحو كان متوقعا ، عندما فعل ذلك ، رفض بيجين
تقديم أى تعهد بالانسحاب الشامل . والتزم التهامى بقوله ، وهو مسلم
متشدد لا يشعر بالوعدة تجاه إسرائيل . وأبلغ ديان بأنه لن يعتقد أى اجتماع

للقمة حتى يجلو آخر جندي اسرائيلي من الأرض العربية . وتقرر اجراء جولة ثانية من المحادثات بين ديان والتهامي بمجرد أن يتلقوا تعليمات جديدة من القدس والقاهرة . الا أن السادات لم يكن لديه صبر على الدبلوماسية السرية البطيئة . وكان يشعر بضيق تجاه التفاصيل وبعدم اكترات تجاه البروتوكول . وكان عرضه الخاص بالذهاب الى القدس ضربة نموذجية كبيرة وعذلة اجتازت حاجز الشك التاريخي وأعلنت التحدى بجرأتها وبساطتها . الا أنه أيا كانت توقعاته ، لم يكن بمقدور هذه المبادرة وحدها تبديد نسبة السبعين في المائة التي تمثلها الأسباب النفسية في الصراع العربي الاسرائيلي بل انها فجرت بالكاد نسبة الثلاثين في المائة التي تمثلها الاسباب المادية .

وبالنسبة لمعظم الاسرائيليين كانت زيارة السادات خيالا تحول الى حقيقة وعندما وصل الى مطار بن جوريون بعد انتهاء السبت اليهودي يوم ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ ، كان مضيفوه ما زالوا يمزحون حول استحالتها وارتجالها نقل قائده فرقة موسيقات الجيش التشيد المصري من اذاعة القاهرة . وقام صانع الاعلام في القدس بصناعة المئات من الاعلام المصرية ذات اللون الاحمر والابيض والاسود . وقام احد اصحاب المطابع بتقديم ملصوق تذكاري باللغة العبرية والعربية والانجليزية مكتوب عليه كلمة «السلام» وتنافست اشهر وأرقى فنادق القدس الثلاثة على ارضاء زبائنهم المصريين والتشريف بهم بحلهم الملكية (وكانت من طراز الملك داود) وأعلن وكيل احدى المنشآت عن مبنى فاخر مكون من أربع عشرة حجرة . في مكان مناسب وبشروط يمكن التفاوض حولها يصلح لان يكون مقرا للسفارة المصرية وعرضت « متاجر السلام » المروفة تخفيضا قدره ١٠٪ على جميع المبيعات من متاجرها .

وأعلن مذيع التلفزيون وهو يلهث في مكبر الصوت بينما كان الرئيس المصري ينزل درجات سلم الطائرة بيونج ٧٠٧ ان هذا جديدا قد بدأ . وردد احد مذيعي الراديو « اننى أراء ولكننى لا اصدق » وكانت جولدا مائير واقفة بين علىة القوم الذين جاءوا لاستقبال السادات . وقال لها السادات « سيدتي » لقد انتظرت طويلا مترقبا لحظة لقاءك . وردت السيدة البالغة من العمر ثمانين عاما والتي صلت ودعت في أكتوبر سنة ١٩٧٣ أن يأتي اليوم الذى ينتبه فيه أحد القادة العرب ويحزن على موت شباب بلاده وسقطهم في ساحة القتال « وأنا انتظرت طويلا مترقبة لقاءك . وما قد حان الوقت وما أنا في انتظارك » وتوقف الرئيس لحظة ثم بدأ يصافح المستقبلين وانضم في مناقشة حية مع آريل شارون الجنرال الذى تحول الى رجل سياسة وهو الذى غير مجرى حرب يوم الغفران بعبوره قناة السويس . وكان رئيس الأركان جنرال مودوخاي جور قد حذر الأمة في مقابلة صحفية أثاروت جدلا كثيرا من أن يكون السادات

قد خطط لشن هجوم مفاجيء لخت ستار زيارته لاسرائيل : وقال قد تكون العملية كلها مجرد خدعة ، وعندما قصوه للصادات ابتسم السادات وقال « اننى لم اكن اخادع » ووقف الرئيس كاتزير ورئيس دولة اسرائيل والسادات رئيس مصر وكفاحهما متلاحقان والى جانبيهما وقف مناهج بيجين بينما اخذت فرقة الموسيقى تمزق النشيدى الوطنى للبلدين وفيما بعد اخذت الملهمة تطلق ٢١ طلقة تحية للضيف . وتقدمت المسيرة الى القدس ثم الى عفر حامة بضماء اطلقت فى الجو ووقف ما يقرب من ٢٠,٠٠٠ اسرائيلى وقد غمرتهم البهجة يستقبون الموكب عند ابواب العاصمة بالعز والفرح وانشيد السلام . واخذت الاجراس ترق بينما اقترب مركب معيارات الليجوزين من فندق الملك داود واخذت حشود اخرى من الجماهير تنشد باسم السادات . وبعد ما اناره وصول السادات من المشاعر . وبعد جولته صباح يوم الأحد فى الملهمة القديمة وادائه صلاة الظهر فى المسجد الاقصى كانت الكلمات التى التقت فى الكنيسة هى قمة هذا الحدث . وبالرغم من التوقعات التى صادت المجلس الذى اذدم باعضاء البرلمان السابقين والعاليين والديبلوماسيين والصحف والصحف فقد اوضح السادات وبيجين للحاضرين ولكل من استمع اليهما فى أرجاء العالم أن السلام لن يتحقق عن طريق الخليل وما لم يمتزم أى من الزعيمين أى شىء غير عادى بصورة كافية يمكن أن يحفز الطرف الثانى على تغيير موقفه . فقد كان السادات مصرا على أن يحقق السلام بشروط مصرية . ولم يكن بيجين بأقل منه فى شروطه الاسرائيلية واذا ما حكمنا على أداء الاثنين وممارستهما فى العلاقات الدولية نجد ان السادات قد ربح بسهولة مذهشة . فقد بدأ متحديا ومرحاً . وهكذا اخذت اسرائيل موقف المدافع . وكان بيجين متعبا ولم يقل شىئا غير متوقع . وهذا شأنه دائما حيث لا يكون فى أحسن حالاته عندما يلغى خطابا رسميا . فهو لم يقدم أى فكرة جديدة ، وليس هذا فحسب بل انه لم يجد كلمات جديدة للتعبير عن الافكار القديمة .

وفى خطبه الذى القاه باللغة العربية والذى استغرق خبسا وخمسين دقيقة عبر السادات بأسلوب أكثر دقة من ذى قبل عن استعدادة لقبول اسرائيل كحقيقة واقعة فى حياة الشرق الاوسط . وقال : « اننا نرحب بكم لتعيشوا بيننا فى سلام وأمن . ولكي يتم تحقيق السلام مع العدل اقترح قيام حدود آمنة ضد العدوان وآية ضمانات اخرى دولية قد ترغب اسرائيل فيها . وفى مقابل ذلك نلا السادات كلمة بالمطالب العربية بالسلفاء ملحوظ وهو اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية المثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى . واسر السادات وهو يجنف الشرق من على جهنمه والجوء الاصلح من رأسه على الاتساع الاسرائيلى الكلل من الاراضى العربية التى تم احتلالها بالقوة بها فى ذلك القدس . بالأرض ليست قبلة للتفاوض انه لن

يتنازل عن بوصة واحدة أو حتى مجرد قبول مبدأ المساواة حصوله الاوض .
وينبغي أن تكون القدس مدينة حرة ومفتوحة لجميع المؤمنين . وينبغي ألا يحرم
منها أولئك الذين اعتبروها موطنها لهم لمدة قرون . وفوق ذلك أكد الرئيس
المصري أنه يوقع اتفاقية سلام مصرية - اميرانية منفصلة وكذلك فإنه لن
يتفاوض على ترتيب جزئي آخر سوف لا يكون من شأنه سوى تأجيل الوصول
الى حلول حقيقية وبالرغم من تجاهله لمنظمة التحرير الفلسطينية الا أنه وصف
المشكلة الفلسطينية بأنها لب وجوهر النزاع . وأكد قائلا أنه سوف يكون خطأ
خطيراً تجاهل الحقوق الفلسطينية الخاصة بحقوقهم في إقامة دولة وفي حقهم في
العودة .

وقام بيجين كل اغراء بالتفاوض من فوق هذا المنبر . وقال أحمد
السفراء الغربيين وكان حاضرا هذه الجلسة أن الأمريكين قد حضروا رئيس
الوزراء الاسرائيلي من الانزلاق الى هذا الموقف . وأعلن بيجين عن رغبته في
قيام سلام حقيقي يتضمن تسوية كلية بين الشعب اليهودي والشعب
العربية دون الانزلاق في فكرية المني . وعلى لية حل غلقه قد عرض على
السادات دراسات التاوين اليهودي الحديث مشيرا الى مغزى مذبة حرب الاستقلال
علم ١٩٤٨ والتي قال عنها انها فرضت على اسرائيل الضعيفة بواسطة
جيرانها العرب الاكوياء وأردف يقول : : ان الجيل الذي تعرض للإبادة قد العزم
على الا يعرض الشعب اليهودي مرة أخرى للخطر . وقال رئيس الوزراء أن
السادات يعلم أن مواقفهما من مسألة الحدود مواقف مختلفة متباينة ولكن
لا يعني هذا أنهما لا يستطيعان التفاوض . واقترح أن يتفاوضا على كل
موضوع خلاف والا يضع أي من الطرفين شروطا مسبقة وقال « اننا سوف
نتفاوض كائدا . فليس بيننا مهزوم ومنتصر » .

وبناء على مبادرة من بيجين تصالح الزعيمين في نهلية خطب رئيس
الوزراء الذي التمس بالعربية والعنى استغرق أربعين دقيقة .
ولكن كان هناك شعور بخيبة الامل بين الصحطين وبين أعضاء المجلس . وربما
ما كان ينبغي توقع حدوث معجزات . وبدلا من حدوث معجزات فقد تم تحديد
الخطوط الفاصلة للسلام . وفي مؤتمر صحفي مشترك في اليوم التالي انهر
السادات زيارته . بأن وضع المسؤولية والعبء كله على اكتاف بيجين قائلا :

« ادعو الله ان يرشد خطوات رئيس الوزراء بيجين وخطوات
الكنيست ، ذلك لاننا في حاجة ماسة لاتخاذ قرارات صعبة وحاسمة . وانما قد
حصلت نصيب بالفعل بقراري الحضور الى هنا واتي في انتظار القرارات التي
سوف يتخذها رئيس الوزراء بيجين وكذلك الكنيست » .

واصبح هذا يتردد كثيرا على السنة المصريين . فلقد قدم الرئيس النشور
 الاكبر بذهابه الى القدس وبلا اعتراف بلسرائيل مغلبا بحياته في مصر وفي العالم
 العربي كله . وليس هذا هو غاية ما كان يطمح ويتوق اليه الاسرائيليون
 دائما ؟ والان قد حان الوقت لمقابلة ذلك بالمثل . وعلى أية حال فانه
 من الصعب الاعتقاد بأن السادات كان يتوقع احراز نصر بسهولة هذا
 فضلا عن وجود عنصر التثبيل فيها اقدم عليه . ولم يكن يؤخذ في الخارج
 على محمل البراءة . وهو لم يكن باقل من بيجين في سجله التأمري . وبلا رغم
 من انه يكره ويمقت التصرف المكتوب والمخطط الا انه ماكن لينطلق في تصرفه
 بناء على وحى الساعة فكل مبادرته لبتداء من عبور اكتوبر ثم توجهه الى
 القدس انها هي قامة على الصلابة . وكان محقا في توقعه من حدوث استجابة
 اسرائيلية كريمة وهي المقابل الذي يمكن ان يلوح بها في وجوه منتقريه من
 العرب ولكن بعد ثلاثين عاما من الحرب فانه سيكون من السذاجة توقع انهيار
 الجدران امام اول نفخة في النفير .

وكان بيجين ، شأنه شأن معظم الاسرائيليين يذكر تاريخ السادات المتمدد
 الالوان . فهذا نشاطه المؤيد للنازية اثناء الحرب العالمية الثانية ، وهذا
 دوره في الثورة النصرية ضد الملك فاروق ، ثم شنه حرب يوم الغفران . لكن
 بيجين استبعد عداؤه الغريزي ضد الزعيم المصري الا عندما كان يشعر بأن
 السادات يلعب لعبة قذرة . ففي اجتماعاته الخاصة مع رجاله كان يسمح
 لكراميته بالظهور فكان يقول « ان السادات كاذب » وكان بيجين يميل الى
 احتقار العرب بصفة عامة ولذلك فانه كان يحتقر السادات بصفته عربيا .
 ولكن فوق هذا كله فان بيجين يدرك ان السادات يريد السلام وانه ركب المخاطر
 من اجل ذلك . ولقد لحص يحيل قديش موقف رئيس الوزراء بانه موقف الاحترام
 والشك « وفي احدى المناسبات عندما حثه احد اصدقائه بان يفتح عينيه على
 السادات المراوغ والمخادع اجاب قائلا : « لقد وهبنا الله التقدير عقولا نحن
 أيضا » . وكان بيجين يصدق دعايته هو نفسه حول تعرض اسرائيل للخطر .
 وكان مصر على الا يتخذ اية خطوة قد تعرض الدولة اليهودية للخطر . وحتى
 لو كان بيجين لا يشارك جنرال جور في شكوكه العميقة الا انه لم يكن على
 استعداد لياخذ صداقة السادات بثقة تامة . لكن كان الزعيم المصري عدوا
 لفترة طويلة . وكان بيجين في حجة الى دليل على حسن نية السادات .
 وهو ايضا لم يكن يحب ان يعتمد كثيرا عن خلاصه في حزب حيرت الذين آزره
 في حملته ضد حكومة العمل حول اتفاقيات سيناء . لقد كانوا في حاجة الى
 التأكيد وكتبوا في حاجة الى الوقت لكي يلحقوا ببيجين . وفوق ذلك كله فان
 بيجين كان مصر على الا يقع في شرك سلام شليل قد يؤدي الى اعادة تقسيم
 ارض اسرائيل انه كان يريد السلام ولكن ليس على حساب كل شيء حارب من

أجله في الانتعاشات وفي الحكومة • ان السلام مع مصر له جاذبية خاصة لمدة
أسابيع • فمصر أكبر دولة عربية وأكثرها قوة • وبدون مصر فلن يستطيع العرب
شن حرب • ان سيناء على عكس الضفة الغربية وقطاع غزة يمكن التخطي عنها
طالما يمكن الإبقاء عليها خالية من القوات المصرية والطائرات العسكرية • هذا
وكان يبجج يامل في التوصل الى وسيلة يمكن بها الاحتفاظ بالمستوطنة اليهودية
وبالرغم من احتجاجات السادات ضد ذلك وبالرغم من تشاؤم ديان تقاضت
اسرائيل على افتراض ان مصر سوف تكون قلعة بتحقيق سلام منفصل • ان
كل ما يريده السادات وكان يسعى اليه هو استعادة أرضه السليبية ومساعدة
امريكى في حل مشاكل مصر الاقتصادية الرهيبة • فإذا ما كان السادات في
حلجة الى دليل يقدمه على انه لم يتخل عن الفلسطينيين فلن يبجج سوف يحاول
ان يقدم له هذا الدليل •

وبهذه الروح توجه ببجج الى الاسماعيلية في أعياد الميلاد سنة ١٩٧٧
في اول زيارة له لمصر ووثقى لقاء قمة مع السادات • واذا كان الاسرائيليون قد
توقعوا استقبالا حارا وتلقيا في مدينة القناة كالذى استقبل به السادات في
القدس فانهم سرعان ما اصابوا بخيبة أمل • لقد تاجعت المشاعر في طائرة
المال ٤٤٧ التى انطلقت من مطار بن جوريون عندما أحاطت إحدى المضيفات
بذراعيها برقبة ببجج وقد انفجرت في البكاء • لقد كان زوجها قد سقط صريحا
على الجبهة المصرية في حرب سنة ١٩٧٣ لكن المناخ في مطار أبو صوير العسكري
كان باردا بصورة واضحة فلقد أرسل السادات بنائبه حسنى مبارك لاستقبال
الجلب الاسرائيلى • ولم تكن هناك أعلام ولا موسيقى ولا أنشيد • وعند
الوصول الى الاسماعيلية سمع عزرا وايزمان رفيقه ديان وهو يهمس لبجج
« انظر ليس هناك علم واحد اسرائيلى وليس هناك لافتة واحدة ترحب بقدمونا »
وعلى نقض ذلك كتبت الاسماعيلية تعج بالصور واللافتات والمصققات والاعلام
واقواس النصر ولكنها تجمد مصر ورئيسها وليس هناك اى مظهر لنجمة داود
او اية صورة لبجج • وليس هناك اى ترحيب بالانجليزية او العبرية • هذا
النمط الواحد اخذ يكرر نفسه طوال أشهر المفاوضات • ولكن الاسماعيلية قد
صدمت الاسرائيليين أكثر من اى استقبال آخر • ذلك لانها كتبت اول بلد
عقد فيها اجتماع على مستوى الوزراء • وكان المصريون العاديون وسائقو
التاكسي والجرسونات وأصحاب المحلات التجارية كرماء ولطفاء وكانوا يقابلون
الاسرائيليين بكلمة سلام - وشالوم العبرية • ولكن مصر ظلت مجتمعا مغلقا

وقال احد محررى الصحف العربية ان السلطات كتبت تسعى الى اقامة
صلح دنيوى يرضى العقل ولا يرضى النفس وكان السادات لا زال يرمى ببصره
الى العرب والى العالم الثالث ولقد ادهشه الا تتف الى جلقه اكثر الدول
العربية اعتدالا مثل الاردن والعربية السعودية بعد زيارته للقدس • وقال

بطرس غالى مفهد الدولة المصري للشئون الخارجية ان هذا قد انعكس على موقف المبادرات الشخصية تجاه بيجين .

ان اولى الاتصالات بين السادات وبيجين لم تكن بالامر السهل . ان الاتصال الجيد هو الذى تحقق مع عزرا وايزمان فقط . انه كان الوسيط بين بيجين والسادات . وحتى لحظة توقيع معاهدة السلام فى مارس ١٩٧٩ لم تكن العلاقات بين بيجين والسادات طيبة . وبعد توقيع المعاهدة بدأ السادات يتق فى بيجين — لكك فى امكك ان تتق بعون لية عواطف — ولكن هناك دائما تحفظ فى علاقتهما .

وبعد بدايتين زائفتين على مستوى اقل حاول بيجين فى الاسماعيلية ان ياخذ المبادرة من اجل اسرائيل . لقد حصل السادات على تقدير العالم كله وخاصة فى الولايات المتحدة حيث رحبت ادارة كلتر بأخلامه ومراحته الواضحة وجالبيتته وتمقله . وبفت اسرائيل وضيفة التفكير ومتبكة بالنظريات . ورد بيجين على ذلك بمفروع سلام اسرائيلى كان يأمل فى ان يكون جذابا بنفس المستوى . وفى سيناء اقترحت اسرائيل انسحاب اسرائيل من سيناء وموازنا بعملية لزع للصلاح على ان تبقى المستوطنات اليهودية فى فتوء رفيع وان يظل الجيش الاسرائيلى مسؤولا عن الدفاع عنها . اما فى الضفة الغربية وقطاع غزة فان العرب الفلسطينيين للذين علقوا فى ظل الحكم الاسرائيلى منذ سنة ١٩٦٧ سوف يمنحون « حكما اداريا ذاتيا » فى ظل مجلس منتخب . واحتفظت اسرائيل بالسيطرة على الامن والنظام العام وان يكون المواطنون الاسرائيليون احرارا فى اقتناء الارض والاستيطان فى هذه الاراضى . ونصت المادة ٢٤ على تمتك اسرائيل بحق السيادة هناك . ولكن لما كتبت هناك مزاعم اخرى بهذا الحق فان اسرائيل تقترح ترك هذه المسألة مفتوحة واقتربت المادة السادسة والعشرين الاخرة مراجعة الاتيكية كلها بعد خمس سنوات . ولكن فى المناقشات التالية التى جرت بين الامريكيين والمصريين اتضح ان بيجين يعتبر هذا الحكم الادارى للذاتى لرتيا نهائيا وليس مرحلة انتقالية مؤدية للاستقلال وهذا هو كل ما يمكن ان يطرح ليه الفلسطينيين .

ورفض السادات الشقين من هذا المشروع الاسرائيلى وامر على عدم بقاء اى اسرائيلى ، مدنى او عسكري ، فى سيناء . اما بلقصة للضفة الغربية وقطاع غزة فقد طالب المصريون بانسحاب اسرائيل ككل ويأمن بقرر الفلسطينيون مصرهم بانفسهم وبعدم توقيع سلام منفصل . وفى مناقشتها الخاصة قل السادات لبيجين : « لا استطيع ان اوافق على تسليم بوصة واحدة من الاراضى الغربية . انها مقدمة وده بيجين يقول : « سبدي الرئيس انتى لا استطيع ان اتناول من بوصبة واحدة من ارض اسرائيل ، انها مقدمة » .

وعاد ديلان الى اسرائيل وهو راض لان الزعيمين لم يقطعا المحادثات . وهو قطع أيضا بلن مصر جلادة * لقد التفتني كثيرا الثمن الذي نصر مصر على الحصول عليه منا وهو الانسحاب الكامل من سيناء ، والالتزام بالانسحاب الكامل من الضفة الغربية ومن الجولان وقيلام دولة فلسطينية . ولقد أدركت وجود مشاعر عميقة من وراء هذه الكلمات . انها لم تكن مجرد كلمات تلقى . وبماورنى الشك في ان اسرائيل عليها ان تواجه بدلا من كلامها صعب قلبا ان تقدم تنازلات قوية ثقيلة او انها لا تمنح الى معاهدة سلام مع مصر * .

لقد صاغ بيجين مشروعه للحكم الذاتي في سرية كاملة . ففي اول الامر ابقى صيغة المشروع باللغة العبرية ثم أعاد كتابته باللغة الانجليزية ويخط يده هو . ولما كتبت كتابة رئيس الوزراء معروفة بعدم الوضوح للجميع الا للغة القليلة لذلك فقط طلب من يهودا انسر المتخصص في قراءة خط بيجين ان يكتب نسخة واضحة من هذه الخطة . وحصل بيجين هذه النسخة معه في رحلة استكشافية لكل من واشنطن ولندن حيث حاول ان يعرض آراءه على كل من كارتر ورئيس وزراء بريطانيا جيمس كالاغان . ولقد وجد كلا الرئيسين هذه الوثيقة أسهل من متبعها للتفاوض .. ولكنها أصعب بالاحباط والفتق عند سماع بيجين بترجم آراءها التي أسرا بها الى بيجين الى موافقة وتأييد وكتبت هذه أولى التلخيصات المعقدة التي شعر فيها كارتر ان بيجين يرتكب خدعة به . وفقط عندما وصل بيجين الى واشنطن سمح للفريق المرافق له بنسخ الخطة على الآلة الكتابة .. بواسطة سكرتيرة في البسفارة الإسرائيلية كان بيجين جريما للفلسفة على تجنب أية بخلورة بشيرب أى شيء ولو ضيلا عن المشروع .

وقد كره عزرا وايزمان ، وزير الدفاع في حكومة بيجين هذا الأسلوب انذى تنتهجه الحكومة القائمة على السرية البالغة . ولم يكن مقتنه لهذا الأسلوب مرجعه الى انه كان يتركه في الظل فيجسب بل ان نقده لهذا الأسلوب قد يلتقي شيوا على أسلوب بيجين كرئيس للوزراء فقال :

* لا يعمل بيجين بالاشتراك مع الحكومة انما هو يعمل من خلال مكتب تابع له .. وزعماء على مثل هذه المشكلة لا يحتلون الى مستشارين . انهم يستغنون عن المستشارين الماعدين . ومظه غير قادر على أن يأخذ في اعتباره وجهات نظر أو مقترحات لا تتطابق مع فلسفته الأساسية . والناس الذين يعملون بالقرب من بيجين لا يقدمون مقترحات مختلفة أو يقدمون سلسلة عريضة من البدائل . وهذا يعود الى تجربتهم السابقة ، تلك التجربة التي علمتهم أن مثل هذه البدائل ليست ابلها أي فرصة لان تأخذ مكتبها من التنفيذ . ويعود هذا ايوبا الى ان بيجين قد اختار

مساعدية من نمط معين من الانحلال والهولت السياسية المعينة . انهم يفكرون كما يفكر هو . لقد تعلموا تخمين ما يريد بيجين وهم يتفلسفون في تقديم واقتراح الآراء التي يحبها بيجين ويفضلها ، وبذلك يحوزون على موافقته » .

وعلى الفور ادرك وفيلمان الذي أصبح من حكام الحكومة ان بيجين يرى في الحكم الذاتي وسيلة لتحصيد الحكم الاسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة بدلا من ان يكون اول خطوة نحو قيام دولة فلسطينية . ويقول وزير الدفاع ان هذا هو السبب الذي من اجله لا يتشاور بيجين مع اى شخص قد يحاول ان يبعده عن طريقه هذا .

وبالرغم من ان الحكم الذاتي فشل امام اول اختبار له في الاسماعيلية فقد ظل الاطار لجميع المفاوضات التي تلت ذلك بين اسرائيل ومصر حول المسألة الفلسطينية ولم يكن المساداة راضيا عن هذا المفهوم برمته ولكنه لم يتقدم باى بديل قد يهيء فرصة للتوصل الى حل متفق عليه وكذلك لم يفعل الامريكيون . لقد نجح بيجين في تحديد شروط الحوار .

وتدهور العلاقات بين اسرائيل وكل من مصر والولايات المتحدة في الاشهر الثمانية الاولى لعام ١٩٧٧ من سوء الى اسوأ . ونظرا للهوة بين دولتي الشرق الاوسط أصبحت امريكا شريكا في المفاوضات لا غنى عنه ولا بديل له . وصمم بيجين بأنه الطرف السيئ وأنه « عقبة في سبيل السلام » لكنه لم يتزحزح عن موقفه الاساسي . وقال بيجين للجنة المركزية لحزب حيروت في شهر يوليو : « اعتقد اننى عقبة حقيقية — ولكننى عقبة في طريق الاستسلام — الى جانب رفائى في الحكومة وفى الكنيست وفى الحركة » . وواعد متقدميه فى حزب حيروت وكذلك مؤيديه ان « الحزب بأن مشروع اسرائيل للسلام سوف يفتح الاتفاق امام السلام والامن واستقرار ارض اسرائيل .

وعندما فاز بيجين فى انتخابات سنة ١٩٧٧ ادركت واشنطن موقفه المتطرف من مسألة الارض ، ولكن وزارة الخارجية الامريكية كانت تميل الى التقليل من مدى التزامه بأرض اسرائيل التي تمتد من البحر الابيض الى الاردن وبمنول هارولد سوندرز مساعد وزير الخارجية الامريكية انسبق لشئون الشرق الاوسط ان وزارة الخارجية طلقت المشورة من اناس يعرفون ان بيجين يمكن ان يكون ايضا سياسيا براجماتيا (عمليا) . وقد اوضح سوندرز ذلك بقوله :

« لقد تم اتناعنا باننا نستطيع ان نعمل معه ، واننا لن نتوقع بالضرورة الاستطام بحائط صخري من الايديولوجية . اننا كما نعرف انه حازم فى وجهة نظره وكما نعرف وجهة نظره هذه . وقد قيل لنا انه فى مناسبات

سابقة في الحياة السياسية الاسرائيلية قد أدرك الحاجة الى تغيير وجهة نظره في مواجهة الرياح السياسية العاتية واعتقد اننا لم نتبين على التو الاختلافات بينه وبين الحكومة السابقة والمصائب في زحرة بيجين .

وقد استطاع ويم كلفت مستشار كلتر لان القوي لشئون الشرق الاوسط أن يرى بثاقب ويعد النظر قوة بيجين في معرفته لما يريد ومعرفة مدى استعداده لان يدنح مقابل ما يريد . فقد قال :

« يتميز بيجين بأشياء لا تجدها عادة في السياسيين انه يتميز بوضوح ادراك — لما يريد ان يفعله وكذلك ادراك للحقائق السياسية وكيفية التعامل معها . انه يعلم ان عليه ان يثاور . وفي بعض الاحيان كان عليه ان يؤجل المناورة ولكنه لم يفقد قط وضوح رؤية هدفه . انه كان يصرف دائما الى اين هو سائر ، ولكنه كان قادرا تماما على التكيف التكتيكي من حين لآخر . لقد كنت دائما اذهل من كفاءته السياسية اذا ما اخذنا في الاعتبار اذ كذوبة الارض وايضا القوي التي كان عليه ان يتعامل معها .

ومن الامثلة على قدرته على المناورة صراحته الواضحة فيما يتصل بالضفة الغربية اثناء محادثته مع كلتر في ديسمبر سنة ١٩٧٧ عندما كشف عن مشروعه الخاص بالحكم الذاتي . لقد كتب الرئيس كلتر في مذكراته : « بدا بيجين اكثر ليونة مما كنت اتوقع ولكنني اكتشفت ان كلامه الطيبة لها العديد من المعنى الامر الذي لم يدركه مستشاري ولا انا . ذلك الوقت » . واشتكى المصريون من ان بيجين قد ادخل الايديولوجية في المفاوضات . ولقد اتزعج بطرس غالي من براعته في التحول من المنهج القانوني الى المنهج الجدلي وغير من ذلك بقوله :

« يتفلسف بيجين كما لو كان محليا . انه مزيج من المحلي والبرلماني البارع . انه يستطيع ان يمزج ما بين الجدل القانوني والجدل الدبلوماسي وايضا الجدل الايديولوجي . ويستطيع ان ينتقل من مجال الى آخر طبقا لاستراتيجيته الخاصة فلذا ما وجد نفسه ضميما في المناقشة القانونية فانه يفتقر الى المنهج الدبلوماسي او الايديولوجي ولقد اعتاد على هذا النوع من المناقشة البرلمانية فهو مجادل جيد . وهو يستخدم نفس التكتيك في المناقشة الخاصة كما فعل على منبر الكنيست » .

ومن الصعب القول بما اذا كان هذا الاسلوب اسلوبا مصويا ومسيطرا عليه ، وما اذا كان متطابقا مع عواطف حقيقية او مشاعر دينية . وليس ذلك هو الحال مع عزرا وايزمان او مع رجل دين مثل يوسف بورج (وزير الداخلية وزعيم الحزب الديني القومي والذي ترأس الفريق الاسرائيلي للحكم الذاتي) . فلا تراودنا نفس المشاعر . فلدى بورج وبيجين نفس المزيج من العقيدة الدينية

والصهيونية . وكل منهما رجل دين . لكن بيجين يفضل المنهج الدرامي والمرحى .

لم يدرك المصريون بسرعة ان ايدولوجية بيجين ليست تفتيحاً كلويها طعم بها بل هي جذع الشجرة ذاتها . فالرجل هو الايدولوجية ، والايدولوجية هي الرجل وعندما سألته مراسل « البى بى سى » المخضرم مايكل الكتز كيف يريد ان يذكره التاريخ اجاب بيجين : « على اثنى الرجل الذى رسم حدود ارض اسرائيل والى الابد » . لم يكن هذا طموحاً اكتشفه في شيخوخته . تمتد صباه في بولندا على بيجين في حيز حركة جيلوفيتسكى الثقافي والفكرى . ولم يكن له جانباً خارجي مثل شغف ديان بطعم الحضرات . ولم يكن له تفرغ منفصل من تاريخ وايزنمان في القوات الجوية او تاريخ يعقوب مريدوز في المهام الخارجية . لقد كان بيجين سيانسيا طوال الأربع والعشرين ساعة من اليوم . وبستطيع ان يكون مرعاً ولكنه نادراً ما يكون متفرغاً . ان اجتماعاته ونزوهه الى المشي مع الآخرين انها هو نتاج بهننه التى تهلى عليه ان يكون مترقياً ويقطاً ذلك ان النضال كان شغله الشاغل ودرجات متقلوبة من الطلاقة يعرف بيجين تسع لغات هي العبرية واليندشية والبولندية والروسية والانجليزية والالمانية والفرنسية والاسبانية واللاتينية وفي شبلة كرس نفسه لدراسة الاداب الكلاسيكية الاوروبية . وفي مرة ارسل برقية الى زوجة الرئيس السادات يصحح لها سوء اقتباسها من مسرحية الملك لير (لكسبير) ولكنه قرا قليلا ولم يقرأ شيئاً البتة في الادب الحديث بعد ايسن . وفي سنوات المعارضة كان يجب ان يقرأ في التاريخ والتراجم . ولكنه هجر الكتب تماماً عندما أصبح رئيساً للوزراء . وان كان قد قرا مذكرات كيسنجر ونيكسون وهو في المستشفى .

وهو بتصنع معظم الصحف العبرية وكذلك ما يقرب من نصف دستة من الصحف الامريكية والاوروبية . وقبل ان يصبح رئيساً للوزراء كان يذهب مرتين في الاسبوع الى السينما خلسة لمشاهدة الافلام الغربية . وكان يسلم الى مقعده في السينما بعد اطفاء الانوار وكان يسلم خارجاً قبل ان تضاء الانوار ايذاناً بقتناء العرض . وهو مولع بالاذاعة والتلفزيون وكان مسلسل دالاس من العروض المفضلة لديه ، بعد نشرة اخبار الساعة التاسعة . ولكنه نادراً ما يخضر حفلاً موسيقياً او يتوجه الى المسرح او هالات العروض الفنية . ويوما عندما اشترك في اداء احدى الاغنيات قالت له ابنته حانسيا انه افضل في الغناء الخطب من الغناء . وهو يعيش حياة مقتصدة غير مترتبة ذلك لان اى شيء فاخر او دخيل في الطعام او في الزخرف فهو غريب عنه . لقد كان بيجين رجلاً من جيل الصحراء بصورة لا يمكن تغييرها او شغلها منها .

ومنذ الايام الاولى لمبادرة السادات تبني المظنون الاسرائيليون الثلاثة الرئيسيون - بيجين وليفان ووايزنمان - امواراً منفصلة ولكنها مكملة بعضها

للمعضي الآخر . فقد وضع وليس الوزراء الاهداف واسلوب الدبلوماسية الاسرائيلية وهو الذي اتخذ القرارات . لما ديان فقد كان دائم البحث والتفتيش عن تسوية الخلافات واعادة تنظيم بنود الاتنى بحلولا انتقاع المتنازلات من زعيمه ومقنبا بمضى الامتكار . ولم يكن اسهام وايزمان باقل اهمية فى الفترة التى سبقت مؤتمر كاهب ديفيد ، فقد عمل على استمرار الاتصالات الشخصية . وفى ادنى نقاط المفاوضات ظل وايزمان هو الاسرائيلى الذى كان فى امكان المصريين التحدث معه . وهو الاسرائيلى الذى اقنع السادات بأنه لا زال فى الامكان التوصل الى السلام . وكان وايزمان أول اسرائيلى باستثناء بيجين ، قبله الرئيس المصرى على انفراد اثناء زيارته للقدس . وقد قال السادات لرئيس الوزراء بيجين : « اننى احبب عزرا » وقد مضت هذه شهيرة بعد ذلك قبل ان ينطلق اسمه (عيزر) بصورة صحيحة .

وكان ديان ووايزمان مصريين قبلما طلى الا يدعى فرصة السلام هذه تطلعت من ايديهم . وبالرغم من ان وزير الدفاع كان عضوا فى حزب حيروت الا ان اخلاصها لرئيس الوزراء ولبلادته ومثله لم يكن بالاخلاص الذى لا حدود له . وكان هذا ميزة وايضا نقيضة فى نفس الوقت . لقد مكن هذا من تحقيق نوع من المرونة ولكنه فى نفس الوقت كان تحذيرا لرئيس الوزراء لان يحكم قبضته عليها .

لقد كان ديان يحظى بلطفاء الامريكيين له لما وايزمان فقد كان على صفة طيبة بالمصريين ، وكان مستروى لخص يختار بالطلاق ازاء غليل وحلمس وايزمان الشديد وقد قال :

« ان عيزر رجل شديد الجاذبية ، وكثير الحلمس وكثير الا انه ينزع الى ان يكون شديد التفاؤل بصورة مبالغ فيها انه لا يراى الحقيقة بصورة كافية . وهذا مالا يستطيع ان تنهم به ديان . فديان يستطيع ان يرى كل المازق والشراك . واحيانا ما يجرف وايزمان الحلمس ولذلك فانتى كنت اشعر بواحة اكثر عندما انتزع شىء من ديان ذلك لانتك تشعر بأنه يرى الحقيقة المجرسة القاسية . ولم اكن لاشعر بهذا الشعور مع عيزر . اننى شديد الميل الى عيزر وانا متأكد انه وزير دفاع رائع ولكن ليست لديه الطاقة التى لدى ديان » .

وفى مجلس الامن القومى قال وليم كوانت عن ايزمان انه نقلت الصبر فى مواجهة مجادلات بيجين الشرعية والقانونية وفى مواجهة ما كان يقوم به بيجين من هيلة واعادة صياغته للاتفاقية . لقد كان وايزمان يتوق الى التوصل الى اتفاق . وكما قال كوانت انه كان مستعدا لان يقول فى اى لحظة من لخطت المحادثات : « دعونا نواقع ونخرج من هنا » .

لكن أحد كبار الدبلوماسيين الأمريكيين ، الذين لا زالوا يتعاملون مع مثلث الشرق الأوسط ، وذلك ينبغي أن يظل اسمه مجهولا ، قد قال إن السلام ما كان ليحقق بدون اشتراك هؤلاء الاسرائيليين الثلاثة .

« لقد كان اسهام وايزمان هو منع الاجباط الذى كان يشعر به المصريون وخاصة السادات من دبلوماسية بيجين ومنع الغليان بحيث لا تدمر عمنسة السلام . لقد نجح المرة تلو الاخرى في الحفاظ على استمرار العلاقات الشخصية بين القادة الاسرائيليين والمصريين واعطاهم الامل في الاستمرار حتى بعد أن يكونوا قد فقدوا كل امل » .

ونادرا ما كان المصريون يشعرون بالراحة في تعاملهم مع ديان . وتسل المتحدث الرسمي باسم ديان وهو تفتلى لافى : « لقد كان هناك برود يخيم على العلاقة بين ديان والسادات منذ اللحظة الاولى التى التقيان فيها في مساء يوم السبت من شهر نوفمبر عندما نزل السادات من الطائرة » .

لقد قل له السادات : « لاتقلق فكل شيء سوف يسير سيرا طيبا » . وفي السيارة التى اقلت ديان ود. بطرس غالى الى القدس سال ديان بطرس غالى قائلا :

هل انتم مستعدون لتوقيع سلام منفصل ؟ واجاب بطرس غالى : « لا »
وقال ديان انه اساء فهم رد فعل العرب . وتتل بطرس غالى هذا الحوار الى السادات والى الأمريكيين . وفسر السادات ذلك على انه يعنى ان ديان لا يثق فيه . وقال احد مساعدى السادات ان السادات لم يكن يشعر بارتياح في وجود ديان . فقد كان يشعر بأنه الاسرائيلى الذى لا يستطيع كسبه . لقد كان كل من السادات وديان سياسيا داهية . ولم يكن احدهما يثق في الآخر كثيرا . ولذلك فلن ديان لم يشترك في ذلك النوع من العلاقة المصطنعة التى قامت بين وايزمان والسادات .

ويقول بطرس غالى ان ذلك لايعود الى ذكرىك المصريين لحرب ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ او الى شهرة ديان في الراوعة والخداع . ان ما يبعد بينهما هو ما عرف من ديان من انه خليط من الخجل والغرسة . ولعب وايزمان دور الوسيط بين السادات وديان وكذلك بين السادات وبيجين . وينكر غالى قائلا :

« انه — ويقصد وايزمان — قد يقول ان ديان يشعر بالاكثلب . نما رايك في دعوته على العشاء أو ملايك في الاتصال به هاتفيا ؟ انه قد يقول انه باء كهذه : « انتى في وضع صعب . لقد رأتى السادات اربع مرات . وديان رجل خجول ولكنه لم يقبل السادات . » ان بيجين يكن احتراما شديدا لديان كرجل من رجل الصابرا (اليهودى المولود في فلسطين) وكجفرال . انه ينصت لديان ويستمع اليه ولكن ليس بلقدر الكافى . لقد كان لى مع ديان محادثات طويلة

وكثيرا ما كان يقول : « لا استطيع ان اعدك بشيء غلو كنت اعمل مع بن جوريون لكن في استطاعتي ان اعطيك ردا في خلال ساعتين » . لكنه لم يكن قط يعتقد مقارنة مع بيجين . ولكن هذه المقارنة كانت تنهم ضمنا . فالاسرائيليون يمكنهم ان يطلقوا النكات على بعضهم ولكنهم لم يتصلوا ابدا بعدم الاخلاص . ولم اשמع ان ديان كان يتفادى تعليقاته . لقد كان ديان كبير المفوضين وكان يتفادى بقدر من الخيال . وكان محددا وبنيقا كمفوض . ولم يعد قط بشيء لا يستطيع تحقيقه . لقد كان يريد ان يحدد مايعنيه وماقصده نحن .

لم يكن ديان يالرجل غير المخلص او غير الوطني ولكنه كان يدرك ان بيجين على استعداد لتقبل الفشل . ولعله يكون الوحيد الذي يدرك ذلك في الفريق الاسرائيلي . وعندما كان السادات يضع ثوبا مرتقا للسلام كان بيجين يقول « لا » ويتحمل النتائج وحاول ديان جاهدا ان يحد من امكثت وحدود التفاهم والقبول ومن اساليبه المحبة ان يقنع الآخرين — مثل وايزمان او الامريكيين — يعرض وجهات نظره وانكاره على انها وجهات نظرهم وانكارهم . ومن اساليبه كذلك وخلسة في الظروف الصعبة ، ان يقدم صيغة وسطا بصفته الشخصية موضحا للمصريين وللأمريكيين انه لا يلزم الحكومة بذلك ثم يتحدى بيجين في ان ينكر او يعترض على وزير خارجيته .

كان اول ناتج ملموس لقمة الاسماعيلية هو التوصل الى اتفاق بتشكيل لجنتى عمل احدها سياسية والاخرى عسكرية وذلك لمباشرة تفليب المفاوضات وبدأ عمل اللجنة السياسية بصورة مأسوية في القدس في السبع عشر من يناير . لقد زار الرئيس كارتر السادات في اسوان في 'واثل ذلك الشهر حيث اعلن عن نظرية امريكية جديدة عن المشكلة الفلسطينية . لقد قل : « ينبغي ان يكون هناك قرار حول المشكلة الفلسطينية بجميع جوانبها . وينبغي ان تعترف المشكلة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وان تمكن الفلسطينيين وتتيح لهم الاشتراك في تقرير مستقبلهم بأنفسهم » وكانت هذه الصيغة قد وضعت بعناية كبيرة بحيث لاثير استنكار الاسرائيليين ورفضهم . وكان اول رد نعل في القدس هو : « اتنا نستطيع ان نقبل ذلك » . ولكن بيجين اوضح ان اسرائيل لن تقبل اعلان كارتر هذا على انه غطاء لاعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير .

« اتنا لانحوم حول الموضوع . ان تعبير تقرير المصير كما هو مفهوم في القانون الدولي يعنى قيام دولة فلسطينية » واتنا ان نوافق على قيام هذا الخط الميت بالنسبة لاسرائيل » .

لقد فشلت محادثات القدس منذ وصول الفريق المصري الى مطار بن جوريون لقد رحب ديان بوزير خارجية مصر محمد ابراهيم كلال بما اسماه هو الترحيب العلم المهذب المحتاد في مثل هذه المناسبات . وتدلنا من ان يرد بنفس الاسلوب اخرج كلال ورقة من جيبه وقرا منها مطلب مصر المتشددة :

« إنه لن يكون هناك سلام للأرض ، وإن يكون هناك سلام مع انكسر الحقوق القومية للشعب الفلسطيني وعلى رأسها حق تقرير المصير » .

ويدل من استمرار هذا الخلاف الذي نشب في المطار لانتظار ديان حتى صباح اليوم التالي . وفي أجلة لسؤال عدالي في مؤتمر صحفي قال من الأفضل ان تتسلم مبعوثه السلام من بين أصليح أيديهم بدلا من ان يفتقر امن اسرائيل وسلامتها من بين أيديهم . ان اسرائيل لن تتفاوض والمهندس مصوب الى رأسها . وكان هذا امرا صعبا للغاية على المصريين لتقبله . ولكن بيجين اضاف الى هذه الإساءة في جنل عيباء في ذلك المساء ، رغم ان رئيس الوزراء ووزير الخارجية كلل بد انتقادا بيرا علي وقف حرب الكلمات هذه ، فقد التي بيجين خطبها بيهلينا وحيدا فيه الشروط التي ان تقبلها اسرائيل وهي : إعادة تهسيم نقيديس ، وإقامة دولة فلسطينية والعودة الي جيود ويتيل سنة ١٩٦٧ . وكتب ديان في مذكراته :

« وفي تفقته البلاغى اسماء بيجين عن غير قصد الى محمد ابراهيم كابل بوصفه اياه بأنه شلب صغير وهو غير مفرك ان مثل هذا الوصف يبدو في اذن المستمع العربى وصفا تحقيريا . وعنما جاء دور كابل ليلقى كلمته وكان مضطربا ويشعر بالاساءة التي وجهت اليه فله بدلا من ان يقرأ الخطاب المعد مسبقا قال بتسلية ان مكان مناقشة الموضوعات التي اثارها رئيس الوزراء هو اللجنة وليس هذا المكان . ثم جلس ولم يرفع كوبه في نخب رئيس اسرائيل » .

وعلق وايزمان فيما بعد « ان بيجين كان مقتنعا تماما بأنه يحمل الحقيقة في جيبه الخلفي » . ولم يستطع بيجين مقاومة اغراء اعطاء كامل درسا في التاريخ اليهودى ومحاضرة في فن سياسة الدولة .

وفي مساء اليوم التالي غلجا السادات الجميع بما فيهم وعده في اسرائيل باستدعاء وزير خارجيته كابل الى القاهرة . وعاد المصريون على عجل وفي حالة من الارتباك . ولم يعرف الاسرائيليون ولا الامريكيون عنقذ ما اسباب المصريين . وجاء في تفسير رسمى من اذاعة القاهرة ان السادات تصرف هكذا عندما أصبح واضحا من التبريرات التي ادلى بها بيجين وبين ان هدف اسرائيل هو تأمين التوصل الي حلول جزئية لا يمكنها ان تحقق ميلا شاملا عادلا ودائما . وفي طريقه الى مطار بن جوريون اخبر كابل ديان ان الرئيس السادات قد اساءه كلمات بيجين . وقال : « وليس يرجع ذلك يا قاليه بيجين في خطابه ولكن لانه اتى مثل هذا الخطاب ويتهاك بذلك الاتفاق الذي تم التوصل اليه قبل ذلك بساعات ثلاث فقط ، وهو الاتفاق الذي ارسل به كابل تقريرا الى السادات ووافق عليه السادات » .

وزادت العلاقات سوءا نتيجة لموضوع المستوطنات الوهمية في صحراء سيناء . وكان ايريل شارون وزيرا للزراعة ومسئولا بمسئولية خاصة عن سياسة المستوطنات . وكان جنرالا متقاعدا يعرف شبه جزيرة سيناء اكثر مما يعرفها احد غيره في الحكومة الاسرائيلية ولقد حارب في سيناء ثلاثة حروب وتقلد منصب قائد الجبهة الجنوبية . وكان يبجج يستشير في الشؤون الاستراتيجية وشؤون المستوطنات . وبينما كان رئيس الوزراء في واشنطن في ديسمبر سنة ١٩٧٧ اتصل به شارون لتليفونيا وأكد على ان تقوم اسرائيل بملء الثغرات في خط المستوطنات الاسرائيلية في سيناء . ففى ضوء مطلب مصر المتطورة كان يريد ان يعزز موقف اسرائيل للتفاوض . ولقد اوضحت تجربة سنة ١٩٤٨ ان موقع المستوطنات على هام وحسم في رسم الحدود . ونفس الشيء يمكن تطبيقه اذا ما كتلت اسرائيل تتفاوض للحفاظ على شريط في شمال سيناء . وكان يبجج مقتنعا بهذا الرأي . فكلف شارون بالسفر قداما في هذا المخطط . وكثت وجهة نظر وزير الزراعة شارون هي انشاء مستوطنات وهمية مكونة من برج للمياه وخندق للامن وبيوت متنقلة على عجلات وذلك في المواقع الحساسة ودون ان يضع فيها اكثر من قوة رمزية .

وشجب وايزمان هذا المشروع عندما عرض على مجلس الوزراء في وقت متأخر واصفا اياه بأنه صورة ممسوخة سيئة لتاريخ المستوطنات اليهودية في اسرائيل . وعلى اية حال فقد حظي هذا المشروع بالموافقة الاجماعية وبدء العمل فيه . ولم يصدر اى بيان في هذا الشأن ولكن اذاعة اسرائيل حصلت على هذه القصة واذاعتها . وكان المصريون والامريكيون غاضبين من هذا المشروع الذى اعتبروه محاولة لاجهاض المفاوضات . وترك شارون وحده لتحمل حدة الانتقادات وما اثارته فكرة المستوطنات الوهمية هذه من سخرية . ولم يخف يبجج دوره في تكليف شارون بالمضي قدما في تنفيذ هذا المشروع . وسرعان ما خبا الموضوع كله واختفى لكنه ترك مذاقا مرا . ولم تكن هذه هي المرة الأخيرة التى سار فيها يبجج خلف شارون في حل من الألفام . لقد كان سريع الاذعان للخبرة العسكرية وكلفه ذلك كثيرا من المفاجأة السياسية . ولم تكن وجهة وايزمان القاتلة بان هذه المستوطنات الوهمية تكلف اسرائيل غرامة الابتاء على المستوطنات في سيناء وربما ايضا المطارات العسكرية ، بالوجهة القنمة . لقد كانت الأرض تعنى بالنسبة للسادات تماما ما تعنيه لبجج . فقد كان السادات مصرا على استعادة كل سيناء حتى آخر بوصة منها . ويستطيع الاسرائيليون ان يأتوا الى سيناء كسياح ولكن لا كمستوطنين او كجنود في حامية .

وبالرغم من هذا الفصل الإضافي فقد ظلت الثورة الاسلمية للمناقشة هي الأرض — الفلسطينية المحتلة ، الضفة الغربية وقطاع غزة . وقد وصلت المحادثات مع الولايات المتحدة الى درك اسفل جديد في مارس من عام ١٩٧٨

عندما زار بيجين واشنطن مرة أخرى وحاول الأمريكيون استخدام قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ كعتلة لتحريك مقاومة إسرائيل لأي حل وسط بالنسبة للأرض . وقد اعترف بيجين بأن حكومته ملتزمة بقبول الحكومة السابقة لهذا القرار .

نقد قال : « ينبغي الالتزام بالمعامدات والاتفاقات » وقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ينص على الانسحاب من أراضي محتلة وعدم السماح بالاستيلاء على الأرض عن طريق الحروب . ولكن مستشاري بيجين لم تروهم مثل هذه الاعتبارات . أنهم يجادلون بأن القرار لم يحدد الانسحاب من كل الأراضي ، وأن حرب عام ١٩٦٧ كلفت حرب دفاع عن النفس بالنسبة لإسرائيل (وذلك فلن التغيير في الحدود أمر مسموح به) ، وأن سيادة الأردن على الضفة الغربية لم تحظ قط باعتراف المجموعة الدولية . وفي حفل وداع أوضح كارتر ما وصفه بلاءات بيجين الست . وقال ديل « بالرغم من أن كارتر قد تكلم بنغمة مملّة إلا أنه كان هناك غضب في عينيه الزرقاوتين البارزتين . وكانت نظراته حادة مثل المنجر . أن وصفه لموقفنا وصف صحيح في أساسياته ولكن لم يكن في استطاعته أن يعبر عن ذلك الموقف بصورة أكثر عدوانية . واختتم كارتر حديثه بقوله « أن بيجين قد أصبح عقبة كئودا في طريق تقدم المفاوضات » وإذا لم يحدث تحرك في الجلب الإسرائيلي فلن يكون هناك سلام . وهذه اللاءات هي :

— لا نرغب في الانسحاب السياسي أو العسكري من أي جزء من الضفة الغربية .

— لا نرغب في وقف اقلية مستوطنات جديدة أو توسيع المستوطنات القائمة بالفعل .

— لا نرغب في سحب المستوطنين الاسرائيليين من سيناء أو حتى تركهم هناك تحت حماية الأمم المتحدة أو حماية المصريين .

— لا نرغب في الاعتراف بأن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ينسحب من منطقة الضفة الغربية وقطاع غزة .

— لا نرغب في منح العرب الفلسطينيين سلطة حقيقية أو صوتا في تقرير مستقبلهم لدرجة أنهم يستطيعون الاختيار بين البدائل المحددة عالية (الارتباط مع إسرائيل أو الأردن أو استمرار في اقلية حكومة انتقالية خاصة بهم) .

وبعد ذلك بأسابيع ستة عندما عاد بيجين الى واشنطن للاشتراك في احتفال امريكا بذكرى استقلال إسرائيل كتب كارتر يقول : « اعتقد أنه لن يتخذ الخطوات الضرورية لجلب السلام لإسرائيل — أنها فرصة قد لا تتكرر أبدا » وحاول بيجين أن يؤكد الموقف الإيجابي لإسرائيل لكنه ترك لدين استكشاف

طريق لتقدم المفاوضات . ولم تستطع محاولته الأولى نحو تحقيق موغـة كـر مـرونة سوى اذابة القليل من الثلج . لقد وضع وزير الخارجية أربعة مبادئ، للسياسة الاسرائيلية هي :

١ — ان قرار رمب ٢٤٢ اسـس للتفاوض بين اسرائيل وجيرانها العرب : مصر والأردن وسوريا ولبنان .

٢ — ان مشروع اسرائيل للسلام والذي يتضمن حكما ذاتيا ليهودا والسامرة ولقطاع غزة مشروع يتفق مع مبادئ القرار رقم ٢٤٢

٣ — اذا باقـم العرب مقترحات مقبلة فان اسرائيل سوف تناقشها بما تستحقه .

٤ — ان قرار ٢٤٢ يطالب باجراء مفاوضات .

وهذا العرض الجديد تم رفضه باعتباره مناورة في العلاقات العامة . وبدا السادات في وضع تواريخ نهائية (وفي رواية انه حدد شهر يوليو وفي رواية اخرى انه حدد شهر أكتوبر ، وبدا في التحدث عن خيار الحرب . وخرج وايزمان من اجتماع لمجلس الوزراء ليعلن انه اصدر اوامره للجيش ليستعد للمعركة . وفي مناسبة اخرى مزق وزير الدفاع ملصوقا عن السلام . وفي اجابة عن اسئلة امريكا قال بيجين في الثامن عشر من يونيو ان اسرائيل راغبة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتي في الضفة الغربية ان تتدارس وتتفق على صيغة مستقبل العلاقات بين الاطراف » وهذا يبعد كثيرا عن مطلب امريكا بأن تكون اسرائيل مستعدة لمنقشة السيادة بعد فترة انتقالية ، رفض المصريون هذه الصيغة على انها مثل آخر على تصلب بيجين وعناده .

ولم يجعل ديان الوضع افضل بقوله أن معظم الوزراء الاسرائيليين قد رفضوا إلزام اسرائيل بأن تتردد بعد خمس سنوات الوضع الدائم لهذه الاراضي ذلك لانهم يعتبرون الادارة الذاتية هي الاطار الدائم لهذه الاراضي .

وكان من المتوقع أن ترفض اسرائيل اقتراحا مصريا باعادة الضفة الغربية وغزة للعرب لفترة مؤقتة وحاول السادات في اوائل يوليو ان يذهب من وراء بيجين لعقد محادثات في انمسا مع وايزمان وزعيم حزب العمل شيمون بيريز ولكن رئيس الوزراء بيجين وضع حدا لذلك بان أعلن بحدّة قائلا : « ينبغي أن يوجه الحديث الى انا » وحذرت الحكومة السادات قائلة ان جميع الاتصالات في المستقبل ينبغي ان تجرى مع بيجين أو من يحدده كمثل له .

« ان سلطة التفاوض مع مصر أو مع أي دولة في حالة حرب مع اسرائيل انما هي قد أعطيت للحكومة ولن يمثلونها . وسوف يكون مستوى التمثيل في عملية المفاوضات متساوية . وسوف يرأس رؤساء الدول أو من يخولونهم من الوزراء فريق المفاوضات » .

وأول خرق لحائط العناد المتبادل جاء نتيجة لاجتماع غير ناجح بين وزراء خارجية كل من أمريكا واسرائيل ومصر في قلعة ليدز في كنت . وكلفت هذه إحدى المناسبات التي جرب فيها ديلن حظه . فلقد سلم وزير خارجية أمريكا سيروس فانس مذكرة عبر فيها عن وجهة نظره الشخصية « وقتل انها مقدمة » على مسئوليتي الخاصة ، واقترح فيها أن تعلن اسرائيل استعدادها لمنقشة مسألة السيادة على الضفة الغربية وغزة بعد خمس سنوات من الحكم الذاتي . . وفي نفس الوقت كرر أن اسرائيل لن تتسحب أبداً إلى خطوط ما قبل سنة ١٩٦٧ حتى مع تربيكات الأمن ولكنها سوف تناقش أية اقتراحات عربية محددة من أجل السلام تقوم على الحل الوسط بالنسبة للأرض وغضب بيجين من فكرته هذه ومن تمردة وعصيانته . واستجاب وزير الخارجية بأن عرض على بيجين الخيار بين أن يؤيده أو يطرده أن يتحمله بشروطه هو أن ينل منه :

« لقد أخبرت رئيس الوزراء أن ما قلته وكتبته أنها يعكس موقف الحكومة ، على حسب مفهومى ، ولذلك فأتى لن امتعض أو استاء إذا ما هو أو الحكومة أبطلته أو سحبته . انتهى سوف أقبل بحكمهم وأخطر فانس طبقاً لذلك - واضفت قائلاً : اننى على أية حال لست بمستطيع أن أدبر المناوشات دون أن يسمح لى بأن اتقدم بالانكسر والمقترحات ، بينما أؤكد انها تمثل وجهات نظرى الشخصية التى ربما قد لا توافق عليها الحكومة . وكان هذا موضوعاً كثير التردد حيث كنت أنا وبيجين مصريين على موقفنا حياله . ولم أكن مستعداً لأن أنصرف بصورة أخرى . وكان بيجين يعلم هذا تماماً . وكان السبيل الوحيد المفتوح أمامه إذا ما أمر على أن اخذ حذوه هو أن يبحث له عن وزير خارجية غيرى » .

لكن الوقت كان مبكراً جداً فى حكومة بيجين لأن يتخذ رئيس الوزراء مثل هذه الخطوة العنيفة المتطرفة بالرغم من أن ديلن قد ذهب بعيداً وأبعد بكثير من موقف الحكومة وكفوا جميعاً يعلمون ذلك . وكان بيجين لا يزال فى حاجة إلى ديان . ولدهشة وزير الخارجية اقترح بيجين أن تؤيد الحكومة ، ذكرته لسيروس فانس وأن تعرض هذه المذكرة على الكنيست للموافقة عليها . ولقد حصلت المذكرة على موافقة ٦٤ عضواً مقابل ٣٢ عضواً وذلك فى ٢٤ يوليو . وقال ديلن بكثير من الرضى والثناء « ان المذكرة التى قد تقدمتها إلى فانس فى قلعة ليدز قد أصبحت وثيقة رسمية تمثل موقف اسرائيل » وبالرغم من الجمود المستمر فإن « صيغة ديان » قد مهلت الطريق إلى مغفرة الرئيس كلتر اليانسة والمعروفة باسم « قمة كاليب ديليد » . ومرة أخرى سمح بيجين لجنرال سابق بأن يثير غضبه وبفساديه ، ولكن هذه المرة ، هذه المرة كانت فى موضوع وقضية أكثر رقة ولطفاً .

الفصل التاسع عشر ممسكر اعتقال فاخر

كتب ريجينيو بريجنسكى مستشار الامن القومى فى مذكرة سرية للرئيس جيمى كارتر يوم ١٨ يوليو عام ١٩٧٨ ما يلى : « يبدو لى انه اذا خرجنا على رؤوس الاشهاد وجانبنا النصر ، فستعرض سياستنا فى الشرق الاوسط لحافة من الفوضى الشديدة ، كما انه سيتم رفض السلاطات وآخرين معه او انهم سيتحولون الى اتجاه راديكالى وبمباراة اخرى . اذا خرجنا على الملا فلأبد أن نفوز » . وعقد الرئيس ، وهو يدرك تماما المخاطر التى ينطوى عليها مثل هذا الموقف ، مؤتمرا مع الزعيمين المصرى والاسرائيلى فى كلب ديفيد ، وهى استراحتة الرسمية فى تلال منطقة ميرلاند التى تبعد عن واشنطن سبعين ميلا . وخلص الى انه من الافضل العمل من خلال بيجين وليس ضده .

وبدا المؤتمر يوم ٥ سبتمبر وانتهى بعد ذلك بثلاثة عشر يوما ، كانت الوفود الثلاثة خلالها فى حالة من الاعياء الجسمى والذهنى الشديد كل ذلك المسكر الذى تحيط به اشجار كثيرة ، قد اقيم من أجل فرانكلين د . روزفيلت خلال الحرب العالمية الثانية . وقلم الرئيس ايزنهاور بتغيير اسمه من شانجرى لاه الى كامب ديفيد وفقا لاسم غيبه الاكبر . ووجد (عيزرا وايزمن) ذلك المكان يثير الشعور بالخوف من الامكن المظلمة رغم ما يحيط به من طيور السنجلاب اما موشى ديان ، فلم يشعر بالارتياح فى قلب النباتات الغريبة وسلط اوراق الخريف البنى اللون المثل الى الذهبى . وكلن الشيء المخرى فى ذلك المكان هو انه من الممكن الابتاء على الصحافة وروادها فى وضع حرج يضطرون معه للدفاع عن انفسهم . وكان الزعماء الثلاثة ورفاقهم ينعمون فى ذلك المكان بعالم خلس من الكبان والمرات وملاعب البولنج والتنس وحلم سبلحة وقاعة للتلياردو وسينما وبعد ان عاد ديان من مهمة استطلاعية وقدم تقريرا عن سياج الامن المخيف ، اطلق (بيجين) عليه اسم « ممسكر الاعتقال الفاخر » . ولما كانت مدة بقائهم هناك طويلة فقد تنذر (بيجين) بقوله ان عليه أن يرسل الى هارب جماعة الارجون القديمة « يلكوف مريدور » لتهريبهم . وسلم الاسرائيليون بلن الكبان موضع تجسس ، لكن بريجنسكى امر على عدم وجود شيء من هذا القبيل واستبعدت توصيته .

كانت كامب ديفيد ملهى امريكا ، ولم يلعب التنس او البولنج سوى عدد قليل من الاسرائيليين او المصريين ، اذا لعبوا على الاطلاق . وكلن كل

من السادات ودylan يقوم بنزهة منفصلة على الاقدام كل يوم . وركب وايزمان دراجة للمرة الاولى منذ طفولته . اما الاسرائيليون الاصغر سنا فلعبوا البلياردو كثيرا وشاهدوا السينما . ولعب بيجين الشطرنج مع بريجنسكى ، واعطى بيجين . سواء كان يحض الصدفة او عن قصد ، مستشار الامن القومي انطباعا بأنه لم يلعب منذ ثمانية وثلاثين عاما . ووجد البروفيسور البولندى الاصل ان « بيجين » يلعب بطريقة منظمة وعدوانية الى حد ما ، وان كانت مدروسة استراتيجيا . وتحصت الرجلان باللغة الانجليزية وليس بلغة طفولتهم وشدت المنافسة بينهما انتباه « ديلان » الذى كان يتفرج عليهما من حين لآخر . . وكتب يقول : ان اللعب برهن على انه مواجهة ميدانية وليس شكلا من التسلية السلمية ، حيث كان يستهين كل منهما على هزيمة الآخر . وطمس الغموض للنتيجة مثلها في ذلك مثل الكثير مما حدث في كالمب ديفيد ، انه الامر عادى ان تكون اللعبتان الاوليان متساويتين . وزعم بريجنسكى انه فاز باللعبة الثالثة وما تلاها من ادوار . الا انه طبقا لما ذكره بهيل تافيشاى فانهما لعبا دورا رابعا فاز به بيجين وبذلك اصبحت النتيجة متساوية . واتصل هاميلتون جوردان كبير مستشارى الرئيس كارتر برئيس الوزراء تليفونيا ليهنته . وقال لو كلن بريجنسكى هو الذى فاز لما كان بوسعهم الحديث اليه .

كان الامريكيون يعلمون ان اجتماع القمة كان مقامرة ، الا انهم اساموا تقدير الاحتمالات . وحدد البيت الابيض للمباحثات ثلاثة ايام مع احتمال مدها ليوم رابع لو احرز المؤتمر تقدما بشأن مبادئ السلام . واعترف كارتر بعد ذلك قائلًا انه ما كان هناك شخص يحلم بوجودهم هنا طوال ثلاثة عشر يوما في اجتماعات مضنية وغير مشجعة ، ودون ان يلوح في الافق احتمال النجاح الا في الساعات الاخيرة . ولم يكن هناك توازن في المفاوضات في اكثر من ناحية . وكان كل من بيجين والسادات قد وصل الى كالمب ديفيد ولديه نصيب على خوض مسالمة صعبة ، الا ان الزعيم الاسرائيلى كان يتمتع بميزة وحده من بين الزعماء الثلاثة الذى يمكن ان يتوقع الفشل بريادة جاك . وهناك الكثير من الاسرائيليين الذين سيشعرون بخيبة امل مريرة ، ومن بينهم كبار الاعضاء في وفده ، الا ان بيجين سيشرح لهم انه فعل كل شيء لتحقيق السلام اللهم الا التضحية بأرض اسرائيل وحينئذ سوف يوحد الليكود صفوفه وستخرج حكومته سالمة من هذا الموقف ، وستظل اسرائيل محتفظة بسببها . ومن ناحية اخرى لم يكن (كارتر) وسيطا نزيها . وكتب يقول « يسدو ان السادات يثق في كثيرا ، بينما لا يثق بيجين في بالقدر الكاف . وبالمثل انه لامر حقيقى ان الرئيس الأمريكى كان يثق في السادات كثيرا وكان يشك في بيجين . وصرح في حديث صحفى قديم لجلة التليم قائلًا : اتنى لا احول حتى ان اترك اتنى موال للسادات . . » انه صريح تملها ، وشجاع وكريم وبعيد النظر »

وكان مستعدا لتجاهل التفاصيل وتحقيق سلام يعود بالفائدة عليه ، وعلى مصر . وكان كارتر مستعدا لان يتسالمح مع السادات اكثر مما يتسالمح مع الزعيم الاسرائيلى . ويرجع ذلك من ناحية الى ان السادات اطلعه مسبقا على بعض اوراقه — بينما يرجع من الناحية الاخرى الى انه استسلم لسبحر السادات . كما ان مطلب السادات لم تكن اقل تطرفا من مطلب بيجين ، لكنه ترك المسألة لمستشاريه ومهل له ذلك الاحتفاظ بموقف رجل السلام المنطقي والشجاع . وعلى العكس من ذلك ، كان بيجين اكثر المفرضين الاسرائييين تعنتا ، اذ كان يحقق فى كل كلمة وعلامة ترقيم ويواصل الليل بالنهار . وعندما دعت (روزالين كارتر) ، زوجة الرئيس الامريكى الزعماء الثلاثة مجتمعين بان يطنلوا العالم بالانضمام اليهم فى الصلاة من اجل النجاح ، اصر بيجين على مشاهدة النصر . كان (بيجين) صعب المرئس كما كان مزعجا وواسع الاطلاع لها السادات فهو رجل ذو ثقافة مختلفة لها وتعمها وتحيها ذات المذاق الخاص . وكان من الضرورى ان تكون هناك تجلوزات ، وكان السادات يريد من كارتر ان يقوم بالترويج لافكاره نيابة عنه لكن بيجين رفض على الدوام اى شىء من هذا القبيل . وهو يستطيع التصدى للسادات حتى النهاية ، لكنه رفض التصدى للامريكين بنفس الصورة . واثناء المفاوضات توسل (بيجين) لكارتر الا يقدم مقترحات مصرية صنعت فى امريكا ، واتخذ السادات موقف الهجوم منذ اليوم الثانى . فقدم ما اعترف به كارتر بأنه مشروع جديد للغة « لتحقيق سلام شامل على بكلفة العبارات العربية الطفانة غير المقبونة » وهو يطالب ضمن اشياء اخرى ، بانسحاب اسرائيلى من كافة الاراضى المحتلة وازالة جميع المستوطنات الاسرائيلية ونقل سلطتها الى عرب الضفة الغربية وقطاع غزة ، مع توفير فترة انتقالية مدتها اربعة اعوام يقوم الاردن خلالها بالاشراف على الضفة الغربية وقطاع غزة ، بالتعاون مع ممثلين منتخبين بطريقة حرة من الشعب الفلسطينى يتولون ممارسة السلطة المباشرة على الادارة . وقبل انتهاء الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة اعوام بسنة — هور ، يدرس الفلسطينيون حقهم الاساسى فى تقرير المصير وتتم مساعدتهم على انشاء كيان وطنى لهم . اما اسرائيل فستتم مطالبتها بالانسحاب من شرق القدس الى خطوط الهدنة التى كانت قائمة عام ١٩٤٩ علاوة على عودة السيادة والادارة العربية الى القطاع العربى . واخيرا طالب السادات بان تدفع اسرائيل تعويضا كاملا وعاجلا عن الضرر الذى ترتب على العمليات التى تقوم بها قواتها المسلحة ضد السكان المدنيين والمنشآت المدنية ، بالاضافة الى استغلالها للموارد الطبيعية فى الاراضى المحتلة . وهذا المطلب الاخير من شأنه ان يشمل تعويضا عن ملايين البراميل التى قذرت اسرائيل بضعها من حقول بتروى سيناء منذ عام ١٩٦٧ . واختر بيجين الا يتهم فى اول اجتماع مشترك له . وتصرف كل من بيجين والسادات بلحسن ما فى وسعها ، لدرجة ان كارتر اعتقد بان بيجين قد خفف من موقفه ازاء التشدد فى وثيقة السادات ، التى

وصفها لعدة أيام بعد ذلك بأنها دليل على الموقف غير المنطقي من جانب المصريين .

وفي اليوم الثالث ، وبعد التشاور مع زملائه ، رفض بيجين الوثيقة تماما ، وأبلغ كارتر بأن ذلك يحمل رائحة دولة منتصرة تفرض النصر على الطرف المهزوم . وقال أن هذه الوثيقة لا تمثل اسلما صحيحا للبلوغسات . وكان السادات يريد سلما مع اسرائيل لا يكون هشا فحصب وانها يكون قدريا أيضا . وفيها يرهن على أنه آخر جولة وجها لوجه في قمة كلب ديفيد ، فلم بيجين بتشريع مقترحات السادات مقرة مقرة . ورد السادات على ذلك قائلا انكم تريدون الارض ، ومصر تقدم لاسرائيل الامن ، وليس الارض . وقال كارتر « لقد زال التحفظ وأحرزت الوجوه وانتهت المجاملات واللغة الدبلوماسية . ولقد اغنوا في أغلب الظن أنني كنت موجودا » . وقبل أن ينفصوا من اجتماعهم بعد ثلاث ساعات من المناقشة المكثمة ، اشتكى السادات من أن المشاعر الارية التي تحققت بعد زيارته للقدس قد تلاشت « لأنه لم يعد هناك حد أدنى من الثقة منذ أن تصرف بيجين بنية سيئة » وعند استئناف الاجتماع في وقت لاحق من النهار ، تبطل الزعيمان المحادثات بسرعة انتهت الى طريق مسدود بشأن المستوطنات . وقال السادات أن الشعب المصري لن يقبل أبدا أي انتهاك لأراضي أو سيادته ، وأجاب بيجين بأنه ليس هناك سبيل يستطيع به اقناع حكومته أو شعبه بإزالة المستوطنات أن نقل المستوطنين من شأنه أن يعني سقوط حكومته . وعند ذلك وقف السادات وهدد بالانسحاب من الاجتماع ومن مؤثر القبة . واعترض كارتر طريقته الى السلب وطلب من كليهما وقف المحادثات . ووافق بيجين على الفور ، ووقف السادات وهو يستشيط غنبا قبل أن يوصى برأسه ، ثم خرج بدون أن ينطق بكلمة أخرى . ورأى الأمريكيون الآن بصورة أكثر وضوحا من ذي قبل . أنه يتعين عليهم الإمساك بزمام المبادرة . وظل السادات في حجرته الخاصة وهو عابس الوجه ، وأبلغ مستشاروه بريجينسكي بأن الرئيس يفكر في العودة الى الوطن . ورفض بيجين الترحيح بشأن التفتيتين الرئيسيتين المتعلقتين بمستوطنات سيناء وتطبيق القرار رقم ٢٤٢ على الضفة الغربية وقطاع غزة ، إلا أنه تخلى عن ما اعتبه كارتر بمثابة تلبيح بالمرونة عندما قال للرئيس الأمريكي : « أنني لن أوصي شخصيا أبدا بإزالة المستوطنات القائمة في سيناء » . وليس هذا مثل القول بأنه لن يذعن أبدا لإزالتها . إلا أن بيجين كان مصمما على موقفه بشأن الأراضي الفلسطينية المحتلة . وهاجم كارتر في نقطة ما رئيس الوزراء بقوله : « أن ما تريد أن تقطعه هو أن تجعل الضفة الغربية جزءا من اسرائيل » وأجاب بيجين على ذلك قائلا : « أن الحكم الذاتي شيء والسيادة العربية شيء آخر . ولن تشمل مبدأ القرار ٢٤٢ الذي ينص على عدم جواز الاستيلاء على الارض بالحرب » . وقال نقلا عن الزامير « أوه ياقدس لو أنسك » . وقال بيجين

لكارتر شلت بمعنى قبل ان اوقع على مثل هذه الوثيقة . وعلى الرغم من انقرب المتزايد ، اعدالامريكيون مشروع اتفاقهم في اليوم الخامس . وفي اليوم التاسع ادركوا انه لن يصدق عليها أي من الجانبين بدون افضال تصديق كبير عليها . وقدم بيجين بيانا موجزا غير اساسي اوحى فيه بانهم قد يعودون جميعا الى بلادهم . وحينذاك اتخذ كارتر خطوة غير تقليدية ادت في النهاية وان كانت ببطء وتذبذب الى التوصل الى اتفاق . فقد انشأ فريق عمل يضمه هو وسيروس فانس وآهرون باراك المدعي العام الاسرائيلي واسامة البزاز وكيل وزارة الخارجية المصرية للشئون الخارجية . ولم يتم السماع عن قيام رئيس دولة بالتفاوض حول التفصيل بهذه الطريقة مع خبيرين عنيين ، كان عليها حينذاك التنقل جينة وذهابا لاتناع رؤسائهم بالفقرات المتفق عليها . الا ان ذلك كان مجديا .

والى جانب ديان ، ظهر (باراك) كاحد ابطال الفريق الاسرائيلي وفي عام ١٩٧٨ كان استاذا للقانون في ريعان شبابه في الواحدة والاربعين من عمره وكس مرشحا بالفعل لقمع المحكمة العليا لكنه ظل مدعيا عاما طيلة فترة محادثات السلام . وعلى الرغم من ان حكومة حزب العمل هي التي كانت قد عينت (باراك) ، فان بيجين كون شعورا غير عادي بالاحترام تجاه مواهبه كمعلم ضليع في القانون . وكان (باراك) مثله في ذلك مثل ديان ووايزمان متمسكا للسلام . وقد استغل كل مهارته ومكانته لكسر مقاومة بيجين ، وتأثر سيروس فانس ، بصفته زميلا له في المحاماة بنوعية ذهن (باراك) وقال عنه انه رجل على درجة عاليتمن الحسنية والراى الصلب . ولا يمكن تقيييه بقاء في كثر من النقاط الصعبة في المفاوضات . وهو لديه موهبة عجيبة في استخدام الكلمات ، ويستطيع دائما ان يضع نفسه في مكان الشخص الآخر ، ثم يحاول ان يجد سبيلا لارضاء حاجة ذلك الشخص الآخر بدون ان يضر بالمصالح الحيوية لبلاده . وساتفق انا وديان على طريق الالتفاف حول المشكلة ، وسيجد (باراك) بدوره الكلمات اللازمة لتوفير الطريق للالتفاف حول العقبة او تخطيها .

ووجده (ويليام كوانت) خبير الرئيس لشئون الشرق الاوسط اسرائيليا تعلم بنجاح كبير كيفية التأثير على الموجات الطويلة لبيجين . . لقد عمل بقاة في المصنوع والمصباغة ولعب في الاغلب لعبة تلمودية في تغيير العبارات ، بدون ان يكون تلبه في الحقيقة حاضرا فيها . ولم يكن يستند في الواقع ان هذه الاشياء من الامور التي تستحق الخلاف حولها الا انه ادرك ايضا انه ابر هلم للغاية اتناع بيجين . وهو على استعداد لان يقوم بالكثير من المصباغة واعادة المصباغة والتفكير في المصنع التي قد يقبلها بيجين .

في ديبلوماسية امريكي آخر يعرف ببيجن وباراك بأن كلوتر اسفل
باراك بالاتفاق وبالرونة . وقد اوضح ذلك بقوله :

« لفتح الرئيس الامريكي (باراك) بالتقدم بسبل للتعبير عن المفاهيم
والضامين الضلصة بلغة قانونية وعندئذ يستطيع باراك أن يبررها لبيجين
بلغة قانونية ويقنعه بأن هناك تفسيراً قانونياً . ومشروعاً من شأنه أن يحمي
موقف بيجين رغم ما يكتنفها من غموض . وهناك عدة مواضع في النص تتجلى
فيها قدرة (باراك) على أن يفسر لبيجين كيف يمكن تفسير احدها بحيث أصبح
معناه (اكس) في حين أنك ربما تعتقد من شكله الظاهري أنه يعني (واي) ،
الامر الذي أعطى لبيجين تبريراً ليسمح له بتقديم هذه التنازلات ، عندما قرر
تقديمها بدلاً من فقدان الاتفاق . وليس بوسع أي شخص آخر أن يفعل
ذلك . وفي الوقت نفسه ، كان ديان يناقش الاسباب الدبلوماسية أو السياسية
لقبول مثل هذه الامور ، إلا أن بيجين لابد أن يكون لديه تبرير قانوني لارضاء
نفسه ونظرته الخاصة للمبادئ القانونية » .

وساهم ايضا المدعى العام في تحقيق التقارب مع المصريين ، بالرغم من
من انهم لم يكونوا متلكئين مثل الامريكيين من مدى نفوذه . وقال (بطرس
غالي) ان (باراك) نجح في خلق جو من الثقة القانونية ، مثلما خلق وايزمان
جوا من الثقة الانسانية . لقد وثقنا في باراك عندما قال « اننى اريد هذه
الكلمة في المادة الرابعة من اجل كذا او كذا » .

وعلى الرغم من ذلك لم يتخل بيجين ابداً عن السيطرة على الاستراتيجية
للمفاوضة . وقد حدد القضايا التي يمكن أن يتوقعوا عندها . وقرر الوقت
والسبيل لتقديم تنازلاتهم تلك التي يمكن أن تعطى . وقال أحد الشهود
الامريكيين أن (بيجين) اظهر شعوراً رائعاً بالوقت . وقد كان متمكناً من
معرفة عنصر التوقيت ومتى تحين اللحظة الاخيرة للتوصل الى حل وسط . وقد
حقق مقابل تقديم تنازل صغير أكثر مما يستطيع أن يحقق بمفاوض آخر من أي
نوع مقابل تقديم ما هو أكثر من ذلك . ويتذرع رئيس الوزراء بصبر العالم كله
وفي بعض الاحيان يبدو أنه يلعب لعبة الاستنزاف لذاتها ، ويفقد منظر
الغابات من أجل الاشجار . ولقد وجهه كارتر صارماً وغير خيالي .
ونكرت (روزالين) زوجته لبرجينسكي ان الرئيس قد اطلق على بيجين اسم
(المعنوه) ، وهو لفظ كلن كلوتر امينا جداً لدرجة أنه لم ينكره عند مواجهته
به على شاشة التلفزيون الاسرائيلي خلال زيارته الخاصة للقدس في
شهر مارس عام ١٩٨٢ .. الا انه في نهاية محنة كلب ديفيد التي استغرقت
١٢ يوماً لم يشك أحد في أن ثمة منهجاً في جنون بيجين . ويصف كاتب
بيجين بأنه .. واحد من ابرع لاعبي البوكر في العالم الذين شهدهم .

وهو يستطيع ان يعرض تلبا جريحا بطريقة مؤثرة للغاية : وقد اظهر كل مشاعر الالم وعدم التصديق عندما قال : « كيف يمكنك ان تتوقع منا قبول موقف من هذا النوع ؟ » ، وحينذاك يجلس هناك دون ان يسجل على وجهه شيئا . انه يحاول ويمسك في وجه خصمه حتى النهاية ، وهو عنيف يستطيع البقاء بعد اى شخص آخر على الجانب الآخر للمنضدة اذا استلزم الامر وهذه جميعا صفات المفلوض الماهر ، او لاعب البوكر الماهر للغاية .

وكان بيجين واضحا جدا في اهدافه ودقيقا للغاية في تفكيره وقد تقدم بعض المطالب التي كان على استعداد للتضحية بها . واستطيع ان اذكر عددا من مرات عندما قال فيها 'ن ذلك شيء لن نتفق ابدا على حل وسط بشأنه ، وفي وقت لاحق من نفس اليوم ، بعد ان دق على المائدة ، غير تفكيره . وقد اكتشفت ذلك في وقت مبكر الى حد ما ، ولذلك لم اقبل ابدا تصريحاته التي يقول فيها : « اننى لن استسلم ابدا بشأن هذه النقطة » ، وخلصت الى ان ذلك جزء من أسلوبه وهو لا يغيره .

رفض بيجين التناهم بشأن ثلاث قضايا وهى : مستوطنات سيناء وصياغة القرار ٢٤٢ (الاستيلاء على الارض بطريق الحرب) واخيرا القدس . وعلى الرغم من التقدم الذي احرزته مجموعة العمل التي انشأها كارتر والفريق الممثل الذي يضم وزراء الخارجية تحت اشراف بريجنينسكى ، اوشك اجتماع القمة على الانهيار مرة اخرى في اليوم العاشر واليوم الحادى عشر . وظهر الاسرائيليون كجبهة موحدة من اجل الإبقاء على المستوطنات ، في حين رفض المصريون السماح ببقائها ، وبدأ كارتر في اعداد خطط لانتهاء المؤثر وتقليل الضرر الى الحد الأدنى وقد حدد يوم الاحد ١٧ سبتمبر على انه الموعد النهائي . والاعتراف بالفشل أفضل من السماح لاجتماع القمة بأن يموت ببطء . وحزم السلاطات ومساعدوه حقيبتهم وطلبوا من الامريكيين توفير طائرة هليكوبتر لهم . وتبادل الرئيس المصرى حديثا حدا مع ديان ، الا انه استجاب لأخر نداء شخص من جانب كارتر . وشعر بعض الامريكيين المتشككين بأن السلاطات يمارس التمثيل . وهو لا يحتاج الى الكثير لاقتناعه . وقال (ويليام كواندت) ان هناك جزءا في السلاطات يتقمص شخصية الممثل . « وهو يعلم ان كارتر سريع التأثير بذاك النوع من ندائه الملطلى » .

وحدثت بعض المفاجآت على المسرح . فقد تنازل وايزمان ، الذى تمثّل دوره حتى ذلك الحين في الإبقاء على توهج الجمرات ، عن المطارات العسكرية

في سيناء مقبل تمهد من جانب (هرولد براون) وزير الدفاع الأمريكي
ببناء بدائل لها في صحراء النقب . واتفق (باراك) واسلة البارز على ازالة
عبارة « عدم جواز الاستيلاء على الارض بالحرب » من النص الرئيسي ،
ونشر القرار ككلاما على انه ملحق به ملحوظة في المقدمة بان كلا الطرفين
يوافق على القرار ٢٤٢ بجميع اجزائه . « وتجرع (بيجين) عبارة « الحقوق
المشروعة للشعب الفلسطيني » التي كان قد اصر من قبل على انها ستمثل
خطرا مميتا لاسرائيل . ويعد محاضرة ادلى بها على رفاته حول الاصل
اللاتيني لكلمة « مشروع » ناطل قنلا « هل يمكن ان يكون الحق »
غير مشروع ؟

الا ان النزاع حول مستوطنات سيناء لا يمكن حله بدون حدوث معجزة .
وظهرت هذه المعجزة في الشكل المروع والمستبعد لاريل شارون ، وهو بطل
الحرب المحبب الى بيجين والمستول عن الاستيطان . واقترح الجنرال ابراهيم
تلير قائد التخطيط العسكري في عهد وايزمان الاتصال تليفونيا بشارون
واعطاه تقريراً عن ازمة كلب ديفيد واتناعه بحث بيجين على الجلاء عن
المستوطنات . وكان (وايزمان) يسوره الشك نيا اذا كان (شارون الروح
الحركة خلف برنامج الاستيطان ، سيتعلون ام لا ، الا انهم لن يخسروا شيئا .
وفوض لتلير بان يجرب حظه) .

« وبعد ذلك بضع ساعات قليلة ، كان بيجين البالغ التأثير يبلغ الوند
الاسرائيلي بلن آرييل شارون قد اتصل به تليفونيا . والشيء الذي ادهشه
ان شارون كان يجهد اجلاء المستوطنات اذا كانت هي العقبة الاخيرة في طريق
تحقيق اتفاقية السلام . وقال شارون لرئيس الوزراء .. اننى لا ارى اى
اعتراض من الناحية العسكرية على اجلائها .

وتلر بيجين ، الا انه كان مازال رافضاً بشأن التخلي عن المستوطنات .
وان حجته في الابقاء عليها قد بنيت على اسس أمنية وكان نقوء (رفع)
يمثل منطقة عازلة لها قيتنها بين سيناء التي ستم اعلقتها الى مصر وبين
اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة البالغ عددهم ٤٠٠.٠٠٠ شخص ، وهي
ارض تجنبد خصبة للارهابيين . ولكن الامن لم يكن اهتمامه الوحيد ، اذ ان رئيس
الوزراء ، مثله في ذلك مثل الكثير من الاسرائيليين من مختلف المذاهب السياسية
يشعر بانزعاج لفكرة استئصال المستوطنين من جذورهم . ويتعارض ذلك مع
المزاج الوطنى . وهو متفق من ان يضع سابعة للصفة الغربية ومرتفعات
الجولان . الا انه في المقلم الاول كان بيجين يخشى من ان يؤدي التخلي
عن المستوطنات الى حدوث انقسام في صفوفه ، الامر الذى حدث بالفعل
على وجه السرعة .

وعندما اجتمع الرئيس كلرتر في اليوم الثاني عشر ، كان (بيجين) مژال بحلول جاهد الفوز . واقترح التفاوض مع السادات بشأن كل مسألة اخرى ملقة : تحقيق معاهدة للسلام في غضون ثلاثة شهور . وحينذاك سيطرح مسألة الاستيطان على الكنيست . وابلغه كلرتر ان ذلك امل ميئوس منه ، ولن يقبله السادات ابداً . وكتب الرئيس يقول .. من الواضح ان ذلك كان مؤلماً جداً بالنسبة لرئيس الوزراء مناهم بيجين .. ، ولكن يصبح بكلمات مثل .. اذار « مطلب مبالغ فيها » و « انتصار سيلى » ومع ذلك في النهاية وافق بيجين على ان يطرح على الكنيست في غضون اسبوعين القضية التالية : « اذا تم التوصل الى اتفاق بشأن جميع قضايا سيناء الاخرى ، هل سيتم سحب المستوطنين ؟ » ورفض طلب كلرتر بلن يتخذ موقفاً محايداً خلال هذه المناقشة ، لكنه تمهد لتجراة تصويت حر .

كان بيجين يأمل في الفصل بين التصويتين بحيث يكون احدهما حول اتفاق السلام بينما يكون الآخر حول المستوطنات وتوقع اغلبيه برلمانية ساحقة للتصويت لصالح اتفاق السلام واغلبيه اصغر ضد ازالة المستوطنات . الا ان مناوراته باءت بالفشل على يد حزب العمل المعارض الذى كان يحتاج الى تأييده والذى امر على اجراء تصويت واحد يشمل كلا من الاتفاق والجلء عن المستوطنات . ومن غير المتصور ان يتوقع برلماني له خبرة بيجين بالوافقة على جل التصويت الواحد على المشروعين دون عواقب وخيمة ، لو انه كان سىرضى المصريين او الامريكيين . الا ان تدخل حزب العمل قدم له عذراً . ولم يقاضى مناهم بيجين بالمستوطنات اليهودية في حين فعلت المعارضة ذلك . ان ذلك لم يقطع احداً لا يريد ان يقطع ، الا انه انقذ ضمير بيجين وربما كان ذلك هو المقصود تحقيقه .

والترزم بيجين بكلمته . وتم اجلاء مستوطنات رفح ، بما في ذلك مدينة (ياميت) النموذجية — بتكلفة عاطفية ومالية كبيرة ، في الموعد المقرر في شهر ابريل عام ١٩٨٢ . وانتهى بصورة امل ودية المطلب الامريكى الذى بطلب بتجديد النشاط الاستيطاني الاسرائيلى في الضفة الغربية . وقضى كلرتر وفانس اكثر من ست ساعات مساء يوم السبت الثاني عشر وهما يناقشان قضيتهم مع بيجين ودين وباراك . ومن العسير التوقع بان يأخذ العرب مفاوضات الحكم الذاتى مأخذاً جديداً اذا استمر الاستيطان اليهودى بلا ضوابط ورفض الاسرائيليون التوقيع على مثل ذلك التمهيد مع السادات كجزء من اطار الحكم الذاتى من اجل السلام . وامروا على ان الاستيطان في الضفة الغربية ليس من شأن مصر . وفي النهاية وافق بيجين على ان يكتب خطاباً الى كلرتر يتم نشره بين وثائق المؤتمر . وبعد ذلك بخمسة اعوام ، مژالت الاطراف المتبقية تجرى مناقشات مع متعهد به رئيس الوزراء . هل هو تجديد طويل

الامد ، ام انه تجريد محدد لمدة ثلاثة شهور ؟ وهل يرتبط بمفاوضات الحكم الذاتي او بمفاوضات التوصل الى معاهدة سلام اسرائيلية ؟ . واقتنع كل من كلرتر وفانس بأن يجين قد خدعها . وكلا الجانبين لديه شهود موثوق بهم ، الا يروون قصصا عكسية تماما .

وطبقا للرئيس ، تم الاتفاق على انه لن يتم انشاء اية مستوطنات اسرائيلية جديدة بعد التوقيع على « اطار السلام » وعلى ان قضية المستوطنات الاضافية ستطرح الاطراف المعنية خلال المفاوضات ، ويؤكد فانس الذي سجل ملاحظات خلال الاجتماع ، التقدير الذي قدمه كلرتر .

منطبقا لمذكراتي ، فان هذا الاطار كان مرتبطا بمفاوضات الحكم الذاتي ولم نفترض ان المفاوضات الخاصة بمعاهدة السلام والحكم الذاتي ستنتهي في آن واحد وفي وقت قصير نسبيا . وكان هناك امل في ان نستطيع احراز تقدم بشأن الحكم الذاتي اكبر مما حدث بالفعل ، الا اننا ادركنا جميعا انها ستكون مهمة شاقة جدا . وجنود المشكلة اعقب من ذلك بكثير . وقد شهدنا استمرار المفاوضات في خط متواز وان كان منفصلا . وهي لم تتوقف على بعضها البعض .

وتلقى هارولد سوندرز ، خبير وزارة الخارجية الامريكية لفنون الشرق الاوسط تقريرا موجزا على الفور بعد الاجتماع اذى انعقد مساء يوم السبت . اذ قدم له فانس مذكرة تلو الاخرى حول هذا الموضوع . وقد وضع المناقشة التي دارت في هذا الاجتماع في السياق التالي :

توجه كلرتر وفانس الى الاجتماع وهما يعلمان مايريدان ويعرفان ايضا مصر نتيجهما المفضلة التي توصل اليها بشأن تجريد الاستيطان وما هو طبيعة تراجعهما . واختيارهما المفضل هو تجريد الاستيطان طوال الفترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة اعوام (للفلسطينيين) والتراجع هو الى تجريد بنساء المستوطنات اثناء « هذه المفاوضات » الا انها اشارا الى محادثات الحكم الذاتي ، على اساس النظرية التي تقيد بانه اثناء محادثات الحكم الذاتي يكون على المتفاوضين معالجة تجريد الاستيطان خلال الفترة الانتقالية .

وعلى اية حل فانها كانتا يتحدثان في تلك اللحظة حول فقرة في هذه الوثيقة التي اصبحت اطارا للسلام ، وبكلمة اخرى الوثيقة التي تمسالج اساسا المفاوضات المتصلة بالصفة الغربية وقطاع غزة . والعبارة التي كانوا يركزون عليها هي عبارة في فقرة تتعلق بالمفاوضات المتصلة بالحكم الذاتي ثم بالوضع النهائي للصفة الغربية وقطاع غزة .

وقال منلحيب بجين رئيس الوزراء انه لا يستطيع الموافقة على وثيقة بشأن تجريد الاستيطان يوقع عليها الرئيس السادات . ان ذلك امر تقرره

الحكومة الاسرائيلية ، وهو ليس بالامر الذى يكون للحكومة المصرية فيه اى رأى . وكان حل هذه المشكلة هو نفس حل المشاكل الماثلة بشأن قضايا اخرى . وهو يجب ان يكون هناك خطاب جاتبى . وفسر (غاتس) ذلك لى بعد الاجتماع وطئبنى بأن اضع مسودة خطاب من رئيس الوزراء مفاهيم ييجين الى الرئيس كارتر اشرح فيه موقف رئيس الوزراء ، ولذلك حذفت هذه العبارة من النص ووضعتها فى خطاب جاتبى .

وسجل باراك ملاحظات كثيرة على الجانب الاسرائيلى . وكان قاطعاً فى قوته ان النسخة الامريكية غير صحيحة .

« الشيء الذى تم الاتفاق عليه هو ان يكون تجسيد المستوطنات لمدة ثلاثة شهور وان يرتبط بالمفاوضات الخاصة بإبرام معاهدة سلام مع مصر . وهناك قيدان فى هذا الشأن (١) انه فى اطار معاهدة سلام مع مصر . (ب) وان مدته ثلاثة شهور . وهو لا يرتبط بالمرّة بمفاوضات الحكم الذاتى .

واستشهد الاسرائيليون ايضا ببيان للسادات وهم يقدمون تقريراً للبراسلين الامريكيين فى واشنطن يوم ١٩ سبتمبر ، اى اتفقنا على تجسيد انشاء المستوطنات فى الثلاثة شهور القادمة ، وهى الفترة التى من المفترض ان يتم خلالها ابرام اتفاق السلام . ومع ذلك ، يدفع الامريكيون بان السادات لم يكن حاضرا عند التوصل الى اتفاق ولم يكن طرفا فيه . وعلى الرغم من ذلك فان ملهمه من اولئك الذين كانوا حاضرين يؤيد ما تقوله الرواية الاسرائيلية .

وبعد ان تحدث كارتر فى واشنطن عن تجسيد لمدة خمسة اعوام ، طالب المراسلون فى مطر بن جوريون من ديان ان يقدم لهم تفسيراً ، . وكان علناً عنى التو الى اسرائيل مع وايزمان تركين ييجين فى الولايات المتحدة . ويبدو ان الرد الذى قدمه وزير الخارجية يستهدف طمس المسألة وليس توضيحها .

ان تقديرنا وتقدير رئيس الوزراء هو ان فترة استمرار المفاوضات حول موضوع يهودا والسامرة يجب لا تستغرق فترة تزيد عما يتراوح بين شهرين الى ثلاثة شهور . . فى حين تم تحديد فترة استمرار المفاوضات حول القضية المصرية الاسرائيلية ثلاثة شهور ، اما فترة استمرار المفاوضات الخاصة بالقضية الفاسطينية فلم يتم تحديدها بالمرّة . لكن لنفترض انها تستغرق بالفعل ما يتراوح بين شهرين وثلاثة شهور . فخلال هذه الفترة من المفاوضات بعد ان اوضحنا الامور مع اسرائيل (من كلب ديفيد) ، نهر انه لا توجد فى الحقيقة اية قضية ملحة لانشاء مزيد من المستوطنات خلال شهرين او ثلاثة شهور ، وربما بعد هذه الفترة ايضا . وذلك امر كلن قاطعاً حتى اذا لم يكن هناك اتفاق وحتى اذا لم يتم طرح المسألة . . اما فيما يتعلق بفترة الخمسة اعوام ، نفى حدود ما اعرفه ، ليست هناك عبارة فى هذا الشأن فى الاتفاق .»

وزاد الارتباك والحيرة سوءا ، ولكن لعل الكلمة الأخيرة للفصل في هذه المسألة مع صول فينويوتر ، الذي عمل بعد ذلك رئيسا للفريق الاسريكي في مفاوضات الحكم الذاتي . قال : « لقد قرأت جميع الملاحظات التي دونها كارتر عندما تم تعييني كيموث خلس في الشرق الاوسط . ولقد تأثرت بالاجهاد الذي كانوا يعملون في ظله ، وباحتمالات سوء الفهم ، ولاسيما بشأن مسألة معقدة مثل المستوطنات .

ومن العسير ان نتصور ان يبججن كلن سيذعن عن دراية لتجديد غير محدد النهاية في الضفة الغربية ، ولاسيما بعد ان استسلم في سيناء . ان ذلك من شأنه ان يتعارض مع غرائزه ومع اهتماماته كزعيم لحزب اثقلته بالفعل بمبادرة السادات . بل انه من المتصور تلميها ان يتلاعب هو وديان بالمسألة .

ويحلول فجر النجوم الثالث عشر الموافق يوم ١٧ سبتمبر ، كان كارتر قد اقتنع بأن الصفقة مضمونة . وقامت كليب ديفيد اطارين ، احدها بشأن معاهدة السلام بين مصر واسرائيل والآخر بشأن السلام في الشرق الاوسط . وسيحتاج ملء الاطارين الى الكثير من المساومة الصعبة الا ان اجتماع القمة قد حقق مهمته . وانتصرت الولايات المتحدة ، مظلما نصح بريجنسكي بانها يجب ان تقتصر . غير ان اليوم الثالث عشر جلب معه عقبة في اللحظة الأخيرة . وكان من المتفق عليه عدم الاشارة الى قضية القدس البالغة الصلصية في النص نفسه . وفي احدى المراحل ، عندما اقترح الامريكيون ان ترفرف راية عربية او مسلمة على المسجد الاقصى ، الذي يوجد في موقع المعبد اليهودي ، حفرهم ببججن من ان نفس الفكرة اثار ت فيه ارتجافت قلبية . وفي يوم ١٧ سبتمبر كان الامريكيون لا يتحدثون الا عن تبادل الرسائل التي احتفظ فيها الزعماء الثلاثة — كارتر وبججن والسادات — بمواقفهم العالوية بشأن المدينة المتنازع عليها . وتبينت النسخة الامريكية لغة البيانات التي ادلى بها المندوبون المتلاحقون في الامم المتحدة ، ورفضت الاعتراف بضم اسرائيل لشرق القدس بعد حرب الالام الستة . وبمجرد ان سمع بها ببججن اعلن انه لن يوقع على اية وثيقة ابدا اذا كتبت الولايات المتحدة اى خطاب من هذا القبيل للسادات . وفجأة علت الانتفاضة برمتها الى بولقة الانتصار الا ان كارتر لم يكن مستعدا لان يدعها تنتهي في هذه المرحلة . وحل المشكلة بخلط من عمليات الصياغة (وقد حذف كل اشارة معينة تشير الى الضم الاسرائيلي وقال ببسلاطة ان المندوبين الامريكيين في الامم المتحدة قد اوضحوا السياسة الامريكية وطلب ببججن منه التوقيع على بعض الصور الفوتوغرافية الخاصة بأحفاده . واصدر كارتر تعليماته التي سكرتيره ليعرف اسماءهم ويوقع على كل صورة على حدة . وعندما حملهم الى حجرة ببججن تأثر الزعيم الاسرائيلي وحكى له بدوره عن كل حفيد منهم على حدة . وبعد ذلك قبل النسخة الجديدة كالحمل . وملاذا

يستطيع الجهد الفخور بالضادة ان يغطه خلاف ذلك ، ولا سيما عندما يحق
مـراده ؟

وانتهت كليب ديفيد بمسحة من الارتياح والتصلح . وقام انسادات
بزيارة ودية لبيجين ، وكان ذلك اول اجتماع لهما في غضون عشرة ايام .
وحينذاك قام زعيم الشرق الاوسط . واصل الرئيس ان هذه هي اول مرة
يشعر فيها بالسرور وهو يغادر كليب ديفيد الى واشنطن . واخيرا جاءت
الات التصوير والراسلون ليمارسوا مهلتهم . وتم التوقيع على الاتفاقيتين
اللتين تثلان الاطرين وره رؤساء الدول الثلاثة على الاسئلة بالخصن ماق
وسمهم وهكذا وقعت اسرائيل ومصر على اول اتفاق للسلام بينهما .

ولقد خاض بيجين مساومة صعبة كما خطط على الدوام ، الا انه قدم نصيبه
من التنازلات . ووافقت اسرائيل على الجلاء عن شبه جزيرة سيناء كلها بما في
ذلك حقول البترول والتواعد الجوية والمستوطنات مقابل معاهدة السلام . وكان
رئيس الوزراء يشعر في مشاوراته الخاصة مع موظفيه وفي تصريحاته العلنية
ايضا بان اسرائيل تتخطى من ارصدة حقيقية وتتلقى شيئا غير حقيقي من مصر .
ولهذا السبب امر بيجين على شسلك جوهرية قوية للحدود الجنوبية لاسرائيل .
وفقد بيجين نتيجة لتضحيته على مفض بمستوطنات سيناء تلبد بعض اسدقائه
القدامى المقربين اليه . وانسحب من ذلك الموقف (شمويل كتر) خبير القانون
الدولى الذى ينتمى فى الاسس الى جماعة (ارجون زماى ليوى) وكذلك غطت
ايضا (جيولا كوهين) آخر اعضاء (جماعة شتيرن) التى تضامى عاطفتها تجاه
ارض اسرائيل عاطفة بيجين نفسه . وهناك آخرون مثل (يوحنا بلر)
المحارب القديم ابتعدوا عن زعيمهم بطريقة اكثر ذكاء .

وفى غضون ايام من التوقيع على اتفاق كليب ديفيد كان بيجين يتياهى
للجمهور ، اليهودى الأمريكى بله لم يوافق على تقديم شيء للفلسطينيين اكثر
مما تمنه فى الاسماعيلية فى شهر ديسمبر عام ١٩٧٧ . واثار ذلك الزعيم غضب
ادارة كارتر ، التى اعترفت بانه كان يحاول اثناء الإندىين وغيرهم بن للعرب
« المعتدلين » عن مسئلة السادات واثاء الفلسطينيين فى قطاع غزة والضفة
الغربية من التيلم بالحدود المخصص لهم . وكان بيجين قد قدم فى كليب ديفيد فى
الواقع اكثر مما قدم فى الاسماعيلية . ووافق على ان المفاوضات يجب ان تتم
على اسس القرار رقم ٢٤٢ فى كافة اجزائه « لعل » المشكلة الفلسطينية
يجيب جوانبها . وكان من المقرر ان تبدأ المفاوضات بعد ثلاثة ايام « لتجديد
الوضع النهائي للشفة الغربية وغزة وعلاقتها بجيرانها » وان تنتهى هذه
المفاوضات بنهولة البترة الانتقالية البالغ مدتها خمسة اموام . وعمد بالمواصل
الى حل من شأنه ان يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ومطالبه

العادلة » . وتم توجيه دعوة للاردن للانضمام الى هذه المفاوضات وتم السماح له بأن يضم وهذه فلسطينيين « كما هو متفق عليه من الطرفين ولكن من المقرر ان تنسحب القوات الاسرائيلية من الاراضى وتنتشر وحدات محدودة في «مواقع امنية معينة » : ولم يتم تحديد المسؤولية عن الامن والنظم العام ، بينما اتاحت للفلسطينيين امكانية تشكيل « قوة شرطة محلية قوية ، يمكن ان تضم بين صفوفها مواطنين اردنيين » .

وكان الكثير من هذه النقاط في صورة تصريحات وبيانات غير دقيقة ، ولم تكن شيكات يتم حملها الى المصرف لصرفها . وكان ييجين قد دونها بضموض وحذر شديد لم يلحظه الامريكيون او المصريون . فعلى سبيل المثال ، فان « السلطة التى ستتولى الحكم الذاتى » والتى سيقوم الفلسطينيون بانتخابها لانفسهم قد اشر اليها ست مرات في اطار الاتفاق وفى واحدة فقط من هذه المناسبات الست وهى المناسبة الرابعة اضيفت كلمت « المجلس الادارى » بين اقواس بناء على طلب اسرائيل . الا ان ذلك كان كافيا لان يشير اليها بيجين بعد ذلك على انها « المجلس الادارى » وهو شئ اكثر تواضعا مما كان يريده الامريكيون والمصريون ويعتقد (ولیم كوانت) ان الوفد الاسرائيلى تعمد ترك المسألة الفلسطينية حتى آخر يوم فى كلب ديفيد ليتجنب تقديم التزامات محددة . وقال كوانت ان باراك الذى يتمتع بضمير حى قال انه كان يتعين عليهم اعطاء الضفة الغربية من الوقت مثلا اعطوه لسبئنا لكن كل شخص كان يريد العودة الى وطنه .

وعلى الرغم من ذلك كله ، اتاحت كلب ديفيد للفلسطينيين افضل فرصة دبلوماسية منذ عام ١٩٤٧ . وكان هناك كل شئ يمكن التفاوض حوله بمساعدة المصريين والامريكيين وكان من حسن حظ بيجين انهم لم يدعوه الى تنفيذ وعيده — وانهم سمحوا له ببناء دفاعاته . وكان اكبر خطأ وقع فيه الامريكيون انهم لم يربطوا الضفة الغربية وقطاع غزة بمعاهدة السلام الاسرائيلية المصرية ، بحيث تتوقف كل منها على الاخرى . والذى (بريجينسكى) اللوم فى ذلك الاختناق على اذعان كارتر للصيغ الغامضة التى استخدمها بيجين . وكتب يقول ان ذلك سيعود لطاردتنا ، فى المراحل القادمة من المفاوضات . وكان الاسرائيليين لهم اولوياتهم الخاصة . وقال (الياهو بن - اليسار) الذى كان مكلفا بصفته مخيرا عليا لمكتب رئيس الوزراء بصياغة استراتيجية اسرائيلية محكمة لمفاوضات الحكم الذاتى ان بيجين ينظر الى سيناء على انها تعويض من الوجود الاسرائيلى فيهودا والسايرا وبلقهاء حكم بيجين فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٢ ، كان يستطيع النظر الى كلب ديفيد بارتياح . لقد كان السلام مع مصر وان كان فاترا قلما لم يمس ، وكذلك الأمر أيضا بالنسبة لقبضة اسرائيل على ارض اسرائيل .

كان قد تم اقناع المصريين بقبول صفقة كليب ديفيد بالذبح بلن كل شيء . سيكون مختلفا في غضون خمسة اعوام . وقال : بطرس غالى ان « روح كليب ديفيد هي نوع من الهدنة » ، وان شخصا آخر خلاف بيجين هو الذى سيتخذ القرارات ، « : اقتنعنا تحت تأثير دين ووايزمان ان بيجين قبل ذلك للحصول على السلام . وتم تهدئة شكوك الامريكيين بطريقة مماثلة . وطبقا لما ذكره (هانس) ابلغ بيجين الامريكيين بلته ان يشرف ابدا على نقل بومة واحدة من يهودا والسلمرا الى سيلادة اخرى ، وان هذه الاراضى ملك لاسرائيل . الا انه اضاف تقيلا : « ربما يلقى اخرون بعدى يكون شعورهم مختلفا . وفي نهاية فترة الخمسة اعوام لن اكون موجودا . والشئ الذى لم ينكره رئيس الوزراء هو انه سيبدل كل ما فى وسعه ليتأكد من انه لم يترك شيئا كثيرا ليتم نقله الى الغير .

الفصل العشرون

منح جائزة قبل الأوان

بدلا من المشهور الثلاثة التي كان قد تكهن بها بليفهاج في شهر سبتمبر ، استغرق الاستئناف الدبلوماسي ستة شهور لتحويل كليب ديفيد الى معاهدة سلام بين مصر واسرائيل . وحاول كلا الجانبين خدش بعض التنازلات التي تقدموا على تقديمها في استراحة (ميريلاند) . وبدات اسرائيل برنلج طواريء « لدعم » المستوطنات العنيفة في الضفة الغربية ، بالرغم من ان الكثير من عمليات التوسع كانت مستوطنت منفصلة في كل شيء الا الاسم وطلت لجنة حكومية فرعية ، يرأسها مدير علم مكتب رئيس الوزراء ، (الياهو بن اليسار) بإزالة بريق تعريف اسرائيل للحكم الذاتي حتى يقل ما يمكن ان يتفلوس حوله الفلسطينيين . وعلى سبيل المثال ، كان من المقرر ان تبقى اراضي الدولة وموارد المياه تحت السيطرة الاسرائيلية . وذلك من شأنه الإبقاء على خيار الاستيطان اليهودي قريبا ، في الوقت الذي يحتفظون فيه باستخدام اسرائيل لحق الغيتو بشأن توسيع القرى والمدن العربية . ولم تتم مناقشة مثل هذه التفاصيل في كليب ديفيد ، حيث تم النظر اليها على انها متشبكة للخفية بحيث لا يمكن ان تشكل اطرا علميا . وسارع الاسرائيليون بملء الفراغ ولاسيما بعد ان جعلتهم محاولة امريكيين كسب ود الملك حسين واقتناعه بالانضمام الى عملية السلام يلتزمون جانب الحذر واصيبت ادارة كارتر بخيبة امل لان السجلات اغفل التوقف في عمل ليقوم بالمهمة بنفسه . وطلت الادارة بالتعويض عن ذلك بتسليم اجابات مكتوبة على الاسئلة الأردنية بشأن دلائل كليب ديفيد ، بالاضافة الى نسخة تم تقديمها لبيجين كدالة على النية الطيبة . وثمر بعض الدبلوماسيين الامريكيين بالاسف فيما بعد لان دبلوماسيتهم كلفت مكتسوفة الى هذا الحد ، الا انه لم يكن بمقدور سيروس مقنس ووكيل وزارته (هارولد سوندرز) اللذان احضرا الرسائل الى الشرق الاوسط ايجاد بديل آخر مشرف . ولم يكن هناك شيء في الاجابات لم تعرفه اسرائيل بالفعل ، الا انهم اوضحوا التمسرات الامريكية بشأن قضايا مثل وضع القدس — التي جاهد بيجين للبقاء عليها خارج وثائق كليب ديفيد . ورد رئيس الوزراء الاسرائيلي على ذلك بالتهديد بنقل مكتبه الى شرق القدس العربية . وعلى الرغم من تودد الولايات المتحدة ، فان الملك حسين والزعماء المنتخبين للضفة الغربية اعطيا ظهرهما لكليب ديفيد . وكتبوا يفتخرون الى القوة والجرأة التي تمكنهم من القيام بمقاربات السجلات . وحاول الرئيس المصري التعويض عن موقفه بجعل المعاهدة تتوقف على التقدم الذي يتم احرازه بالنسبة

للفلسطينيين ، الا ان بيجين الذي كان قد تجنب الوقوع في ذلك الشرك في كتاب ديفيد ان يقع فيه الآن .

وصدقت الحكومة الاسرائيلية على اتفاقيات كلب ديفيد التي حصلت على موافقة احد عشر صوتا ومعارضة صوتين وامتنع عن التصويت حاييم لانوا نائب بيجين الاكثر اخلاصا . لما الكنيست فقد صدق على الصيغة ، التي تشمل الجلاء عن مستوطنات سيناء ، بعد مناقشة استغرقت ١٧ ساعة وانتهت في الساعة الثالثة صباح يوم ٢٨ سبتمبر . وكلفت نتيجة التصويت ٨٤ صوتا ضد ١٩ صوتا وامتناع ١٧ . ومن بين الاصوات الـ ٨٤ التي قالت « نعم » لم يقدم اعضاء الائتلاف منها سوى ٧٤ صوتا . اعطى الاعضاء الليبراليون في كتلة ليكود اصواتهم لصالح الاجراء ، الا ان حزب حيروت قد انقسم على نفسه ولم يقط الا ما دون النصف وما كان بيجين ليفوز بالتصويت بدون مساعدة حزب العمل المعارض . ومضى عضوان من حزب حيروت كان من المقرر ان يشغلا منصبتين رئيسيين في حكومة بيجين الثانية — وهما اسحق شامير وموشى آرينز بتأييدهما وامتنع عن التصويت شامير وزير الخارجية في المستقبل فقد صوت ضده وكان شامير في ذلك الوقت رئيسا للكنيست (في اسرائيل يظل رئيس الكنيست سياسيا للحزب وله حق التصويت) وكان آرينز يشغل منصب رئيس لجنة الشؤون الخارجية والدفاع في الكنيست . وهناك اشخاص آخرون في كتلة ليكود امتنعوا عن التصويت من بينهم وزير المالية القادم (ايجال هوزنيتز) وخليفته (يورام اريدور) بالاضافة الى (ايتان تيفي) رئيس العمليات في جماعة (ارجون زغاي ليموت) . وفي واشنطن ، اشار الرئيس كلتر في يومياته الى ان التصويت كان دالة لائمة للنظر على الشجاعة ، الشجاعة السيفية من جانب مناصري بيجين رئيس الوزراء ، الذي كان عليه ان ينتهك التزاماته السابقة طوال حياته ويخرج عن امساقه وحلفائه الذين قدموا له العون والحماية خلال ايامه الثورية . ولم يكن الرئيس الامريكي سعيدا الى حد كبير بالنتائج . لقد اظهرت عمليات التشاغل مدى الضغط الذي شكله اتفاق كلب ديفيد على ولاء حيروت للتقاليد القديم . كما رفض بيجين وامناء حزبه طلبا بتقديم الاتفاقيات للجنة المركزية قبل عرضها على الكنيست الا ان نقل التشاغل في صفوفه دعم احترام الرئيس الا بتقديم شيئا واحدا عما وقع عليه في يوم ١٧ سبتمبر . وكبح جناح عملية السلام وامر على توسيع نطاق المسئولية الى اكبر حد ممكن في الحكومة بالتنسبة للكرارات التي يتم اتخاذها في المستقبل .

ومع ذلك ، من الناحية الرسمية ، مهدت الاصوات في الحكومة والكنيست الطريق امام استئناف المفاوضات . وكلفت الحكمة التقليدية المساعدة هي انه

تم حل ٩٨ ٪ فقط من المشكلة ، مع ترك ٢ ٪ ليتم تسويتها قبل التوقيع على معاهدة السلام . وتوجه موسى ديان وعزرا وايزمان الى واشنطن لحضور مؤتمر (بلير هاوز) ، الا انها سرعان ما وجدا انه ليس امليهما ولا امام المصريين المقبلين لها حرية المناورة . وتدخلت الحكومة في القدس في كل مرحلة . وبعد اتفاق كاليب ديفيد انخفضت درجة ثقة زملائهم في وزير الخارجية ووزير الدفاع اكثر من اى وقت مضى . وكلفت تتم اعادة كل نقطة الى قاعدتها الاصلية . وبرهنت القضايا المستعصية على انها تتمثل في وضع تاريخ محدد لانشاء نظام للحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، و ربط معاهدة السلام بالحكم الذاتي ، واستمرار حصول اسرائيل على بترول سيناء ، بالإضافة الى اصرار بيجين على ان تكون لمعاهدة السلام اولوية على التزامات مصر بالنضال الى جانب اشقائها العرب في اى حرب تنشب في المستقبل مع الدولة اليهودية .

وفي منتصف شهر نوفمبر ، بعد مرور عام واحد على زيارة السادات الى القدس قبلت اسرائيل المشروع الامريكى الاول ، اما مصر فكانت مازالت تتهمسك بالرفض . وادت نسبة ال ٢ ٪ الاخيرة المتبقية من المشكلة الى نقص المفاوضات الى شتاء ١٩٧٨ - ١٩٧٩ الكتيب . وتم ايفاد سيروس فانس للشرق الاوسط للقيام بديبلوماسية مكوكية . وذهب ديان الى بروكسل لاجراء محادثات مع مصطفى خليل رئيس الوزراء الذى كان قد عكف في ذلك الحين مرة اخرى الى كاليب ديفيد . ورفض بيجين دعوة للذهاب الى واشنطن لاجراء محادثات مع مصطفى خليل واصر على الا يتعامل الا مع السادات . وعلى الرغم من المنصب الذى كان يتمتع به مصطفى خليل فهو لم يكن الطرف المناظر له . واخيرا امكن اقناع بيجين بزيارة كارتر على امل ان يلحق به السادات ، بينما استمر ديان في محادثته مع رئيس الوزراء المصرى بالتدقيق في كل مقرة فرعية . واثار (بيجين) مخلوف في وزارة المالية عندها تمهت في احدى لحظات الخيرة على ثلاثة التليفزيون الامريكى بان اسرائيل ستقوم بالسداد حتى اخر سنت من الثلاثة بلايين دولار التى من المقرر ان تلتحقها اسرائيل من الولايات المتحدة لاعادة نقل توزيع توانها من سيناء الى التتب . وكلفت وزارة المالية تعتمد في حساباتها على ان يتخذ ثلث اجسمى ما تحصل عليه على الاقل شكل منحة وليس شكل قرض . وكلفت الايباءات فعنى لبيجين الكثير على الدوام اكثر مما تعنيه الارقام .

وقبل ان يستطيع اى فرد ان يكون واقفا من النجاح بفترة طويلة ، اعلنت لجنة نوبل انها تمنح جائزة السلام الخاصة لعام ١٩٧٨ لكل من مفلمم بيجين واثور السادات . وكان الترويجيون على الاقل ماوالوا يراهنون على كاليب

ديفيد . وتلقى الزعيم الاسرائيلي الاتباء مساء يوم الجمعة الموافق ٢٦ أكتوبر ،
الا انه لم يرد علانية حتى نهاية يوم السبت عندما كان يستضيف
(ارتور روبينشتين) عازف البيانو على الشاي في مقره في القدس في ملهى
شارعى بلفور وسولينسكين ، وتبادل السادات وبيجين التهانى تليفونيا .
وكلت الجائزة هي الوصل النهائي للاعتراف الدولى لرئيس الجماعة السرية ،
الا انها جاءت في وقت حرج بالنسبة للسادات ، الذى يدرك بعدم ارتياح
عزله في العالم العربى وحساسة موقفه في مصر .

وطار بيجين واليزا الى اوسلو يوم ٩ سبتمبر ومعها حاشية من الاقارب
والاصدقاء وشخصيات اسرائيلية ويهودية امريكية . وبقى السادات في منزله ،
وارسل سيد مرعى مساعده الخاص ليتسلم الجائزة نيابة عنه . وكسب
الديبلوماسى المصرى المرموق قلوب مضيفيه النرويجيين عندما وقف عند مطار
اوسلو في درجة حرارة اقل من ١٨ درجة مئوية وشكرهم على استقبالهم الحار .
اما عائلة بيجين فقد تم نقلها من المطار الى القصر الملكى في طائرة هليكوبتر
حمراء وببضاء اللون تحرسها طائرتا شرطة هليكوبتر مسلحتان . ولم ينتهز
النرويجيون هذه الفرصة ، فقد بقى الفئزان بجائزة نوبل للسلام بصورة
طبيعية في أحد الفنادق وتلقيا جئزتهم في قاعة جامعة اوسلو . وفى ذلك الملم
بقى بيجين وزوجته في القصر الملكى وجرى الاحتفال في اليوم التالى في حصن
(اكرشوس) الذى يعود الى القرن الرابع عشر والقصر والحصن من اكثر
الامكن تحصينا في البلاد . اما سيد مرعى فقد بقى في جراندا اوثيل .

واستضاف الملك (اولاف الخامس) عائلة بيجين على العشاء في جناحه
الخاص من القصر وكان اعضاء العائلة المالكة قد قرأوا كتاب « الليالى
البيضاء » وكتبوا تواقين لسماع تجارب بيجين في معسكر العمل
السوفيتى (وعلى اية حال كان الكتاب اكثر امانا من كتاب التمرد) . الا ان
حيوية المناسبة قد انتقضت نتيجة لوفاة جولدا مائير في اسرائيل ونتيجة للشعور
بان الجائزة هي شيء تافه سابق لوانه . وقتل معلق اسرائيلي يحب التناثيل
والايقونك ان الشيء الذى يريده شعب اسرائيل ليس جوائز السلام وانما
هو السلام نفسه وتساءل قائلا « أين الطفل ثمرة الاتفاق » وفى القلعة
النرويجية الكثيرة التى ينتشر في شرفاتها حراس مسلحون وكلاب بوليسية ،
لم يثر حديث الموافقة على الاتفاقية الذى ادلى به بيجين دهشة أحد ، وهو
رابع حديث يقرأه من نص مكتوب في غضون ثلاثين عاما من الخطابة
الارتجالية المتدفقة . ارتفعت نبرة الكلمات وهو يتذكر السنة ملايين شخص
الذين راحوا ضحية الإبادة ، وحظى (جلوتينسكى) و (جارسيلدى) ما يستحقه
من تكريم . واصر بيجين على أن شعب اسرائيل فاز أيضا بالجائزة وليس
فقط رئيس وزرائه .

س. سهرافع يده مصيكة بجفته في الجائزة ويتدلجها . . . رهها دولارا معلنًا تبرعه
يه لحاربسة اسرائيلية تقدم منحا للطلبة المتطوعين الذين يقومون بتعليم الاطفال
المتضللين .

وفي الخارج في الفلارغ الملىء بالصقيع ، تقدم عدة الانبياء الشبلي
النرويجي في عملية احتجاج يحملون فيها المشامل خلف اثنى عشر شخصًا
من العرب يحملون رايت فلسطينية . وكان كثير من هؤلاء الشبلي
النرويجي يرتدون الكوفية على رؤوسهم وكتفوا يهتفون قائلين : «بيجين اراهبي
ساحدوا منظمة التحرير الفلسطينية» .

ونجا السيدات بصورة او ياخبرى من غضبهم . ورفضت وزارة
الخارجية النرويجية باعلانها حيلادها الخامس بمنطقة الشمال ، السماح
للمتظاهرين بمقد احتجاج للتعبير عن الاحتجاج في قاعة جائزة نوبل التقليدية
بالجلمة ، الا انها اوردت نبا المسيرة في بيئتها الرسمي حول احداث اليوم .

وكتبت زيارة الرئيس جيسى كارتير لكل من القاهرة والقدس في شهر مارس
عام ١٩٧٩ محاولة اخيرة يقنسة كان الرئيس يقدر بمكفته في التوصل الى
اتفاق . وقد ازعجه عدم الثقة المتبادل وعدم الانسجام الشخصي بين بيجين
والسادات . وكان بيجين في اكثر حالاته بخلا عنديا ذهب الى واشنطن في
بداية الشهر وفي اول اجتماع لهم في المكتب البيضاوى في البيت الابيض
وجد كارتير رئيس الوزراء الاسرائيلي «قويا الغلية وسليبا وواقفا من نفسه
فيما يودو» وحفره من النتائج العكسية للفشل ومن الخطر النهائي الذى
سيهدد اسرائيل اذا سمح بيجين لبلاده بان تصبح معزولة عن العالم بسبب
تمتعها او قيامها باعمال عدوانية او القاء بيلقات «وذعبت الولايات المتحدة
الى اتمنى ما يستطيع عمله بتقديم لغة وسط ، الامر الذى يحسر عليه الرئيس
ووصفه بأنه «رد غير ايجلى من الناحية العملية من جانب اسرائيل» وقال بيجين
في اليوم التالى انه لم يخلد الى النوم ليلة امس نتيجة لشعوره بالقلق تجاه
النقد القاسى الذى صدر من الرئيس . وكتبت النتيجة التوصل الى حل وسط بارع
بشان اولوية التزامات مصر (تجاه اسرائيل والعرب) وهو الامر الذى يعنى
شيئا للقدس بينما يعنى عكسه للقاهرة . . . وكان اذعلن بيجين بمثابة اعتراف
تكتيكى بأنه على الرغم من ان القضية نفسها حرجة ، الا انها لن تتقرر
بقصاصة من الورق . واذا حدث ان اضبطت مصر للاختيار بين السلام
والمتضللين العربى القوي ، فلن تتأثر بفترة في المعاهدة . واذا اتضمت الى
جبهة الحرب ، فستنتهى المعاهدة نفسها .

وسافر كارتير الى القاهرة وهو يدرك تماما ان الرحلة التي لا تحقق
شيئا ستجسد الفشل ، الا انه ليس بوسعه ان يرى طريقا افضل الى الامام .

وكان السادات مستعدا لتقديم المساعدة وعرض تبادل السفراء مع اسرائيل مقابل الارض وأشار الى اتفاق لبيع البترول عن طريق الامريكيين . وكانت المقارنة أكثر وضوحا عندما ذهب الرئيس الى القدس . وأبلغ بيجين كارتر بأنه لن يوقع . نبي بالحروف الاولى من اسمه على الاتفاق بدون أن يعرضه أولا على الحكومة الكنيسة وسأله الرئيس عما إذا كان يريد السلام حقيقيا . وكتب يقول في مذكراته « . لقد كان انطباعي أنه فعل كل شيء بوسعه لمرحلة التوصل الى اتفاق باستساعة واضحة » وكان بيجين فيها يبدو يعمرق المساعدة وبدء بحادثات الحكم الذاتي » . وكان كل همه الاحتفاظ بكافة الاراضي المحتلة باستثناء سيناء ، وبدأ غير مكثرت بمأساة العرب الذين يعيشون محرومين من حقوق الاساسية في ظل الحكم الاسرائيلي .

وكان بيجين متوترا بصورة لا مثيل لها ، ومؤمنا بالقدر ومصمما على الا يملأ احد عليه شيئا عندما جاء كارتر لالقاء حديث في اجتماع خاص للحكومة في صباح اليوم التالي . ووقف منتصبيا ليلفت الانتباه ومعه اثنان من مساعديه ينظرون الترهيب بالضيق عند باب مبنى مكتبه . وسمعه احدهم وهو يخفي بلا ضم من بين اسفانه المطبقة قائلا (أنى ما أمين) وهي الترتيبة اليهودية للايمان وتعنى (اننى اؤمن) وهي نفس الترتيبة التي كان يخفيها الآلاف من ضحايا هتلر وهم يدخلون غرف المسال . وذهب كارتر في نفس اليوم الى (ياد فاشيم) وهو النصب التذكاري للابادة في جانب جبل (هيرتزل) . وخلال اجتماع الحكومة صرح الرئيس للوزراء الاسرائيليين بأنه يتعين عليهم أن يوافقوا . وهينذاك قطعه بيجين قائلا : « سنوافق على ما اتفقنا أن نوافق عليه » . وطبقا لما ذكره شاهد اسرائيلي أجلب كارتر بقوله : « نسي أنهم » وانتهى الاجتماع بوصول اسرائيل والولايات المتحدة الى طريق مسدود بشأن . سالفين : وهما مبيعات البترول المضمونة وطلب مصر الخلس بفتح مكتب اتصال في غزة ، التي كانت تحكمها في الفترة من عام ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧

وتجلى نفاذ صبر الرئيس في حديث أدلى به بعد ظهر ذلك اليوم امام الكنيسة وقال فيه ان « شعب البلدين على استعداد الآن للسلام » . « وم يبرهن الزعماء بعد على اتنا على استعداد للسلام لدرجة تدفعنا لانتهاز هذه الفرصة » . وتم تقديم هذه النقطة ببراعة ، نكن لم يكن هناك احد في المجلس يساوره أى شك بشأن أى الزعيمين الذي كان يدور في خلده . وكان رد بيجين يتعرض لمقاطعة مستمرة من أقصى اليسار وأقصى اليمين . وتم طرد (جيولا كوهين) ناقدة الوطنية الشديدة الصخب من الكنيسة بعد رفضها السماح لرئيس الوزراء بالمضي قدما . وصاحت وهي على البلب تقول « مساو اصل نضالى » وشعر الامريكيون بالصدمة نتيجة للضجة بالرغم من اسمهم نظاهروا بانهم تأثروا بحيوية الديمقراطية الاسرائيلية . وقال سيروس

فانس « لقد شهدنا البرلمان البريطاني » ، لكن ذلك أسوأ من انبرلمان
البريطاني ، وكان ذلك يوما مغصا بالضجيج .

ولاحظ الصحفيون الذين يتسمون بالتبصر ان موسى ديان غادر بسبب
الجلسة وصعد الى اعلا ليهيس اى وزير للخارجية في قاعة الزوار المبهوتين .
لقد جاء ليعتذر عن هذه المضجة التي يمكن تفسيرها بانها اعمال غفلة موجهة
لالرئيس . الا ان مهمته التي تلم بها الى الدور العلوى كانت ايضا بداية
لمبادرة خلصة ادت في غضون ٢٤ ساعة الى اتفاق ومعاودة سلام ، واقترح
وزير الخارجية اجراء حديث هادئ في وقت متأخر من النهار ووافق سروس
فانس . وعلى اية حال كان من المقرر ان يجتمعا في لقاء آخر بين الحكومة
والامريكيين (وهذه المرة بدون الرئيس) . وطلب ديان من بعض رفاقه البقاء
بعد مغادرة الامريكيين . واتفق الوزراء معه على ان اسرائيل لا يسعها ان
تترك الرئيس يعود الى الوطن خلوى المفاوض من رحته . وطبقا لما ذكره
(نقتالي لافي) المتحدث باسم ديان ، فان ديان لم يكن يريد ان يثير عدا
كلرتر . وفي المقام الاول ، لم يكن يريد ان يشعر بان اسرائيل هي السبب
في اخفائه . وقد كان يرى ايضا في افكار كلرتر بعض الضوء ، وشيء يمكن
تطويره وهو التزام امريكي بضمن امدادات البترول ووضع غزة . وشعر
ديان بانه يستطيع الفوز بقتاق ، وطلب من شمويل تلمر وزير المصل ان
يصيغ عبارة من شأنها ان تلزم الولايات المتحدة بشأن امدادات البترول .

وعندما ذهب ديان ليرى فانس في غرفته بالفندق بعد ذلك الاجتماع
الحكومي ، عرف كلاهما ان بخلافات الحقيقة ليست هبة للغة ، الا انه
من الصعب لم شمل الاجزاء معا مرة اخرى . وطبقا لما ذكره احد موظفي
بيجين ، كان ديان احد الرجال القليلين الذين يستطيعون اقناع رئيس الوزراء
بقوة الحجة بتغيير تفكيره ، الا ان وزير الخارجية فضل التسلل في هذه المرة .
وقال فانس « اننى اعلم انه حصل من بيجين على بعض من حرية التصرف
لكننى شعرت بانه من المرجح كان يلج على التحرك على نطاق اوسع . واننى
مقتنع بان عليه ان يقنع بيجين بافكاره بعد ذلك . وفيما يتعلق بقضية غزة
اقترح ديان اقناع المصريين بعدم الاشارة في هذه المرحلة الى مكتب الاتصال .
وهم يستطيعون على الدوام اقتراح اجراء انتخبلت مبكرة في غزة اثناء
مفاوضات الحكم الذاتى . واكد ايضا على انه بمجرد ان تبدأ اسرائيل في
الانسحاب من سيناء وتسود العلاقات الطبيعية سيصبح بمقدور كل مصرى
السفر الى غزة بتأشيرة اسرائيلية . وقبل فانس ذلك بشرط ان تلتقى
اسرائيل مع السادات في منتصف الطريق بشأن بيعات البترول . وكان
المصريون يشعرون بحساسية تجاه مكافأة اسرائيل على سيناء ببيع بترولها
بسر منخفض وادرك ديان مشكلتهم . وبعد ذلك درس هو وفانس دلالات

الضمان الأمريكى . وأصر ديان على فترة في معاهدة السلام تنص على أن إسرائيل من حقها شراء البترول مباشرة من مصر ، وخلاف ذلك تظل مصر تحترق المقاطعة العربية . واستنقع إسرائيل بحق شراء البترول المصرى بأسعار السوق ، بالإضافة الى ضمان أمريكى مدته عشرين عاما للتعويض عن العجز اذا توقفت الإمدادات . وبناء على اقتراح وزير الخارجية وجسه كارتر دعوة اليه والى بيجين لتناول الأتطار في فندق الملك داود في اليوم التالى . وتقررت الصفقة أثناء تناول عصر البرتقال وبدلا من المقبرة بازعاج بيجين ، ترك ديان لفانس أن يحتل مكان الصدارة في تقديم أفكارهما . وأعد وزير الخارجية الى الأذهان ما يلى :

« لقد أخذنا على عاتقنا في صباح ذلك اليوم بحث الموضوع كما لو كنا نمسك بزمام المبادرة ، واعتقد أن هذه هى الطريقة التى كان يريد بها موسى ديان . وفي تقديرى فانه من المرجح انه قدم ما توصلنا اليه الى بيجين باعتباره مبادرة أمريكية الى حد كبير . وقد تركت له الامر ليقدمه الى بيجين بالطريقة التى يفضل تقديمه بها » .

وأنت استراتيجية ديان بشأن المبيعات بشملها . ففى حفل توديع الرئيس فى مطار بن جوريون تتم بيجين الى كارتر قائلا : « لقد نجحتم . واجتمع الرئيسان الأمريكى والمصرى فى مطار القاهرة ، ووافق السادات بالفعل على تبادل الأسراء فى وقت مبكر (وهى إيحاءة لتعاملات الطيمنية) ووافق على مد خط للانابيب من حقول البترول الى إسرائيل والكف عن العملية المناهضة لبيجين (المناهضة للسامية فى أغلب الأحيان) فى الصحف المصرية . ولم يشعر مستشارو السادات بالثقة تجاه الصفقة ، الا انه قطع عليهم الطريق كالمعتاد بقوله « ذلك مرض بالنسبة لى » . واتصل كارتر ببيجين تليفونيا وتم الاتفاق على أن يجتمع الزعماء الثلاثة معا من جديد حاملين معهم أنباء طيبة لحضور حفل التوقيع على المعاهدة فى البيت الأبيض يوم ٢٦ مارس . وفازت إسرائيل بأول معاهدة سلام لها ، وكان من الجائز الا يصل بيجين ابدا الى هذه النقطة بدون ترقيفت ديان ووايزمان وباراك ، الا انه كسب الثقة بالقيام بالمخاطر السياسية وبالتحديد التضحيات التى سيقدمها والتي لن يقدمها . وعلى الرغم من الصور الموثوغرافية المبتسمة الا انه لم يكن سوى عدد يسير من الأصدقاء على الطريق . وكان تعليق كارتر على هذه المشاركة المثيرة للسخط هو « اننى لم أتمتع فى الغالب ابدا بمفاجأة سارة فى معاملتى معه » .

وكان السادات أكثر سخاء بمجرد أن صدق بيجين باعادة العرش ، العاصمة المقبرة لميناء ، الى مصر فى يوم ٢٥ ابريل . وطبقا لما ذكره

بطرس غالى نائب وزير خارجية مصر الدائم فان السادات حينذاك فقط بدا يثق فيه . وقدم بيجين ما التزم به . وثمت مكلفاته بصورة مناسبة فى حملة انتخابات عام ١٩٨١ عندما قبل السادات دعوة لحضور اجتماع قمة فى شرم الشيخ كان من شأنه ان يكون عملا استعراضيا صرفا . وقال غالى : كان السادات يؤيد اعادة انتخاب بيجين . وفى تقديره فان فوز بيجين سيكون افضل بالنسبة لمصر ، كانت اولويته هى الانسحاب من سيناء . وقد اعتقد انه بدأ العملية مع مستر بيجين ومستر بيجين قدم فى المرة الأولى وسيقدم فى المرة الثانية . وكان لطيفا مع بيجين ليضمن استكمال الانسحاب من سيناء .

وترك آخر جندي ومبنى اسرائيلى الارض المصرية يوم ٢٥ ابريل عام ١٩٨٢ أى بعد مرور ثلاثة أعوام على اعادة العريش . وفى ذلك الحين كان السادات قد اغتاله المتعصبون المسلمون وحل محله نائبه حسنى مبارك . اما منافحيه بيجين فكان لا يزال رئيسا لموزراء اسرائيل ، ومازال يحكم الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة . وانفثرت فى الرمل مفاوضات الحكم الذاتى . وكلفت المصالحة الاسرائيلية المصرية اشبه ببرعم اوقف الصقيع نموه وظلت الحدود مفتوحة ، الا ان المرور كان فى اتجاه واحد ونادرا ما كان المسجونون المصريون يزورون اسرائيل اما التجارة فكانت مجيدة ، وتلاشت العلاقات الثقافية . الا ان معاهدة السلام اجتازت اختبار الحرب اللبنانية عام ١٩٨٢ . وبعد مذبحة مخيم صبرا وشاتيلا ، استدعى حسنى مبارك الى الوطن سفره فى اسرائيل لاجراء مشاورات غير محدودة . ومع ذلك ، لم يتم اغلاق السفارة والحدود ولم تصل مصر بالسلاح وظلت « اولوية الالتزامات » سارية المفعول . وفى شهر نوفمبر عام ١٩٧٧ كان الناس فى شوارع القدس ياملون فى شيء اكثر .

الفصل الواحد والعشرون

غرق بيجين

كان مناحم بيجين مخلوقا متقلب المزاج . وكانت الحكومة تتأرجح مثل البترول بين اليأس والرجاء ، وبين الشلل والنشاط المحموم طبقا لحالة رئيس الوزراء العتلية والجسدية ، ولقد شهدت السفطان المتقاتلان بين معاهدة السلام مع مصر والانتخابات العامة في ٣٠ يونيو عام ١٩٨١ هذا التذبذب في أشد صوره . وظل بيجين الشخصية المسيطرة ولم تكن الحكومة لتستطيع أن تفعل شيئا بدون . وكذلك فإن الحكومة لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا ومـــــر على رأسها . وبعد استقال أشد الوزراء استقلالية في الفكر وهما موشى ديان وعزرا وايزمان في أكتوبر عام ١٩٧٩ وفي مايو عام ١٩٨٠ على التوالي . فلم يعد بيجين في حاجة لـديان لخبرته أو لشهرته . فهو لم ينس خروج ديان على النظام أثناء مفاوضات السلام . وسرعان ما أدرك ديان أنه لم يسمح له بعد ذلك بأن يمارس دبلوماسيته الخاصة . ولقد هاج وايزمان وغضب وثار وماج وتزايد شقلاؤه لأن بيجين كان يعرض السلام للخطر بنظرة الصرامة لموضوع الحكم الذاتي الفلسطيني وكتب وزير الدفاع في خطاب الاستقالة يقول : « بالنسبة لشعب إسرائيل كانت أيلم مليئة بالثراء والأمل في فترة توليكم رئاسة الحكومة . ولقد آمن الشعب بالحكم وأمن بالسلام . ولم يكن الشعب هو الذي توقف عن الإيمان بالسلام .

وفي نفس الوقت غلن فشل سمحا أرليخ في سياسته الاقتصادية القاسية على السوق الحرة ، قد أصبح فشلا يزداد وضوحا يوما بعد يوم . وحل بيجال هورغنز محل وزير المالية وهكذا انفجرت الأسطورة القائلة بأن رجال الأعمال لاهرار كانوا يعرفون كيف يرعون ويعتنون بالاقتصاد . وكانت لدى هورغنز الذي تحول بسرعة وثبتت ناحية اليمين بعد أن اختلف مع الحركة العمالية في بداية عهد بن جوريون ، الشجاعة لأن يفرض القيود الضرورية على الانفاق العام . وقد عرف باسم « ليس عندي » أو « لا أملك شيئا » . لكن جهوده لم تثر إلا سلسلة من الأزمات داخل الحكومة . وكتب تنقص هورغنز القسرة على إجبار زملائه في الحكومة على الموافقة على أسلوبه . أما رئيس الوزراء فكان غير مبالي . لقد كان شغل بيجين الشاغل هو النضال من أجل أرض إسرائيل « ومعركة من أجل الحفاظ على الوفاق بين الائتلاف وحزبه .

وفي النصف الثاني من عام ١٩٨٠ غرق بيجين في واحدة من دوامات اليأس . وكان في هذه المرحلة قد عانى من ثلاث أزمات قلبية ومن حالة

شلل خفيفة . وقد برزت اثر هذه الازمت . واخذ الوزراء يشتكون من مجزه عن القيادة . ووجدوا الزائرون غمر المشعور غير مبال ومنمزلا وعاطفيا . وفي اغلب الاحيان كلن لا يعرف من هم هؤلاء الزوار ولا لماذا اتوا . وجاء وفد من « رابطة الصحافة الاجنبية » يسجل دور بيجين بصفته قائما بأعمال وزير الدفاع بعد استقالة وايلمان ، ولكنه خرج من مكتبه في حلة احباط واشفاق . وقد اتفقوا تلمبا بأن بيجين كان يقضو نجه بسرعة كبيرة . وقد اكّد الشهود العسكريون ما اشيع في الصحافة الاسرائيلية بأنه كان ينلم أثناء مناقشته معهم . والقول بأنه كان يعانى من الاثار الجلبية للادوية التى تعطىها لمعالجة قلبه قول بعيد عن الدقة . لقد كان بيجين يتعامل بالتظلم علاجاً مضادا لتجلط الدم . وعندما سأل أحد مساعديه دكتور ميرغن جوتسمان طبيب رئيس الوزراء الخاص عن اثر هذا الموج اجابه الطبيب بأن هذه الادوية لا تؤثر في قدرة بيجين العقلية . لقد كان متعبا بسبب مرضه واكثر ما يمكن أن تفعله هذه الادوية هو أن تصييه بالنعاس . وقد نصحه الاطباء بأن يقصر عمله اليومي على أربع ساعات فقط . وقتل أحد رجال مكتب بيجين أن رئيس الوزراء قد استمر في تصير الأمور الهامة للدولة وهو على فراشه في المستشفى بعد اصابته بازمة قلبية .

« انه ابدا ما بلغ من العجز الى حد الاستسلام . وفي احدى المرات وكان في المستشفى بعد اصابته بسكتة خفيفة ، أخبرنا الاطباء انه ليس من المحتمل استعادة قوة ابصاره في عينه اليسرى . ولكنه ظل يلى المذكرات والخطبات . وبعد شهرين ، وفجأة وهو في مكتبه برئاسة الوزراء استعد بصره قوته السابقة وقال : « اننى استطيع أن أرى — بوضوح تام » . ولم يكن هناك ما يدل على انه كان واقعا تحت تاثير الادوية والعقاقير . انه رجل يخضع لاحواله المزاجية والتي تفسر جنبا الى جنب مع كياته العاطفية . اننى لم اره قط وهو أثناء عمله اليومي خاضعا لنظم ادوية مكثف وصارم . واننى لم اره قط ينظر الى ساعة ليتناول جرعة دواء كل ساعتين » .

وفي أثناء أحد اجتماعات مجلس الوزراء وعندما غرق في حلة من حالات الوسوسة اثر وزير الداخلية يوسف بورج ورقة لاهد زملائه جاء فيها : « اذا كان هذا ما تفعله هذه الجيوب فانتى أريد مظهرها لى » . وفي مناسبة أخرى ، وعندما كان بيجين في أسوأ حالاته دخل الى قاعة الكنيست واتجه فوراً الى مقعد زعيم المعارضة والذي ظل يشغله حتى عام ١٩٧٧ . وجاء أحد رجال الكنيست وأوضح له في لطف الخطأ الذى وقع فيه وقاده الى مقعده الحقيقي كرئيس لمجلس الوزراء .

كانت حكومة مناحم بيجين هى الاولى في التاريخ البرلماني الاسرائيلي التى تواجه فيه اجراء انتخابات مبكرة ويختارها . وقد اتخذ هذا

القرار في يناير عام ١٩٨١ وذلك بعد أن اعترف هورغنز بالمهزمية في محلوله خفض ميزانية التعليم ونقل مجموعة راني التي يرأسها وتتكون من ثلاثة رجال الى جانب المعارضة . وكانت أغلبية الحكومة قد انخفضت الى ثلاث أصوات في تصويت الثقة قبل ذلك التاريخ بشهرين فقط . وعندئذ فضل بيجين أن يرجع الى الشعب بدلا من أن يتشبث بالبقاء تحت رحمة الجماعات المنشقة والانتهازيين . وبالرغم من احتجاجات المعارضة ناله حدد موعد الانتخابات يوم ٣٠ يونيو وخرج رئيس الوزراء من اجتماع خاص لمجلس الوزراء وهو يبدو أكثر اشراقا ومرحا من أي وقت منذ عدة أشهر . ولكن احتمالات تشكيل بيجين لحكومة جديدة بدت قاتمة وغير محتملة ووضعت تقيسات الرأي العلم حزب العمل في مركز متقدم كثيرا حتى أن مستر شيمون بيريز ظهر وكأنه سوف يكون بعد نهلية الانتخابات أول زعيم إسرائيلي يحقق أغلبية ساحقة . لقد خسر بيجين وزيرين للمالية في غضون ثلاثة عشر شهرا . كان بيجين في سنة ١٩٧٦ قد هاجم حكومة اسحق رابين المقترحة لأنها تركت التضخم يصل الى ٢٥ ٪ / ووعده بأن يخفض هذه النسبة الى النصف .

وفي عام ١٩٨٠ ارتفعت أسعار السلع الاستهلاكية بمعدل ١٢٢٫٩ ٪ / واخذت الفجوة بين الأغنياء والفقراء في الاتساع وأشارت الدراسات الى أن ما لا يزيد عن ٣٠ ٪ من اليهود الشرقيين الذين أدلوا بأصواتهم في صليح بيجين سنة ١٩٧٧ يزعمون تأييده هذه المرة . أما المنشقون عليه فلهم لم يكونوا راضين عن أداء حكومته في الناحية الاقتصادية والاجتماعية بالرغم من أنهم كانوا لا يزالون يؤيدون سياسته الأمنية وسياسته الخارجية وسياسته إزاء المستوطنات . والشيء الذي جذب قليلا من الانتباه في يناير هو أن ٢٧ ٪ من مجموع الناخبين لم يكونوا قد قرروا بعد أي المرشحين ينتخب . وأوضح تقياس للرأي العام نشرته صحيفة ها أرتر اليومية أنه بالرغم من أن ٥٥ ٪ يريدون تغييرا فوريا للحكومة ، إلا أن ٣٩٫٧ ٪ من الناخبين لم يكونوا يعتقدون أن حزب العمل في أمكنه أن يكون أحسن حالا في المجال الاقتصادي . لقد كان الإسرائيليون قد تحرروا من سحر بيجين ولكنهم لم يتكلموا وراء بيريز . لقد كان أمام ليكود ما يحاربون من أجله وأمامهم متسع من الوقت يبلغ ستة أشهر .

إن أحياء ليكود لم يضع أسلمه بيجين أنها الذي وضعه خليفة هورغنز وهو يورام أريودور وهو من جيل سابق سنة ١٩٤٨ . ولكن أريودور أوا، وزير مالية إسرائيلي يحمل درجة عليية في الاقتصاد . ولكن هذا لم يمنعه من أن يقدم برنامجا انتقاليا دفع بالتضخم الى أعلى أكثر من ذي قبل ويصل بميزان المدفوعات الى الخط الأحمر . ولا شك أن أسلمته قد

عليه أنه لا يمكن علاج انتفخم عن طريق تشجيع المستهلكين بالاندفاع نحو شراء السلع الكمالية . ولكنه كان سيلسيا يدرك أن هذا هو السبيل نحو كسب الأصوات . وادت — التخفيضات في الضرائب الى خفض سعر التلفزيون الملون بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و ١٥ في المئة وخفض سعر السيارات الجديدة بنسبة تتراوح ما بين ١٠ و ١٧ في المئة . وخفض الاسعار بنفس النسبة المثوية على الاوتو والمعدات المنزلية والاثاث . واعلن وزير المالية أن ضريبة الشراء المفروضة على النبيذ الحلو سوف تخفض الى النصف في أول يوليو . وهو اليوم السابق للانتخابات . وفي خلال شهر اعلنت لفرع التجارية أن الاسرائيليين قد تقدموا بطلبات شراء ٨٠٠٠ سيارة جديدة و ٦٠٠٠ جهاز تلفزيون . وجميع هذه السلع مستوردة من الخارج . واستأجر تجار الجملة طائرات الجلبو لمواجهة هذه الطلبات . ولقد ارتفعت مبيعات لمسيارات وحدها بنسبة ٤٠٠ في المئة . وكتب ماني جولان في صحيفة ها أرتز يقول ان سياسة اريدور قد نجحت :

« لقد بدأ الناس يسألون انفسهم هل سيذهبون عاليا بعد الانتخابات بسبب سياسة اريدور الاقتصادية الانتخابية كما يقل لهم خبراء الاقتصاد . وكانوا ينصتون لما يقوله هؤلاء الخبراء ويهزون رءوسهم في شك . فالاسرائيلي العادي لا يفهم كثيرا في شئون الاقتصاد وهو بالتأكيد لا يفهم السياسات الاقتصادية طويلة الاجل . واليوم تنخفض الاسعار وهذا هو ما يهيم . وحزب العمل لم يكن يعرف كيف يتصرف . فكيف له ان يقف ضد خفض الاسعار ولم يكن يعرف كيف يقف في وجه هذه السياسة الاقتصادية غير المسئولة وغير الملحمة والتي وضعت من أجل الانتخابات » .

وسمع أحد المشترين في القدس وهو يقول : « ان كل فرد يعلم أنفسا سوف تدفع الثمن في نهاية الامر ولكن رغم ذلك فانا نشترى . وربما لن تكون هناك فرصة كهذه الا في الانتخابات القادمة . وبدأت سياسة اريدور هذه تنعكس على قياسات الراي العام . وفي منتصف شهر مارس بدأ حزب ليكود يستعيد الأصوات التي كان قد فقدها بينما كان حزب العمل يناضل من أجل الاحتفاظ بمواقفه . ولكن لا زالت الهوة بين حزب العمل وحزب ليكود واسعة، إلا أن خطأ جديدا قد بدأ يظهر . وبدأ الناخبون الشرقيون في حسم موقفهم . ولقد اعطاهم اريدور الفرصة للموودة الى حظيرة ليكود . ولما تردد الاستراتيجيون في حزب العمل في الظهور فاتهم بذلك قد اتاحوا الفرصة للحكومة لتأخذ المبادرة في يدها .

وعند هذه النقطة من الحملة الانتخابية برز بيجين الى الوجود بسرعة أخرى كاتوى ما يكون منذ عودة لازاروس . ففي مقابلة اذاعية بمناسبة ذكرى

الثالث والثلاثين لولد اسرائيل تفلخر بيجين بأنه يشعر أنه أفضل من أي وقت مضى خلال السنوات الأربع الماضية ومنذ أن تولى رئاسة الحكومة ومثل معللا ذلك « لاني في قلب المعركة الآن » . كان حزب ليكود قد أحسز النصر في انتخابات سنة ١٩٧٧ معتدا على اسم بيجين ولكن بدون ظهور الرجل نفسه ذلك لانه في الشهرين الاخيرين من انتخابات علم ١٩٨١ حارب الحزب معتدا على اسم بيجين وبشروط بيجين . ولجأ بيجين الى منبر الخطابة للمرشحين في الانتخابات حيث أخذ يطمئن أعداءه القدامى الواحد تلو الآخر بدءا بالحركة العمالية التي عاملته هو ورفاقه بالاحتقار لقربة تسبعة وعشرين عاما والامان الذين قتلوا ستة ملايين يهودي والشيوعيين الذين بعثوا به الى مسكرات الاعتقال (الجولاج) والبريطانيين الذين علقوا مقلتي جماعته في المشاق . وكان رد فعل دائرته الانتخابية في الاحياء الفقيرة في المدن وفي المدن النامية المبعثرة مشوبا بالمعطفة وعنيفا في معظم الاحيان . لقد كان بيجين ملكا لاسرائيل والخروج عليه ضرب من الخيانة . وكتب أحد محرري الصحف في اسرائيل يقول : « يمكنك أن تقول لي أنك لن تشتري سيارة مستعملة من بيريز اما أنا فاني لن استأجر بيجين ليلعب طفلي لانه سوف يخفقه » .

وكان أول عمل من اعمال التهديد وقع في احتفال للجالية اليهودية المغربية في حديقة في القدس في نهاية عيد الفصح لقد جاء بيريز لكي يقدم تحيات حزب العمل للجالية اليهودية القائمة من شمال افريقيا لكن الشبان أخذوا يهزأون من ذكر اسمه والقوا عليه البرقتال والطباطم بمجرد أن صعد الى منبر الخطبة . وأجبر على ترك المكان قبل أن ينطق بكلمة واحدة . وانتشر العنف في طول البلاد بينما تجاهل بيجين جميع الدعوات التي وجهت اليه ليكبح جماح أتباعه . واشعلت خطبه النار وزادت من تاججها وفي اجتماع شعبي لحزب العمل في بتاح تكفا في منتصف شهر يونيو أخذ ما يقرب من ٢٠٠ شخص من أتباع ليكود يصيحون في وجه بيريز قائلين « بيجين ، بيجين ، ملك اسرائيل » . وأخذوا يهتفون بالبراميل المملوءة بالبنفايات والمشتعلة وينغمسون بها الى وسط الحشد البالغ عشرة آلاف ، وأخذوا يحطمون النوافذ في المقر المحلي لحزب العمل . وأصيب ثمانية عشر شخصا وألقى القبض على ٢٦ شخصا . وفي مواجهة مماثلة وقعت في القدس تم تهديد أحد مندوبي الصحف الاسرائيلية اذا ما ذكر اسم زعيم الجماعة التي رفضت السماح لبيريز بالحديث . وأصبح العنف والكراهية هما المحور الرئيسي في الحملة الانتخابية . واستغل حزب العمل صورة لحد مؤيدي حزب ليكود وهو يلوح ببطوأة في اجتماع حضره بيجين . وأعلنوا طبع صور الهجوم الذي وقع علم ١٩٥٢ على الكنيست . لقد قسم بيجين ، اليهودي البولندي ، البلاد الى شرق وغرب ولم تكن قد انتصبت كذلك من قبل . وقويت الكراهية والاحتقاد على الجانبين . وبالنسبة لليهود الغربيين كان

اليهود الشرقيون يشكلون تهديدا بدائيا للديمقراطية الاسرائيلية . وبالنسبة لليهود الشرقيين فان اليهود الغربيين متطرسين ادعاء يخشون فقدان امتيازاتهم ، وهم اوروبيون غرباء في الشرق الاوسط . لقد كان صراعا بين الثقافات السياسية المختلفة كما هو صراع بين هذه الاصول العرقية والعنصرية المختلفة . ولقد اتهم شلومو هيل ، وهو زعيم عمالي ولد في العراق ، رئيس الوزراء بأنه يدفع البلاد نحو الفاشية لقد كان هناك جو من التحفز الاجتماعي الاشتراكي . وقد علمنا التجارب بأن هذين العنصرين اذا ما امتزجا ادبا الى الفاشية . ولقد كان بيجين يناشد القطاع الادنى من الجماهير

وتمنفس هذه النشوة المتصاعدة دفع رئيس الوزراء بخطبة اسرائيل الى حافة الحرب مع سوريا وبعث بقواته الجوية لقصف المفاعل النووي العراقي . وانتفى بهذين الحثثين كيرهان على انه هو الوحيد الذي يعرف كيف يتعامل مع العرب . وفي ابريل شنت ميلشيا الكتائب اللبنانية والتي دربتها اسرائيل ، هجوما في شرق لبنان مهددة المواقع السورية بالقرب من مدينة زحلة الاستراتيجية . وكان رد فعل السوريين القصف المركز وعلن بيجين ان اسرائيل لن تتف مكتوفة اليدين في وجه هذه الاعمال الاجرامية من الدولة المجاورة لبنان . وضربت قواته الجوية قواعد الفدائيين الفلسطينيين في جنوب لبنان . وفي ٢٨ ابريل اسقط طائرتين هليكوبتر سوريتين وقد وصفت هاتين الطائرتين بأنهما من طائرات الهليكوبتر المهلجة وان كان بيجين قد اعترف بعد ذلك بأسبوعين بأنها كلتا تنقلان قوات واسلحة . ويرر التدخل الاسرائيلي بأنه نتاج التجارب التاريخية وائر من آثار اليهودية .

ولقد سأل السفير الامريكي سموئيل لويس ما اذا كان قد قرأ كتاب آرثر مورس بعنوان « بينما مات ستة ملايين » والذي سجل عدم اكتراث العالم الحر لعملية اغناء يهود أوروبا واخبر رئيس الوزراء لجنة الشؤون الخارجية والدفاع في انكبيست بأنه قرأ هذا الكتاب ست مرات وقال :

« في كل مرة قرأت فيها هذا الكتاب لم اكن اخجل من انسياب الدموع من عيني عندما كتبت اخجل كيف اهل شان شعبنا اليهودي وترك وحده . لقد تنظم الالمان لكن العالم تركنا نلقى مصرنا . وقلت للويس « اريد ان اتول لك اننا دولة يهودية ولنا تجاربنا الخاصة بنا ، واننا لن نسمح تحت اي ظرف من الظروف ، للسوريين محاولة تحويل المسيحيين في لبنان الى ما كان عليه اليهود في أوروبا في الارمينات . ان السوريين مع الارهابيين يعملون الخنيين تماما كما كان يفعل النازيون . انهم لا يهتمون اطلاقا بالرجال او النساء او الاطفال » .

وعلق اثنان من سياسى حزب العمل ، والاتنلن كلنا رؤساء اركان سابقين في الجيش، وهما اسحاق رابين وحليم يارليف ثقلين في تعجب ان لمعه السوريين لايشبه في شئ النزية . ولم يكن هذا القياس او التمثيل ناجحا . واصر بيجين على انه بالرغم من ان السوريين لم يقيموا غرف الفسار للمسيحيين اللبنانيين الا ان دبلاتهم ومنفعتهم تقوم بنفس العمل . وكان منسوبا لاهداف بيجين ان ينسى ويتجاهل ان اسرائيل هي التي سلحت الكتائبين وانهم هم الذين تسيبوا في هذا القصف . وكان يتكلم وكان الحرب الاهلية اللبنانية لم تقع ابدا . ورد السوريين على اسقاط طائراتهم الهليكوبتر بلن دفعوا بصواريخ سام - ٦ المتحركة الى وادي البقاع . وكانت هذه هي اول مرة يضعون فيها هذه الصواريخ في الاراضي اللبنانية وطلب بيجين بسحب هذه الصواريخ قائل انها تهدد حرية عمليات القوات الجوية الاسرائيلية فوق لبنان . وما اثار قلق العسكريين المحترفين انزالا لسفن بيجين فقد اعلن وسط حملات الجاهل في اجتماع ليكود انه مالم يعمل السوريون على ازالة هذه الصواريخ فان اسرائيل سوف تبعث بقواتها الجوية لتدميرها . واصاب المستولن عن الامن الذهول . وكتب هيرشي جودبان المرسل العسكري لصحيفة جيروسالم بوست يقول :

« لماذا اخطر بيجين السوريين بان رد فعل اسرائيل سيكون عن طريق الجبر ؟ لقد كان السوريون قد اكملوا لتوهم نشر بطارية مسلحة الى جانب صواريخهم على الحدود السورية اللبنانية - ذلك لانهم لم يكونوا يعرفون ما اذا كان الهجوم المحتمل سيأتى عن طريق البر او الجو او عن طريق الاثنين معا »

وفي اليوم التالي ضاعف بيجين الاساءة عن طريق الكشف في الكنيست عن ان الاوامر قد صدرت الى القوات الجوية بان تقتلع بطاريات صواريخ سام ٦ في ٢٠ ابريل لكن هذه المهمة قد الفيت بسبب السحب الكثيفة . لقد كان بيجين رئيس للوزارة وفي نفس الوقت قائما باعمال وزير الدفاع فلان معلوماته كانت دقيقة وايضا مدمرة . وقال رئيس سابق لمخابرات القوات الجوية وهو العميد ياشياهو باركت في مقابلة تليفزيونية انه خلال خدمته في الجيش لمدة خمسة وعشرين عاما لايزكر ان اسرار العمليات قد نشرت بهذه الصورة . وان اى فرد في الجيش لو فعل ما فعله بيجين لوجهت اليه تهمة الاخلال الخطير بالامن . ونقل عن ضابط آخر قوله : « لقد قدم للعدو وعلى طبق من ذهب ما كان سوف يتفق على الحصول عليه سنوات ملايين الجنيهات وحتى لو فعل ذلك كانه لن يكون متاكدا من صحة ما حصل عليه من معلومات . والخطا الذى ارتكبه بيجين انه بتحليله للطقس في اليوم الذى كان مفروضا فيه ان تدمر القوات الجوية الاسرائيلية الصواريخ السورية ، مكن السوريين من معرفة الظروف الجوية التى في ظلها تستطيع القوات الجوية الاسرائيلية ان تعمل ومتى لا تستطيع ذلك . وبذلك تم

الكشف عن حدود عمل الطائرات الاسرائيلية وكذلك عن عشرات من حالات اخرى من التفاصيل التي يمكن استنتاجها من هذه المعلومة . ومثل هذه المعلومة كانت تراقب مراقبة دقيقة في الصحافة الاسرائيلية . ولم يكن رد الفعل لزلّة ببجين وحماقته مجرد نشوب الجدل السيلسي حولها ، بل ان اداء القوات الجوية ضد السوريين بعد ذلك بعام يبين ان الضرر قد وقع بصورة سريعة جدا .

وبعد الساعة الثالثة مباشرة من عصر يوم احد الموافق السابع من يونيو انطلقت مجموعة من ست عشرة طائرة من الطائرات الحربية الاسرائيلية المتقدمة في طيران منخفض وسريع من قاعدة عسبيون بالقرب من ايلات ، وقصفت المفاعل النووي العراقي خارج مدينة بغداد وعلى بعد ستمئة ميل وعادت الى قواعدها سالمة دون اية خسائر وكلفت هذه الغارة واحدة من الغارات الجوية الدقيقة التخطيط والتنفيذ والتي اشتهر بها الاسرائيليون منذ حرب ١٩٦٧ وعملية عنتيبي وهكذا تراجعت فرص العراق لبناء قنبلة ذرية عربية بمساعدة فرنسا وايطاليا الى الوراء عدة سنوات . وقد خططت هذه الغارة على عجل لتكون انجازا انتخابيا ثيرا . وكانت حكومة ببجين قد اتخذت هذا القرار من حيث البدا في اكتوبر الماضي راختر بعض من افضل الطيارين الاسرائيليين للتدريب منذ ذلك التاريخ . وقد تم اختيار الطائرات وادخلت التمديلات على التكتيك الذي سوف تتبعه هذه الطائرات بصورة تقلل من مخاطر اكتشافها واعتراضها اثناء عبور طائرات اف - ١٦ المقنطرة وطائرات اف - ١٥ للصحرى العربية وكانت طائرات اف ١٦ المقنطرة متعددة الادوار تحدد الهدف وتصيبه بقتل زنة ٢٠٠٠ رطل بينما كانت طائرات اف - ١٥ المقنطرة المتقدمة تقدم مظلة واقية لحماية هذه الطائرات . واعلن ببجين عن هذه العملية بعد يوم واحد من وقوعها . وكان يوم احتفال الحصاد اليهودي المسمى « شلحوت » تعد ان اتهم الاردنيون الطائرات الاسرائيلية بمساعدة ايران في حربها ضد العراق حليف الاردن . وبالرغم من انه لم يكن هناك اى ذكر للمفاعل الا ان ببجين اتخذ من هذا ذريعة كلبية للاعلان عن قصة تدبر المفاعل العراقي وقد تكون هناك ميزات دولية في اخفاء اسرائيل تورطها في هذه العملية لكن ببجين كلن دائما يميل الى العلانية . وكان توقيت العملية متأثرا بقرب الانتخابات .

وقد تم اخطار الامريكيين والاصحقاء الذين تساعوا عن هذه العملية ان ببجين قد نفذها في يونيو لانه لم يكن متأكدا من الفوز في الانتخابات وكان لا يثق في حلفائه من حزب العمل ان يقوموا بتنفيذها ان هم فازوا في الانتخابات وكان هذا احد هذه الاعتبارات . كذلك فان ما اثار قلق رئيس الوزراء هو تهديدات المفاعل العراقي . فلم يكن يراود الاسرائيليون اى شك في ان الرئيس صدام حسين يزمع صنع قنبلة ذرية . ولكن اليهود المقربين من ببجين قالوا كلن يريد عملية كهذه لاغراض انتخابية . وكانت الاغلبية من المستشارين الخبراء يعتقدون ان

هذا المفاعل لن يكون تهديدا حقيقيا قبل مرور ثلاث سنوات ولكن الاقلية من هؤلاء الخبراء ومستشاري الحكومة كانت توافق على أن هذا المفاعل سوف يكون كذلك في يوليو عام ١٩٨١ . أما الرأي السائد بين رجال المخابرات في واشنطن فكان يرى أن ذلك سوف يحدث بعد علم واحد . وكان بيجين مقتنعا بأن تصف المفاعل بعد أن يشكل تهديدا حقيقيا سوف يترتب عليه الآلاف من الانضحايا نتيجة للاشعاع في بغداد . . ولم يكن مستعدا لتحمل مسؤولية كهذه . وعلى أية حال فإن كلمة واحدة من خبير اسرائيلي يقول فيها أن تهديد المفاعل قد يبدأ بعد شهر واحد كافية لأن يتخذ رئيس الوزراء قرارا بقصفه .

وقال له المخططون العسكريون أن مخاطر الفشل ضئيلة جدا . وعلى أسوأ الظروف فند تضطر هذه الطائرات الى العودة أو أن تصاب واحدة أو اثنتان منها وهي في طريق عودتها أو من الصواريخ المنصوبة في بغداد وكانت القوات الجوية واثقة من أن في استطاعتها حل مشكلة المدى (وهي مشكلة الوصول الى بغداد والعودة على ارتفاع منخفض الحلجة الى إعادة تزويدها بالوقود) . وإذا ما كان هؤلاء المخططون على صواب فعندئذ تصبح مخطرات فشل هذه العملية على الانتخابات غير ملموسة . وكذلك استبعدت مخاوف وشكوك مدير المخابرات العسكرية ، جنرال بيهوشوا ساجوى ، من أن تؤدي هذه العملية الى تعميق الفجوة والازمة بين اسرائيل والولايات المتحدة . وكذلك لم يأخذ برأيه القاتل بأن العراق في حاجة الى خمس سنوات قبل أن يستطيع إنتاج قنبلة نووية ، وعندئذ سيكون اهل اسرائيل متسع من الوقت لمحاولة الوسائل غير العسكرية . وكان جنرال ساجوى يلقى تأييدا نراه هذا من الأغلبية في القيادة العسكرية ولكن ثلاثة من مؤيدي التنفيذ المبكر للعملية كانت لهم الغلبة وهم مناحم بيجين ، ووزير الزراعة ارييل شارون . ورئيس الأركان المعروف بقوة شكيبته جنرال رافائيل ايتان . ولكي يحيد أثر التحفظات السياسية داخل الحكومة فإن بيجين حول اتخاذ قرار بالنسبة للتوقيت الى لجنة نزعية ثلاثية مكونة منه ومن شارون ومن وزير الخارجية اسحق شامير وثلاثتهم من الصقور المتشددين .

وما أن اخبروه بما قاله الأردنيون اصدر بيجين تعليماته الى المتحدث الرسمي الناطق باسمه أورى يورات بأن يعلن عن نجاح العملية الاسرائيلية ، وكان يورات جديدا في هذه الوظيفة حتى ان المحسّرر المسئول في الاذاعة الاسرائيلية لم يتعرف على صوته . ولذلك تردد في اذاعة القصة حتى قلم رئيس قسم الاخبار باذاعة اسرائيل ايمانويل هالبرن وهو قريب لبيجين بالتأكله من القصة من رئيس الوزراء وانها ليست خدعة . واذيعت القصة كنشرة اخبارية خاصة في الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر .

وفي مؤتمر صحفي في اليوم التالي استبعد بيجين الشجب العالمي لنفارة مصر على ان اسرائيل قد تصرف من منطلق الدفاع القوي من النفس وانهم الرئيس صدام حسين بالتآمر لتركيع اسرائيل ولتدمير وجودنا ومستقبل وطننا . وزعم انه باستطاعة العراق ان يدمر تل ابيب الكبرى ومركز الصناعة الاسرائيلية والحياة الزراعية والثقافية والتجارية بثلاث قتابل فقط مما القيت على هيروشيا في سنة ١٩٤٥ . وقال ان ما يقرب من ستمائة الف ضحية سوف تقع فابين هو هذا البلد الذي يمكن ان يحتل مثل هذا الخطر ؟ انه لن نكون هناك اية مذبحه اخرى في تاريخ الشعب اليهودي .. انها لن تقع قط ..

اننا سوف ندافع عن شعبنا ضد اي عدو . ان كلوس آرثر مورس لن يتكرر ثانية . لم يكن بيجين دائما هكذا مع الارقام التي يدلي بها . ولقد تقابل مع مراسل لوكالة رويتر في حفل في السفارة البريطانية واخبره بان القنابل الاسرائيلية قد صمرت محملا سريا على بعد اربعين مترا تحت سطح الارض . وعندما ظهرت اللحشة على الوجوه كرر بيجين هذا الزعم ، وعندما سئل لماذا لم يكشف عن ذلك من قبل اجلب : « ولماذا اعطيكم كل شيء مرة واحدة ؟ وشرح المتحدث باسم رئيس الوزراء اورى بورات ان العراقيين كانوا يفعلون الاشياء التي لا يريدون اكتشافها في حجرة تحت الارض .

وفي اليوم التالي :تصل بيجين هاتفيا بمراسل رويتر باتريك ماس واعتذر له عن تضليله وقال له انه قد علم الآن ان المعمل كان يقع على بعد اربعة امتار تحت سطح الارض . وثمة مواقف اخرى حرجة . فقد نكثد بتزاك هوف رئيس المخابرات العامة (الموساد) الساسة الاسرائيليين علنا بالا يفشوا اسرار اتصالات اسرائيل بأجهزة المخابرات الأجنبية ويكشفوا عن معلومات سرية أمكن الحصول عليها منها . ولم يكن في حجة الى تحديد أسماء هؤلاء الساسة .

كما أخطأ وزير الخارجية في الاستشهاد بقول صدام حسين في بيان وزع على الصحافة والبعثات الاسرائيلية بالخارج . ولكن لم يكن هناك ادنى شك في أن الفارة على المفاعل الذري قد رفعت من صورة بيجين كزعيم يستطيع في ان يتخذ القرارات الشجاعة وتنفيذها على الفور . وكان الاسرائيليون يشركونه انراى في ان تهديد المفاعل الذري قد تمت ازالته وبقي حزب العمل في شجار وجدل حول التواريخ التي يمكن ان يصبح فيها هذا المفاعل تهديدا واقعا ، وهذا الجدل لم يكن يعني شيئا بالنسبة للناخبين .

وفي قياس للرأى العام في اواخر مايو وقبل الفارة على المفاعل بالسبوعين استطاع حزب ليكود ان يتجاوز حزب العمل . واخذ التأييد للحكومة يتزايد في السياسة الداخلية والخارجية والامن . وكان التأييد والتعاطف مع ايرل شارون في ترايد بالنسبة لصلته لاقبله المستوطنات في الضفة الغربية والتي كان التليفزيون التجارى يذيعها وفي الجولان التي تقوم بها القوافل في الاراضى المحتلة) والتي يديرها الوزير نفسه وتحت عنوان : « انفسا على الخريطة » وزادت عملية بغداد من تقدم حزب ليكود لكن حزب العمل تراجع في الايام

الآخرة القليلة من الحملة الانتخابية . وركزت المعارضة على العنف في الانتخابات وهذا دفع للكثيرين من الناخبين الذين يقعون في منتصف الطريق الى اعادة تقييم ما يؤمنون به من اسبقيات . فلذا ملكن هدفهم الرئيسى هو اخراج حزب ليكود فانهم ان يستطيعوا تحمل التصويت لصالح أحد الاحزاب الصغيرة من اليسار أو الوسط . واستطاع بيريز ان يرتفع بموقعه نتيجة لادائه الطيب في مناقشة تليفزيونية مع بيجين وعن طريق ضم منافسه اسحق رابين الى فريق رئاسة الحزب . وكلفت المحصلة هي حدوث سباق متقارب بين الحزبين الكبيرين ثم يحدث مظه في تاريخ اسرائيل . وفي لحظة مبكرة عندما كانت نتائج الانتخابات تدخل الى كمبيوتر التليفزيون ظهر بيريز وكأنه هو الفائز . وحصل حزب ليكود على ٤٨ مقعدا مقابل ٤٧ لحزب العمل . وكان غارق الاصوات هو ١٠ر.٠٠٠ صوت في انتخابات ادلى فيها ما يقرب من مليونين بأصواتهم . وكان الفارق العرقي والعنصرى أكثر وضوحا عن سنة ١٩٧٧ . وقل محلل الانتخابات هاتوش سميت :

« لقد حقق تحالف العمل مكاسب كبيرة في جميع المدن التي بها اغلبيه من اصل اوروبى . وعلى عكس ذلك فان اصوات حزب ليكود ظلت كما هي دون تغيير . وكان نمط التغييرات في المكاسب الكبيرة التي حققتها حزب ليكود في المدن التي تسكنها اغلبيه آسيوية - افريقية . وهذا يدل على ان زيادة مقاعد حزب ليكود من ٤٥ الى ٤٨ ترجع الى كسب جديد في اصوات الناخبين من الآسيويين والافريقيين وخاصة في المدن النابيه » .

وكان قيام تألف هذه المرة أكثر صعوبة مما كان عليه عام ١٩٧٧ لكن بيجين كان مستعدا مرة أخرى لأن يدفع الثمن في صورة حزب اجودات اسرائيل الأرثوذكسى المتطرف والحزب القومى الدينى وحزب شمال افريقيا الجديد المسى « تامى » وأصبح أكثر سهولة على طلبة مدارس اليتشميف (مدارس التلمود) والمعلمين في هذه المدارس تجنب الالتحاق بالجيش أو في الاحتياطى . واجبرت شركة الطيران « العال » على ان توقف طيرانها في أيام السبت . وبالنسبة لبيجين فان تأييد الاحزاب الدينية له يستحق كل « شاقل » (العملة اليهودية) ولأول مرة قد ناز في الانتخابات عن طريق غريزة الجواهر وعن طريق مهارته القديمة في الحملات الانتخابية وبقى وكلاء الاعلانات في اماكنهم . لقد حقق المستحيل ولم يفقه النصر .

الفصل الثاني والعشرون

خيـار الحرب

في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاحد الموافق السادس من يونيو عام ١٩٨٢ شنت اسرائيل هجوما شاملا برا وبحرا وجوا على معقل الفلسطينيين في جنوب لبنان من البحر الابيض المتوسط حتى سفوح جبل الشيخ ...

وفي خلال ساعات انتقلت اخبار القتال من الميناءين القديسين صيدا وصور وما أن حل صباح اليوم التالي حتى رغرغت نجمة داوود على قلعة ييفورت ، وهي قلعة للصليبيين اقاموها فوق مدخل نهر الليطاني ، والتي منها كان الفدائيون التابعون لياسر عرفات يلقون بظلمهم على لسان الجليل وبذلك كانوا يعيدون المحاولات السابقة لاقتلاعهم من هذا المعقل .

وفي خلال اسبوع واحد كانت اندبيلات الاسرائيلية عند ابواب بيروت . وهكذا تصاعدت هذه الغزوة الانتقالية الى حرب وصفها بيجين بأنها « حرب الخيار » ولاول مرة لم يحلول زعماء اسرائيل الاختفاء وراء شعار « ليس لدينا الخيار » .

لقد خططوا وانتظروا واختاروا الفرصة عندما لاحت لهم ولم تكن هذه حرب فتح واستيلاء على الاراضي كطمع نهائى بل كانت حربا جلبت على رئيس الوزراء اشد العقاب .

لقد كانت المدرعات الاسرائيلية قد عبرت الحدود في غضب قبل ذلك بأربع سنوات كانتقام لمذبحة ذهب ضحيتها اثنان وثلاثون مدنيا في عملية اختطاف قافلة للسائحين على الطريق الساحلي بين تل أبيب وحيفا .

وكانت « عملية الليطاني لعام ١٩٧٨ » عملية تمت على عجل وفي غير نظام في معظم الاحوال اكتسحت قواتها جنوب لبنان وقامت بتطهير حزام ملئو ضيق تم فتح هذا الحزام لصديق اسرائيل الراحل سعد حداد . وحتى ذلك الوقت كان الفدائيون - الفلسطينيون على مرمى البصر من القسرى الاسرائيلية ولذلك فاتهم قد جعلوا الحياة غير محتملة بالنسبة لجيرانهم من المسيحيين والشيعية المسلمين اللبنانيين .

هذا الاقتحام الاول قد تمخض عن قدر من السلام . وكان على المتسللين ان يتحدوا قوات الامم المتحدة المسلحة في المنطقة الفاصلة ، وكذلك ميليشيات سعد حداد المحلية وايضا دوريات الحدود الاسرائيلية (التي كلن بعضها يعمل

داخل لبنان) او ان يغلبوا بشن الهجوم من البحر . ولقد اوضحت حرب استنزاف ثابته وبصغرة وكثت قد تمخضت عن ازمة الصواريخ السورية في صيف سنة ١٩٨١ ان الفلسطينيين كانوا قريبين جدا من اسرائيل ويهددون راحتها .

وكلن في استطاعة قطع المدفعية :لسوفيتية الصنع من عيار ١٢٠ م . م وكذلك قانفت صواريخ كتيوشا المتحركة والتي كلن في استطاعتها ان تطلق اريعين صاروخا في المرة الواحدة ، ضرب مدن وقرى الحدود كلما ارادوا ذلك .

واثناء حيلة الانتخبات علم ١٩٨١ وعد بيجين بانه لن تسقط بعد ذلك اية صواريخ كتيوشا على مدينة كريك شيونة وهى مدينة متطورة في الحلال، اصبحت رمزا للخوف ورمزا للحياة المعطلة المزقة .

وبعد شهر من اعادة انتخابه ادى هجوم جديد اعنف من اى هجوم سابق الى اجبار نصف سكان المدينة على هذا الحصول على عطله مفروضة واجبر النصف الاخر على ان يبقى فى المخابىء .

وهكذا تحول الاسرائيليون الى لاجئين فى ارضهم . ووضع الجيش الخطط لابعاد مدافع الفلسطينيين ، لكن هذه الخطط قد وضعت على الرف عنسها استطاع الوسيط الامريكى فيليب حبيب التوصل الى وقف لاطلاق النار . وهكذا برزت بذور الغزو الذى تم علم ١٩٨٢ .

واكد تعيين ارييل شارون وزيرا للدفاع بعد انتصار ليكود فى الانتخابات ان هذه الخطط لن يتراكم عليها التراب . وكلن بيجين قد قاوم كثيرا هذا الخيل لما عرف من شارون من جموح وتصلب فى الراى .

وكان كل من وزير الدفاع الجديد ورئيس الاركان رافائيل ايتان على اقتناع تام بان لديها الرد العسكرى على مشكلة منظمة التحرير الفلسطينية . وكنا يقولان ان — اسرائيل فى استطاعتها تنمر قوة عرفات وقاعدته فى لبنان وهى البلد الوحيد الذى لازال فى استطاعته العمل منه — بصورة مستقلة -- ضد الدولة اليهودية ومن ثم يرفعون قبضتهم من على العرب الذين يعيشون تحت الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

وفى نفس الوقت يمكن اقامة حكومة صديقة فى بيروت برئاسة الزعيم الكتائبى بشير جيل والذى كانت اسرائيل قد رعته منذ منتصف السبعينات .

ولقى هذا المشروع استجابة لدى بيجين من الناحية الايديولوجية والناحية المزاجية . وبذلك تستطيع اسرائيل ان تؤكد قوتها ضد اخر اعدائها الذين يريدون تنمرها . وعندئذ سوف يأخذ اليهود مصرهم فى ايديهم .

أن رئيس الوزراء كان قد حصل على جائزة نوبل للسلام ولكنه لم يتخل عن جلوبوتسكى . فهو ليس بالقديس وليس أيضا من معارضى الحرب ورافعى راية السلام .

وكان بيجين هو الذى عرض خطة الغزو على الحكومة فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٨١ ، وذلك بعد اسبوع واحد من ضم اسرائيل للجولان . وكان السوريون فى حالة غضب شديد وفضل رئيس الوزراء ان يواجههم فى لبنان بدلا من مواجهتهم على المرتفعات . وانصت الوزراء فى دهشة فى حين بدأ شارون ثم ايتان فى شرح اهداف « عملية شجر الارز » التى نصت على اختراق اسرائيلى حتى طريق بيروت - دمشق وحصار بيروت ، والاتصال بالكتائبيين المسيحيين اليمينيين فى الشمال والنزول فى ميناء جونيه على بعد خمسة عشر كيلو مترا خلف العاصمة . وضغط بيجين للحصول على قرار بالتنفيذ لكن كثيرا من الوزراء عارضوا المشروع الامر الذى اضطره الى سحبه دون التصويت عليه .

وفى نفس الوقت عرض شارون مشروعه الكبير هذا مرتين على المسؤولين الامريكيين وطبقا لما قاله احد الذين استمع اليه : « لقد اعطى وجهه » نظـر شخصية ودقيقة لما يريد أن يفعله بالنسبة لمشكلة لبنان وقال بعناية ان هذه وجهة نظره بالفعل » .

ويزعم الدبلوماسيون الامريكيون انهم على الفور هزروا وزير الدفاع من مثل هذه الامور . وكلما امكن لواشنطن رصد اية علامة عن حشود عسكرية اسرائيلية فى الشمال كفت تبعث برسائل تحذيرية قوية الى بيجين عن طريق سفيراها فى تل اببيب سموئيل لويس . وقد ساعدت هذه الرسائل على كبح جماح اسرائيل فى مناسبات اربع فى النصف الاول من عام ١٩٨٢ عندما تعرضت حكومة بيجين لاغراء شن الحرب .

كان رئيس الوزراء من بين الاغلبية فى الحكومة التى كانت تعارض شن حرب انتقامية على نطاق واسع ردا على غارة للفدائيين على مستوطنة محولا ، التى تقع فى وادى الاردن ، وذلك فى نهاية شهر يناير ، وكذلك اعترض مرة أخرى فى شهر مارس عندما اقترح كل من شارون وايتان اتخاذ مبادرة فى لبنان لاختبار نوايا المصريين قبل الجلاء النهائى من سيناء . ولكنه انضم الى الصقور فى نهاية الشهر عندما قتل احد الجنود الاسرائيليين من انفجار قنبلة يدوية فى غزة .

وعلى اية حال فقد كان بيجين وشارون يمثلان اقلية من اثنين ولم يحدث شئ . وأدرك الامريكيون ان البندول يتذبذب تجاه اتخاذ عمل ما . ولم تنشر قط شروط فيليب حبيب لوقف اطلاق النار ولكن الاسرائيليين قالوا ان الهدنة تنسحب على العمليات الارهابية فى الداخل وفى الخارج ولا تقتصر فقط

على تلك التي تقع عبر الحدود اللبنانية ولكن الفلسطينيين كانوا يجادلون في هذا المفهوم وكذلك فعلت الولايات المتحدة ولكن هذا المفهوم ظل عقيدة وإيمانا بالنسبة لبيجين وشارون .

ومرة أخرى اقترح وزير الدفاع ما وصف بأنه « مشروع الكبير وذلك في اوائل ابريل بعد أن قتل دبلوماسي في باريس ولم يخف ابعاد هذا المفهوم الحقيقية عن مجلس الوزراء وإن كان قد عزم على البدء بشن غارات جوية على قواعد الفلسطينيين . وقد تم تخطيط الحملة على أن تستغرق ثمان واربعين ساعة للوصول الى بيروت وطريق بيروت - دمشق وأن يبقى الجيش في لبنان لمدة اسبوع واحد ولكن عندما عرض الامر على زعماء المعارضة قدر اسحق رابين أن اسرائيل سوف تحتفظ بكل لبنان لمدة تصل الى ستة اشهر . وعندما سأل رئيس الوزراء المسبق الرئيس الحالي منلهم بيجين عما اذا كان على استعداد لقبول هذا الاحتمال اجاب بيجين بالنفي ووضع هذا المشروع على الرف مفضلين عليه القصف الجوي .

وبعد تأجيلات متعددة أرسلت القوة الجرية في العشرين من ابريل وذلك بعد أن قتل ضابط في الجيش نتيجة لانفجار لغم وهو يقوم بدورية في جنوب لبنان . ولم ترد منظمة التحرير الفلسطينية ولكن بعد اسبوعين قصفت منطقة الجليل كرد على موجة ثانية من الغارات الجرية الاسرائيلية - وكانت هذه اول عملية انتهاك فلسطينية على هذه الجبهة منذ الهدنة . واقترح بيجين عملية انتقامية واسعة المدى بالرغم من أن القصف كان على نطاق ضيق رمزي ولم يصب الاهداف بصورة متعمدة وكانت الحكومة منقسمة بالتساوي بين مؤيد ومعارض . ووافق بيجين على تأجيل العملية .

ولكن تقرر أنه اذا ما قتل احد اليهود أو جرح على يد الارهابيين في أي مكان من العالم فمئذئذ سوف تعمل اسرائيل .

ومرة أخرى عرض بيجين وشارون على زعماء المعارضة نوايا الحكومة ولكن عملية سحب المعلومات قد بدأت وسأل رابين وزير الدفاع شارون عما اذا كانت الخطة تتضمن صيدا التي تبعد ستين كيلو مترا شمالي الحدود وقدم وزير الدفاع ثلاثة ردود مختلفة وبعد ذلك بعام كتب رابين يقول :

« لقد كان واضحا انه لا يريد أن يقول الحقيقة ولقد اجاب هكذا : (اعتقد ذلك) ثم قال بعدئذ : (لا اذكر على وجه التحديد) . وبعد ذلك قال : (سوف اذهب وأراجع الخطة) . وترك الحجرة في وسط الاجتماع للتحقق من وجود صيدا في الخطة . وعاد الينا ليقول (أنها تدخل في الخطة) ، وسألته عن بيروت لكن أرييل اعطانا الانطباع بأن صيدا هي الحد وعندما سأله عما اذا ما كانت

بيروت ضمن هذه الحدود وجاءت الاجابة (لا) وهكذا خدعت ، ولكن لم اكن
انا وحدي الذي خدع . لقد خدعت الحكومة وربما للحصول على موافقتها .

وفي العشرين من مايو ذهب شارون الى واشنطن حيث تقابل مع وزير
الخارجية الكسندر هيج ، ومرة أخرى عرض شارون خطته لسحق الفلسطينيين
وان كان لم يحدد الى أي مدى سوف يذهب الهجوم الاسرائيلي .

ويقول الدبلوماسيون الأمريكيون أنه لم يذكر بيروت . لقد كان كل
اهتمامه هو الا تشكو حكومة ريجان بعد العملية من أن اسرائيل قد فاجأتها كما
فعلت بالنسبة للفاة على المفاعل العراقي وهيج مثل شارون جنرال متشدد
قد تحول الى سياسي ولذلك فانه كان متعاطفاً لقد كان يسمعه كثيراً ان يرى
منظمة التحرير الفلسطينية والتي كان يمتقتها لانها اداة في يد الكرملين ، وقد
تمزقت اربا ، وفسر الاسرائيليون موقفه على أنه تشجيع بالسير قدما في تنفيذ
مخططاتهم . وقرأ أحد كبار المسئولين والذي كان ضد مشروع شارون ، بشئ
من القلق برقية أرسلها الى القدس سفير اسرائيل في أمريكا موشيه ارينز حول
اجتماع شارون - هيج وكان رد فعل هذا المسئول هو « يا الهى ! انهم اعطونا
الضوء الأخضر » .

وكان هذا قبل أن يصبح هذا التعبير أمراً شائعاً وانكر هيج اعطاء موافقة
على غزو لبنان لكن كبير مساعديه وهو وودي جولد بيرج قد اعترف بأن وزير
الخارجية قد قال بالفعل انه ليس من حق أي مسئول أمريكي أن يخبر حليفاً
لامريكا كيفية الدفاع عن نفسه .

وقال أيضاً : « ان أي شخص أصيب بدعشة من جراء تحرك اسرائيل في
لبنان إنما هو لم يكن يتابع الانباء عن كذب . وقال كذلك أنه اذا ما قررت
اسرائيل أن تذهب فعليها أن تتأكد من أن رد الفعل سوف يكون مناسباً لاي
استفزاز أثار وتسبب في رد الفعل هذا » .

ويعترف مسئولون أمريكيون آخرون بأنه ما أن بدأت الحرب حتى تحرك
الجانب العسكري في شخصية هيج وادرك المزايا التي يمكن تحقيقها . لقد كان
يريد لهذه الحرب أن تنتهي في وقت قصير ولكن أن تنتهي بنجاح .

وقال أحد الدبلوماسيين في شهادته : « أن هيج لا يكن أدنى حب لمنظمة
التحرير الفلسطينية . وكان متعاطفاً مع الفكرة القائلة بأنه يجب اخراج منظمة
التحرير الفلسطينية من لبنان . وكان يمارض أي وقف لاطلاق ل نار يقع مبكراً
اذا ما بدأت الحرب انما لم نرسم أي خطوط أو حدود ولكنه لم يكن
في يوم من الأيام متعاطفاً مع فكرة مهاجمة أو قصف بيروت » .

ومرة أخرى انعكس حماس وزير الخارجية على البرقيات الدبلوماسية بين واشنطن والقدس . وفي إحدى هذه البرقيات التي تم تبادلها وانتشارها على نطاق واسع بين المسؤولين الاسرائيليين والخططين العسكريين ما اقتبس: موشيه أرينز على لسان هيج حيث قال : « أنكم تقومون بعمل عظيم في لبنان وأنه لعمل يهم كل فرد » .

وإذا كانت نوايا وزير الخارجية فإن اجابته « بلا » تبدو في أذن الاسرائيليين كما لو كانت اجابة « بنعم » ومن الصعب الاختلاف مع زيف شيف عميد المراسلين العسكريين الاسرائيليين في القول بأنه حتى اذا لم تكن هناك مؤامرة اسرائيلية امريكية فهناك مشاركة ضمنية بينهما .

« فالامريكيون وقد تلقوا معلومات مسبقة عن نوايا اسرائيل اختاروا أن ينظروا الى الناحية الاخرى ، مبدئين تعليقات غامضة حول لبنان بحيث تستطيع اسرائيل تفسيرها على الوجهة التي تريدها » .

وقد لخص احد المخضرمين في وزارة الخارجية الامريكية هذا بقوله : « اذا لم يكن هيج قد اعطى الضوء الأخضر فانه قد اعطى ضوءا كهربائيا مشويا بالاخضرار » .

وفي اوائل صيف عام ١٩٨٢ كان الوضع في لبنان هو حالة حرب تنتظر المبرر لبدءها . وقبل منتصف ليلة يوم الخميس الموافق الثالث من يونيو بقليل قدمت الحركة القومية لتحرير فلسطين ، وهي جماعة متطرفة منشقة بزعامة صبرى البنا (أبو نضال) هذا المبرر . فقد تلم احد الفلسطينيين المسمى حسن السيد والبالغ من العمر الثالثة والعشرين ويعيش في قرية بالقرب من مدينة نابلس بالضفة الغربية بالطلاق النار على السفير الاسرائيلي في لندن شلوموارجوف ، ثلاث مرات فاصاب راسه والجزء العلوي من جسمه بمسدس اوتوماتيكي بولندي الصنع عيار ٦٣ بينما كان خارجا من عشاء في فندق دور شمسور .

وكان الفريق الذي اطلق النار بقيادة نواف روسان وهو تاجر ولد في الاردن . وقد عرف فيما بعد بأنه ضابط كبير في المخابرات العراقية . وكان الاعتقاد السائد بأن السفارة العراقية هي التي امدته بالاسلحة . وعندما وصلت الانباء الاولى لحادثة القتل الى القدس وكان يبججن نقيا . وعندما تاكدت الاخبار ايقله مساعدوه واخبروه بما حدث وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي تكلم رئيس الوزراء هلتيا مع جراح لندن هو نورمان جرانت . وقد ذكرت الانباء أنه قد انتهى لتوه من اجراء عملية للسفير المصاب وعندما سأله يبججن عن حال السفير اجاب الطبيب : « لا أستطيع أن اعدك بأي شيء » ، ولا أستطيع أن اتول لك ما اذا كان سيمعيش أم لا وإذا ما عاش فكيف سيكون . »

ولقد واجه شلوموا أرجوف ساعات حرجة امتدت من اثنتى عشرة ساعة الى أربع وعشرين ساعة وفي ببطء بدأ السفير يفيق ولكنه ظل مشلولا طريق الفراش . وكانت حيلته باللغة الموء .

واستدعى بيجين الحكومة الى اجتماع عاجل وطارئ في الساعة الثامنة والنصف صباحا . وكان قد قرر بالفعل ان اسرائيل لا تستطيع ان تدع هذا الاستنزاز يمر . . . وقال ان السفير قد تم اختياره كهدم يهودى ولانه اسرائيلى ولانه رمز لدولة اسرائيل .

ان الرصاصة التى اصابت راسه قد صويت الى راس دولة اسرائيل . وكان شارون في الخارج في مهمة سرية ولكن جنرال ايتان عرف ما هو متوقع منه . وبدعوة من رئيس الوزراء اقترح على الحكومة ان تقوم القوات الجوية بقصف تسعة اهداف فلسطينية في بيروت وسبعة اهداف في جنوب لبنان .

وعبر العديد من الوزراء عن تخوفهم من قصف العاصمة انهم يذكرون الضجة التى أحدثتها عمليات قصف سابقة في العام السابق . ووعد رئيس الاركان بان تكون الاهداف مختارة بعناية لتجنب وقوع اصابت بين المدنيين . وينسأ على اقتراح بيجين تم الاتفاق على خمسة اهداف وهى : ثلاثة قواعد للتدريب في الجنوب وموعمان في بيروت هما استلاد رياضى حيث يضم مخزنا كبيرا للأسلحة الفلسطينية وآخر يضم تسهيلات تدريبية . وادرك الوزراء انهم ربما يكونوا قد صوتوا كمقدمة تمهيدا لشن حرب . وحتى الحثائم فهم قد شمسروا بانهم لا يستطيعون مخالفة بيجين المرة . وشرح ذلك احدهم قائلا : « لقد قلنا مرات عديدة من قبل (لا) اما الآن فنى وجه هذه الدراما العالية وفي وجه حالة بيجين العقلية المضطربة لا نستطيع ان ترفض » . اننا فهمنا ايضا انه لا يمكن اغضاء الطرف عن محاولة القتل دون الرد عليها . اننا لم نكن متحمسين ، ولكننا كما ندرك ان كرة الثلج لم يعد من الممكن وقفها .

وفي الفترة الاخيرة من ذلك اليوم قصفت الطائرات الاسرائيلية اهدافها وكما كان متوقعا جاء رد الفلسطينيين مائلا .

وهذه المرة كانوا يصوبون ليصيبوا لا ليخفقوا في اصابة الهدف . وانهالت اكثر من ثمانية قذيفة وصاروخ كاتيوشا على شمال الجليل . وسقط احد هذه الصواريخ على كريات شيونة بالقرب من سيلة يعقوب مريدور وزير التنسيق الاقتصادى واصابتها عدة شطايا واتصل مريدور برئيس الوزراء لينقل اليه المطلب الطبية بان ينى بوعدة الذى قل فيه « انه لن تكون هناك كاتيوشا بعد الآن » واجلب بيجين « انك تستطيع

ان تقول لهم ان كل شيء سوف يكون على ما يرام ولكنه حثه على
الا يضيف شيئاً ولكن مريدور أدرك ان ميزان العمليات يتجه نحو القينم
بعملية برية .

واسرع شارون عقدا من اورويا الى اسرائيل وتمت دعوة الحكومة
الى الانقلاذ في الساعة التاسعة من مساء يوم السبت وأطلع ايتان الوزراء
على صورة مصفرة من عملية شجر الصنوبر وهي عبارة عن هجوم ثلاثي
الشعب لا يمسد مدفعية الفلسطينيين ورد شارون على تساؤلات زملائه
من المتشككين قائلا ان العملية قد صممت لتحقيق السلام في الجليل وليس لغزو
بيروت .

وفهم الوزراء انه يتكلم عن حدود لا تتعدى على وجه التقريب
أربعين كيلو مترا وهذا ما اكده بيجين الذي أكد لهم انه ما دعت الحاجة
الى الذهاب الى ابعد من ذلك فسوف تقرر الحكومة ذلك . وتم الاتفاق على
ضرورة بذل كل جهد لتجنب المواجهة مع السوريين الذين لهم ما يصل الى
٢٠٠٠ جندي يرابطون في شمال وشرق لبنان .

لكن كان اغراء السوريين على الانسحاب يشكل جزءا من خطة شارون
ايتان وذلك لانهم كانوا يشكلوا مظلة واقعية لدعوية الفلسطينيين .
وقال شارون ان القوات الاسرائيلية سوف تصل الى خط الاربعين كيلو متر
في خلال أربع وعشرين ساعة وأن العملية سوف تنتهي في خلال ثمان وأربعين
ساعة . وأعطى الوزراء موافقتهم الجبابة على الضربات الجوية وذلك
في خلال اجتماع يوم الجمعة . ولكن ثلاثة فقط أحجموا عن الموافقة على
الغزو .

وهؤلاء الثلاثة هم نائب رئيس الوزراء سمحا أرليش ، ووزير الطاقة
اسحق برمان والاثنان من أحرار الليكود ، أما الثالث فهو يوسف بورج من
الحزب الدينى القومى .

وانهى بيجين المناقشة بخطاب عاطفى . لقد قال انه لم يقدم اقتراحه
بقلب مسرور وقال انهم يرسلون بجنودهم الى المعركة وان كل شيء سوف يذن
لنوع وقوع اصحابات لكن المعركة معناها وقوع خسائر والخسائر معناها حدوث
تلكى ولتسلم .

والبدل غير المقبول لذلك هو حدوث ما حدث في معسكرات الاعتقال في
اوشوتر وبينما كان بيجين يترك مكتبه ليظهر الى الشمال الى مركز قيادة ، تقدم
سمعه مساعدوه وهو يتنهم بكلمات وكأنه يصرخ : « دعوا الا تقع خسائر » ان
اصداء هذه العملية سوف تؤرقه لعدة شهور فيما بعد . .

ويناء على اقتراح من بيجين اطلق على هذه العملية اسم « عملية السلام في الجليل » وقال البيان الذى صدر بعد بدء العملية ان الجيش قد صدرت اليه التعليمات بوضع السكان المدنيين في المجليل بعيدا عن مرمى نيران الازهاب في لبنان . ولم يكن هناك اى اشارة محددة لحدود الاربعين كيلو مترا . ولقد ذكرها شارون فيها بعد وكذلك ايتان عندما بدأ التشهير بها لاندفاع الجيش الاسرائيلى بعيدا الى الشمال ولم يكن يسفور الوزراء اذنى شك فى أنهم واثقوا فقط على حدود اربعين كيلو مترا .

وقد قال بيجين مثل هذا فى خطاب للرئيس ريجان فى نفس اليوم وهو يوم الاحد السادس من يونيو لقد قال .

« لقد صدرت التعليمات للجيش بأن يبعد الازهابيين الى مسافة اربعين كيلو مترا الى الشمال حتى يمكن تحرير جميع المدنيين فى منطقة الجليل من التهديدات الدائمة لحياتهم .

ومنذ الطلقة الاولى لم يكن شارون ولا ايتان يزعمان الوقوف بالعملية عند حدود الاربعين كيلو مترا وقال ضباط من الاحتياط ان قلدا كبيرا قد اخبرهم فى اول يوم بان الهدف هو قطع طريق بيروت - دمشق واقامة نظام جديد فى لبنان ورفض وزير الدفاع انكار هذه المزاعم عندما سألته أحد نواب حزب شينو وهو مورديخاي ويرشويسكى .

وكان شارون قد حدد أهداف الحرب فى التلفزيون الاسرائيلى فى الخامس والعشرين من يونيو بانها : القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية واخراج الجيش السورى وعقد اتفاقية مع لبنان . ولم يقل شيئا عن حدود الجليل .

وفى الاول من اغسطس وفى خطاب ألقى خريجي مدرسة عليسا كانوا سيلتحتون بالجيش قال :

« لقد ذهبنا الى الحرب ضد الازهاب ، ولازالة العائق الذى يهدد ويمنع التوصل الى وفاق بيننا وبين عرب ارض اسرائيل ، لقد ذهبنا للحرب حتى يمكننا ان نعيش فى سلام ، اليهود والعرب فى القاهرة وبير سبع ، فى يهودا والسامرة ، حتى يعرف السلام بيننا فى اقرب وقت وعلى جانبى الاردن » .

وكان رئيس الازكان اقل دبلوماسية . على أوائل شهر يوليو اخبر الضباط - والرجال فى وحدة على خط الجبهة ان القتال قد خلق الفرصة الوحيدة فى هذا الجبل لتغيير الأوضاع لصالحنا فى الصراع من أجل ارض اسرائيل . وقال :

ان تدمير واقتلاع القواعد الازهابية فى لبنان سوف يضعف المعارضات الفلسطينية للوجود اليهودى فى ارض اسرائيل .

وفي مقابلة مع دوف جولد شستن في صحيفة معايرف اعترف شارون بأن مجلس الوزراء وافق على الخطتين اللتين عرضهما تولاسما . ولكن قال انه كمن يعلم ان هناك إمكانية لان يتم في النهاية تنفيذ الصيغة الأكثر طموحاً من الخطتين .

وفي مقابلة أخرى مع نفس الصحفي اعترف ايتان بأن الحرب لم يكن يقصد منها مجرد تأمين قطاع يمتد الى اريعين كيلو مترا شمال الحدود وقال :

« لقد اصدر مجلس الوزراء تعليماته لجيش الدفاع الاسرائيلي بأن يبعد — الارهابيين عن الحدود الشمالية لاسرائيل وأن يدمر الارهابيين ويحرق مقرات قيادتهم وتسهيلاتهم في لبنان . وهناك ثلاثة أشياء لم يرد ذكرها في تعليمات مجلس الوزراء : موضوع الاربعين كيلو مترا ، وموضوع بيروت ، وموضوع طريق بيروت — دمشق وعندما عرضت خطة الحرب على مجلس الوزراء عرضت الخطة بأكملها بما فيها محاصرة بيروت وقطع طريق بيروت — دمشق . وأقرت الحكومة هذه الخطة ولكنها اصررت في تعليماتها للرئيس بأن يكون التحرك من مرحلة الى أخرى في الحرب خاضعا للقيادة السياسية . وهكذا فقد تم تنفيذ كل مرحلة من الحرب وكل تحرك من مرحلة الى أخرى من طريق أخذ موافقة القيادة السياسية .

لم يكن هذا هو ما ظهر للحكومة . فمئذ اليوم الثالث للحرب شك منتقدو شارون في انه قد تم التفرير بهم وتضليلهم . ولم يكونوا مقتنعين بتأكيدات رئيس الوزراء — المتكررة بأنه في هذه الحرب لن يحدث شيء مالمون أخذ الموافقة عليه بخلاف ما حدث في الحروب السابقة . وانضم موردخاي زيبوري ، وزير المواصلات من حزب حيروت الى هؤلاء المتشككين . لقد كلن عسكريا محترفا وصل الى رتبة قائد لواء واشترك في حكومة بييجن الاولى ككاتب لوزير الدفاع وعندما كرر ايتان مزاعمه بعد ذلك بعلم واحد بأن الحكومة هي التي غوضت الجيش منذ البداية لان يتعدى حدود الاربعين كيلو مترا اتهمه زيبوري بالكذب .

وفي اجتماع لمجلس الوزراء في الحادي عشر من سبتمبر عام ١٩٨٢ نقل زيبوري من وقائع آخر اجتماع سبق الحرب ما يكتب مزاعم رئيس الركان . وقال انه في ليل يوم السبت اطلع ايتان وزمرا على حدود الاربعين كيلو مترا على خريطة وأنه طلب الموافقة على عملية محدودة تقلا أنها لن تستغرق سوى يومين لاتمامها . وقال زيبوري أن كلا من شارون وبييجن قد قالا نفس هذا الكلام .

كان شارون عنقذد وزيرا بدون وزارة وكان حاضرا لاجتماع سبتمبر عام ١٩٨٢ ، ولم يجادل في ما قاله زيبوري . ولكد سكرتير مجلس الوزراء دان مريدور

ما قاله زيورى وقال : « لقد قدم وزير الدفاع ورئيس الأركان خطة للقتال وطرد الإرهابيين بعيدا الى خط أريبعين كيلو مترا (وهو مدى المدفعية) من حدودنا الشمالية .

وهذه هى الخطة وهذا هو المدى الذى وافق عليه مجلس الوزراء فى اجتماع ليلة السبت .

وفى مقابلة فى تلفزيون إسرائيل وقيل ونقله بسبب هبوط فى القلب فى يونيو عام ١٩٨٢ قال سمحا أريئيل : « لقد كتبت هناك تفسيرات للقرارات مجلس الوزراء تمتد من القرار الذى اتخذته مجلس الوزراء والتنفيذ الفعلى فى الجبهة وفى بعض الأحيان كان هناك خروج مقبول ومحتمل ولكن كتبت هناك أيضا أخطاء غير مقبولة وغير محتملة . واتهم شارون بأنه كان دائما يريد الخروج على قرار الأريبعين كيلو مترا .

واستغل شارون نقص الخبرة العسكرية عند زملائه وكتبت من الوسائل المحببة لديه محاولة الحصول على موافقة زملائه على تقديم صفير وتكتيكى ثم يعود بعد ذلك ويعد أن يكون قد حقق هذا التقدم ليشرح لزملائه أن هناك حلجة لمزيد من التقدم لبضعة كيلو مترات لتلبين ما قد تم احرازه بالفعل ولتحسين الأوضاع والموافق . وفى إحدى المرات سأله اسحق برمان وهو من أشد نقادى وزير الدفاع : « ماهى المنطقة التى سوف يطلب منا بعد غد الموافقة عليها من أجل حملة الوحدة التى وضعتها فى الموقع الذى سوف تستولى عليه غدا والذى تمت الموافقة عليه ؟ وأجاب شارون وهو يكثر غلظا « ليسيد برمان أن لك حملة عجيبة للدعاية والفكاهة « وكان برمان يشكو من أن العمليات الصغيرة لا تتم أبدا بدون موافقة مسبقة ولكن لا ينطبق ذلك على العمليات الكبيرة عدائنا ما يخيم الضباب على العمليات الكبيرة وعلى سبيل المثال منطقة شرق بيروت المسيحية فلقد علمنا فجأة أن هناك قوات اسرائيلية فى شرق بيروت وكان ذلك معلومة بديهية .

وفى الحقيقة ليست كذلك فلم يكن هناك أبدا قرار حكومى بالنسبة لدخول شرق بيروت .

أن اختراق شرق بيروت والتدخل فيه الذى كان أمرا واضحا لكل من زار العاصمة اللبنانية ، يعتبر من الحالات الصارخة . ففى الثالث عشر من يونيو ، وفى نهاية الأسبوع الأول من الحرب الإسرائيلية فى شرق بيروت ، وفى المطار الدولى وحول بعدها وهى الحى التى يضم القصر الجمهورى ، ومسكن وزير الدفاع . وتلقى الوزراء اجلبتين : أن القوات الإسرائيلية ليست

في بيروت . وان يعبدا والمطر يقمان خارج حدود المدينة ولن هذه القوات عندما دخلت بيروت نفسها فاتها فعلت ذلك ردا على خرق الفلسطينيين لوقف اطلاق النار وكن على جيش الدفاع الاسرائيلي ان يسكت مصادر الخطر التي تهدد القوات الاسرائيلية وقالت صحيفة معرّف :

« سوف يتلقى الوزراء المكالمات تليفونية وهم في منازلهم من الجنود والضباط بما فيهم كبار الضباط يخبرونهم عن قصص مختلفة لانتهاكات وخرق وقف اطلاق النار من جانب العدو وفتح الجيش الاسرائيلي النيران وكذلك القول بأن الجانب الآخر هو الذي بدأ بفتح النيران كما يقول راديو اسرائيل . وكذلك هنا شكوى من الاوضاع في الميدان وهي اوضاع تخطف تملها عما تذكره الاذاعة ومن خلال سكرتيره - العسكري الكولونيل أزريل كان ييجين يسمع التقارير عن خرق الاسرائيليين لوقف اطلاق النار وعن استفزازات جيش الدفاع الاسرائيلي » .

وعندما كن رئيس الوزراء وغيره من الوزراء يسألون عن تفسير ذلك كانوا يخبرونهم بأن جيش الدفاع الاسرائيلي لم يكن يرد دائما في المكان الذي تعرض فيه لاطلاق النار غنى بعض الاحيان ولعدة أسباب فله كن يرد في قطاع آخر ، ختف . والجندى الذي تصدر اليه الاوامر باطلاق النار قد لا يكون مدركا ان العدو هو الذي بدأ بفتح النيران في مكان آخر وببينا لم يقبل معظم الوزراء هذا الايضاح الا أنهم كلوا يقتنون حلزين املم الزعم بأن العدو هو الذي بدأ بخرق وقف اطلاق النار .

ان حجم المكالمات التليفونية التي كن يطلقها السيلسيون والصحفيون الاسرائيليون والتي غالبا ما تكون من غرياء لم يسبق لها مثيل في اثناء الحرب . انها تمكس تلقى الامة في خوض حرب من اختبارها ولقد عمقت هذه الحرب شعور الحكومة بأنها تمساق رغم انها ! وكتب هرشى جودمان الذي حارب في قوات الصاعقة في حربين كبيرتين يقول : « لأول مرة في تاريخ اسرائيل الغنى بالصراع كن هناك تصدع كلل بين هؤلاء الذين يصدرن الاوامر وأولئك الذين يطلب منهم ان يضموا ارواحهم وأرواح رجالهم على خط المواجهة » .

وكانت بيروت مجرد مثال واحد . وجاء قطع طريق بيروت - دمشق مثالا آخر ولقد توجه بيجين الى واشنطن للتشاور مع ادارة ريجان وكن ايرليش يقوم بأعمال رئيس مجلس الوزراء . وفي الثاني والعشرين من يونيو بدأ جيش الدفاع الاسرائيلي في مهاجمة المواقع السورية والفلسطينية بالقرب من بحدون شرق بيروت . وسمع ايرليش عن هذا الهجوم لأول مرة في الراديو المثبت في سيارته وهو في طريقه من تل أبيب الى القدس . وما ان وصل الى الكتيبت حيث كن الوزراء وزعماء الممارسة يطلبون المعلومات عن هذا الهجوم حتى بدأ في الاتصال بشارون . وطلب منه ايرليش ان يخبره بما يجرى . وعلى طريق

بيروت - ودمشق وأجلب إيتان أن التقارير التي أذاعها الراديو ليست دقيقة .
أن الجيش قد رد على نيران العدو فحسب .

وأضاف يقول أنه ليست هناك تحركات للقوات الاسرائيلية . وبعد ذلك
بيومين تم قطع الطريق وتم الحصول على موافقة على هذه العملية وهي
موافقة بئر رجعي . وصدق إيرليش ما سمعه ونقل تأكيدات إيتان الى
زملائه . ولم يمض وقت طويل لهدرك انه قد غرر به . وقال في مقابلة
تليفزيونية في يونيو عام ١٩٨٢ : « لقد قدمت لي معلومات ثبت بعد ذلك
انها ليست دقيقة » .

وهكذا تم الاتفاق حول الوزراء بالنسبة لقرار الاستيلاء مع السوريين
والفلسطينيين في شرق لبنان . وقد تجاهل شارون حتى رئيس اركان جيشه
الذي اتفقته كثرة الامم المتحدة التي فاقته ما يمكن لاسرائيل ان تتوقعه .
وأثر جيش الدفاع الاسرائيلي الخلافات والصدام وطلب وزير الدفاع من
مجلس الوزراء أن يسمح له باقتلاع صواريخ سام - ٦ التي لانزال
متبركة في البقاع . والحل قلا أنه لا يمكن ترك القوات الاسرائيلية دون
غطاء جوي . والحل شارون على ضرورة اتخاذ قرار سريع حتى تستطيع
القوات الجوية أن تضرب قبل حلول الظلام ولم يكن ائلم مجلس الوزراء سوى
الموافقة . وفي وجه ائذار نهائي امريكي بوقف اطلاق النار اصدر شارون
اوامره بيزيد من التتبع برا .

وبالرغم من الشكوى المتكررة من شارون وإيتان من انها عملا ككش
نداء من قبل مجلس الوزراء الذي ينبغي عليه أن يتحمل نصيبه من المسؤولية
عن كل ماحدث في لبنان ، كان هناك دليل مناسب عن ابعاد الوزراء عن
بباشرة الاشراف على سير الحرب ولكن لماذا عن رئيس مجلس الوزراء ؟ .

لقد قال بيجين نفسه بمرارة : « اننى اعلم عن كل التحركات ولكن
احيانا قبل أن يتم تنفيذها واحيانا اخرى بعد أن يكون قد تم تنفيذها .
وكان يرحب بالاهداف - العظم لمشروع شارون - إيتان .

وفي بعض الاحيان كان اكثر تصليا من الحكومة . ففي نهاية شهر يوليو
على سبيل المثال - ايد رئيس الوزراء بشدة عملية لاقتطاع وقسم
معسكرات الفلسطينيين - وما جاورها عن جنوب غرب بيروت وحتى منطقة
تضم ٦٠٠٠ مبنى وعشرات الآلاف من السكان بين مخنيين ومقاتلين .

واقترح رئيس الاركان قصفا مكثفا عن طريق المدفعية وعن طريق
الطيران لاضعاف العدو والافلال من الاصابات بين الاسرائيليين والتي قدرها
ما بين عشرين وثلاثين وكان الكولونيل ايلي جيفا قائد فريق مدرع قد طلب
اغلقه من منصبه لكي يتجنب مهاجمة بيروت الغربية وقد قال لبيجين

أنه يقدر الضعف بـ ٢٥ قتيلًا إسرائيليًا . وشعر العديد من الوزراء بالانزعاج من احتمال القتال في مناطق مزدحمة بالسكان وكذلك بالانزعاج من ركود الفصل الدولية لهذا القتال وتمت الموافقة بأغلبية واحد فقط أى تسعة أصوات مقابل ثمانية لكن ييجين رفض إعطاء موافقته بسبب حسفه الاغلبية الضئيلة .

وكلفت هناك أوقات دافع فيها ييجين عن شارون أمام منتقديه وهذا يعنى أن رئيس الوزراء لم يكن رافضاً كلية لمخطوات وزير الدفاع . وقد قال مرة لشارون : « من الأفضل أن يمتطى الإنسان جواد سباق تستطيع أن تسيطر عليه من أن تمتطى جواداً لا يستطيع الركوض » ولكن هناك بعض الحالات التى لم يكن يعرف ييجين ما يجرى فيها وفى خطاب فى الكنيست فى الثامن من يونيو وبمه يومين من بداية الحرب قال ييجين :

« أننا نريد شيئاً واحداً فقط : وهو ألا يلحق أحد الضرر بمستوطناتنا فى الجليل بعد اليوم ولا أن يضطر مواطنونا فى مستوطنات الجليل الى الاختناق فى المخابئ ليل نهار . والا يعيشوا تحت تهديد الموت الفجائى من الصواريخ كتيوفا . هذا هو ما نريده . أننا لا نريد أى صراع مع الجيش السورى » .

وأننا اذا ما وصلنا الى خط الكيلو الاربعين الى الشمال من حدودنا فإن المهمة تكون قد انتهت وعندئذ يتوقف القتال .

وفى الواقع فإن مجلس الوزراء كان قد أعطى شارون بالفعل موافقته على تنفيذ عملية تطويق للقوات السورية من الشمال والشرق فى البقاع وهذا يعنى عبور خط الأربعين كيلو متراً . وأعطيت الموافقة للقوات المدرعة بتحصين مواقعها ، وهو الأمر الذى يعنى المخطورة بوقوع سدام .

وقد خضع شارون لاستجواب عسر عندما عرض وزير الدفاع الموضوع على لجنة العلاقات الخارجية والدفاع بالكنيست فى نفس اليوم فيما بعد .

وحتى لو لم يكن ييجين معركاً لما يحدث فى الميدان ، إلا ان المعارضة العملية والتي تضم ثلاثة من رؤساء الأركان المسلحين وهم رابين وبارليف وجور كانت تقبل ذلك تماماً وأكد ييجين لكل من بيريز ورابين اللذين كانا قد أرسلوا اليه للتوسط فى الخلاف أنه لم يتم اتخاذ أى قرار بالاشتراك مع السوريين فى معركة وفى نهاية الأسبوع فى يومى السادس والسبع من أغسطس وبينما كانت بيروت تحت الحصار وكلفت الولايات المتحدة بحلول خمسة الفناوض على أجلاء الفلسطينيين عن المعاصرة أصدر شارون أوامره بالتحصينة على نطاق واسع للاحتياطى ويدون أخطار رئيس الوزراء ويسدون أخذ تفويض بذلك من مجلس الوزراء وبعد من ذلك كان وزير الدفاع قد خطط

لشن هجوم وتلقى اجهلنى على غرب بيروت المسلحة وسمع ببجين عن هذه التنبئة من مكالة تليفونية فى منتصف الليل من يوسف بورج وكلن ابراهام ابن يوسف بورج ضابطا من ضباط الاحتياطى وهو من زعماء حملة معاداة الحرب وقال ببجين منحهشا لوزير الداخلية يوسف بورج :

« اتنى لم اوافق على استدعاء الاحتياطى » .

وعندما سئل شارون عن هذا الموضوع فى اليوم التالى قال انه طالما قد تم الاتفاق على شن عملية فى بيروت ليلا أصبح من الواضح لدى أن اعلن دعوة الاحتياطى .

ولم يكن من السهل تهنئة رئيس الوزراء الذى قال مفسلا : « ماذا يعنى بقوله انه أصبح من الواضح لدى ؟ انك لا تستطيع أن تقدم على خطوة كهذه دون موافقة — هكذا يعلم كثير من الاشخاص عن هذه التنبئة بينما لا يعلم رئيس الوزراء عنها شيئا ! وقبل شارون هذا التوبيخ وقدم اعتذاره .

وانتقد ببجين وزير دفاعه علانية فى اجتماع لمجلس الوزراء فى الثلى عشر من أغسطس وهو اليوم اللاحق لاعنف واتقى تصف اسرائيلى لبيروت .

فلقد هاجمت الامواج تلو الامواج من الطائرات المناطق السكانية لمدة احدى عشرة ساعة متصلة ويدعون انقطاع . وزعم ضابط كبير فى القوات الجوية أن معظم التفجيرات كانت قنابل صوتية ولكن لم يكن هذا هو الوضع بالنسبة للسكان على البر أو مشاهدى التلفزيون فى العالم كله .

كلن الرئيس ريجان من بين هؤلاء واتصل هاتفيا ببجين مرتين وطلب أن توقف اسرائيل هذه المذبحة . ورد ببجين قائلا ان الرئيس ريجان لا يعرف معنى هذه الكلمة لكن شارون تعرض لفران ثقيلة فى مجلس الوزراء من دافيد ليفى نائب رئيس حزب حيرت — ومن بورج الذى خشى أن يؤدى هذا القصف الى عرقلة التوصل الى اتفاقية للجلاء فى اللحظة الاخيرة وأن يوجه اللوم فى ذلك الى اسرائيل . واتفق ببجين معهم على أن — القصف لم يمد يخدم أى هدف نافع مفيد وأن اسرائيل سوف تتلقى نقدا شديدا من الولايات المتحدة . وتساءل ببجين قائلا : « وكيف سيكون موقف اسرائيل امام العالم اذا ما تم استدعاء فيليب حبيب من مهمته لوقف إطلاق النار وعندما حاول شارون الرد أكد رئيس الوزراء — غافيا — سلطته ووافق مجلس الوزراء على توصياته بالا تتخذ مبادرات بعد اليوم لحماية الجنود الاسرائيليين بدون موافقة مجلس الوزراء والا يحدث أى قصف من البر أو البحر أو الجو بدون علم رئيس الوزراء وموافقته .

ويلتزم من أن بعض الوزراء رأى في ذلك تصويتا بسحب الثقة من شارون إلا أن رئيس الوزراء لم يتخل عن وزير دفاعه . وفي الاجتماع التالي لمجلس الوزراء بعد ثلاثة أيام من ذلك التاريخ اقترح بيجين نسيان الماضي . ولكن عليهم أن يتنصتوا معا ويسمروا جنبا إلى جنب في مهمتهم . وقال رئيس الوزراء : « مخطوطة تلك الدولة التي يعمل فيها شارون وزييرا للدفاع » .

وكان بيجين بعد ذلك تلقى التقارير بصورة منتظمة من شارون وكانت هذه التقارير تصل إلى ٥ و ٦ تقارير في اليوم الواحد . ولكن لما كانت هذه الحصة التي قدر لها ثمان وأربعين ساعة قد امتدت طوال شهر يونيو ثم يوليو وأغسطس حتى سبتمبر بدأت الشكوك تثار حول قدرة بيجين على البقاء .

لقد قام بزيارة واحدة للقوات الإسرائيلية في لبنان وذلك في اليوم التالي عندما ذهب ليهنيء وحدة المشاة التي استطاعت الاستيلاء على قلعة بينفورت وحلول أن يأخذ يوم عطلة نهلة الأسبوع في بلدة نهريا على الشاطئ الشمالي إلا أن هذا لم يتم نتيجة لزيارة بشير الجميل ووزير الدفاع الأمريكي كاسبار وابنبرجر له .

وما هي المعلومات التي كان شارون وايتان يطلعانه عليها وما هي المعلومات التي كان يحجبانها عنه ؟ وإلى أي قدر كنا يحولان الاتصال برئيس الوزراء أثناء فترات الأزمات .

أن مصرع بشير الجميل وما تبع ذلك من مذبحة صبرا وشاتيلا يقدم الرد على هذا السؤال كلفت مذبحة مخيمات الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا نقطة تحول في كل العملية الإسرائيلية في لبنان .

وكان بشير الجميل عندئذ الرئيس المنتخب للبنان قد قتل في ليلة الرابع عشر من سبتمبر عندما دمرت قنبلة زمنية مكتب الحزب في شرق بيروت .

وتشاور بيجين تشاورا تليا وكاملا مع شارون وايتان اللذين أخبراه بالشائعات والشائعات المضادة حول مصرع الجميل بينما كان رجال الانتفاذ يحفرون وسط الانتفاض وفي حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا عندما تأكد مصرع الرئيس جميل أشار بيجين على شارون بأنه ينبغي على جيش الدفاع الإسرائيلي أن يسيطر على نقطة العبور بين شرق وغرب بيروت للصلولة دون وقوع فوضى وارتاة للدماء وللغسل بين السكان والذين يهاجرون بعضهم المدماء . هذا هو العمل ما قاله رئيس الوزراء للجنة كاهان التي شكلت للتحقيق في مذبحة صبرا وشاتيلا ووضع الجيش في مظهر مخالف بناء على هذا القرار الذي اتخذته بيجين وشارون في هذه الحالة الطارئة . وفي

غمرة تلقى لبنيان اعلان المتجسست العسكري في اليوم التالي انه سيكون موقفا لا أخلاقيا لو ان اسرائيل لم تساعد على المحافظة على السلام .
ان مصرع الرئيس المنتخب بشعر الجهيل هذا المستوى يشير الى رغبة لدى عناصر معينة للعودة عن طريق العنف الى حالة الفوضى السابقة . وفي ظل هذه الفوضى يتفشى الارهاب المعادي لاسرائيل ويزدهر وان اسرائيل لن تسمح بأن يحدث هذا مرة اخرى . ان التحركات الحالية للقوات الاسرائيلية تؤكد ان الهدوء سوف يسود وانه سوف يتم القضاء على الفوضى .

واكد كل من بيجين ووزارة الخارجية ان اسرائيل قد تصرفت انهاء الليل للحفاظ على السلام . واستغل شارون وجيش الدفاع الاسرائيلي فرصة اغتيال الجبل لتمشيط الفدائيين الفلسطينيين وحلقهم من اللبنتين اليساريين الذين بقوا في غرب بيروت بمعد جلاء منظمة التحرير الفلسطينية في نهاية أغسطس وبخلت حللات الجنود المدرعة نقاط العبور الاستراتيجية في الاراضي التي يسكنها المسلمون والفلسطينيون حيث واجهت مقاومة على نقاط صفرة لكنها مقاومة نشطة وفي يوم الخميس الموافق السادس عشر من سبتمبر دخلت ميليشيات الكتائبين معسكري اللاجئين لطاردة الفدائيين الفارين كما كان واضحا . وقد تم تنسيق دخولهم مع الجيش الاسرائيلي الذي ساعدهم عن طريق الاضواء الكاشفة وعن طريق القنطرة بنيران المدفعية . وكان هذا كما لو وضعت شلطا في حظيرة للدواجن وكما يمكن ان يتبنا اي فرد له معرفة - ولو بسيطة - بتاريخ لبنان الحديث الملتصق بالدماء ، فان الكتائبين قد نسوا كل شيء عن الارهابيين واخذوا يقتلون كل فلسطيني يعثرون عليه سواء كان رجلا ام امرأة ام طفلا . واعترف بيجين في استجوابه من قبل لجنة كاهان انه لم يعلم اي شيء عن قرار نشر الكتائبين حتى اخطر به اجتماع طرزي لمجلس الوزراء في ليلة السادس عشر . انه لم يتم استشارته او اخطاره .

ومرة اخرى استند شارون الى تفويض ياتر رجعي زاعما ان نشر الكتائبين قد تم بنسب على قرار اتخذ في الخميس عشر من يونيو قبل ذلك بثلاثة اشهر . وان الجيش اللبناني والكتائبين ولهم جيش الدفاع الاسرائيلي مسو الذي سوف يستولى على غرب بيروت وكان دافيد ليفي هو المتعرض الوحيد وحتى هو لم يجد ما يبرر التصويت ضد ما حدث بالفعل .

وفي يوم الخميس دخل الكتائبون المعسكرات ولكن لم يعلم العالم بما فعلوه حتى يوم السبت الموافق الثامن عشر من سبتمبر . وانتهت الشكوك حول القادة الاسرائيليين المحطين يوم الجمعة . لقد اصغروا اولهم للكتائبين بوقف عملياتهم ولكنهم لم يجبروهم على ترك المعسكرات قبيل

صباح يوم السبت ولكن طبقا لشهادته هو ، لم يهتم احد بلخاطر رئيس الوزراء . وكان يوم السبت هو يوم بداية السنة اليهودية الجديدة . ولكن كان في الامكان ارسال مبعوث الى داخل المبد بكل سهولة . وبدلا من ذلك علم بيجين بالمذبحة عن طريق الاذاعة البريطانية في الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم السبت - أنه لم يخطر بعد الحادث ولم يشر عليه احد بشيء عن المخاطر مسبقا وعندما سأل آهرون باراك عضو لجنة التحقيق وهو الآن قاض بالحكمة العليا عما اذا كان ينبغي على اجهزة الامن ان تحذره اجاب بيجين : « ان ما ينبغي عليهم اخطاري به مقروك اساسا لبلادتهم الشخصية » .

كان سلوك بيجين وهو واقف في المكان المخصص للشهود يتصف بعدم النظام وكان بيجين يبدو بخلاف اللجنة وكأنه لم يؤد واجبه المنزلي . ولقد دهش عندما واجهه كبير القضاة اسحق كاهان بنسخ من وثائق اجتماعات مجلس الوزراء وبالمحادثات التي جرت مع مبعوث ريجان الخاص مـررـيس داريـير وكان اعضاء مكتبه يـعـرـفون ان اللجنة قد تلقت هذه الوثائق . ولم يكن في استطاعته ان يتذكر اشياء هو وغيره قد قالوها بما في ذلك بيان اولى به جنرال ايتان جاء فيه ان الكتائبين يسنون اسلحتهم من اجل الانتقام بعد مصرع بشير الجميل .

وبالرغم من أنه كان يدل بشهادته بعد اقل من شهرين بعد المذبحة الا أنه لم يكن دائما يفهم ما وجه اليه من اسئلة . وكان الانطباع هو ان رئيس الوزراء قد فقد قبضته على الامور . وعلق امتون دانكيز في صحيفة هآرتس قائلا : « لقد رسمت الصورة عن رئيس وزراء لا يهتم بالتفاصيل وأنه في بعض الاحيان يكون متباعدة ومعتدا على وزير الدفاع رئيس الاركان دون ان يحثهم على اطلاعه على مايجرى .

وكان الانهيار في التنظيم كما كان في الاتصال . لقد استقال العميد افرام بوران كسكرتير عسكري لبيجين في علم ١٩٨١ وبناء على توصية من شارون تم تعيين ضابط صغير بدلا منه وهو اوزيل نيفو . واستغنى شارون نفسه عن ضابط كبير يعمل مساعدا عسكريا له وذلك عندما أصبح وزيرا للدفاع شارحا ذلك بأنه ليس في حاجة الى وسيط بينه وبين القيادة العامة وعلى نفس الشاكلة فانه يريد ان يكون حلقة الاتصال بين بيجين والجيش .

ولقد كان اوزيل نيفو جنديا له مستقبل في الجيش ولكنه لم يكن من العمر ولا من الرتبة العسكرية ما يمكنه من خدمة رئيس الوزراء وان يصبح عينيه واذنيه كما كان يفعل سابقه لقد كان بوران جنديا مخضرا من حرب التحرير سنة ١٩٤٨ وكان يعرف اللغة كرملاء وانداد له .

ولم يكن في حاجة لان يستخدم القوات التقليدية للحصول على المعلومات . وكان في استطاعته ان يتوجه مباشرة الى الرجل المسئول في موقعه . وهؤلاء الذين كتبوا يعرفونه كتبوا مقتنعين بانهم وان كلن لا يستطيع منع المذبحة من الوقوع كلن في استطاعته ان يخطر بها رئيس الوزراء بدلا من السماع عنها من الاذاعة البريطانية .

ان الصراخ الذى اثارته صبرا وشاتيلا جعل رئيس الوزراء يلجأ للدفاع عن نفسه . وفي مذبحه فندق الملك داوود ، ومذبحة دير ياسين ، ومذبحة المعسكرات في بيروت لم يثر فقدان الارواح غير اليهودية اى شعور بالمرارة . وقال بيجين : « ان الجويم » « غير اليهود » يقتلون غير اليهود ثم يلقون بثلاثتهم على اليهود » . قال ذلك في اجتماع طارىء لمجلس الوزراء يوم الاحد الموافق التاسع عشر من سبتمبر . واتهم بيان أصدره المجلس وقعه رئيس الوزراء المعلن بتوجيه تهمة سفك الدماء للدولة اليهودية وللحكومة اليهودية ولقوات الدفاع الاسرائيلية .

وقال البيان ان القوات الاسرائيلية لم تكن متمركزة في المعسكرات وقت وقوع المذبحة التى نفذتها وحدة لبنانية .

وقال ايضا ان القوات الاسرائيلية قد وضعت حدا للقتل واجبرت اللبنانيين على ترك المعسكر . وبدون تدخل جيش الدفاع الاسرائيلى لكان عدد القتلى قد زاد زيادة كبيرة .

ان جميع الاتهامات المباشرة والضمنية بان جيش الدفاع الاسرائيلى يتحمل اللوم عن هذه المأساة الاستفجية لا اساس لها من الصحة تماما . وان حكومة اسرائيل ترفض هذه الاتهامات بكل الاحتقار الذى تستحقه .

وبالرغم من الآثار الداخلية غلطنا ندعو شعب اسرائيل الى الاتحاد حول حكومته المنتخبة انتخبها ديمقراطيا في نضالها من اجل امن اسرائيل وسلامتها وامن وسلام كل مواطن اسرائيلى . ولا يجوز لاحد ان يعلمان الاخلاق واحترام حياة الانسان وهى قيم تطلبناهما وشيئنا عليها وسوف نستمر في تلقينها للاجيال القادمة من المقاتلين الاسرائيليين .

وكما أوضح تقرير لجنة كاهان عن المسائل الاخلاقية لم تكن بهذه البساطة ، لقد كان بيان الحكومة بمثابة قضية دفاع اقيمت على اساس من معلومات محددة . لقد تضمن لبسط تعبير رمزى عن الاسف والحزن لموت مئات من الفلسطينيين . ورفض بيجين ان يصدر اى بيان شخصى بالاسف تماما كما استبعد تلقى ايلى جينى من جراء وقوع اصلات بين الدنيين عندما وقعت دبابات العقيد جينى في مواجهة غرب بيروت . وبمد ان شرح العقيد جينى لرئيس الوزراء انه رأى الانفصال من خلال نظراته

المكبرة عندما اتجه بصره الى المدينة اجلب بيجين : « هل تلقيت تطعيمات بقتل الاطفال ؟ واجاب جيني بالنفي وعندئذ سألته بيجين : « وقيم شكاواك انن ؟ وقد اثار سكوت رئيس الوزراء على المذابح التي وقعت في معسكرات اللاجئين غضب الرئيس اسحق نافون الامر الذي دفعه الى الظهور على شاشة التلفزيون بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل ليقدم تعازيه وبواسطته للاسر الذكلى مشيرا الى ان بعضهم هم من العرب الاسرائيليين او الفلسطينيين الذين يعيشون في ظل الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

وتحت الضغوط المتزايدة من جانب الصحافة الاسرائيلية ومن جانب الراى العام الاسرائيلى اضطر بيجين الى تشكيل لجنة استقصاء مستقلة للتحقيق فى تورط اسرائيل فى المذبحة . وحاول اول الامر ان يحدد سلطاتها فى نطاق استدعاء الاشخاص وطلب المستندات لكن المؤسسة القانونية استطاعت ان تحبط محاولته هذه مدعمة من قبل مؤتمر شعبى ضم ٤٠٠.٠٠٠ اسرائيلى انعقد فى ميدان تل ابيب احتجاجا على هذه الاعمال .

وقد منحت لجنة كاهان المكونة من قضايين وجنرال متقاعد كافة السلطات القانونية ولقد تخضعت تحقيقاتها الثانية عن تقرير محدد واضح عن كل ما جرى فى صبرا وشاتيلا وعن كل ما كان ينبغي الا يقع او يحدث .

وبالرغم من انها برأت اسرائيل من المسؤولية المباشرة الا انها اعتبرت اسرائيل مسئولة مسؤولية غير مباشرة .

« ان قرار دخول الكتائبيين معسكرات اللاجئين قد اتخذ بدون اعتبار للمخاطر التى كان منغذو القرار قد راوها محتلة الوقوع وهى ان الكتائبيين سوف يرتكبون مذابح وعمليات اضطهاد ضد سكان المعسكرات ، كما اتخذ هذا القرار بدون دراسة لوسائل منع هذا الخطر .. وبصورة مماثلة فقد كان واضحا بين تتابع الاحداث انه عندما بدأت الاتية ترد عن اعمال الكتائبيين فى المعسكرات لم يلتفت اليها التفقا مناسبا ولم تستخلص النتائج الصحيحة من هذه الاتية ولم تتخذ اية اعمال نشطة ومباشرة لكبح جماح الكتائبيين ووضع حد لاعمالهم » .

وانتحت اللجنة باللائمة على شارون لتجاهله اخطار المذبحة ولفشله فى اتخاذ الخطوات المؤدية الى منع وقوع المذبحة .

واوصت بلغة غير مباشرة — تسببت فى اثرة المتاعب لرئيس الوزراء — بأن يستقيل شارون من وزارة الدفاع او أن يطرد من الوزارة .

ووجهت نقدا شديدا للجنرال ايتان والمحت اللجنة بانه لو لم يكن رئيس الاركان على وشك الاحالة الى الاستيداع لكانت قد اوصت بعزله . وادين كل

من ملجور — جنرال يوشوا ساجومس مدير المخابرات العسكرية وكذلك القائد
الحلى في بيروت العميد أموس يارون لتقصيرهما .

وأوصت لجنة كاهان بعدم اتخاذ أى إجراء ضد بيجين ولكنها انحلت عنده
بلائمة لتجاهله أظفار الذبحة عندما دخل الكتائبون المسكرات ونشله في
متابعة ما جرى بعد ذلك .

« فقد يفترض أن اظهر الاهتمام من قبل رئيس الوزراء في هذا الموضوع
بعد أن علم بدخول الكتائبين كان في الامكان أن يزيد من حالة تنبه وزير
الدفاع ورئيس الاركان الى الحلجة الى اتخاذ الاجراءات المناسبة
لواجهة هذا الخطر المرتقب بأن تصور رئيس الوزراء عن الانتماء والمشاركة
في المشكلة باكملها يلقى عليه قدرا معينا من المسؤولية ؟

ووجه النقد لوزير الخارجية اسحق شلمير لعدم قيلمه بما يكفى بمراجعة
تقرير تلقاه من زميله مردخاي زيبورى وبلغت انتباه وزير الدفاع الى الشائعات
بأن الكتائبين يقطون المدنيين غير المحاربين .

ويشعور بالحس القتونى الاصيل كان بيجين يدرك منذ اللحظة الاولى
التي شكل فيها لجنة كاهان أن عليه أن يقر توصياتها وينفذها مهما كانت
قاسية . فنتائجها سوف تكون ملازمة اخلاقيا حتى لو لم تكن ملازمة قتلونيا .
لكنه كان عازما عزوفا تالها عن طرد شارون اذا مارفض وزير الدفاع أن يخرج
في هـدوء .

وعلى أية حل فلان ما يهم رئيس الوزراء هو أن اسرائيل قد برئت تماما
من المسؤولية المباشرة . فجنود اسرائيل لم يقتلوا اللاجئين في صبرا وشاتيلا .
وشارون يستحق مصر افضل من أن ينهى حياته العسكرية والسياسية نهاية
مشينة لمجرد وقوع مذبة قام بها المسيحيون اللبنانيين وعلاوة على ذلك فلم
يكن يراود بيجين الشك في أن أولئك الذين يريدون اسقاط شارون انما يريدون
ايضا اسقاطه هو نفسه .

وعندما زار شارون بيجين في صباح يوم نشر التقرير سألته رئيس الوزراء
ماذا ينبغي عمله . واجاب شارون ان بيجين يمكن أن يقبل هذا التقرير أو يرفضه
ان وزير الدفاع لن يستقيل ولكن بيجين يستطيع ان يفصله . واجلب رئيس
الوزراء : « اتنى لن اطالب منك أن تستقيل » .

وكان المضمون واضحا . « واذا ما استخلص شارون النتائج
الشخصية » كما جاء في كلمات التقرير . فلان بيجين لن يقف في طريقه . لكن
شارون لم يكن على استعداد لان تفسر الامور في سهولة . فانه لن يقبل ان
يوصم بحض اختياره بوصمة « قابيل » وقال بيجين انه اذا ثبت شارون في
مكانه فالاختيار الوحيد امامه هو أن يذهب الى الرئيس ويقدم استقالته .

بالامالة عن حكومته كلها ويطلب اجراء انتخابات في وقت مبكر . وكان يؤمن بان الشعب يتف معه .

فالفالية رفضت تقرير كاهان لانه شديد القسوة . وبضربة واحدة يكون قد فعل الشيء المناسب وكسب تفويضا جديدا من الشعب ولكنه كان مستعدا لان يترك الحكومة بعض الوقت قبل ان ينفذ هذا المخطط .

واجتمعت الحكومة ثلاث مرات في ثلاثة ايام . واخذت تناقش التقرير ونتيجة لمدة احدى عشرة ساعة متصلة . وفي الاجتماع الثالث والذي استمر خمس ساعات في مساء العاشر من فبراير اصدرت الحكومة بيانا مقتضيا قالت فيه ان مجلس الوزراء قرر قبول توصيات اللجنة .

وكانت نتيجة التصويت ١٦ صوتا مقابل صوت واحد . وكان شارون هو الوحيد الذي صوت ضد هذا القرار . وقال وزير العدل موشيه نسييم للصحفيين : « ينبغي تنفيذ كل مقرة . واذا لم تنفذ مقرة من الفقرات فمجلس الوزراء سوف يجد الوسيلة لتنفيذها » وارتقى القرار الى مرتبة الانذار النهائي فلما ان يسارع شارون بالخروج او يدفع بقوة .

واكد سكرتير مجلس الوزراء دان ميردور انه ليس هناك من احد يلعب بالالفاظ وقال مسئول آخر كبير انه يامل في الا يتمين عليه ان يجلس مرة اخرى للاشتراك في مناقشة صعبة كهذه .

وخرج شارون من مكتب رئيس الوزراء في تحد ولكن دون ان يتصل بأحد وفي اليوم التالي انحنى للقرار الذي لا يمكن تجنبه واتصل ببجين هاتفيا وقدم استقالته وكتب يقول انه سوف يحترم قرار مجلس الوزراء بلمعاده من منصبه كوزير للدفاع ولكنه لن يستقبل من الحكومة . وبعد ان قال المدعى العلم اسحق زامير انه يكتب ان يخرج شارون من وزارة الدفاع وافق المجلس على الاكتفاء بذلك وابقاء شارون في الحكومة كوزير بلا وزارة وبعد ذلك بأسبوع اعيد تعيينه في اللجنة الوزارية للدفاع ووجهت المعارضة نقد شديدا لبجين لاحترامه كلمات والفاظ تقدير كاهان دون احترام روح التقرير وجوهره . لكن تقرير اللجنة كان غير دقيق في توصيته بصورة متمدة وكان من حق بجين ان يقول انه نفذ التزاماته .

الفصل الثالث والمشرون

« لا أستطيع الاستمرار »

ان ضعف الجسد والروح البطيء الذى كان يعانى منه مناحيم بيجين ،
والذى وصل الى الذروة باستقلته فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٢ ، كان قد بدأ
قبل ذلك بعامين فى الاغلب يوم ٢٦ نوفمبر عام ١٩٨١ .

وكان رئيس الوزراء يقرأ فى ذلك اليوم الاوراق الرسمية التى كان قد تم
ارسالها الى مقره فى ركن شرعى (بلفور) و (سوليتسلى) فى منطقة
(طالبيه) بالقس . وبعد أن قرأ بيجين آخر برقية لديه ، ذهب ليفصل
يديه قبل أن يلحق بزوجته وابنته (ليه) لتناول العشاء الا أن قدمه زلت
بين الحوض وقضيب المنشقة وسقط بقوة على أرضية الحمام .

وسردت هذه الاحداث التى وقعت يوم الخميس هذا وفقا لتسلسلها
الزمنى لحظة بلحظة فى خطاب مفتوح غير علنى أرسله بعد ذلك بأسبوع الى
(يوئيل ماركوس) المحرر بجريدة ها آرتس الذى كتب مقالا ينتقد فيه
زعماء اسرائيل ومستشاريهم للشئون الطبية لاختفاء الحقيقة بشأن العمل الذى
يعانون منها عن الجمهور . وكتب مناحيم بيجين يقول :

« لقد ظلمت ملقيا على الأرض أحاول النهوض وكنت اتهدد من الألم .
وحاولت ان اتحدى زوجتى لتأتى لمساعدتى ، لكنها لم تسمح ندأأتى لان صوت
الذبذبة الذى كان معى كان مرتفعا .. لقد جاءت هى أيضا بمحض الصدفة
لتفصل يديها ، عندما فتحت الباب وجئت راقدا على الأرض . وتساءلت
ثقله : ما الذى حدث لك ؟ وأجبته ثقلا : « لقد وقعت » وقالت حينذاك ..
« انهض » وقلت لها : « لا أستطيع » فتقلت انتظر سأحضر « ليه » .
وجاءت « ليه » وتساءلت لماذا حدث لك يا أبى وأجبت « وقعت »
ولا أستطيع النهوض ، دعبنى راقدا برهة وسأحاول النهوض ، وتشاورت
حينذاك زوجتى وأبنتى معا واتفقا على أن يرغمونى من على الأرض ويضعونى
فوق الفراش المجاور . وسمعت الحديث الذى دار بينهما وقلت لهما
« لا » ، لا تفعل ذلك « فليست لديكما القوة وستضطران لتحريكى والحركة
ستسبب لى الإلتهاب واعتقد أنى كسرت فى شيئا ، أحضرا الى اثنين من حراسى
وسأذكر لهما ما يجب أن يفعلاه معى » .

وبعد برهة قصيرة جاء اثنان من شبابنا الرقيق ، وطلبت منهما أن يفلا
الأذى عن أيديكما تحتى ، دون ان تحركا (أعضائى) وأهملانى فى ذلك الوضع

الى الفراش وضعوني عليه واقترب حارسا الامن منى وفعلنا بالضبط ما طلبته منها . شكرا لهما فقد رقدت على فراشى على جانبي الايمن ولكن الالم شديدا لىكن محتمل » .

وتم استدعاء اثنين من كبار الاطباء من مستشفى (هلاساها) كان من بينها (مرقين جوتسمان) ، الطبيب الشخصى لمناحيم بيجين ، وطلب سيارة اسعاف لنقله الى المستشفى فى منطقة (عين كريم) على الطرف الغربى من المدينة ، حيث اثبتت اشعة اكس انه يعانى من كسر فى فخذه اليسرى ، وكلما اسرعوا باجراء عملية جراحية له كان افضل وفى حجرة العمليات قيل لبيجين انه سيكون مستقيظا طوال الوقت حيث لم يتم اعطاؤه الا عقار ' مخدرا موضعيا .

لقد كانت الالم شديدة ولكنها لم تتزايد ، وقد شهدت استعدادات الجراحين وكيف ارتدوا ملابسهم ، وكيف تمت مساعدتهم فى ربط أحزمة اروابهم وكان جميع الموجودين فى الحجرة يرتدون اقنعة على وجوههم ، وكان من بينهم (البروفيسور جوتسمان) وأحد رجال الامن وبدأ التخدير ، وحقننى البروفيسور فلوريلا (ماجورا) عدة مرات بالقرب من عمودى الفقرى ، وبدأ التخدير تدريجيا فى الجانب الايسر من جسدى .

وجاءت اللحظة التى شعرت فيها بأننى مجدد ثم اخفت الالم وشعرت بتحسين كبير وأصدر البروفيسور (مير) ملكين أوامره بوضع مسترة بين النصف الاعلى من جسدى وبين الجزء الذى ستجرى فيه العملية . وقيل ان ذلك مطلوب حتى لا تصل الجراثيم التى تثبت مع تنفسى الى منطقة العملية .

وقبلت ذلك التفسير ، الا اننى اعتقدت انهم قد لا يريدون أن أرى كل ما يفعلوه وبالفعل لم أر شيئا .

وبدأت العملية ، ولم اشعر بانها بدأت . وتحدثت الى البروفيسور (جوتسمان) الذى كان بجانبى وتحدث هو الى .

ولم لكن اشعر بأى ألم . ونجاة سمعت دق مطرقة على مسمار وزاد الدق ولم اشعر بشيء ولم احسب العدد ولكنى اعتقد اننى ميزت تسع أو عشرة دقات منقطعة . وبعد برهة قيل لى ان العملية ستنتهى على التو وان كل شيء سار على ما يرام . وبعد قليل ذكروا انها انتهت . وازاحوا الستار ورايت قفاز البروفيسور (ملكين) وكان عليه بعض الدماء ، وازالها وجاء وقال لى : لقد تم كل شيء بصورة طيبة وتم وضعى فى نقالة واعلننى الى جناح البروفيسور (جوتسمان) الخاضع بالعملية المركزة .

وفي هذه الثيلة لم تعاوننى الآلام ولكن فى يوم الجمعة وقد زال على الأرجح أثر المخدر الموضى ، بدأت الآلام . وكنت شديدة الا انها كانت محتبلة لانهم سمحوا لى بالبقاء فى الفراش وعدم الحركة لمدة يومين .

وتم شفاء عظمة الفخذ ، العظمة التى توصل الفخذ بالحوض ، وخرج بيجين من المستشفى بعد ذلك بثمانية عشر يوما . الا أنه ظل يعانى من ألم شديد وعدم الشعور بالراحة لمدة شهر بعد ذلك وعندما قام الرئيس الفرنسى (فراسوا ميتران) بزيارة رسمية لاسرائيل فى شهر مارس عام ١٩٨٢ ، التى بيجين خطبا فى الكنيست وهو جالس على مقعد متحرك وفى أواخر شهر مايو ، اعتذر عن لقاء بين ألمان لجنة الشؤون الخارجية والدفاع بالكنيست لان ساقه المكسور مازال يؤلمه وقال لهيئة مكتبه أنه لم يتعرض لثل هذا الألم فى حياته . وتولى رئيس الوزراء عن مكتبه الذى وجده غير مريح ، ويأثر عمله اليومى وهو جالس على أريكة وعلى مقعدة لتناول القهوة وبعد ذلك بفترة طويلة وأصل المثل مستعينا بالعمسا .

لقد هز سقوطه ثقته بنفسه وفكره بأنه أصبح مسنا . واعترف بأنه يخشى من السقوط مرة أخرى .

وكوسيلة لتدعيم موقفه استغل بيجين أصابته كدعية فكان يقول للجماهير اليهودية الأمريكية الصاخبة عندما كانت إدارة ريجان تهدد بممارسة ضغط على إسرائيل لقد كثرت سلقى لكن لم تنتن رجبى .

وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الإصابة جعلته يشعر بأنه مريض مظلما لم تفعل أبدا حالة قلبه . وسأل ذات مرة زميلا له فى مرض القلب « هل تشعر بأنك رجل مريض ؟ وبالرغم من أن بيجين لم يسفر أبدا بدون طبيبه المخلص (جوتسمان) فإنه لم يشعر بأنه عرضة للخطر على نحو خلس .

وخلال زيارته للقاهرة فى عام ١٩٧٩ كان يقفز حول الاهرامات وهو يرتدى حلة وربطة عنق فى درجة حرارة أكثر من ٤٠ درجة مئوية ومع ذلك بدأ يبدو ضعيفا بساقه المكسورة وكان يحتاج الى مساعدة .

وفى الاغلب ، كان بيجين قد بدأت تظهر عليه — منذ توليه منصب رئيس الوزراء — الاعراض التقليدية للمس والانتقباض وقد انغمس فى الاكثاب والكسل لمدة شهر ، فى المرة الواحدة ، وحدث ذلك فى عام ١٩٧٨ ثم حدث مرة أخرى فى عام ١٩٨٠ . وكان يعود الى النشاط فى كل مرة بسبب نشوب قتال أو تعرضه لاهانة أو استفلال فرصة لصنع التاريخ . وفى الاثنين وعشرين شهرا التى تلت سقوطه فى حمله بالقدس ،

كان بيجين يتعرض لسمادة الحياة ولنقصها ، الا أن الدافع على العمل ضعف بالتدريب واصبحت الفترات الانقباضية لقل عدد او اقل مدة .

وبدأت تضعف المرونة التي اتصف بها في (الجولاج) وفي الحركة السرية وكذلك ازدياده للمعارضة الدائمة وتجارب الحكم . كان الاتجاه السلقد هو الاتحدار الشديد .

لم يكن شيء من ذلك واضحا عندما خرج بيجين من مستشفى الهداساه يوم ١٤ ديسمبر . لقد خرج بهمة ونشاط كبيرين كما لو كان يريد أن يظهر أنه من السابق لاوانه القضاء عليه .

وانقضى يوم الاثنين الطويل ، الذي خرج فيه رئيس الوزراء محوطا بكل ما تتصف به عملية ينفضها رجال المصائب : المفاجأة والسرية وسرعة التنفيذ .

وقد بدا ذلك اليوم في الساعة السابعة والرابع صباحا عندما كان بيجين مازال يرتدى ملابس المستشفى . واتصل تليفونيا بارييل شارون وسأله عن خطفه بالنسبة لذلك اليوم واجلب وزير الدفاع الذي غضب بعض الشيء للاتصال في هذه الساعة بأنه سينهب الى « ياميت » في شمال سيناء . واقترح بيجين عليه ان يتخل عن الذهاب الى ياميت ويحضر الى القدس . وتم أيضا استدعاء اسحاق شلمير وزير الخارجية . وتساءلا ما هي المسألة ؟ واجلب بيجين « سابلفكم عندما تحضرون » ولكن هذان الوزيران وهما أقدم رفيقين له في حزب حيرت اول من يحاطان علما لكن حتى هما لم يخفيا أن رئيس الوزراء كان يعتزم الاحتفال بخروجه من المستشفى بضم مرتفعات انجولان ، التي تم الاستيلاء عليها من سوريا في حرب ١٩٦٧ ، ودعى مجلس الوزراء الى عقد جلسة طارئة في وقت الظهيرة في شارع بلفور . وكان بيجين في بيته مشغولا .

كانت الصحف تعلم أن هناك شيئا في الاتفاق لكن ما هو ؟ وانفض اجتماع مجلس الوزراء قبل الغداء ، واعلن أنه سيصدر بيان في الكنيست بعد الظهر وبدأت التساؤلات : هل بيجين مريض أكثر مما كنا نتصور ؟ هل سيقدم استقالته ؟ هل هي عملية عسكرية ، ضربة ربما يتم توجيهها الى الصواريخ السورية نصف المنسية في شرق لبنان ، لقد اظهر الامر كله سطوة بيجين وعيله للآمر .

كان رئيس الوزراء قد اتخذ قراره وعلى وشك اعلانه وإيا كانت هواجس مجلس الوزراء فقد جرفه التيار وأجبر الكنيست على صياغة مشروع قانون بتطبيق القانون الاسرائيلي والتشريع الاسرائيلي والادارة

الاسرائيلية على المرتفعات بثلاث قرارات وعرضه على لجنة قبل منتصف الليل وقد يجادل المحامون المليون بشأن المصطلحات الفنية الصحيحة، الا انه بالنسبة للعالم اجمع كان قد ضم الى ١٦٧٥ كيلو متر مربع بما فيها من سكان دروز يبلغ عددهم ١٣٠٠٠ نسمة وسكان يهود يبلغ عددهم ٦٠٠ في اربع قرى واقعة فوق التلال و ٢١ مستوطنة على التوالي . ونيل رئيس الوزراء بالبادرة بنهائية درامية بالذهاب الى الكنيسة في مقعده المتحرك ، وتقديم التشريع من مكانه المخصص لرئيس الوزراء ، والدخول في معركة حامية مع الاعضاء البرلمانيين المعارضين .

وكان قد تم الايذان بالضم في الخطوط الارشادية انقضى وضعها الائتلاف للكنيسة في دورته الماثرة لكن لماذا اختار بيجين ذلك اليوم للاعلان عنه وهذه الوسيلة ؟

يقول مساعده ان اولويته الاولى كانت اسكات مدافع (جولا كوهين) وحزب (تحيا) الجديد الذي فاز بثلاثة مقاعد في انتخابات عام ١٩٨١ والذي كان يتريص الدوائر لكثلة ليكود من اليمين . لقد حاولت مرة مسز كوهين التي انتشقت عن حزب حريوت بعد كليب ديفيد دفع الخطى نحو الجولان وحدت بأن تفعل ذلك مرة أخرى بينما صمم بيجين الذي كان بطيئا في المعفو عن المنشقين على حرمانها من ارضائها فلا يهز الكلب الذيل .

وكن هناك ايضا شعوره المسرحي باستغلال الفرصة والرغبة الملحة في السيطرة على ارضاء المسرح . الا ان الظروف قد اجتمعت لجعل هذا الوقت مثاليا للضم . وكان العالم مشغولا بأزمة بولندا . وكانت سوريا تعمل لصالح اسرائيل بالادلاء بتصريحات متعنتة بصورة متزايدة حول «خيانة» ارتكبت لتحقيق السلام مع اسرائيل . وكان الرئيس السوري حافظ الأسد قد صرح في اليوم السابق مباشرة بأنه لن يعترف ابدا بالدولة اليهودية . حتى اذا قبل الفلسطينيون أن يفعلوا ذلك .

وقام (ديفيد كيمنش) مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية بتبرير تلك الضربة التي قلم بها بيجين لاجهزة الصحافة المالية بأنها اجراء وقلي لحيوية النفس . وقال اذا لم نستطع تحييد مرتفعات الجولان بمساعدة للسلام فذلك هو السبيل الذي يتعين علينا أن نحققه .

وبخ بيجين المعارضة البرلمانية منها اياها بمقتلية الجيتو وقتل ان الظاهرة التي تتكرر في التاريخ اليهودي من جيل لآخر هي اتهام الذات، فلا بد أن يقع اللوم على اليهودي ، واذا تعرض اليهودي لمذبحة فلن اللوم يقع عليه واذا سفلوا الدماء فاليهودي ايضا هو اللوم . ويقول اعضاء الكنيسة الان : لن تتفاوض سوريا معكم واللوم يقع في ذلك على الحكومة اليهودية . وكان رئيس الوزراء يؤكد

أن السوريين وبالتالي اتباعهم الفلسطينيين قد ظلوا في معسكر الرفض ، الذي منه لن يشكّلوا أى خطر على الحكم الاسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة . لقد أقدم بيجين على هذه الضربة ايضا قبل الموعد النهائي لانسحاب اسرائيل من سيناء فى شهر ابريل حتى يقلل من رد الفعل المصرى .

وقال أن القاهرة لن تفعل شيئا من شأنه ان يعرض للخطر استعادة اراضيها السليية ، ويحلّول شهر ابريل ستكون قضية الجولان قد ملّحت .

وكان بيجين على صواب فيما يتعلق بالمصريين ، لا أنه قلل من قوة رد الفعل الأمريكى ، فلم تشعر واشنطن بالغضب فقط لان اسرائيل ضمت اراضي سورية محتلة ولكن ايضا لانها فعلت ذلك بدون اذعاع مسبق ، وناهيك عن التفاوض بهذه الطريقة التى يجب أن يتصرف بها الحليف ، ردت ادارة ريجان على ذلك بارجاء العمل بمذكرة التفاهم الاستراتيجية التى كان شارون قد تفاوض بشأنها مؤخرا بمنع المكاسب المالية التى كان قد تم التمهيد بها لاسرائيل وكانت هناك شكوك فى الولايات المتحدة وفى اسرائيل حول القيمة العملية للمذكرة الا ان بيجين وشارون قد حققا الكثير منها . وكان ارجاء العمل بها ضربة لمكانتهما وكان رد رئيس الوزراء على ذلك شفويا اذ لم يكن لدى اسرائيل شيء ذو اهمية يمكن أن تحرم الولايات المتحدة منه ، الا انه فى نطاق هذه الحدود اخذ بيجين يهدد بالكلمات كما لو كانت اسرائيل هى الدولة العظمى وامريكا هى القلج المحاصر . ووجه ذلك الارجاء طعنة لبدنه الخلس بالتحالف التوازن والكبرياء فى الاستغلال اليهودى . وكان بيجين يعلل الكلمات على الدوام كالاسلحة ولا بد أن تأتى الخطبة الملهة التى القاها على السفير الأمريكى سىء الحظ « صموئيل لويس » فى مصاف أكثر الهجمات قسوة يوجهها شريك صغير الى راع ثرى وقوى .

لقد استدعى رئيس الوزراء (لويس) الى شارع بلفور ووجده السفير ما زال يعاني من ساقه المكسور ويلتزم بالصراة فيما اقتضى انه مناجاة للنفس استقرت خمسا وخمسين دقيقة وكما لو كان يريد أن يظهر أن غضبه ليس مَرَجًا الى لويس ، خرج بيجين عن سبيله لتبادل المجاملة بشأن صحتهما وعثلاثهما قبل الدخول فى الموضوع وبعد ذلك كما لو كان يقضى نورا ، قال بيجين : والآن يا سيادة السفير عندى تصريح أريد الادلاء به وقال انه رسالة شخصية يريد نقلها على النور الى الرئيس ووزير الخارجية ولاحظ لويس وجود حزمة من الاوراق الى جانب بيجين الا ان رئيس الوزراء لم يشر اليها .

واشار بيجين الى ان هذه هى المرة الثالثة خلال ستة اشهر « تعاقب » الادارة الأمريكية فيها اسرائيل . وكانت المرة الاولى بعد تدمير اسرائيل للمفاعل العراقي ، اما المرة الثانية فكانت عندما قصفت اسرائيل بيروت فى صيف عام ١٩٨١ .

منذ أسبوع أقر الكنيست قانون الجولان ، ومرة أخرى تملنون انكم
تملقبون اسرائيل ، ما هذا الحديث « تملقون اسرائيل هل نحن دولة
تلمة ، هل نحن جمهورية تلمة ، هل نحن صبية في الرابعة عشر من العمر
بحيث اذا لم يلتزموا في تصرفهم يتم تهشيم مفاصل ايديهم وارجلهم . اننى
سأتحدث اليكم عن تتلف منهم هذه الحكومة . انها تتلف من رجال تاتلوا
وخطروا بأرواحهم وعقوا انكم لا تستطيعون ان تخيفونا ولن تخيفوننا
بالعقوبات والتهديدات . لقد عاش شعب اسرائيل طيلة ٣٧٠٠ سنة
بدون مذكرة للتفاهم مع أمريكا وسيستمر في العيش بدونها لمدة ٣٧٠٠
سنة اخرى .

وانهم يبيجون الادارة الامريكية بانها اخلفت وعد الرئيس بفرض «عقوبات
مالية عليها » ما الذى يريدون أن يفعلوه ؟ هل يريدون ضرب اسرائيل
في جيبيها (اقتصاديا) ؟

في عام ١٩٤٦ كان يقيم في نفس ذلك المنزل جنرال بريطاني اسمه
(باركر) وهكذا فانتى أعيش اليوم في ذلك المنزل . وعندما ناضلنا وصفتونا
بأننا اراهابيون وواصلنا الفضل . ويعد أن نفسنا مقر قيادته في الجزء
المنزل من فندق الملك داوود قال (باركر) انكم لا تستطيعون معاقبنة
ذلك الجنس الا بصرية في جيبيه .

واصدر أمرا الى جنوده البريطانيين بحظر دخول كافة المقاهى اليهودية
وكانت فلسفة (باركر) هي ضربنا في جيوبنا .

ودافع رئيس الوزراء عن حق اليهود الامريكيين واصدقتهم في
الكونجرس في الحديث بوضوح من أجل اسرائيل دون ان تخيفهم الدعاية
المناهضة للسامية أو اتهمهم بتفضيل ييجين على ريجان على نحو لا يتسم
بالوطنية .

لن يخيف أحد الجالية اليهودية الحرة في الولايات المتحدة وستقف هذه
الجالية الى جانبنا فهذه ارض اجدادهم . ومن حقهم ومن واجبهم مسانقتها .
وهناك اولئك الذين يقولون أنه يجب الغاء القانون الذى أقره الكنيست .
وكلمة الغاء هي مجرد مفهوم انتقل اليها من عهد محكم التفتيش . ومفضل
اجدادنا الموت على الغاء عقيدتهم اما نحن فلن نموت . واننى أشكر الله ، اذ
لدينا قوة تكفى للدفاع عن استقلالنا والدفاع عن حقوقنا ومن فضلك قل لوزير
الخارجية ان قانون الجولان سيظل سارى المفعول ، وليست هناك قوة في
العالم يمكن ان تلغيه .

وفيما يتعلق بالاتهام الخامس بالحراج الولايات المتحدة ، امر ييجين على
أن اسرائيل تصرفت بسرية على وجه التحديد حتى لا تخرج الرئيس وقال ..
اتنا لا نريد أن تقولوا لا ثم نطبق نحن القانون على مرتفعات الجولان .

ولم يخفف ذلك عن صموئيل لويس ، الذى ادعشه ان يرى الحكومة
بأكملها مجتمعة فى حجرة الانتظار ، ومستعدة لسماع نفس مناجاة الذات مرة
أخرى باللغة العبرية . بل شعر السمر بدهشة أكبر عندما سمح تقريراً
شفوياً فى مذيع السيارة قبل أن يكون لديه الوقت للذهاب الى تل أبيب وارسل ..
رسالة للبيت الأبيض وشعر بأن ذلك انتهاك كبير للياقة الدبلوماسية بين بلدين
صديقين ، لقد قال ببجبن الكثير عندما أتاحت له الفرصة ولم يشعر رئيس الوزراء
بأى ندم حتى عندما أشارت الصحف الإسرائيلية الى أن الجنرال بلركر كان
يعيش بالفعل فى المنزل المجاور .

وسببت المواجهة التى حدثت حول ضم الجولان انخفاضاً فى مؤشر العلاقات
الإسرائيلية الأمريكية ، واعتقد الإسرائيليون فى واشنطن أن (جيمس ريكستون)
كان يعكس تفكير الرئيس عندما كتب فى عموده فى صحيفة نيويورك تايمز أن
كبار المسؤولين الإسرائيليين يشعرون بأن ببجين كارتة مؤكدة على إسرائيل وبقية
العالم وأشار الى أنهم ينتظرون لأن يفعل الشعب الإسرائيلى شيئاً تجاه ذلك .

ولم تظهر تفهماً للقضية الإسرائيلية سوى صحيفتين فقط من بين إحدى
وأربعين صحيفة أمريكية رئيسية علقت على موضوع الجولان .

وإثناء عودة (كاسبار واينبرجر) وزير الدفاع الأمريكى الى وطنه بعد
جولة فى الشرق الأوسط فى شهر فبراير عام ١٩٨٢ سئل عما إذا كان هناك
جهد منسق لتباعد الولايات المتحدة عن إسرائيل وتقلرب من العرب .
فأجاب قائلاً : أجل لن تصبح الولايات المتحدة رهينة لإسرائيل فى السياسة
العسكرية .

وانصح واينبرجر الذى كان ينظر اليه ببجين على أنه مسيحى مضطر
للتعايش مع اسمه اليهودى للراسلين بأن الإدارة تعتزم كسب تأييد فى الكونجرس
لبيع صواريخ هوك متحركة للدفاع الجوى وطائرات مقاتلة متقدمة طراز
(اف - ١٦) الى الأردن وعلى الفور قامت إسرائيل بتعبئة اصدقائها للتصدي
للسفطة الأردنية ، التى دفعت بأنها ستعمل على تغيير التوازن الإستراتيجى ،
الا أن واشنطن لم تعمل على تصعيد الأزمة بصورة كبيرة ، وكان ريجان لا يريد
أن يعطى ذريعة لإسرائيل للتراجع عن الجلاء عن سيناء ، الذى كان من المقرر
أن ينتهى يوم ٢٥ أبريل . وفى سلسلة من الخطبات والتصريحات أكد الرئيس
من جديد التزامه بالحفاظ على المزية النوعية التى تتكوى بها إسرائيل على الجيوش
العربية ورفضه الحديث مع منظمة التحرير الفلسطينية مالم تعترف بحق إسرائيل
فى الوجود فى حدود آمنة ومعترف بها .

ويبدو أنه قد ثبت — مرة أخرى — صحة افتناع ببجين بأن الأمريكين سوف
يعودون مرة أخرى فى النهاية الا ان العثر قد أخذ حقه مساهما بنصيبه فى الإنهاك

ايضا الانسحاب من سيناء الذى قبله بلوتيك شديد والذى تعارض مع قدراته كلها . وكان اليهود قد استقروا في شبه جزيرة سيناء لان الحكومات المتلاحقة ذكرت ان اسرائيل تحتاجهم هناك وبعد ثلاثة شهور من تولي السلطة حصل بيجين على عضوية شريفة في مستوطنة (نيوت سيناء) وهي مستوطنة تقع بين العريش وياميت انشأها اعضاء تنظيم شباب حيروت ، وتمهد بأن يعتزل هناك في الوقت المناسب ويكتب مذكراته ووافق على أن يدفع للمستوطنين البالغ عددهم ٣٠٠٠ شخص تعويضا كبيرا مقابل جلائهم طواعية بدلا من أن يثير « حرب اليهود » وأصدر تعليمات لتجنب حدوث معركة فاصلة عنيفة مع عدة مئات قليلة من المتعصبين ، الذين لم يعيش معظمهم أبدا في سيناء والذين يرابطون هناك في الوقت الذى اقترب فيه الموعد النهائي . وفي النهاية تم إجلاء المستوطنات الثمانية عشر كلها بعد وقوع اشتباكات رمزية الا أن ذلك خلق سلبقة وكان بيجين يعرفها . وبالتالي فلن يفكر حاكم عربى بعد ذلك في السلام بدون أن يطالب بمستوطنات .

وبعد مرور ستة أسابيع على الانسحاب من سيناء ، كتبت اسرائيل في حرب في لبنان . وكان بيجين يؤمن بأهدافها ، لكنه كان يريد أن تنتهي بسرعة ويؤمن زهيد وفي الوقت الذى كان يزداد فيه سلاح الدفاع الاسرائيلى غرقا في المستنقع اللبناني ويزداد فيه عدد الضحايا في الارواح اسبوعا بعد اسبوع لاكثر من اثني عشر شهرا كان رئيس الوزراء يزداد حزنا . وبغت كل خسارة في الارواح اتهاما شخصيا ، وعندما كان (أزريل نيفو) يحمل اليه انباء حدوث ضحية أخرى ، كان العاملون معه من هيئة مكتبه يرون الضيق على وجهه . وقال (ييهيرل كاديشاي ان هذه الانباء تجعل الحزن يتراكم على وجهه وقال (يونا كليمسو فيتزكي) سكرتيره الخاص ، بعد أن قدم استقالته ، انه شعر بالخيانة من جانب بعد الأشخاص الذين كان يثق فيهم لقد حمل على الاعتقاد بأننا سندخل لبنان ثم نخرج منها على وجه السرعة .

ومن المعتقد أن بعض الأشخاص الذين لثار اليهم هم وزير الدفاع ورئيس الاركان ولاحظ الاسرائيليون أن بيجين لم يحضر أية جنازة عسكرية ولم يزر أبدا المصلين في المستشفى . ويبدو أن ذلك كان مخمكة كبيرة بالنسبة له . وفي يوم ١٥ سبتمبر وهو اليوم الذى أرسل فيه خطاب الاستقالة الى الرئيس (حليم هيرتوج) كان سلاح الدفاع الاسرائيلى قد دفن ضحيته رقم ٥١٨ من الجنود الذين راحت ارواحهم ضحية للحرب اللبنانية ، كان جنديا برتبة عريف يبلغ من العمر ٤٩ عاما اصلته كثيفة بلزوكا في كمين بالقرب من صور .

وازداد المصائب التى يقع على كاهله نتيجة للمذبحة التى حدثت في مخيمات اللاجئين في بيروت واثرت فيه المظاهرات الضخمة والحللات الصحفية والانهابات بالقطر التى وجهت اليه وكان بيجين ووزراؤه وجنرالاته تحت المحكمة طيلة

سنة شهور تقريبا وأبداء من شهر نوفمبر كنت هناك تسع شخصيات هابة ، من بينهم بيجين وشارون وشليز تحت اشعار بانهم قد يضطرون للمشاركة في تحمل اللوم .

ولفتت لجنة كاهان نظره الى أنهم في خطر واعطتهم فرصة للدفاع عن أنفسهم ولم ينسب تقريرها الذي تم نشره في شهر فبراير الا قدرا محدودا من المسؤولية لرئيس الوزراء ، وهي اخطاء تتعلق بالاهمال وليست اخطاء ارتكبتها . الا ان بيجين بمقاليته القانونية وشعوره بالكرامة لم يكن بمقدوره ان يغفل هذه الوصبة . واضطرته الأزمة التي نشبت حول استقالة شارون الى تأكيد سلطته ، لكنه فعل ذلك بقلب متقبض وفي الوقت نفسه في خريف عام ١٩٨٢ كان يتصدى لمشروع ريجان الذي استهدف جر الاردن الى عملية السلام . ورفض بيجين المشروع باعتباره خطرا آخر على وحدة ارض اسرائيل وكان يجب الا يتزعج ، لان الملك حسين ان يتصرف بدون موافقة منظمة التحرير الفلسطينية وقد مارس الفلسطينيون مرة أخرى مع ذلك حقهم في الفيتو .

وحدث ذلك كله في ظل تدهور صحة (اليزا بيجين) ثم وماتها يوم ١٢ نوفمبر عام ١٩٨٢ . وقد عانت زوجة رئيس الوزراء من ربو مزمن لعدة سنوات . وفي شهورها الأخيرة كانت تتنفس بمسوية كبيرة وطبقا لما ذكره احد اصدقاء العائلة ، فان ٣٠٪ فقط من كمية الأوكسيجين الطبيعي هي التي كانت تصل الى رئتيها . ولم يكن بوسع الاطباء ان يفعلوا شيئا سوى الإبقاء على حياتها بمساعدة الأجهزة الطبية .

كان بيجين يزورها كل يوم في مستشفى الهاداساه بل واحيانا مرتين في اليوم ويتصل بها تليفونيا عندما يتسنى له ذلك . وقبل وماتها بأسابيع قليلة أرسل (ارمقد هابر) قطب شركة البترول اليهودية الأمريكية وهاوى الفن الذي استخدم صلاته بالكريبلين لمساعدة بيجين في الحملة من أجل اليهود السوفييت ، اثنين من المتخصصين لفحص حالتها ، وقد أوصيا بعلاج جعل تنفسها أكثر سهولة لبعض الوقت . وشعرت انها في حالة طيبة تمكثها من ان تحت رئيس الوزراء على ان يقبل دعوة لزيارة واشنطن لمعد أول اجتماع له مع الرئيس ريجان منذ خمسة شهور . وفي الطريق الى واشنطن كان من المقرر ان يلقى بخطاب في حفل عشاء لجمع التبرعات في لوس انجلوس . وقام ابنه (بنيامين) بنقل أبناء وغاة (اليزا) الى جناح بيجين في الفندق هناك . وتلقى الرسالة (ييهيل كاد يشاي) الا انه أراد أن يكون الدكتور جوتسمان موجودا عندما يبلغ رئيس الوزراء بالفيديو . وكان ذلك بعد ظهر يوم السبت في كاليفورنيا وكان الطبيب قد ذهب الى احد المعابد اليهودية ، واتصل به السكرتير السيلسي لمنحهم بيجين بطريق المنياع . وفي الوقت الذي كان فيه (جوتسمان) في طريقه عائدا الى الفندق ، كان بيجين قد ارتدى ملابس المسهر وربط عنق اسود لتناول العشاء . وكان حاضرا أيضا (هارت

هالستين) وهو يهودى أمريكى مخضرم من حزب حىروت وزوجته بالاضافة الى (ليه) ابنة بيجين والمضيئة الأرضية التى اصطحبتها فى الرحلة وانفجرت (ليه) فى البكاء عندما نقل النبا لها ولوالدها وتم اعداد الترتيبات لمودتها الى الوطن على متن طائرة بوينج ٧٠٧ من السلاح الجوى الاسرائيلى مخصصة لرئيس الوزراء وقال (كلايش) ان عدم وجوده الى جانب زوجته فى الساعات الأخيرة من حياتها قد سبب له ألما كبيرا .

ولم يخرج بيجين من كايينة نومه الصغيرة المزدودة بالمستقر خلال الرحلة التى استغرقت ست عشرة ساعة من لوس انجلوس الى تل ابيب وظل على متن الطائرة عندما توقفوا لاعادة تزويدها بالوقود فى نيويورك . وكان يتجرع حزنه وحده معظم الوقت .

وعندما عاد بيجين الى شارع بلغور ، اقام حدادا على « عروس شبابه » لمدة سبعة ايام حسب التقاليد وظل بدون حلاقة لاكثر من شهر واقتنع اصداؤه العاملون من هيئة مكتبه بأن وفاة (اليزا) بعد زواج دام ٤٣ علما هو القشة الأخيرة التى قصمت رغبته فى الحكم . وقال احدهم ان بيجين مر بأوقات قبل اتخاذه قرارات حياة أو موت ولكنه لم يشعر باليأس أبدا ولم يفقد قدرته على الزميلة .

لقد أصبح شخصا وحيدا ، بعد وفاة (اليزا) وهو ليس رجلا ثرثارا ، حتى لو كان يستطيع ان يكون خطيبا ساحرا بكلماته . وهو يتحدث الى النفس وليس معهم . وباعتباره شخصية مهيمنة فهو لم ينقل المسؤولية أبدا الى الآخرين . وكانت زوجته هى الشخصية الوحيدة التى يستطيع التحدث معها واشراكها فى مسؤولياته ومشاكله وكثما قريبين للغاية من بعضهما . وبعد ان توفيت كان يعود الى بيته ولا يجد أحدا يتحدث اليه . لقد كان فى حرب وكان النفس يموتون ولم يكن معه احد ليشاركه فيها .

وحاول بنيامين ابن بيجين ان يملأ الفراغ وكان قريبا جدا من رئيس الوزراء — شخصيا وسياسيا ، وكان يتواجد فى المكتب فى معظم الأحيان عندما يتم اتخاذ قرارات حساسة — الا ان (بنيامين) لم يستطع أبدا ان يملأ مكانة امه ، فقد كانت له زوجة وستة اطفال بالاضافة الى وظيفته كجيولوجى وكان يكره خروجه على الملأ ويقول احد اصداقه ان بنيامين فعل ما فى وسعه لكن الامر كان مختلفا ومنذ نهاية عام ١٩٨٢ وبعد مرور شهر بالكاد على وفاة (اليزا) بدا بيجين يفقد وزنه وقوته . ولم يكن يتناول طعامه بصورة طيبة ، وعلى ملأته المفضلة فى صالة تناول المشاء فى الكنيست لم يكن يتناول سوى طبق صغير من الخضروات . وقد توقف عن طلب طبق الدجاج والثسورية ، الذى كان يمثل طعامه الرئيسى . واصبح وجهه ورقيه غائرين وهزيلين وعندما ألح عليه أحد مستشاريه ليتناول الطعام ، رد قائلا : لم تعد عندى شهية .

وعلى الرغم من تدهوره الواضح لصركيل المسؤولين في العلانية وفي السر على أنه لا يتلقى أى علاج خالص سواء كان طبييا أو نفسيا . الا أن حالة الاكتئاب كثرت ترداد سوءا وقال أحد مستشاريه المقربين « لقد كان يتعامل مع الأشياء الكبيرة أكثر من تعامله مع الأشياء الصغيرة ولم يكن يقرأ الصحف بنهم كعادته . وقتت اجتماعاته وأصبح هربا . وشعر ديبلوماسى أمريكى يعرف بيجين جيدا أنه لم يعد يستمتع بكونه رئيس وزراء اسرائيل ، فقد أصبح ذلك بالنسبة له عملا روتينيا بل عملا شاقا وكان يشترك في المفاوضات ويفهم ما يجرى مناقشته الا أنه ترك جاتبا كبيرا من التمثيل الاسرائيلى لرفاقه وولت هيفته وسيطرته . وفقدت مشاركته شرارتها الخلاقة ولم يعد يتطلع الى صيغ جديدة وطرق للاقتناص حول المشاكل وقتلت المناسبات التى يتأهل فيها وربطت حركة (السلام الآن) أربعة شهور خارج مقر رئيس الوزراء ومعها لوحة بالقتلى يطاردهون بها عند خروجه أوعودته . ورد (ماثيو كوهين) العضو البرلماني بكتلة ليكود على ذلك بالاضراب عن الطعام وظهر بيجين ليطلب منه الاقتلاع عن اضرابه . الا أنه سار كائنسان الى في اتجاه خطيئ . فاخذ أحد رجال الأمن من كتفه وقاده الى الطريق السليم وعندما استقبل مجموعة من أصدقاء اسرائيل من الشباب الأمريكى المسيحى ، سألهم زعيمهم عما اذا كان رئيس الوزراء لديه اية رسالة لهم ليحملوها عند عودتهم الى الوطن ، رد عليه بيجين بالنصيحة التى اعتاد أن يقدمها ليهود الشتات وهى « تعلموا العبرية وأقربوا وعيشوا في اسرائيل » .

وعلى الرغم من أن المتحدثين المخلصين له زعموا حتى آخر لحظة أن بيجين مازال يدير دولا الممل الا أن قبضته على ناصية الأمور قد ضعفت وقد شعر بالخرج من دعوة له بزيارة الرئيس ريجان في نهاية شهر يوليو ، بالرغم من أنه كان يلح عليها بشدة في وقت مبكر من العام . ومنذ اللحظة التى سلم صموئيل لويس فيها رسالة الرئيس كلن بيجين يبحث عن مخرج . وقال لموظفيه اننى لست قادرا على الوقوف أمام الجمهور وطلب السفير ردا عاجلا لان البيت الأبيض يريد الاعلان عن الزيارة في اليوم التالي يوم الجمعة ، لكن بيجين طلب بعض الوقت وقال له : « ومن فضلك ان تبذل الرئيس بأننى سارد عليه في بداية الاسبوع القادم .

وبمساعدة يهودا أفنر الذى يتولى مراسلاته المكتوبة باللغة الانجليزية قيل بيجين الدعوة في الاسبوع التالى الا أنه دس عبلة كخرج له . وقال انه سيكون سعيدا لان يزور واشنطن . ويتوقف ذلك على قدرتى على مغادرة البلاد في ذلك اليوم وكنت هناك ثلاثة اسابيع لا تزال اسم الزيارة ، وحققت له الرسالة فترة سماح مدتها أسبوعين الا أن ذلك لم

يحقق شيئا ، بمأوال بيجين غير قادر على مواجهة العالم وتمت مسيافة عدد مختلف من الخطابات الدبلوماسية ، الا ان رئيس الوزراء قرر ان السبيل الوحيد هو الاتصال تليفونيا بالرئيس ريجان ويطرح اسبيله الشخصية للتأجيل ومما بعث الراحة في نفوس الاسرائيليين ان البيت الابيض أصدر اعلانا لبقا استخدم فيه تلك الكلمات لاسباب شخصية بدون أى تفسير اكثر من ذلك . وامسك به مكتب رئيس الوزراء كما لو كان بياناً مشتركاً متفقاً عليه . وكثفت الاسباب الشخصية مناسبة للقدس مثلها كانت مناسبة لواشنطن .

وفى اسرائيل لم يظهر بيجين على منصة الخطابة او على شاشة التليفزيون ولم يعط أية احاديث وكان الاقتصاد فى حالة نوضى وكلل الوزراء يتجادلون بحدة حول اجراء خفض فى الميزانية ، واصلب الخدمات الطبية شلل بطيء نتيجة لاضراب الاطباء الذى استمر ١١٧ يوما ولم يكن هناك من سبيل للخروج من لبنان وانزوى بيجين بعيدا معظم الوقت ومسح ذلك لم يقول أحد سلطته . وتوفى (سيحيا ارييك) نائب رئيس الوزراء المسن فى شهر يوليو ، وبدا الرئيس بدون هدف اكثر من أى وقت مضى وتم ترك الامر الى (اهرن بوزان) الذى ينتمى الى حزب (ناهى) الصغير الناظر ليكسر مؤامرة الصمت . وقال (اوزان) وزير الدعاية الاجتماعية وهو فلاح من تونس ان (الحكومة تشبه سفينة بدون قائد) وعلى سبيل المثال فان مناقشة الميزانية قد جرت فى جو من الفوضى لا يمكن تصديقه .

(كفوا يقضون ثلاث ساعات من الساعات التسع يفكرون كيف يتخذون القرار بدلا من اتخاذ القرار وفى النهاية لا يعرفون ما تقرر وكان جميع الوزراء يصطفون فى سكرتيرة الحكومة للنظر فى الحاضر ليعرفوا ما تقرر) .

وبالتأمل فى الاحداث الماضية كانت هناك حتمية حول تقاعد بيجين ، وليس من الممكن اخفاء الحقيقة الى الابد ، ولكن يزداد احسنا بعدم قدرته . وقد قال مرارا انه سيتقاعد فى السبعين من عمره ، ومع ذلك لم ان اعلانه فى نهاية اجتماع روتينى للوزارة يوم ٢٨ أغسطس علم ١٩٨٢ بانته يعترم الاستقالة قد ادهش الجميع ، اللهم الا حفنة من المقربين اليه . بل حتى هم لم يكونوا لديهم علم بخططه حتى قبل اجتماع الوزارة مباشرة .

وكما كان يحدث فى معظم الاحيان فى السر وفى الحكومة ، لم يشاور بيجين سوى نفسه واتخذ قراره الخاص وحينذاك ابلغ به ابنه بنيامين وسكرتيره السياسى (ييهيل كاديشاي) وسكرتير الحكومة (دان مريدور) ورفيقه القديم فى جماعة (ارجون) (يعقوب مريدور) وكان الاعلان عن هذا القرار املم الحكومة تهيدا دستوريا ضروريا قبل الذهاب الى الرئيس .

وقال بيجين لزملائه الذين جاؤا الى حجرته بعد ان انفض اجتماع الوزارة .. « انتى اشعر بأنه ليس بمقدورى تحمل مسئولياتى تجاه الامور كما هى عليه ، وبالطريقة التى اودها والطريقة الواجبة » .

ومع ذلك ، وافق على الاستماع الى ممثلين من جميع احزاب الائتلاف الذين كانوا يخشون من النتائج الانتخابية ويأملون فى اقناعه باعادة النظر فى الموضوع ونشده لمدة يومين باسم الله وجلبوتينسكى ، فى الوقت الذى اصطف فيه مئات من الناخبين فى كتلة ليكود خارج منزله ينتشدون قائلين : « بيجين ، ملك اسرائيل » . لكن كان ذلك كله بدون جدوى .

ولم يكن ذلك هو بيجين عام ١٩٦٦ الذى كان يثير النزاع فى نفوس اتباعه — ويضطربهم الى الوقوف فى صف واحد مهددا بالاستقالة . وابلغ (ميريدور) بصورة قاطعة اسكت المتضرعين اليه « لا استطيع الاستمرار » .

وكخدمة اخيرة لحزبه ، وافق بيجين على الانتظار الى حين ان يتم اختيار خليفة له . وكان متأكدا من الفوز بالتأييد البرلماني قبل ان يبلغ الرئيس هرتزوج وكانت المناورة السياسية هى التى انتقصت من كرامة رجله ، ولاسيما عندما بقى اكثر من اللازم ، الا ان تصرفه هذا يتسم بالولاء كان من الممكن ان يفهمه بن جوريون أو جولدا مائير . وكان التوازن بين كتلة ليكود وحزب العمل دقيقا للغاية لدرجة ان ادنى خطأ فى التقدير قد يجلب المعارضة .

وتم اسدال الستارة النهائية فى دراما الحياة العلبة لمناخيم بيجين على مسرح خلو . وانكىش رئيس الوزراء فى توقعته وبات لا يأكل الا قليلا ولم يعد يخلق ولا يرى سوى عقلته ومستشاريه المقربين .

وظل بعيدا عن اجتماعات الوزارة ولم يحضر صلوات العام اليهودى الجديد ولم تكن لديه رسالة وداع الى البلد ولم يلعب دورا فى اختيار اللجنة المركزية لحزب حيروت لاسحق شامير كرئيس جديد لها ولم يرسل أية تهاتى . وفى ظهر يوم الخميس الموافق ١٥ سبتمبر ، ارسل بيجين (دان ميريدور) الى منزل الرئيس باستقالته الرسمية .

وقال متحدث انه لا يريد الظهور على الملأ لانه يعانى من طلع جلدى يمنعه من الحلاقة . وتم الاعتراف فيها بعد بانه كان يستخدم مرهما لحلقه طيلة ٣٥ عاما ومرة اخرى لم يستطع بيجين ببساطة ان يواجه العالم وبعد ذلك بسبعة اسابيع اقيمت صلوات تذكارية فى مدفن جبل الزيتون فى الذكرى الاولى لوفاة (اليزا) ولم يحضرها بيجين ، الذى ملأل يعيش كما لو كان يعتزل العالم فى مقر رئيس الوزراء .

الفصل الرابع والعشرون

البيت الذي شيده مناصيم

نقد حكم مناصيم بيجين أسرائيل لمدة ست سنوات وثلاثة شهور ، مما جعله رئيس الوزراء الذي يحتل المرتبة الثانية طول مدة الخدمة في ذلك المنصب بعد (ديفيد بن جوريون) الاب المؤسس للدولة . وقد كشف عن نفسه كرجل معقد ولكنه ليس غامضا . ورجل متناقض في صفاته الظاهرية وان كان غير لغز . وهو ارهابي لم يسبق له مثيل غز بجائزة نوبل للسلام ثم شن حربا اخرى .

وهو ديمقراطي ولكنه مستبد . كما أنه زعيم ليس للدهاء وسيد بولندي ومطل شرقي يحظى بالاعجاب . وهو رجل حسن السمعة يجد من الحكمة قراءة الحروف الصغيرة وهو متأمر يجد من العسر الحفاظ على سر .

ووصفه الاسرائيليون بأنه اول رئيس وزراء له أيديولوجية ومن المؤكد أنه لكثير الرجال عزا في اسرائيل . وكانت الاولوية الكبيرة بالنسبة له هي ضمان للوطن القديم كله في غرب الاردن للشعب اليهودي . وفي الوقت الذي تقاعد فيه اعترف حتى معارضوه أنفسهم بأن ذلك التقاعد سيأخذ معه زعيما ليس اقل تفانيا وليس اقل قوة لعودة خطوط التقسيم . وفي شهر مايو عام ١٩٧٧ ، عندما وعد بيجين « الكثيرين في الون موريه » كانت هناك ٢٣ مستوطنة يهودية في الضفة الغربية وواحدة في قطاع غزة وفي شهر سبتمبر عام ١٩٨٢ كانت هناك ١١٢ مستوطنة في الضفة الغربية وخمس مستوطنات في غزة . كما ان عدد السكان اليهود الذين يعيشون خلف « الخط الاخضر » القديم قد زاد من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠ نسمة (بما في ذلك مدينتا « معاليه اوديم » و « اباتوئيل » الجديدين) .

وذلك علاوة على ان نمط الاستيطان قد تغير . وفي ظل حكومة حزب العمل كان التركيز ينصب على نهر الاردن وعلى استيطان الحدود الاستراتيجية . وتم عمدا الإبقاء على المستوطنات بعيدا عن منطقتي يهودا والسامرة الواقعتين على التلال حيث يتركز معظم السكان العرب . ويريد حزب العمل الإبقاء على خيال التسوية الاقليمية أما مناصيم بيجين فقد تلب الاتجاه الذي تسير فيه الامور وسحب الموارد بعيدا عن الهوامش الشرقية وجعل المستوطنات مقننة بين المدن والقرى العريضة .

وفي اول الامر لم يتطوع سوى الذين لديهم أيديولوجية للالتصام في تلك المواقف المتقدمة ، لكن بالتدريج تجرعت العائلات المعنية الطعم الذي نصبته لهم الحكومة

وانتقلت الى الضفة الغربية لان الاسكان هناك اكثر رخصا واصبحت المستوطنات على مقربة من القدس وتل اييب لتكون بمثابة صوامع يمكن الانتقال منها بين المدينة والضاحية .

وبعد سنوات من العناء المستمر اعترفت حتى الولايات المتحدة نفسها بان المستوطنين يوجدون هناك ليعقوا ٠ وفي اليوم الثاني من أغسطس عام ١٩٨٣ ، صرح (شارلز لينتشتاينستين) نائب مندوب الولايات المتحدة في الامم المتحدة لجلاس الامن بما يلي :

« اننا لا نعتقد انه امر على او حتى مناسب المطالبة بإزالة المستوطنات القائمة . ان مستقبل المستوطنات يعد من القضايا الرئيسية التي تحتاج الى معالجة في المفاوضات . وليس بوسعنا ان نقبل استمرار الدفع الذي يتسائل عما اذا كانت المستوطنات غير شرعية » وهو دفع سيطر — لسوء الحظ — على المناقشات التي جرت في الامم المتحدة حول هذه المسألة مما لم يكن في صالح القضية الاساسية ، الا وهي كيف يمكن تحقيق حل عادل وسلمي للنزاع القائم حول الاراضي المحتلة » .

وبكلمة أخرى ، تم خلق حقائق وكانت ادارة ريجان واقعية للغاية بحيث لا يمكنها ان ترغب في ازالتها . وفي الوقت نفسه فان الحكم الذاتي الفلسطيني كما هو متصور في كلب ديفيد كان بمثابة خطب بيت . وبعد مرور خمسة اعوام على اتفاق بيجين — والسادات ، لم يكن هناك مجلس للحكم الذاتي فقط بل لم تكن هناك مفاوضات ايضا وبدأ الفلسطينيون الذين يبرزون تحت وطأة الاحتلال يفقدون حقوقهم بالتدريج كما ان وضع المستوطنين قد تدعم واكتسبت صفة الشرعية مع كل شهر يمر .

ومع ذلك لم تلغ مصر معاهدة السلام لقد كان سلافا فاترا على كلا الجانبين ، الا انه سمح لبيجين ان يشن حربا في لبنان بدون ان يتزعج بلا داع حول جناحه الجنوبي . وسمح له بالضي قدما في كسب معركة من اجل ارض اسرائيل .

وفي عيد الميلاد السبعين لرئيس الوزراء ، كتبت صحيفة « التايمز » الصادرة في لندن والتي لم تعتبر ابدا من بين معجبيه تقول ما يلي :

« على أية حال فان بيجين لديه الان وهو في السبعين من عمره مبرر للشعور بالارتياح ان السياسات التي انتهجتها تشكل ضغوطا على المجتمع الاسرائيلي وعلى اقتصاده .

الا انه يملك الان في يده بزلم المبادرة الاستراتيجية ضد جيرانه ، وهم يعرفون ذلك . وذلك موقف غير عادي بالنسبة لاسرائيل ولا يحظى

بترحيب بالنسبة للعرب ، وهو ايضا موقف غير مريح بالنسبة لجميع الاطراف المتفرجة التي تريد اتحصال نفسها في الامر » .

ويعترف العالم بأنه في ظل حكومة ليكود تحت القوات المسلحة الاسرائيلية وصمة العار التي ترتبت على حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ وسواء كان ذلك امرا طيبا أم سيئا فان موقف اسرائيل قد تأثر ككسوة اقليلية عظمى . وادى قصف المفاعل العراقي واخضاع منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت والسوريين في شرق لبنان الى استعادة الردع الاسرائيلي . ومع ذلك ، ففي غضون أيام من المقال الافتتاحي الذي أوردته صحيفة التايمز ، كان هناك تساؤل مرة أخرى حول مزاعم للصقور بأن بيجين .. « قلم بالقصاص واكد من جديد ثقة الاسرائيليين في انفسهم واقتناعهم بأنهم يستطيعون ، جزئيا على الاقل تقرير الظروف التاريخية » . وكان تجدد الحرب الاهلية في لبنان بعد ان انسحبت القوات الاسرائيلية من جبال الشوف آخر مسمار في نعش المخطط الكبير الذي وضعه ارييل شارون . وانهار المحور الاسرائيلي الماروني وكانت سوريا لا تزال الشقيق الاكبر للبنان ، كما بدأ يتسلل رجال المقاومة الفلسطينية وكانت الدبلوماسية العربية هي امل الرئيس امين الجميل الاخير . وفي الصيف الماضي ، طالبت الكتائب اسرائيل بالكثير ، وكانوا يتوقون لنذبح الفلسطينيين وليس لحاربة منظمة التحرير الفلسطينية ومع ذلك ، كان هناك حد للتضحية التي يمكن ان تفكر اسرائيل في تقديمها لصالحهم والتضحية في الارواح وفي السمعة . ونتيجة لذلك لم يتم طرد السوريين والفلسطينيين من شرق وشمال لبنان ولم يكن امين الجميل ، الذي حل محل (بشير) الذي قتل لديه نفس ميل شقيقه للرابطة الصهيونية . لقد عقد اتفاق يرقى الى معاهدة سلام بين القدس وبيروت في بداية عام ١٩٨٣ ، الا ان اللبنانيين لم يصدقوا عليه ابدا وسرعان ما زال . وكان هناك حفيف من المنتبة في زيارة قام بها شارون الى طفلة المسيحيين القدامي في شهر اغسطس وقد ذكر عند عودته الى تل ابيب ما يلي :

(لقد اجتمعت مع شخصيات رئيسية وقلت لهم عدة مرات انه على الرغم من ان اسرائيل لم تخض حربا لتخلق موقفا جديدا في لبنان ، او لتمكثهم من الحكم في لبنان فما زالت لديهم فرصة اعتقد انها لن تحين مرة اخرى لتكون لهم دولة مستقلة خاصة بهم وهذه الفرصة تختفي تدريجيا . واعتقد ان ايلهاا معدودة . وقد فقدت لبنان بيديها فرصة في الوجود ككولة مستقلة) .

ولسم يعد اللبنانيون يسطون آذانا صاغية ، وفي اسرائيل كان يقوم بصنع السياسة رجال آخرون اكثر مللا . وكان الاهتمام الاول لموشي اريئز حليف شارون هو الحد من خسلر اسرائيل ، في الوقت الذي يتخذ فيها الاهداف الاصلية المتواضعة لعملية السلام من اجل الجليل . وعندما قدم

(بيجين) استقالته ، بدأ كما لو كان السبيل الوحيد الذى تستطيع اسرائيل ان تضمن به عدم سقوط صواريخ كتيوشا أخرى على كريات شونة هو الابتعاد على حامية دائمة على طول نهر الاولى .

خلال الاموال الستة التى تضاها مناحيم بيجين فى السلطة اعد رسم خريطة فلسطين ، الا انه لم يحل مشكلة الفلسطينيين وكثت ارض اسرائيل التى ورثها لاسحق شلمير هى دولة ثنائية القومية قيد الاعداد وارض تضم ثلاثة ملايين ونصف المليون يهودى ومليونين من العرب . وكان الفلسطينيون موجودون فى الوطن الموسع ولكنهم ليسوا منه . ولم تكن الاطماع الصهيونية لاسرائيل هى اطامعهم . ولم تكن كذلك فى معظم الاحيان ، ديمقراطيتهم او جيش مواطنيهم او مؤسساتهم ، التى عرضتهم للخطر نتيجة لعداوة الاحتلال . لقد خضع العرب للسور الحديدى الخاص بجايوتينسكى الا انهم لم يذعنوا للهيئة الاسرائيلية . ان هناك اعداد كبيرة منهم للفلية - فى الاراضى المحتلة وفى اسرائيل الحقيقية لدرجة لا يمكن ان يتم معها استيعابهم كاتنية سلالية كما ان معدل مواليدهم المرتفع جعل الجلب السكانى فى صالحهم . وكان مشروع بيجين للحكم الذاتى اعترافا ضمينا بالمشكلة الا انه لم يبذل جهدا اكيدا لوضعه موضع التنفيذ ولم تشجع الحرب اللبنانية فى تدمير منظمة التحرير الفلسطينية كعمل سيسى فى المعادلة نظما مثلت ايضا فى تغذية زعامة محلية مستقلة مستعدة لتحقيق سلام بشروط اسرائيل .

وأصبحت الاراضى المحتلة ساحة للمواجهة بين تقيضين : الارهاب العربى مقابل الارهاب اليهودى ، فى الوقت الذى تعتبر فيه الاحتمالات مشحونة بقوة ضد العرب . ان الرجال والنساء الذين تصدوا الحكومات المتعاقبة لحزب العمل وكتلة ليكود يجلسون الآن فى الوزارة وعلى مقاعد الائتلاف . واصبح الشاذ هو القاعدة وفرض اعضاء لجان الامن الاهلية المسلحون بأسلحة قوات الدفاع الاسرائيلى رؤيتهم الخاصة بالانتقام العين بالعين . وعلى سبيل المثال ، عندما تم قتل أحد اليهود فى الخليل فاتهم خرجوا فى هياج واحرقوا السوق العربية وشكت قوات الامن من التدخل السياسى عندما حاولوا محاسبتهم . وكان قاطع الطرق « صبية يهود طيبين » يقومون بالاعمال القذرة وكان يوجد على الدوام عضو برلمانى او حاخام ليذكر الشرطة . وفى ظل الجنرال (ايتان) اصبح الجيش فى الضنة الغربية اداة لحركة (جوش ايمونيم) واصبح تاسكها فى خطر . وقدم الجيش للمستوطنين المزيد من المساعدة والمستعدة .

وكتب (يورام بيرى) فى مقال بعنوان « بين المسلك والانتراخ » دراسة للمعسكرية فى السيلسة . قال فيها :

لم يتم اعفاء المستوطنين الشرعيين من الدعاوى القضائية فقط ، بل كان يصل الامر في بعض الحالات الى حشد ايوائهم في معسكرات قوات الدفاع الاسرائيلي وتجاهل الجيش أعمال الاستفزاز والتخريب التي يقوم بها المستوطنون ضد السكان العرب في هذه الأراضي . ومن ناحية أخرى ساعدت قوات الدفاع الاسرائيلي المستوطنين على انشاء وحداتهم الخاصة بالدفاع عن النفس وتم تزويدهم بالاسلحة والسماح لهم بضبط امنهم الخاص في الأراضي .

ومنذ اللحظة التي انحاز فيها رئيس الأركان الى جانب واحد في المناقشة العامة مورطا معه قوات الدفاع الاسرائيلي - فقد الجيش ميزة التقدير الكبيرة في نظر المجتمع يرمته . ولم يعد يعكس المجتمع كله ، بالرغم من انه أصبح يحتل باعجاب معسكر سياسي واحد ، نظر اليه الجانب الآخر على أنه خصم سياسي . وبذلك أصبحت المرحلة التالية حتمية - وهي المرحلة التي تبتمد فيها جماعات معينة تماما عن الجيش .

وعجل بالعملية « خيار الحرب » الذي انتهجه بيجين في لبنان . فقد طالب قائد لواء أن يتم اعفاؤه من منصبه وفضلت قوات الاحتياط الذهاب الى السجن عن العمل شمال الحدود . وقام الآباء بمظاهرات ضد استغلال ابنائهم الجنود ، وازدادت شدة الانتقاص الثقافي وأدين المنشقون بانهم متواطئون مع منظمة التحرير الفلسطينية وبذلك هياؤا الجو لعمليات العنف بل والقتل .

وكان بيجين مثله في ذلك مثل جميع رؤساء وزراء اسرائيل السابقين مشغولا بالامن وبالشتون الخارجية . الا ان عهده عانى من اسلوبه المستبد في الزعامة . وقد عهد (بن جوريون) بالشتون المالية والداخلية الى ليفي أشكول (اما جولدا مائير) فكان لديها بنحاس سابير وكتابه الاسود الصغير . ولم يعين (بيجين) أي سيد أعلى محلي . وكان يفوض المسؤولية دون السلطة . وهو لا يستطيع أن يتسامح مع أي محور مناقس للسلطة ومع ذلك لم يكن لديه الميل أو الوقت لتوجيه الجبهة الداخلية بنفسه .

وعلى سبيل المثال ، فان تجديد المشروعات ، وهو مشروع خيالي لاصلاح الاحياء الفقيرة ومن التنمية من خلال مشاركة الشتات الاسرائيلي انما هو مشروع من بنات افكار رئيس الوزراء . الا انه بمجرد أن أطلق شرارته في حمية النصر الانتخابي الخاص بعام ١٩٧٧ تركه لمستقبل غامض في ايدي مرعوسيه . وفي كل مكان آخر غلته وقع رهينة للسياسات الانتصافية المغامرة الخاطئة (ليورام أريدور) .

وفي الوقت الذي تقاعد فيه (بيجين) كان التضخم قد وصل الى حوالي ١٢٠٪ في العام وكدت قية الشيكل تنخفض بمعدل ١٪ كل يومين . امل الدولار الامريكي وكان الركود يغيث على الانتاج الصناعي وكان

الفلاحون يواجهون الافلاس وزادت الواردات على الصادرات بدرجة مخيفة وانفجر فوران البورصة . وزاد الدين الخارجى الاسرائيلى ٥٠٠ مليون دولار حتى أصبح اجماله ٢١٥٠ بليون فى النصف الاول من عام ١٩٨٣ . وحذر المسئولون بالبنك المركزى الحكومة من نشوب ازمة اذا استمر ذلك الاتجاه . وعلى الرغم من تحدى (بيجين) لاثنتين من الرؤساء ، كانت اسرائيل مدينة بالفعل بصورة أكبر للولايات المتحدة وبالتالي أكثر عرضة للضغط من اى وقت مضى من جانب الولايات المتحدة التى تحسن اليها .

واسرائيل التى خلقها مناحيم بيجين فى تصوره أكثر يهودية على وجه التحديد وأكثر عداء وأكثر عزلة . وأصبحت التوترات الاجتماعية والدينية أكثر قربا من السطح ألا أنه كما أوضحت لجنة (كاهان) فإن الحكومة كانت ولا تزال مسئولة امام الشعب وكانت الديمقراطية وحكم القانون لا يزالان سائدين ونشيطين . ولم تسكت الصحافة النداءات الى الوطنية . وفى خريف عام ١٩٨٣ ، أظهر التحرر من مشاكل لبنان أن الاسرائيليين يدركون حدودهم وجوانب قوتهم ولم يكن ذلك هو التراث الذى قصد رئيس الوزراء السادس أن يتركه لشعبه ، الا أنه تراث يستحق الاعزاز .

Bibliotheca Alexandrina



0646997